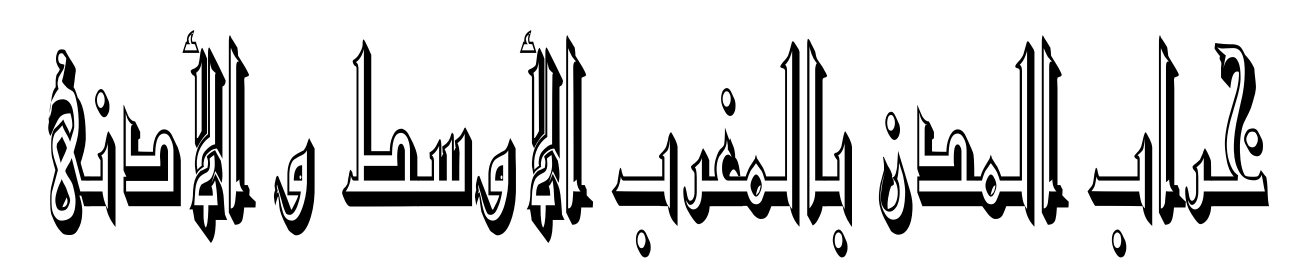
الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة

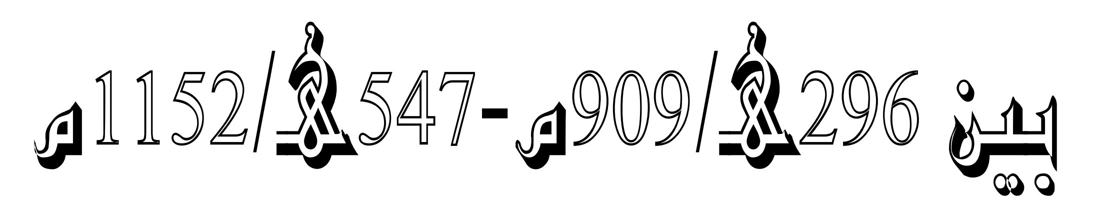
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة

بوزريعـــة – الجزائـــر

مديرية الدراسات لما بعد التدرج و البحث العلمي





رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المشرق و المغرب الإسلامي

إعـــداد الطالـــب:

البـــشير بوقاعـــدة

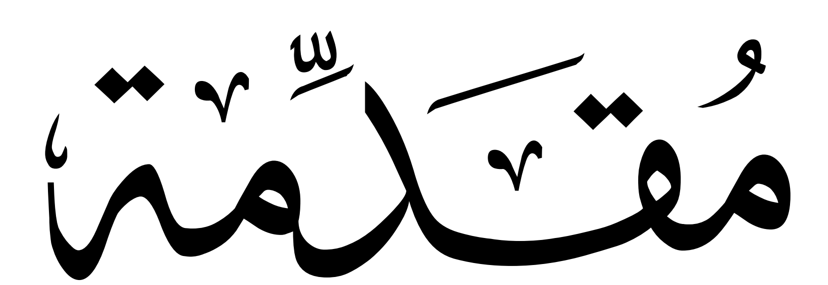
إشـــــراف الأستـــاذ

الدكتـــور: مبارك بوطـــارن

<u>لجنـــة المناقشـــة</u>

الاسم و اللقـــب	الصفـــة
الأستاذ الدكتور. عبد العزيز شهبي	رئيـــسا
الأستاذ الدكتور. مبارك بوطارن	مقـــررا
الأستاذة الدكتورة. جميلة بن موسى	عضوا مناقشا

السنـــة الجامعيـــة: 2012 – 2013


مُقَدِّمَة

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، و به نستعين، و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين محمد الصادق الأمين، و رضي الله عن صحابته و التابعين، و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إنّ دراسة تاريخ المغرب الإسلامي بمعزل عمّا تركه أسلافنا من إرث حضاري، و على رأس ذلك العمران بكلّ ما اشتمل عليه من منشآت كالمدن والقلاع والحصون ،لا شكّ أنّه تاريخ مشوب بالنقص، كيف لا والمدن هي مواطن استقرار الشعوب واستيطانها ،ومكان ممارسة مختلف الأنشطة السياسية والاقتصادية والثقافية ،كما أنّها من بين الشواهد المادية الّتي تسعف دراسة التاريخ الحضاري للمغرب بشكل أدّق وأوسع. إضافة إلى أنّ ما تعرفه هذه المدن من استقرار سياسي وازدهار اقتصادي ينعكس إيجابا على باقي جوانب الحياة اجتماعية كانت أو ثقافية ،بل وعلى العمران في حدّ ذاته ،كاجتناب الخراب والدّمار ،الّذي يصيبه إذا ما كثرت الحروب والاضطرابات الاقتصادية ،التي غالبا ما ينجم عنها تراجع لدور هذه المدن أو سقوط بعضها.

والحقيقة الّتي لا مناص منها أنّ الكثير من خبايا تاريخ مدن بالمغرب الأوسط والأدنى في عصره الوسيط ما تزال تحت طيّ النسيان يكتنف الغموض الكثير من جوانبها ،فإذا كانت المدينة هي الأساس لقيام الدول ،وهرم بناء الأمم ،وظهور المجتمعات ،فقد ظلّت الدراسات المتعلّقة بتاريخها قليلة ،ذلك أنها افتقرت إلى الصبغة الشمولية في دراسة تفاصيلها من جميع الجوانب ،بداية من مرحلة التأسيس والبناء ،فالتطوّر والازدهار ،ووصولا إلى مرحلة التراجع أو الاندثار.

وإذا كان الجانب السياسي قد أخذ الحيز الأكبر ،والنصيب الأوفر من المؤلفات التاريخية ،من خلال تلك الدراسات الّتي ركّزت على شؤون الحكم والبلاط ،والمعارك الحروب ،فقد قلّت إن لم نقل غابت تلك الّتي طرقت انعكاسات تلك الأحداث السياسية على عمران مدن المغرب ،لاسيّما ما تعلّق بما طالها من خراب أو دمار ،وما نتج عنه من سقوط للمدن ومن انهيار للعمران ،إلاّ ما وقفنا عليه من إشارات بين ثنايا القليل من المصادر التاريخية ،وبصورة شحيحة بشأن تعرّض مدن المغرب للتدمير والتخريب.

وعلى هذا الأساس، فالضرورة تدفع الباحث للاهتمام بالدراسة الحضارية المتعلّقة بالمدن لإظهار الجوانب الخفية أوالباقية تحت منطقة الظل ،والّتي لم تنل حقها من الدراسة والبيان ،والنقد والتمحيص. وعليه فلا مناص من دراسة أكاديمية تكشف خبايا الأحداث السياسية وانعكاساتها على الجانب العمراني ،وعلاقة ذلك بتطوّر المدن وسقوطها ،والّتي يكون المجتمع هو الدافع لقوتها

وازدهارها ،وهو نفسه السبب الرئيس في خرابها وانهيارها ،ممثّلا في القوى المحركة الّتي تغذّي ذلك الصراع السياسي أو المذهبي. وعليه تكون قوة المجتمع مادة أوّلية للحياة في المدن ،تبرّر ما تعرفه هذه الأخيرة من تطوّر وازدهار ،ومن هزّات وتقلّبات ،ومن خراب ودمار.

ولقد شهد المغرب الأوسط والأدنى قبيل نهاية القرن الثالث الهجري (10 م) ظهور قوة سياسية ممثّلة في الدولة الفاطمية ،الّتي سيطرت في ظل سياستها التوسعية لبسط النفوذ ،ونشر المذهب على مدن المغرب الأوسط والأدنى ،كتيهرت ،رقادة والقيروان بعدما تمكّن الفاطميون من تقويض دعائم الكيان الأغلبي ثم الرستمي. كما ساهمت بسياستها الدينية والمالية في تأجيج نار الثورة ،والتمرد من طرف أهل المنطقة ضد الفاطميين ؛كالحركات التمرّدية في مدينة تيهرت وضواحيها ،وكذا ثورة الخوارج بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري. وقد كان لتلك الأحداث تأثير كبير على عمران المدن ؛كالخراب[1] الّذي مسّ عمران الكثير منها. كما طال الخراب عمران مدن أخرى في ظلّ الصراع السياسي الّذي دبّ داخل البيت الزيري بعد أن دان المغرب لسلطانهم بعد مغادرة الفاطميين أرضه. ويضاف إليه الصراع القبلي التقليدي بين صنهاجة وزناتة ،على اختلاف أسبابه ،وما كان له من تأثير على العمران هو الآخر. في حين كان الحدث الأبرز الّذي عرفته بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري (11م) هو دخول قبائل بني هلال وبني سليم إلى أرضه ،وما خلّفته هذه الهجرة من آثار سيئة على العمران ،في ظل الحروب والصراعات الّتي غذتها ،كأعمال النهب ،وتخريب عمران المدن.

([1])- الخراب: هو ضدّ العمارة، وهو مصدر للفعل خرب، ونقول خرب الموضع بالكسر أي أصبح خرابا، فهو خرب، أو دار خربة أو أخربها صاحبها فهي خربة، أمّا التخريب وخرّبوا فهو تشديد لفشوّ الفعل، أو المبالغة فيه، قال تعالى: **(وَسَعَى فِي خَرَابِهَا)** (البقرة، الآية: 114)، وقال تعالى: **(يُخرِبُونَ بُيُوتَهُم بَأَيدِيهِم وَأَيدِي الُمؤمِنِين)** (الحشر، الآية: 02)، وأمّا خراب المدن، فهي الّتي مسّها الخراب لأسباب سياسية كالحروب والصراعات، أو ما كان لأسباب طبيعية، بعدما هجرها أهلها، فأتى الزّمن على خرابها، أو لأسباب أخرى، وقد أورد ابن خلدون عدّة فصول في مقدّمته حول خراب المدن، منها: أنّ المباني الّتي كانت تختطّها العرب يسرع إليها الخراب إلاّ في الأقل، وفصل في مبادئ الخراب في الأمصار، وأنّ الأمصار الّتي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة، وأنّ الظلم مؤذن بخراب العمران، وغيرها، أنظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ج1، تح، مركز الدراسات والبحوث بمكتبة مصطفى الباز، (د.ط)، نشر مكتبة مصطفى الباز، (د.ب.ن)، (د.ت)، ص 192، وللمزيد انظر: محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، (د.ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ-1981م، ص171، عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، (د.ط)، دار ابن الهيثم، القاهرة، 1426هـ-2005م، ص 228-290-302، ونحن سنخصّ بدراستنا هذه المدن الّتي خرّبت وكانت عرضة للخراب في ظلّ الأحداث السياسية الّتي عرفتها بلاد المغرب طيلة الفترة المخصّصة للدراسة.

ولهذا فقد شدّت انتباهنا هذه الأحداث لاختيار موضوع متعلّق بمدن المغرب الأوسط والأدنى ،لدراسة الخراب الّذي طال عمرانها جرّاء الأحداث السياسية الّتي عرفتها المنطقة على وجه الخصوص، بعدما حصرت دراسته في فترة زمنية ،فكان عنوانه «**خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296هـ/909م – 547هـ/1152م**».

وقد آثرت دراسة هذا الخراب الّذي لحق هذه المدن ،والّذي مسّ أجزاء من عمرانها كالأسوار ،والمنازل ،والمساجد ،وغيرها من المرافق الّتي تقوم عليها الحياة في هذه المدن. وقد جمعت بين المغرب الأوسط والأدنى كون الأحداث التاريخية الّتي عرفتها المنطقة خلال تلك الفترة جعلت كل من منطقة المغرب الأوسط والأدنى ميدانا ومسرحا واحدا لنفس القوى السياسية الّتي كانت وراء تلك الأحداث ،والّتي أثّرت على عمران المدن ؛فدولة الفاطميين مثلا ،كان مجال سيطرتها يشمل مدن المغرب الأوسط والأدنى ،وكان تاريخها حافلا بالأحداث التاريخية ،التي أثّرت بشكل أو بأخر على عمران المدن ؛وكان الخراب أحد مظاهرها. وكذلك ثورة أبي يزيد الخارجي ضدّ الفاطميين ،الّتي قامت بالمغرب الأوسط ،في حين كانت مدن المغرب الأدنى هي ميدان أغلب أحداثها ،وما نجم عنها من خراب للعمران. في حين كانت هجرة القبائل العربية خاصة الهلالية إلى أرض المغرب الحدث الهام الّذي ميّز تاريخ المنطقة ،وكانت مدن المغرب الأدنى ميدانا للحروب الّتي خاضتها ضدّ بني زيري ،ولم تكن مدن المغرب الأوسط بمعزل عن ذلك ؛ذلك أنّها كانت المحطة التالية للقبائل الهلالية بعدما دانت لسيطرتها مدن المغرب الأدنى.

أمّا عن الفترة الزمنية المخصّصة للدراسة ،والّتي حصرتها بين سنتي 296هـ/909م و547هـ/1152م ،فإنّ سنة 296 هـ/909 م تمثّل تاريخ قيام دولة شيعية على أرض المغرب سعت إلى بسط نفوذها على أكبر جزء من أرضه ،كما عملت على نشر مذهبها طوعا أو كرها ،وما كان لسياستها من تأثير على مدنه. وختمت دراستي بسنة 547 هـ/1152 م ،كون هذا التاريخ يمثّل نهاية عهد دولة بني حماد ،أين سقطت عاصمتهم الثانية مدينة بجاية على يد جيوش الموحدين ،ثمّ تلقى العاصمة الأولى مدينة القلعة نفس المصير في السنة نفسها ،حينها صفا المغرب الأوسط لسلطان الموحدين ،ثمّ دان لهم المغرب الأدنى ،بعدما تمكنوا من طرد النصارى النورمان من أرضه.

إشكالية البحث:

لقد كان لهذه الأحداث السياسية الّتي شهدتها المنطقة تأثير جلّي على عمران المدن ؛إذ نجد مدنا كانت عواصما سياسية واقتصادية للدول القائمة آنذاك على غرار مدينتي تيهرت والقيروان

،ثمّ يتراجع دورها ،وتنهار ،نتيجة الخراب الّذي مسّ بعضا من عمرانها ،ومدنا أخرى يتمّ بناؤها في تلك الفترة كمدينة المسيلة ،أشير والقلعة ،وهي الأخرى تعرف الازدهار في ظلّ ما تعرفه من استقرار ،لكن سرعان ما يتلاشى دورها ويتراجع ،وتؤول إلى السقوط ،نتيجة تسارع الأحداث السياسية ،وما تعجّ به من صراعات وثورات تدفع بالناس للهجرة ،كما تجبر حكّامها على مغادرتها ،واتّخاذ عواصم بديلة عنها ،وأكثر حصانة ،فتخلو بذلك المدن لأيادي النهب والتخريب ،وهذا ما جعلني أسعى من خلال هذا البحث لمعالجة إشكالية الكشف عن أسباب الخراب ،والعوامل المتحكّمة فيه ،والوقوف على ظاهرة سقوط المدن وأفول نجمها بعد ازدهارها ،وكذا الكشف عن مظاهر هذا الخراب وإبراز جوانبه الخفيّة ،وتحديد نتائجه، إضافة إلى إشكاليات فرعية تتمثّل فيما يلي:

- إبراز الصورة الحقيقية لهذه المدن قبل و بعد أن مسّها الخراب.
- الوقوف على أهمّ التحولات التاريخية الّتي عرفتها مدن المغرب الأوسط والأدنى خلال فترة الدراسة على اعتبار أنّ المدينة هي الخلية الحية والأساسية في حضارة أيّ مجتمع بشري.
- كشف النقاب عن المبرّرات الّتي اتّخذتها القوى السياسية ذريعة لتخريب المدن.
- تحديد المدن الّتي مسّها الخراب في خضمّ الأحداث التاريخية الّتي شهدتها بلاد المغرب ،مع الوقوف على مدى حدّة ذلك الخراب، وتأثيره على عمرانها.

ولمعالجة هذه الإشكاليات كان لابدّ من طرح جملة من الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها من مثل: ما مدى اهتمام الكيانات السياسية القائمة آنذاك بعمران المدن؟ ،وهل خضع ذلك الاهتمام لظروف ارتبطت عادة بظهور دولة تسعى لبسط النفوذ ،والسيطرة على إقليم ما ،أم أنّ هناك استمرارية تاريخية لحركية البناء والتشييد ،وما يتبعها من تطوّر وازدهار ،بغضّ النظر عن طبيعة تلك الكيانات؟ ،وما وقع تلك الصراعات والحروب على عمران المدن ،خاصة تلك الّتي كانت محور الصراع بين القوى السياسية الفاعلة آنذاك؟ ،وهل حقيقة أنّ أغلب مدن المغرب الأوسط والأدنى خرّبت؟ وكيف كان ذلك ،أكان تخريبا منظما القصد منه تخريب المدن بعينها ،أم نتاج ظروف سياسية معيّنة كغزو مدينة قصد فتحها ،أو عمل انتقامي ضدّ نظام حكم معيّن تحمّلت المدن تبعاته بما أصابها من خراب؟ ،وهل مسّ هذا الخراب جزءا من المدينة؟ أم أنّ هناك مدنا خرّبت بأكملها؟ ،وهل أعقب ذلك التخريب سقوط هذه المدن وانهيارها ،أم بقيت قائمة تؤدي دورها على اختلاف جوانبه؟ ،وإن وجدت مدن حافظت على دورها بعد تخريب عمرانها ،فكيف

يفسَّر ذلك الخراب؟ ،وما تعليل بناء مدن، والعمل على تطويرها وازدهارها ،ثمّ سرعان ما تتعرّض للنهب والتخريب ،وفي بعض الأحيان على يد من بناها؟ ،وما مدى موضوعية أقوال بعض المؤرّخين ممّن وصف تخريب تلك المدن بالخراب المهول ،والكارثة العظمى الّتي حلّت بالعمران ،وأتت على حضارة طواها النسيان بعدما عرفته من تطوّر وازدهار؟ ،وما مدى تطابقها مع أوصاف الرحّالة والجغرافيين ،الّذين زاروا تلك المدن بعد ذلك الخراب ،وأفادونا بما سجّلوه عن أوصافها ،ومصير عمرانها؟.

أسباب اختيار موضوع البحث:

من هذا المنطلق ارتأيت الخوض في غمار هذا الموضوع لأسباب عدّة رغّبتني في اختياره كبحث أكاديمي ،على أنّ صلتي به تعود إلى فترة الدراسة النظرية في السنة أولى ماجستير واحتكاكي بأساتذتي الأفاضل ،الّذين كانوا يدرّسوننا مواد هذا التخصص ،حينها وقع على مسامعي أنّ الدراسات المتعلّقة بالجانب الحضاري للمغرب قليلة ،خاصة في قسمه الأوسط ،وبدرجة أولى ما تعلّق بدراسة المدن. وهو ما دفعني إلى التركيز في مطالعتي على ما كتب عن المدن بالمغرب. وفعلا وقفت على شحّ الدراسات الّتي طرقت ذلك الجانب ،وفي نفس الوقت وأنا أتصفّح كتب المصادر ،لفت انتباهي مصطلح خراب المدن ونهبها ،و في هذا الوقت بالذات (سنة 2011م) ،كانت الدولة التونسية تعرف أحداثا هامة في ظلّ الثورة الّتي قادها شبابها ضدّ النّظام الحاكم ،وما شهدته المدن التونسية من أعمال نهب وتخريب وحرق ،بل وحتّى بلدنا الجزائر عرف هو الآخر اضطرابات في نفس السنة ،ولو لفترة قصيرة ،إذ طالت أعمال النهب والتخريب والحرق ،الّتي قام بها الشباب الثائر بعض منشآت الدولة في بعض المدن الجزائرية.

وعليه فقد شدّني موضوع الخراب إليه كثيرا ،رغبة مني في إماطة اللّثام عن دواعي التخريب ونتائج ذلك على عمران المدن. ولكن دراستي له كانت تقتضي مني التقيّد بفترة التخصص الّتي ارتبطت بالعصر الوسيط للمغرب الإسلامي. وبعد المطالعة والاستشارة ،اهتديت إلى دراسة الخراب الّذي مسّ مدن المغرب الأوسط والأدنى خلال الفترة الّتي حدّدتها آنفا ،ولم يكن هذا السبب الوحيد الّذي دفعني إلى ذلك ،بل كان مما شدّني إليه أيضا ذلك التضارب بين أقوال بعض المؤرّخين فيما بينهم ،وبينهم وبين أقوال بعض الرحّالة والجغرافيين حول خراب المدن ،بين مبالغ في حدّته ،وساكت عن ذكره ،وناف له ،وهذا ما حفّزني أكثر للمضي قدما رغبة في

الوصول إلى الحقيقة ،وكشف النقاب عن حيثيات ذلك الخراب ،بعد الالتزام بالموضوعية ،والنزعة الذاتية في الدراسة والنقد ،والمقارنة بين المصادر على اختلاف مذاهب مصنّفيها.

وعليه؛ فدراسة خراب هذه المدن تصبح لا مناص منها حتّى نقدّم بحثا يلمّ بمختلف حيثيات هذا التخريب ،إذ يتطلّب ذلك منّا البحث في ثنايا أغلب كتب المصادر التي تناولته ،وكل ما كتب عنه حديثا ،حتّى نصل إلى دراسة وافية وشاملة لذلك الخراب.

منهج البحث[1]:

تتعدّد المناهج العلمية المستخدمة في هذه الدراسة تبعا لطبيعة البحث ؛إذ يتطلّب منيّ استخدامها بدرجات متفاوتة ،وبحسب ما تقتضيه فصوله ومباحثه ،وهي عموما تنحصر في:

كان المنهج الاستردادي القائم على استرداد الحوادث التاريخية ووصفها وتشخيصها ،أحد المناهج الّتي استخدمتها في هذا البحث ،ولعلّ الغاية من إتّباعه كانت تحديد الأسباب الّتي كانت وراء تخريب المدن المغربية ،رغم تعدّد القوى السياسية المتسببة في ذلك التخريب ،والدوافع الّتي قادتها لارتكاب تلك الأعمال في حق المنشآت العمرانية الّتي تتشكّل منها المدينة.

أمّا المنهج الثاني الّذي وظّفته فكان المنهج الاستقرائي ،الّذي بفضله أمكنني الوقوف على بعض الجزئيات المتعلّقة بالدوافع الرئيسة لأعمال التخريب ،وكذلك حدّة هذا التخريب ،الّذي تفاوت من كيان سياسي لآخر كان وراء ذلك التخريب. ووظّفت منهج الاستقراء أيضا حتّى أتجاوز قلّة المادة الخبرية وندرتها في بعض مباحث هذا الموضوع.

كما اعتمدت على المقارنة والتحليل من أجل تفسير تلك الحوادث والوقوف على أسبابها ونتائجها ،وتبيين أوجه الاختلاف والائتلاف بين المؤرّخين والرحّالة والجغرافيين ،الّذين تطرّقوا لذلك الخراب هذا من جهة ،ومن جهة أخرى لتحليل آراء بعض المستشرقين الّذين تناولوا موضوع الخراب بصورة لم تخل من النزعة الذاتية ،ومن العاطفة الجيّاشة ،الّتي أبعدتهم عن موضوعية البحث التاريخي ،واستقاء المادة الخبرية من منابعها الحقيقية ،ونقدها وتحقيقها وفق أسس النقد التاريخي. وقد ساعدني على ذلك توظيفي لنصوص استقيتها من العديد من المصادر التاريخية الأساسية ،فبعدما جمعتها حاولت مناقشتها وتحليلها ومقارنتها ببعضها البعض ،قادتني

(1)- يعدّ من الأسس الهامة في تقدّم دراسة التاريخ، اعتمادا على القواعد الّتي وضعها الباحثون بأسلوب حديث، وهو المراحل الّتي يسير خلالها الباحث حتّى يبلغ الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع ويقدّمها للمختصين بخاصة وللقرّاء بعامة، أنظر: حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ط8، دار المعارف، القاهرة، 2000، ص 19-20.

حينها للوصول إلى أفكار ونتائج أنارت دربي خلال هذا البحث للوصول إلى حقيقة ذلك الخراب ،بين من وقع في المبالغة وبين من نفاه.

أمّا في القليل من الأحيان فقد لجأت إلى استخدام المنهج الإحصائي ،حيث استعملته لإحصاء العمليات التخريبية الّتي تعرّضت لها مدن المغرب الأوسط والأدنى طيلة فترة الدراسة ،مع نسبها إلى الكيان السياسي أو القوى الّتي كانت وراء ذلك التخريب ،حتّى أقف على نسب الخراب الّذي مسّ المدن من طرف القوى المتسبّبة فيه ،وتحديد المتسببين في الخراب ،ومن أضرّ بالعمران بشكل أكثر من غيره ،خاصة ما تعلق ببعض الأحداث التاريخية المفصلية في التاريخ الإسلامي للمغرب على غرار قيام دولة الشيعة بالمغرب ،ثمّ دورهم في هجرة القبائل العربية إلى أرضه ،ومدى تأثيرهم على حضارة المغرب ،خاصة عمران المدن.

صعوبات البحث:

ما من شكّ أنّ أيّ باحث يقدم على إنجاز مذكرة في موضوع خراب المدن، و إبراز أسبابه ونتائجه في قالب متكامل، إلاّ و تعيق سبيله جملة من الصّعاب، كشأني في هذا البحث ،وأوجز متفرّقها فيما يلي:

- قلّة المادة الخبرية المتعلّقة بخراب المدن، و أنّ ما وجد لا يعدو إشارات عند التطرّق لسقوط أيّ مدينة أو دولة وقيام أخرى على أنقاضها ،أو حين التطرّق للصراعات السياسية أو المذهبية الّتي عرفتها تلك الدول. وفي ظلّ قلّة المادة الخبرية اضطررت إلى توسيع الفترة الزمنية الخاصة بالبحث ،والّتي امتدّت إلى ما يزيد عن القرنين والنصف. كما عمدت إلى توسيع المجال الجغرافي الّذي يشمل المدن المعنية بالبحث ؛فبعد ما كنت أفضّل أن أدرس الخراب الّذي مسّ مدن المغرب الأوسط فحسب ،أجبرت على تناول ما مسّ أيضا مدن المغرب الأدنى ،حتّى تكون الدراسة وافية ومتكاملة.
- واجهتني أيضا صعوبة تشعّب الموضوع، و تداخل أحداثه، و تعدّد جوانبه ،إذ يقتضي البحث فيه المزج بين الجانب السياسي وما يتخلّله من أحداث تاريخية ،وبين الجانب الحضاري والجغرافي الّذي يعدّ مسرحا لتلك الأحداث ،والمتمثّل في المدينة ،وبالتالي دراسة انعكاسات الجانب الأوّل على الثاني.
- كما لم أجد سهولة في تحديد كيفيات الخراب الّذي لحق المدن، خاصة و أنّ المؤرّخين يكتفون بذكر مصطلح "خراب" و "تخريب" للدلالة على ما حلّ بالمدن جرّاء الأحداث السياسية على

وجه الخصوص ،مع إهمال حيثيات ذلك التخريب ،وأبرز مظاهره ،وحتّى الوسائل الّتي سخّرت في تلك الأعمال التخريبية. ولتدليل هذه الصعوبة لجأت للاستعانة بأوصاف الجغرافيين والرحّالة للحصول على المعطيات الشاملة لسدّ هذه الثغرة، غير أنّ ما احتوته هذه الأخيرة بين ثناياها لم ينصف تاريخ تلك المدن ،إذ وصفت بعض المدن بصورة بلغت حدّ الإطناب ،في حين بقي تاريخ مدن أخرى يكتنفه الكثير من الغموض كحال مدينة سدراتة ،جنوب المغرب الأوسط ،عكس المدن الّتي ارتبط تاريخها بالأحداث السياسية البارزة في ظلّ الكيانات السياسية القائمة على اختلافها ،كشأن مدينة تيهرت ،الّتي سقطت في يد الفاطميين ،أو القلعة عاصمة بني حماد ،وكذلك مدينة القيروان حاضرة المغرب الأدنى لردح من الزمن.

- وهناك صعوبة واجهتني لا تقلّ هي الأخرى أهمّية عن سابقيها ،والمتمثّلة في وجود مصادر تستدعي الحيطة والحذر عند استقاء مادّتها الخبرية ،والاستفادة ممّا أوردته من أخبار متعلّقة بموضوع بحثنا ؛ذلك أنّ أصحابها كانوا من مؤرّخي الشيعة ،أو الإباضية ،أو من الأشاعرة ،الّذين لم يتجرّدوا من ذاتيتهم ،وتعصّبهم لمذهبهم ،في الوقت الّذي كان يجب توخّي الموضوعية في تأريخ الأحداث التاريخية ،إذ بين أيدينا مصادر شيعية ،تجاهلت بعض الأحداث المتعلقة بسقوط دولة بني رستم ،كدخول الجيش الفاطمي مدينة تيهرت ،وما حلّ بالمدينة إثر ذلك من خراب ،في الوقت الّذي لم يدّخر مؤرّخو الإباضية جهدا في شنّ حملة عدائية ،من خلال المبالغات الّتي وقعوا فيها ،حينما تطرّقوا لمصير دولة الرستميين الإباضية ،وعاصمتهم تيهرت ،بعد سقوطها في يد الدولة الفاطمية ،وما حلّ بها من خراب وحرق كما تصوّره هذه المصادر ،بالإضافة إلى وجود مصادر أخرى تعرّضت لانعكاسات الهجرة الهلالية على عمران مدن المغرب الأوسط والأدنى ،في قالب لا يخلو من المبالغة ،وحتّى التحامل عليها في بعض الأحيان ،وفي المقابل استهانت أخرى بما خلّفته هذه القبائل على الحضارة العمرانية للمغرب بحجة الانتماء العربي ،مع إغفال دوافع هذه الهجرة ،وما عرفته من أحداث في بلاد المغرب في تلك الفترة ،ونتائجها على عمران المدن.

خطة البحث:

أمّا بخصوص الخطة الّتي رسمتها لإنجاز هذا البحث، فقد أملت علي الدواعي المنهجية أن تقوم الخطة على فصل تمهيدي وثلاثة فصول ،مستهلا إيّاها بمقدّمة ،في حين ختمت هذا البحث

بملخّص لأهمّ النتائج المتوصّل إليها ،إضافة إلى ملاحق توضيحية ،وأعقبتها بثبت تفصيلي للمصادر والمراجع الّتي استفدت منها في استقاء المادة الخبرية.

أمّا المقدّمة فتضمّنت تحديد عنوان البحث وإطاره الزماني والمكاني ،وأسباب اختياره ،والدوافع الّتي رغّبتني فيه وحبّبته إلي ،والإشكالية الّتي يعالجها ،والأهداف المرجوة من ورائه ،مع تحديد المناهج العلمية المستخدمة في إنجازه ،والصعوبات الّتي شكّلت عائقا في طريق البحث ،مع تحليل لأهمّ المصادر والمراجع الّتي اعتمدها في هذا البحث.

في حين كان عنوان الفصل التمهيدي كالتالي: الأوضاع السياسية للمغرب الأوسط والأدنى من قبيل قيام الدولة الفاطمية إلى سقوط دولة بني حماد ،وقد تعرّضت فيه لأبرز الأحداث التاريخية الّتي عرفتها بلاد المغرب خلال تلك الفترة ،وذلك بشكل مختصر ،من أجل إعطاء صورة عامة وواضحة عن الوضع السياسي القائم آنذاك ،والّذي لم تكن المدينة بمعزل عن تأثيراته ،في خضمّ ما تخلّله من صراعات وحروب وثورات ،في ظلّ الكيانات السياسية القائمة في تلك الفترة.

وعليه كان التطرّق لقيام الدولة الفاطمية أوّل نقطة طرقتها في هذا الفصل، مستعرضا من خلاله المراحل الّتي سبقت ظهورها بأرض المغرب ،وكيف خطّط الشيعة لوضع اللبنات الأولى لإرساء قواعد دولتهم ،ثمّ اختيارهم لموضع قبيلة كتامة موطنا وحصنا لدعوتهم، أين قاموا ببناء مدينة إيكجان ،ثمّ انطلقوا في نشر دعوتهم، والتمكين لها بإعداد الجيوش ،فالشروع في العمل العسكري ،من خلال اقتحامهم للمدن المغربية الّتي كانت تحت سلطة بني الأغلب ،حيث تمكّن الداعي أبي عبد الله الشيعي من دخول تلك المدن ،وتخريب بعضها حتّى دخول عاصمة الأغالبة رقادة ثم القيروان ،بعد هزيمة الجيش الأغلبي في موقعة الأربس سنة 296هـ/909م ،ثمّ مسير الداعي أبي عبد الله إلى سجلماسة لتخليص صاحب الأمر من سجن صاحبها ،وبذلك شهد المغرب عهدا جديدا بقيام هذه الدولة على أرضه.

ثمّ تعرّضت إلى أهمّ المراحل الّتي مرّت بها هذه الدولة منذ النشأة ،وحتّى انتقالها إلى القاهرة ،من خلال سياسة خلفائها كلّ حسب فترة خلافته ،وما عرفته من أحداث.

كما أعقبت ذلك بالتطرّق إلى الكيان السياسي الّذي تولّى أمر المغرب بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ،ممثّلا في دولة بني زيري من قبيلة صنهاجة ،مستعرضا أهمّ الأحداث السياسية من تاريخ هذه الدولة ،مع التمييز بين مرحلتين هامتين من تاريخها ،مرحلة الخضوع والولاء لسلطان الفاطميين ،وأهمّ الملوك الزيريين الّذين حكموا حينها ،وأبرز ما ميّز فترات حكمهم من أحداث

تاريخية. أمّا المرحلة الثانية فقد طبعها إعلان القطيعة عن الفاطميين ،وما صاحبها من أحداث كالتنكيل بالشيعة ،وإزالة أسمائهم من السكة ،والولاء للعباسيين.

وفي ظلّ هذه الظروف احتدم الصراع أيضا داخل الأسرة الزيرية ،وأفضى إلى قيام دولة بني حماد ،الّتي استقلّت بمنطقة المغرب الأوسط.

وختمت هذا الفصل باستعراض مراحل الهجرة العربية إلى بلاد المغرب من بني هلال و بني سليم ،مع تحديد أهمّ بطون تلك القبائل ،والأسباب الّتي كانت وراء هجرتها ،والمواطن الّتي اتخذتها مواطنا للاستقرار.

أمّا الفصل الأوّل المعنون بـــ: المدينة الإسلامية بالمغرب الأوسط والأدنى (المفاهيم ،النشأة والتطوّر) ،فتناولت فيه بعض المفاهيم المتعلّقة بالمدينة الإسلامية ،سواء المفهوم اللغوي ،أو التاريخي أو الجغرافي. إضافة إلى نظرة الفقهاء إلى المدينة ،هذا وتناولت أيضا في هذا الفصل الشروط المحدّدة لاختطاط المدن ،وحسن اختيار مواضعها ،من أجل تسهيل شروط حياة ساكنيها ،وضمان أمنهم وسلامتهم من أيّ خطر خارجي. وأتبعت ذلك بالوقوف على مفاهيم ،ومواقف المستشرقين من المدينة الإسلامية ،ثمّ نشأة وتطوّر المدن بالمغرب الأوسط والأدنى ،مع الاقتصار على نماذج من هذه المدن ،والّتي تخدم موضوع بحثنا ؛كونها تعرّضت للخراب ،أو كان سبب بنائها هو تخريب غيرها ،مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هناك من هذه المدن ما تمّ بناؤها خلال الفترة الزمنية المخصّصة لهذه الدراسة ،في حين أن هناك مدنا أخرى كانت قائمة غير أنّ خرابها كان خلال نفس الفترة ،وقد ركّزت في ذكر هذه النماذج من المدن على مدن المغرب الأوسط أكثر من مدن المغرب الأدنى؛ الّتي اقتصرت على عرض نموذجين منها وهما مدينتا القيروان والمهدية.

ويأتي الفصل الثاني تحت عنوان: التخريب الفاطمي والزيري ؛وفيه عالجت المدن الّتي خرّبت على يد الجيوش الفاطمية ،كمدينة تيهرت ،وارجلان ،أذنة إفكان. إضافة إلى أنّ هناك مدنا خرّبت خلال فترة الحكم الشيعي لبلاد المغرب ،غير أنّ المصادر التاريخية لم تحدّد بشكل دقيق إن كان للدولة الفاطمية يد في ذلك التخريب ،أم أنّ ذلك الخراب كان في ظلّ تلك الاضطرابات الناجمة عن سياسية هذه الدولة، ومن هذه المدن "مدينة وهران" ،غير أنّ هناك مدنا أخرى تعرّضت لأعمال تخريب من طرف جيوش أبي يزيد النكاري أثناء ثورته ضدّ الفاطميين ،سعيا منه لافتتاح المدن والقضاء على الكيان الشيعي ولو على حساب العمران ،على غرار كل من مدن: تبسة ،مجانة ،باجة ،القيروان ،سوسة والمهدية ،وأنا استعرض هذا الخراب الّذي مسّ هذه المدن

،ركّزت خلال ذلك على تحديد الأسباب ،ومظاهر ذلك التخريب ،وأبرز النتائج الّتي أعقبت خراب تلك المدن على اختلاف حدّته ،وعلى نفس هذا المنوال تطرّقت لدراسة الخراب الّذي مسّ المدن على يد جيوش الدولة الزيرية على غرار مدينتي تيهرت وميلة.

أمّا الفصل الثالث فكان عنوانه: التخريب الهلالي و الحمادي ،ويعدّ هذا الفصل تكملة لسابقه ،حيث خصّصته لدراسة الخراب الّذي لحق مدن المغرب الأوسط والأدنى ،نتيجة هجرة القبائل العربية إلى بلاد المغرب ،وعلى رأسها قبائل بني هلال ؛الّذين خاضوا حروبا عدّة ضدّ الزيريين في المغرب الأدنى ،وبعدما دانت لسلطانهم أغلب مدنه ،اتّجهوا نحو المغرب الأوسط ،أين دخلوا في صراع مع القبائل الزناتية ،ثمّ مع ملوك بني حماد ،وكان لهذه الهجرة والحروب الّتي جرّتها أثر كبير على عمران مدن المغربين ،جرّاء الخراب الّذي طالها ،على غرار كلّ من مدن: القيروان ،باجة ،صبرة ،قلعة بني حماد ،طبنة والمسيلة. وتناولت أيضا في هذا الفصل آراء بعض المؤرّخين قديما وحديثا بخصوص حدّة التخريب الهلالي لعمران المدن المغربية ،ومناقشة وتحليل تلك الآراء ،ومقارنتها مع أوصاف الرحّالة والجغرافيين ،سعيا منّا للوصول إلى حقيقة ذلك الخراب بين موضوعية المؤرخين ومبالغتهم ،خاصة آراء بعض المستشرقين ممّن طرقوا موضوع الهجرة الهلالية إلى أرض المغرب ،وآثارها على العمران خلال القرن 05 هـ/11م ،ومصير الحضارة المغربية بعد دخول بني هلال أرضه. كما تضمّن هذا الفصل دراستي للمدن الّتي تعرّضت للخراب على يد دولة بني حماد ،كمدينة أشير ،وارجلان وسدراتة ،في ظلّ الصراع مع أبناء عمومتهم من بني زيري من أجل السيطرة والتوسّع كلّ على حسابهم خاصة بعد الضعف الّذي مسّ الدولة الزيرية ،والّذي كان في صالح الحماديين ،إضافة إلى الصراع بين القبائل الصنهاجية الحمادية والقبائل الزناتية من جهة أخرى.

وفي ظلّ تعدّد القوى المتصارعة خاصة في المغرب الأوسط ،في فترة الحكم الحمادي تناولت أيضا ذلك الصراع بين الحماديين والمرابطين ،والّذي أفضى في آخر المطاف إلى تخريب مدينة أشير من طرف جيوش المرابطين في إحدى حملاتهم على المدينة ،وختمت هذا الفصل بالتعرّض لدخول جيش الموحدين إلى مدينة بجاية وسقوط هذه الأخيرة على يد دولة الموحدين ،ثمّ تعرّض مدينة القلعة للتخريب من طرف جيوش هذه الدولة ،و مصير المدينة بعد ذلك التخريب.

ثمّ أنهيت بحثي هذا بخاتمة استعرضت فيها أهمّ النتائج الّتي خلصت إليها ،ثمّ أرفقته بعدد من الملاحق و الفهارس زيادة في التوضيح.

أمّا عن الدراسات الّتي تطرّقت إلى إحدى جوانب موضوع بحثي ،فإنّ خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى يعدّ موضوعا جديدا في مجال الدراسات الأكاديمية ،إلاّ أنّ هناك دراسات مسّت جانبا من جوانبه ،وأفادتني في إنجاز هذا البحث ،بل ومهّدت لي الطريق في ذلك ،أذكر منها:

- من أهمّ الأبحاث الّتي مسّت موضوع البحث ولو بشكل غير مباشر واستفدت منها بدرجات متفاوتة دراسة الباحث «مبارك بوطارن» الموسومة بتطوّر العمران الإسلامي حواضر المغرب نموذجا[1] ،جاءت هذه الأطروحة لتعرض لنا الشّق المتعلّق بتطوّر المدينة الإسلامية من خلال النماذج الّتي درسها صاحبها والمتعلّقة بالمدن المغربية ،وعلى رأسها حاضرة القيروان ،الّتي تناول جوانبها الحضارية ،متتبّعا تاريخ هذه المدينة منذ النشأة والتأسيس حتّى تاريخ سقوطها ،ونفس الأمر بالنسبة لمدينة المهدية. وأهمّ ما استفدت منه في هذه الدراسة ،تلك النتائج الّتي استعرضها هذا الباحث للغزو الهلالي للمغرب الأوسط والأدنى ،وما خلّفته من أثر سيء على عمرانها ،بعد التخريب الّذي طاله. إضافة إلى تضرّر النشاط الاقتصادي لبلاد المغرب ،إذ لم تسلم من ذلك المدن الداخلية ولا الساحلية. وهذه الدراسة على أهمّيتها إلاّ أنّها ركّزت على دراسة مدن المغرب الأدنى دون الأوسط ،وهو ما سعينا نحن لاستكماله ،وتفصيل الأحداث الّتي أشارت إلى خراب المدن بذلك الإقليم.
- المدينة بالمغرب الأوسط من خلال المصادر الأدبية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين[2] هي دراسة خصّصها صاحبها لدراسة المنشآت العمرانية ،من خلال أدوارها الدينية والعسكرية أو الاجتماعية والاقتصادية من خلال الرّقي الحضاري الّذي بلغته المدينة بالمغرب الأوسط ،وكيفية استفادة الأفراد من الإنجازات الإسلامية وتوظيفها للوصول إلى نمط خاص بالمدينة في تلك المنطقة. كما أفاض هذا الباحث في دراسة الجوانب العلمية والثقافية للمدينة ،مع إبراز العوامل التي ساعدت على ازدهارها ،خصوصا تلك المتعلقة بدور السلطة الحاكمة آنذاك من خلال تشجيع العلماء ،وتوفير المرافق لذلك ،و قد استفدت من هذه الدراسة لاسيّما في الفصل الأوّل من هذا البحث.

---

(1)- أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه الدولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005-2006.

(2)- بلمداني نوال: «المدينة بالمغرب الأوسط من خلال المصادر الأدبية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين»، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة السانية، وهران، 2005-2006.

- أنجز حول المغرب الأوسط أيضا الباحث «الطاهر طويل»، الدراسة الموسومة بالتطوّر التاريخي للمدينة بالمغرب الأوسط من النصف الثاني من القرن الأوّل إلى الخامس الهجري[1] ،وقد تناولت هذه الدراسة التطوّر الّذي عرفته مدن المغرب الأوسط ،سواء المدن القديمة ،أو الّتي بنيت على أنقاضها ،أو بجوارها ،كما حدّدت النمط الروماني أو الإسلامي أو المزيج الّذي اتّخذته أشكال هذه المدن ،مع إبراز المدن الّتي ارتبط ظهورها بقيام كيانات سياسية ،ثمّ زالت بزوالها ،والمدن الّتي عرفت الاستمرارية من حيث البناء والتّطوّر بغضّ النّظر عن طبيعة تلك الكيانات ،ورغم استفادتي من هذه الدراسة إلاّ أنّها هي الأخرى لم تتطرّق بشكل مفصّل لأسباب سقوط تلك المدن وتداعيات ذلك السقوط ،فكان بحثي استكمالا لذلك ،للوقوف على أسباب السقوط أو التراجع في ظلّ تعرّضها لأشكال من الخراب.
- حاولت الدراسة الّتي أنجزها «البشير غانية» بعنوان: «ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ضدّ الفاطميين ،ونتائجها على المغرب 331-336هـ/942-947م»[2]، كشف النقاب عن أبرز النتائج الّتي خلّفتها هذه الثورة على مختلف جوانب الحياة في تلك الفترة ،بعد ما حدّد الأسباب الّتي دفعت بقائدها لإعلان ثورته ضدّ الدولة الفاطمية، و خدمت هذه الدراسة بحثي إلى حدّ ما خصوصا النتائج الاقتصادية الّتي عرضها هذا الباحث، و الّتي أشار من خلالها - ولو بشكل مقتضب- إلى الخراب الّذي أحدثته في حق عمران المدن ،وهو ما تطرّقت إليه في بحثي هذا بشيء أكثر تفصيلا، حينما استعرضت المدن الّتي تعرّضت للخراب أثناء ثورة الخوارج ضدّ الفاطميين بزعامة الثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري، و نتائج ذلك التخريب على مستقبل المدينة ،و مصير عمرانها بعد الخراب.
- حاولت أيضا الدراسة الّتي أنجزها «عبد الرزاق خالدي» و الموسومة بدور الطرق التجارية في إنشاء المدن بالمغرب الأوسط في العهد الوسيط (مدينة وارجلان نموذجا) [3] ،تسليط الضوء على جانب مهم يتمثّل في مدى إسهام الطرق التجارية في ظهور المدن و ازدهارها ،وكان نموذجه في ذلك مدينة وارجلان ،حيث توصّل هذا الباحث إلى أنّ تجارة القوافل كان لها دور

---

(1)- رسالة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2007-2008، تمّ نشر هذه الدراسة سنة 2011.

(2)- رسالة ماجستير في تاريخ المشرق والمغرب الإسلامي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2007-2008.

(3)- رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009.

كبير في ازدهار الحياة الاقتصادية ،واتّساع المدن ،وتطوّر العمران ،كما زادت من أواصر الصّلة والعلاقة بين مجتمعات المدن الشمالية والصحراوية ،كما أنّ أهمّ المدن والقصور كانت تقع على نقاط وصول وانطلاق القوافل التجارية المحمّلة بمختلف أنواع السلع والبضائع ،هذه الدراسة وإن كانت تخدم بحثي بشكل غير مباشر ،خاصة ما تعلّق بسقوط بعض المدن واختفاء دورها نتيجة تغيّر الطرق التجارية الّتي تسلكها القوافل ،فإنّ ذلك كان عاملا يضاف إلى غيره من العوامل الّتي كانت وراء سقوط مدن المغرب ،على غرار ما تشهده من حروب وصراعات وما يحلّ بها من خراب لعمران المدن.

عرض و تحليل لأهمّ المصادر و المراجع

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على جملة من المصادر الأساسية والمطبوعة ،والّتي أفادتني إلى حدّ كبير في إنجاز هذا العمل ،بالإضافة إلى اعتمادي على مجموعة من المراجع العربية والأجنبية الحديثة ،وكذا عدد من الدراسات الأكاديمية ،والبحوث الّتي نشرت في الدوريات والمجلات ودوائر المعارف. وعليه سوف أعرض أهمّ ما اعتمدت عليه ،حسب أهمّية المصدر أو المرجع ،وعلاقته بموضوع البحث ،وقدر استفادتي منه.

المصادر الأساسية

أولا: كتب الجغرافية و الرحلة:

تشكّل هذه المصادر حجر الزاوية في دراسة موضوع بحثي هذا، لما تحتويه من مادة خبرية غزيرة ،خصوصا وأنّ مصنّفيها عاصروا فترة الدراسة أو كانوا أقرب إلى زمنها ،فكانت شاهد عيان على أغلب الأحداث الّتي طرقناها ،غير أنّ مادّتها تفتقر في أغلب الأحيان إلى التنظيم ،ومن أهمّها:

1. **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت 284هـ/897م)، في مصنّفه الموسوم **بالبلدان** ،وهو أوّل مصدر جغرافي لبلدان المغرب ،حيث زاره حوالي سنة 276هـ/ 889م وسجّل مشاهداته ،كما نقل عن أهله ،فقدّم بين أيدينا معلومات في غاية الدّقة عن العمران وسكّانه ،ومختلف النشاطات الاقتصادية ،كما حدّد هذا الجغرافي المسافات بين البلدان. وهذا المصدر أفادني كثيرا في دراسة المدن المتعلقة ببحثي ،والّتي تطرّق لها من مختلف جوانبها.
2. **ابن حوقل**، أبو القاسم النصيبي (ت 367هـ/990م)، في مصنّفه **صورة الأرض** ،وهو أيضا من الجغرافيين الّذين زاروا بلاد المغرب ،وقد جمع لنا هذا الجغرافي مادة غزيرة حول مدن

المغرب بوصف دقيق للكثير من تفاصيلها وخصائصها في ذلك العهد ،حيث وصف كل من طرق التجارة والسّلع ،ومختلف الأنشطة الاقتصادية الّتي يمارسها ساكنوها ،وعليه لا تخفى علينا الأهمّية الكبيرة الّتي ينطوي عليها هذا المصدر الّذي لا غنى للباحث عنه ،وقد استفدت منه كثيرا لاسيّما عند دراسة نتائج خراب كلّ من مدينتي تيهرت و طبنة.

3. **المقدسي**، شمس الدين أبو عبيد الله (ت 388هـ/998م)، في كتابه **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ،وهو أيضا من الّذين زاروا بلاد المغرب ،وطافوا بأرضه ،وقد أشار هذا المصدر إلى كثرة المدن والحصون والقرى بالمنطقة ،كما حدّد المسافات الّتي تفصل بين المدن ،وقد أفادني كثيرا خاصة في تحديد بعض المفاهيم المتعلّقة بموضوع البحث.
4. **البكري**، أبو عبيد الله (ت 487هـ/ 1094م)، صاحب كتاب **المسالك و الممالك** ،وهذا المصدر ذو أهمّية كبيرة بالنسبة لبحثي ؛كونه من المصادر الغنية بجغرافية مدن المغرب خصوصا الأوسط والأدنى منه ،والّذي اتّسمت أوصافه للمدن بالدّقة ،ناهيك عن أنّ صاحب هذا المصدر زاوج بين المعلومات الجغرافية والتاريخية ،ما جعلنا نعتمد عليه في بحثنا هذا كمصدر جغرافي وتاريخي في آن واحد ،لذلك لم نكن لنستغني عنه في أغلب فصول هذا البحث.
5. **مصنف الاستبصار في عجائب الأمصار**، و هو **مجهول المؤلف**، و الثابت من ذلك أنّه كاتب مراكشي ،عاش في القرن 06هـ/12م ،ويبدو أنّ الكاتب زار بلاد المغرب ،وسجّل ملاحظاته ومشاهداته ،بناء على الأوصاف الّتي أوردها لبعض المدن المغربية ووقف على آثارها الباقية كما جاء في مصنّفه ،وهو مصدر لا يقلّ أهمّية عن سابقيه ،وقد استفدت منه ،خاصة من خلال ما أورده من معلومات عن وارجلان و قلعة بني حماد.
6. **الإدريسي**، الشريف محمد بن عبد الله (ت 560هـ/1166م)، في مصنّفه الموسوم **بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ،وقد حمل هذا المصنف معلومات هامة عن المدن وعمارتها والمسالك التجارية والسلع والأسواق ،ومختلف أنشطة السكّان وحرفهم ،فتجلّت من خلاله جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدن المغربية إضافة إلى جوانبها الجغرافية ما جعلنا نعتمد عليه في معظم فصول البحث ،خصوصا ما تعلّق بأوصاف المدن الّتي تعرّضنا لدراستها في بحثنا هذا في الفترة الّتي أعقبت تعرّضها للخراب.

ثانيا: كتب التاريخ[1]:

تعدّ المصادر التاريخية خاصة منها المغربية أساس هذا البحث، و أبرزها ما يلي:

1. **ابن الصغير**[2]: (ت بعد عام 300هــ/ 912م)، في مصنّفه **أخبار الأئمة الرستميين** ،يعتبر هذا المصنف أقدم وثيقة وصلت عن تاريخ الإباضية بتيهرت ،وخدم هذا الكتاب بحثنا فيما تعلّق بالنصوص التاريخية المتعلقة بتاريخ هذه المدينة.
2. **القاضي النعمان**، أبو حنيفة بن محمد التميمي (ت 363هــ/ 973م)، صاحب كتاب **افتتاح الدعوة** ،وصاحب هذا المصنف من رجالات الدولة الفاطمية ،الّذين اهتمّوا بالتأريخ لها منذ بداياتها الأولى على أرض المغرب ،وما شهده تاريخها من أحداث ،وهو مصدر مهمّ خدم بحثنا هذا إلى حدّ كبير ،خاصة في فصله التمهيدي.
3. **الرقيق القيرواني**: (ت بعد 425هــ/ 1033م)، صاحب كتاب **تاريخ إفريقية والمغرب** ،وهو من المصادر المبكرة الّتي عنيت بتاريخ ولاية إفريقية بداية من مرحلة الفتوح حتّى عهد الدولة الأغلبية ،وقد أفادني فيما أورده من أخبار عن أوضاع المغرب ومدنه ،خصوصا مدينة القيروان ،و لو أنّ ما أورده عن بعض مدن المغرب لا يعدو إشارات في صورة عرضية في سياق الروايات التاريخية الّتي ساقها في مصنّفه.
4. **ابن عذاري المراكشي**، أبو عبد الله محمد (ت 712هــ/ 1312م)، صاحب المصنف المرسوم **بالبيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب** ،عاش صاحب هذا المصنف في فترة الدولة الموحدية ،ويعدّ مصنّفه من المصادر الأساسية في تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى غاية عهد دولة الموحدين ،وقد خدم بحثي بشكل كبير، لغناه بالتفاصيل المتعلّقة بالاضطرابات والصراعات الّتي شهدتها مدن المغرب ،وما نجم عن ذلك من خراب في ظلّ الحكم الفاطمي

([1])- هو فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عمّا كان في العالم من حوادث و وقائع جليلة، وأحوال الأمم الماضية وما يلحق بهم من أحداث، وموضوعه الإنسان والزمان، وفائدته معرفة الأمور على وجهها، ومن أعظم فوائده أنّه أحد الطرق الّتي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المتعذّر الجمع بينهما، أنظر: محمد شمس الدين السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ، ترجمة، صالح العلي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هــ-1986م، ص18-19.

([2])- يعدّ ابن الصغير التهيرتي من الشخصيات الّتي ظلّت مجهولة ولم يعرف عنها إلاّ القليل، وهو مالكي، عاش في القرن 04هــ/10م، أنظر: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرّخين ورحالة وجغرافيين)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 13-15.

وكذا الزيري والحمادي حتّى سيطرة الموحدين على بلاد المغرب الأوسط والأدنى ،كمدينة تيهرت ،القيروان ،المهدية وقلعة بني حماد.

5. **ابن خلدون**، عبد الرحمن (ت 808 هـ/ 1405 م)، في كتابه **العبر و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ،وهو مصدر لا غنى عنه لكلّ باحث في تاريخ المغرب ،ذلك أنّ صاحب هذا الكتاب اهتمّ بتاريخ البربر وأجيالهم وما كان لهم من الدول ،كما نقل لنا الكثير من الروايات التاريخية المتعلّقة بالأحداث السياسية والحروب الّتي شهدتها منطقة المغرب ،والّتي كان لها أثر على عمران مدنه ،وبذلك أفادني كثيرا هذا المصدر في استقاء المعلومات المتعلّقة بخراب المدن ،خاصة التخريب الهلالي لعمران مدن المغرب الأوسط والأدنى ،رغم المبالغات الّتي وقع فيها هذا المؤرّخ ،حينما عالج قضية الهجرة الهلالية إلى أرض المغرب ،وما نجم عنها من خراب لعمرانه.

ثالثا: كتب الطبقات و التراجم:

كانت استفادتي من هذه المصادر قليلة كون أغلبها تعرّض لتراجم الرجال أكثر من سرد الأخبار التاريخية ،ومنها:

1. **الدرجيني**، أبو العباس أحمد بن سعيد، توفى في منتصف القرن 07هـ/13م ،صاحب المصنف الموسوم **بطبقات المشايخ بالمغرب** ،ويظهر أنّه اعتمد في مصنّفه هذا على تاريخ أبي زكريا يحي بن أبي بكر (ت471 هـ/ 1078م) ،وهذا المصنف غني بالأخبار عن تاريخ الإباضية بداية من نشأتها ،وكذا ثوراتها ،وعرض سير شيوخها ،إضافة إلى تعرّضه إلى النكبات الّتي عرفها الإباضية في ظلّ دولة بني رستم ،وما حلّ بعاصمتهم تيهرت بعد دخولها من طرف الجيش الشيعي بقيادة أبي عبد الله ،وهنا تكمن استفادتي من هذا المصدر من خلال رصده لأحداث تاريخ الإباضية في مدينة تيهرت ،قبل وبعد سقوط هذه المدينة في يد الشيعة ،ومصير المدينة ومكتبتها المعصومة.
2. **المقريزي**، أبو العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ/1441م)، خاصة في كتابه **اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** ،وهو كتاب مهم، احتوى على أخبار تتعلّق خصوصا بتاريخ المغرب في فترة دولة الفاطميين ،وقد استفدت كثيرا من النصوص الّتي أوردها بخصوص الثورات والصراعات الّتي شهدتها المنطقة آنذاك ،خاصة الآثار الّتي خلّفتها ثورة صاحب الحمار ضدّ الفاطميين على عمران المدن وأهاليها.

رابعا: كتب التاريخ المشرقية:

1. **ابن الأثير**[1]، علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ/ 1232م) ،في كتابه **الكامل في التاريخ** ،والذي يعدّ من أوفر المصادر المشرقية وأحفلها بالمعلومات الخاصة بتاريخ المغرب ،خاصة في جزئه السادس ،سواء ما تعلّق بتاريخ الدولة الفاطمية ثمّ دولة بني زيري ،فسرده لتفاصيل هجرة القبائل العربية إلى بلاد المغرب ،وما صاحبها من حروب وصراعات كانت لها آثار على عمران المدن ،وهو جانب الفائدة الّتي خدمت بحثي.
2. **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم (ت733هـ/1332م) ،في مصنّفه **نهاية الإرب في فنون الأدب** ،خاصة في جزئه الرابع والعشرين ،الّذي احتوى مادة تاريخية غزيرة ومتنوعة حول تاريخ المغرب الإسلامي ،على غرار ما أورده بخصوص تاريخ الدولة الفاطمية ،فالصراع المحتدم بين عناصر الأسرة الزيرية ،ثم هجرة قبائل بني هلال إلى البلاد المغربية ،وقد أفاد هذا المصدر بحثنا تقريبا في أغلب فصوله.

المراجع الحديثة

أولا: المراجع العربية:

1. **لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11 م)** ،وهو كتاب خصّصه صاحبه لدراسة تاريخ الدولة الفاطمية وإسهام قبيلة كتامة في بنائه ،وقد عظمت فائدته بالنسبة لبحثي من خلال وقوفي على ما أورده بخصوص مراحل قيام تلك الدولة ومواقفها تجاه المخلّفات الأثرية الّتي وجدتها قائمة على غرار مدينة تيهرت الرستمية ومكتبتها المعصومة ،وما قيل في شأن خرابهما وحرقهما وموقف هذا المؤرّخ من ذلك.
2. **بن عميرة محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي** ،وقد رصد صاحبه أخبار قبيلة زناتة وصلتها بالبتر ودورها في ثورة الخوارج ضدّ الفاطميين ،وعلاقتها بكلّ من قبيلتي كتامة وصنهاجة ،وكلّ ذلك له علاقة بالكثير من جوانب بحثي ،وهو ما استفدت منه.

---

(1)- كان حافظا للتواريخ المتقدّمة والمتأخرة، خبيرا بأنساب العرب وأيامهم و وقائعهم، اشتّهر بدراسة التاريخ، والاعتماد على المتخصصين في ذلك من كل إقليم، أنظر: يسرى عبد الله: معجم المؤرّخين المسلمين حتّى القرن الثامن عشر الهجري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1411هـ-1991م، ص 37، وللمزيد أنظر: قويدر بشار: مناهج التاريخ الإسلامي ومدارسه، ط1، دار الوعي، الجزائر، 1413هـ-1993م، ص 56-58.

3. **بورويبة رشيد: الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها**، و الّذي يعدّ دراسة مركّزة حول تاريخ هذه الدولة منذ النشأة وحتّى السقوط ،مع إبراز العوامل المساعدة على التطوّر والازدهار ،وكذا أسباب السقوط والانهيار ،وقد خدم بحثنا هذا فيما تعلّق بقيام تلك الدولة ،ومدى اهتمامها بالجانب العمراني ،وكذا تأثير الهجرة الهلالية على مستقبل هذه الدولة ومصير مدنها.
4. **مؤنس حسين: تاريخ المغرب و حضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر** ،وكتاب معالم تاريخ المغرب والأندلس ،وكلا الكتابين خدما بحثي من خلال ما أورده صاحبهما من تفاصيل سياسية واقتصادية وحضارية بخصوص تاريخ المغرب خلال فترة هذا البحث.

وإلى جانب هذا، هناك مجموعة معتبرة من المراجع الّتي عاجلت موضوع بحثي بصفة عامة ،وكانت استفادتي منها بشكل متفاوت من مرجع لآخر حسب الأهمّية. وتلك المراجع عدّدناها في قائمة المصادر و المراجع.

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية:

وفّرت هذه المراجع مادة مفيدة أفادت بحثي هذا وعلى رأسها نذكر:

1- *ZEROUKI Brahim :* *L'imamat de Tahart premier état musulman du Maghreb (144/296 de l'hégrie)* .

تطرّق صاحبه إلى تاريخ الأئمة الرستميين ،وكذا عاصمتهم مدينة تيهرت منذ النشأة وحتّى السقوط ،وقد استفدت منه في بحثي هذا خاصة ما تعلّق بتاريخ مدينة تيهرت.

2- *LE THIELLEUX Jean* *: Ouargla cité saharienne des origines au début du XX^{e} siècle*.

و هو مرجع مهم بالنسبة لتاريخ مدينة وارجلان منذ الفترة الّتي سبقت الفتح الإسلامي وحتّى انتقال الإباضية بعد سقوط عاصمتهم واستقرارهم في جنوب المدينة بعدما بنوا مدينة سدراتة ،إضافة إلى الأهمّية التجارية لهذه المدينة لوقوعها في ملتقى الطرق التجارية ،كما تعرّض صاحب هذا الكتاب إلى أسباب تراجع دورها، و عليه فقد خدم بحثي في دراسة مدينة وارجلان.

3- *GOLVIN. L :* *Le Maghreb central a l'époque des zirides recherches d'archéologie et histoire*.

اهتمّ صاحب المرجع بتاريخ المغرب الوسيط في عهد ملوك بني زيري خاصة في جانبه الحضاري مجال الفائدة الّتي خدمت بحثي.

و في الختام أتوجّه بالشكر الجزيل إلى كلّ من قدّم لي يد المساعدة في إنجاز هذا البحث ،خاصة أستاذي المشرف ،فضيلة الدكتور «مبارك بوطارن» ،الّذي أفادني بجميل خلقه وعظيم تواضعه ،وما استفدت منه من فريد توجيهاته ونصائحه ،وما خصّه لي من وقته الثمين ،فكان بذلك أفضل مرشد وخير معين.

كما لا يفوتني أيضا أن أشكر أساتذتي الأفاضل الّذين أرشدوني وشجّعوني وساعدوني على إتمام هذا البحث ،وهنا أخصّ بالذكر الأستاذ الدكتور «عبد العزيز شهبي» ،والأستاذة الدكتورة «جميلة بن موسى» ،والأستاذ الدكتور «خالد كبير علال»، فأسأل الله أن يثيبهم على ذلك الثواب الجزيل.

وأشير في الختام أنّي حاولت جاهدا قدر المستطاع من خلال بحثي هذا أن أكون قريبا من الحقيقة التاريخية ،والمساهمة في إثراء الدراسات التاريخية المتعلّقة بتاريخ المغرب الإسلامي ،محاولا استفاء شروط البحث ،فكنت مقلدا لمن سبقني متى استدعت ضرورة البحث ذلك ،وكنت مجدّدا متى أدركت أهمّية ذلك ،فإن أصبت فذلك بتوفيق من الله ،وإن كان غير ذلك فإنّنا نهيب كل من يقف على أخطائنا أن يرشدنا إلى الصواب ،ويعيننا على تجنّب الزلل وحسبي أنّني اجتهد فلا أعدم بذلك أجر المجتهد ،وصلي اللّهم و سلّم على سيدنا محمد.

الفصل التـمـهيـدي

الأوضاع السياسية للمغرب الأوسط والأدنى من قبيل قيام الدولة الفاطمية إلى سقوط دولة بني حماد

I- الوجود الفاطمي في بلاد المغرب

1- بوادر ظهور التشيع في أرض المغرب

2- قدوم صاحب الدعوة الشيعية

3- مظاهر التطور العسكري للشيعة في المغرب

4- قيام الكيان السياسي للشيعة بالمغرب

II- الحكم الصنهاجي لبلاد المغرب الأوسط والأدنى

1- قيام الدولة الزيرية

2- الدولة الزيرية في ظلّ النفوذ الفاطمي

3- الصراع بين الزيريين وقيام دولة بني حماد

4- دولة بني زيري بعد القطيعة مع الفاطميين

5- بنوحماد بين العاصمة الأولى والثانية

III- هجرة بني هلال وبني سليم إلى المغرب الأوسط والأدنى

1- بنوهلال و بنوسليم (مفاهيم ودلالات).

2- أسباب الهجرة.

3- عمليات الانتقال.

4- مواطن الاستقرار.

I- الوجود الفاطمي في بلاد المغرب

عرف المغرب الإسلامي الأوسط والأدنى، عند نهاية القرن الثالث الهجري (10م) ،مرحلة تميّزت بضعف الأسر الحاكمة -الدولة الرستمية والأغلبية- وكثرة الاضطرابات، مهّدت الطريق لدخول المذهب الشيعي إلى بلاد المغرب، والّذي بدأ يسري ويتقوّى في أوساط المجتمع المغربي، حتّ تمكّن أصحابه من تأسيس دولة شيعية عرفت بدولة الفاطميين[1]، أو العبيديين[2] ،ولا شكّ أنّ قيام هذه الدولة قد مرّ عبر أطوار تاريخية، تدفعنا إلى طرح جملة من الأسئلة ،حول كيفية وصول الشيعة إلى أرض المغرب؟ وكيف تمكّنوا من بناء دولتهم على أرضه وعمروها بعد ذلك؟ ،وهل أمكنهم كسب ود أهل المغرب من خلال سياستهم المنتهجة؟ ،وهل أمكنهم استغلال أهل المغرب في بسط النفوذ ،ونشر المذهب لإرساء قواعد هذه الدولة؟.

1- بوادر ظهور التشيع في أرض المغرب:

إنّ أغلب المصادر التاريخية تتّفق على أنّ اللّذان مهّدا الأرضية لدخول المذهب الشيعي إلى بلاد المغرب، هما الداعيان الحلواني وأبو سفيان[3] ،فالقاضي النعمان يذكر أنّه في سنة 145هـــ /62-763م ،دخل المغرب رجلان من المشرق ،يعرف أحدهما بأبي سفيان أمّا الثاني فبالحلواني[4]. ويضيف ابن خلدون عندما يتحدّث عن بدايات ظهور التشيّع بإفريقية ،وأصول ذلك قائلا: «كان أصل ظهورهم بإفريقية ،دخول الحلواني ،وأبو سفيان من شيعتهم إليها»[5] ،ويعزّز ذلك ابن الأثير[6] حينما يذكر أنّ خروج الداعي أبي عبد الله الشيعي إلى أرض كتامة من بلاد المغرب[1] ،كان بعد وفاة الحلواني وأبي سفيان.

([1])- حول حدود هذه الدولة، أنظر: الملحق رقم: 01.

([2])- محمد طه الحاجري: مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1403هـــ-1973م، ص 06.

([3])- الحلواني وأبو سفيان هما داعيان شيعيان، بعث بهما ابن حوشب من اليمن إلى أرض المغرب، لنشر المذهب الشيعي، وتهيئته حتّ يأتي صاحب البذر، ثمّ صاحب الأمر، وهو المهدي المنتظر، أنظر: موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 223.

([4])- القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة،(د.ط)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1426هـــ-2005م،ص23-24.

([5])- عبد الرحمن ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،ج4 ،ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، (د.ط)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1421هـــ - 2000م ،ص 41.

([6])- محمد ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، راجعه و صححه، محمد يوسف الدقاق، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـــ-2003م، ص 450.

وإذا كان الاتفاق حول أبي سفيان والحلواني في التمهيد للمذهب الشيعي بالمغرب ،فقد تضاربت الآراء حول من أرسلهما إلى أرضه وانقسمت إلى فريقين ،أحدهما عزاه إلى جعفر الصادق[2] ،والآخر إلى ابن حوشب[3].

وقد تصدّر الرأي الأوّل القاضي النعمان الّذي يذكر بأنّه: «قيل أنّ أبا جعفر بن محمد ... بعث بهما ،وأمر أن يبسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد -صلى الله عليه و سلم- ... وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ثمّ يفترقان». وكان الحلواني يقول لهم -لأهل المنطقة الّتي نزلها- قيل لنا أنا وأبو سفيان «اذهبا إلى أرض المغرب فإنّما تأتيان أرضا بورا فأحرثاها... إلى أن يأتيا صاحب البذر»[4].

([1])- المغرب هو كل ما يقابل المشرق من بلاد، وقد اختلف الجغرافيون والمؤرّخون المسلمون في تحديد مدلوله، إذ جعله البعض منهم يشمل بلاد إفريقيا الشمالية إضافة إلى الأندلس، وحتّى كل الممتلكات الإسلامية من صقلية وجنوب إيطاليا، غير أنّ جمهور المؤرّخين يتّفق على جعل المغرب، الأراضي الإسلامية الواقعة غرب مصر، تكون الإسكندرية الحد الفاصل بين الشرق والغرب، وحدّه من جهة الغرب هو ساحل البحر المحيط، وقد اصطلح على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام هي: المغرب الأدنى (إفريقية)، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، واختلف المؤرّخون والجغرافيون في تحديد الحدود الفاصلة بين هذه الأقسام الثلاث، وربما يرجع ذلك الاختلاف إلى ما اعتمدوه من أسس في ذلك التقسيم، إذ هناك من اعتمد على الحدود الجغرافية للكيانات السياسية المسيطرة على تلك الأقسام، غير أنّ تلك الحدود كثيرا ما تتغيّر بين الاتّساع والانحصار في ظلّ الصراع بين تلك الكيانات، وهناك من اعتمد الأسس القبلية في ذلك التقسيم بإخضاعه للقبائل المسيطرة على تلك الأقسام، وهذا ما يصعّب مهمة تحديد مجال كل إقليم، وأغلب ما ذهب إليه المؤرّخون والجغرافيون هو أنّ المغرب الأدنى والذي سمي أيضا إفريقية، يمتد من برقة إلى حدود بجاية ،أمّا المغرب الأوسط فمن بجاية إلى تلمسان، في حين يمتد الأقصى من حدود المغرب الأوسط الغربية إلى ساحل البحر المحيط ،أنظر: عبد الله أبوعبيد البكري: المسالك والممالك، مج2، تح، جمال طلبة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2002م، ص 259، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 128-134، وللمزيد أنظر: أحمد العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (د.ط)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ص 09-10، وللمزيد أكثر أنظر: أحمد السليماني: تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، (د.ط)، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 55-56.

([2])- هو أبو عبد الله جعفر الصادق، بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله، ولد سنة 80 هـ/699م، وتوفي بالمدينة سنة 148هـ/766م، أنظر: شمس الدين ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، مج1، تح، إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1970، ص 327، وللمزيد أنظر: أحمد ابن واضح الإخباري: تاريخ اليعقوبي، ج 3، (د.ط)، المكتبة المرتضوية، النجف، 1358هـ/1930م، ص 115، وللمزيد أكثر أنظر: أحمد بن عبد الله الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج3، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 192.

([3])- هو أبو القاسم الحسن بن فرح بن حوشب بن زادان الكوفي، وسمي منصور اليمن، من أهل بيت علم وتشيّع، وكان ممّن ذهب إلى مذهب الإمامة الإثني عشرية، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، ج 06، ص 450.

([4])- القاضي النعمان: المصدر السابق، ص 23 ،أنظر أيضا: ابن خلدون: العبر، ج4، ص 41.

و أمّا من خالف هذا الرأي ،و ذهب إلى أنّ ابن حوشب هو من أرسلهما فهما المؤرّخان المشرقيان، ابن الأثير[1] ،والنويري[2] ،اللّذان يؤكّدان على أنّه ابن حوشب ،وهو ما يقرّه أيضا أحد المؤرّخين المتأخرين و هو موسى لقبال الّذي يستبعد أن يكون جعفر الصادق هو من بعث بهما إلى المغرب بل يميل إلى ترجيح أنّه قد يكون أحد أئمة الستر بسلمية[3] بعث بهما إلى اليمن ،ثمّ أرسلا إلى أرض المغرب[4] ،و هو الرأي الّذي اقتنع به كذلك عبد الفتاح الغنيمي[5].

و الحاصل فإنّنا إذا رجعنا إلى تاريخ 145هـ/62-763م كتاريخ لإرسال الداعيين ،في عصر سادس الأئمة العلويين جعفر الصادق فإنّ بلاد المغرب في تلك الفترة عرفت عدّة اضطرابات بسبب الثورات الّتي قام بها سكّان البلاد ضدّ ولاّة القيروان من بني العباس ،وكانت الحركة الفاعلة آنذاك هي حركة الخوارج الصفرية والإباضية وليست الشيعية. كما أنّ هذا التاريخ (145هـ/ 62-763م) بعيد زمنيا عن الفترة الّتي خرج فيها أبو عبد الله الشيعي إلى أرض المغرب والمحدّدة بسنة 280هـ/893م بمدة زمنية تزيد عن القرن والربع ،وعليه فلا يعقل أن تبقى أرض المغرب ممهّدة موطأة لدخول مذهب جديد إلى هذه البلاد ،وذلك لطول الفترة الزمنية ،وكذلك فناء الأجيال الّتي تشيّعت بسبب الداعيان ،وعلى هذا الأساس نرجّح أن يكون ابن حوشب هو من بعث بهما إلى أرض المغرب.

2- قدوم صاحب الدعوة الشيعية:

اختار رجال الشيعة اليمن ليكون مركزا لدعوتهم ،كونه بعيد عن أنظار الدولة العباسية ممّا يصعّب مهمة الوصول إليه ،ففشت الدعوة الشيعية باليمن ،ولّما صارت الوصاية إلى ابن حوشب أرسل الدعاة إلى المغرب، حتىّ اتّصل به أبو عبد الله الشيعي، فقام بإرسال هذا الأخير إلى المغرب لّما

---

(1)- ابن الأثير: المصدر السابق ج 6، ص 450.

(2)- شهاب الدين النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، ج 28، تح، عبد المجيد ترحيني، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 45.

(3)- سلمية: بلدة من أعمال حماة ببلاد الشام، وقيل أنها سميت بذلك لأنّ قوما بقربها انقلبت بهم الأحوال فانتقلوا إليها وبنوا مساكنهم بها، وكانوا لم يسلم منهم إلاّ مائة، أي سلم مائة، ثمّ أصبحت سلمية. أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج3، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1397هـ-1977م، ص 240.

(4)- موسى لقبال: المرجع السابق، ص 223.

(5)- عبد الفتاح الغنيمي: موسوعة المغرب العربي، مج2، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1414هـ-1994م، ص 52.

علم بموت الداعيان الحلواني ،وأبي سفيان، و قال له: «إنّ أرض كتامة في بلاد المغرب ،قد حرثها الحلواني ،وأبو سفيان ،وقد ماتا ،وليس لها غيرك ،فبادر فإنّها موطأة ممهّدة لك»[1].

فسار الداعي أبو عبد الله الشيعي[2] في موسم الحج إلى مكة، أين اتّصل بالحجّاج المغاربة من كتامة ، ويذكر مؤرّخ الشيعة[3] القاضي النعمان أنّ اتّصاله بهم كان من باب الصدفة حيث أنّه بعد انقضاء موسم الحج مرّ على جماعة من كتامة وهم في رحالهم ،وفيهم من الشيعة الّذين تشيّعوا بسبب الحلواني وأبي سفيان ،فسمعهم يذكرون فضائل آل البيت ،حينها جلس إليهم يذكر لهم شيئا من ذلك ،فأقبل عليه الجميع[4].

في حين نجد أنّ صاحب الاستبصار و النويري يشيران إلى أنّ اتّصاله بهم ما كان محض صدفة بل بترتيب مسبق ،حيث أخذ أبو عبد الله الشيعي يبحث في منى عن جماعة كتامة الّذين كانوا من الشيعة ،وسأل عنهم حتّى اجتمع بهم ،وعرض نفسه عليهم ،فتلقّوه بالقبول ،فسار معهم إلى بلادهم[5].

وهو ما يؤكّده ابن عذاري بشكل صريح حينما يذكر غاية الشيعي من خروجه إلى الحج قائلا: «فلمّا و صل للموسم لا للحج، لأنّ الحج ليس من مذهبهم الفاسد ،بل تكلّف حضوره ليتسبّب في مراده ،فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب»[6].

([1])- القاضي النعمان: المصدر السابق، ص16 ،محمد طقوش: تاريخ الفاطميين شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام (297 – 567 هـ/ 910 – 1171م)، ط1، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1422هـ-2001م، ص 65.

([2])- هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا، عرف بألقاب منها: الشيعي، المحتسب، الصنعاني ،اتّصل بإمام الزمان في سلمية فأرسله إلى مركز تكوين الدعاة الماهرين باليمن ،حتّى صار من الدعاة الكبار، فأرسله حينها ابن حوشب إلى أرض كتامة حسبما رسم الإمام، بعد موت الحلواني وأبي سفيان، وهناك عكف على نشر مبادئ الشيعة الإسماعيلية ،قتل بأمر من عبيد الله المهدي سنة 298هـ/910م ،أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج2، ص 192، وللمزيد أنظر: عماد الدين ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، تح، عبد الله التركي، ط1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ،مصر، 1419هـ-1998م، ص 772.

([3])- تولّى القضاء على عهد المعز لدين الله، كما أقرّه بنفسه قائلا: «ما عهده إلي الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين... في كتاب عهده، كتبه لي في تأيّد أمر القضاء»، أنظر القاضي النعمان: اختلاف أصول المذاهب، تح، مصطفى غالب، ط3، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1983، ص 46.

([4])- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 28.

([5])- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق، سعد زغلول عبد الحميد، ط 2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ودار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 203، النويري: المصدر السابق، ج28، ص 47.

([6])- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح، ج-س. كولان و إ. ليقي بروقنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ص 124.

ومع ذلك فإنّ الروايات التاريخية يتّفق أغلبها على أنّه سار معهم، إلى بلاد كتامة ،مرورا بمصر[1] ،ثمّ القيروان ،وهو يظهر امتناعه عن مرافقتهم ،وهم يلحّون عليه[2] ،حتّى حطّوا الرحال بأرض كتامة ،وكان في الطريق يسألهم عن أحوال بلادهم السياسية والاجتماعية[3].

ويذكر لنا المقريزي أنّ من بين ما سألهم عنه طاعتهم لسلطانهم، فأجابوه: «ما له علينا طاعة ،و بيننا وبينه عشرة أيام»[4]. ويضيف إلى ذلك القاضي النعمان،سؤاله لهم عن الأمصار الّتي بقربهم ،فقالوا: «ميلة ،سطيف ،وبلزمة... فقال فلسطان إفريقية بها عمال؟ قالوا: لا فإنّما بها رجال ملكوها،... وهم له طاعة في معصية، قال فلهم عليكم أنتم طاعة؟ قالوا: لا، بل هم يدارون من قرب منهم منا ،ونحن الغالبون عليهم»[5].

و لم يتّفق المؤرّخون على تاريخ محدّد لوصول الداعي إلى أرض كتامة من بلاد المغرب فقد أوردوا في ذلك تواريخ مختلفة ،ففي الوقت الّذي يذهب فريق منهم[6] إلى اعتبار سنة 280 هـ/ 893م تاريخا لوصوله، نجد أنّ هناك من يحدّده بسنة 288هـ/901م[7] ،بل وهناك من المؤرّخين

---

(1)- أحمد المقريزي: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج1، تح، محمد عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ-2001م، ص 141، موسى لقبال: المرجع السابق، ص 235.

(2)- محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط2، مطبعة بيكا وشركائه، تونس، 1323هـ-1905م، ص35،كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968، ص251.

(3)- موسى لقبال: المرجع السابق، ص 236.

(4)- المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص 141، علي الخربوطلي: أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، (د.ط)، المطبعة الفنية الحديثة، 1972، ص 38 وما بعدها.

(5)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 30.

(6)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 36، ابن الأثير: المصدر السابق، مج6، ص 451، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 124، عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ج2، (د.ط)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص 60، عادلة الحمد: قيام الدولة الفاطمية في بلاد إفريقية والمغرب، (د.ط)، دار ومطابع المستقبل، الإسكندرية، مصر، 1980، ص 99، جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة، محمود هيكل، مراجعة، مصطفى أحمد، (د.ط)، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، مصر، 1999، ص 153.

(7)- ابن خلدون: العبر، ج4، ص42، المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص 141، عارف تامر: تاريخ الإسماعيلية، ج1، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، 1991، ص 215، عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن 04هـ، (د.ط)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ/1991م، ص 43.

المتأخرين من أورد تواريخ أخرى ،حيث أن هناك من ذكر أنّه كان سنة 278هـ/ 891م[1] ،ومنهم من ذكر أنه سنة 279 هـ/ 892م[2].

وفي ظلّ هذا التضارب بين أقوال المؤرّخين حول تحديد تاريخ الوصول، يتعذّر علينا تحديد ذلك بشكل دقيق ،وترجيح قول على آخر، غير أنّنا إذا اعتمدنا على عامل القرب الزمني للأحداث التاريخية بالنسبة لمن أرّخوها، فإنّ التاريخ الأقرب إلى الصواب هو ما أورده القاضي النعمان ،وكذا ابن الأثير وهو سنة 280هـ/893م.

كما أنّني و بالنظر إلى ما عرفه المغرب من أحداث تلت وصول الداعي إلى أرض المغرب ،يتبيّن لنا أنّ من اتّخذ تاريخ 288هـ/901م، قد جانب الصواب ؛ذلك أنّ مدّة ثمان سنوات مذ وصوله إلى أرض المغرب ،إلى غاية تمكّنه من دخول رقادة سنة 296هـ/909م ،لا يعقل أن تسع ما جرى من أحداث ،وما قام به أبو عبد الله الشيعي من عمل تمهيدا لقيام الدولة الفاطمية بأرض المغرب ،و عليه فالأرجح أنّ تاريخ وصوله كان سنة 280هـ/893م.

3- مظاهر التطوّر العسكري للشيعة في المغرب:

بوصول الداعي الشيعي إلى إيكجان[3] من أرض كتامة، و نزوله عند بني سكتان بموضع يعرف بفج الأخيار ،شرع الداعي في نشر مبادئ الشيعة بين عناصرها مستغلا حنكته وذهاءه ،عندئذ أقبل الناس عليه ،فجمع حوله جمعا عظيما ،وكان ذلك بداية لصفحة جديدة من تاريخ بلاد المغرب الأوسط والأدنى السياسي والمذهبي ،لما عرفه من أحداث هامة ،وتطوّرات غيّرت مجرى الأحداث التاريخية خاصة السياسية منها للمنطقة.

ولمّا بلغت أصداؤه ميلة، أرسل إليه عاملها موسى بن العباس يطلبه ،فأبى بنو سكتان تسليمه[4] ،فانتقل الداعي إلى تازروت[5] ،أين اتّسعت دعوته بشكل أكبر ،فعزم على مباشرة

([1])- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1، (د.ط)، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص232.

([2])- أحمس صبحي: الدعوة الفاطمية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005، ص 131.

([3])- إيكجان أو إيقجان: كلمة تعني في اللهجة البربرية الكلاب، إذ هي جمع لكلمة «أقجون» عند البربر، ويكون بذلك معنى الاسم خربة الكلاب، أنظر: موسى لقبال: المرجع السابق، ص 155.

([4])- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 40.

([5])- هو حصن دار هجرة الداعي الشيعي، ويقع هذا الحصن (في يومنا هذا) قرب منطقة عين الملوك بميلة، وفي الجنوب الشرقي من جبل إيكجان، وهي تعني الصخرة بالأمازيغية.

أعماله التوسّعية كما أعلن أنّه يدعو للإمام المستتر ،والّذي سيظهر عندما يتحقّق ذلك الأمر[1] ،وكانت أهمّ أعماله:

أ- دخول مدينة ميلة:

كانت مدينة ميلة، أولى المحطات الّتي استهلّ بها الداعي أبو عبد الله الشيعي أعماله التوسّعية ،و ذلك لقربها من مقر دعوته بتازروت ،حيث زحف إلى مدينة ميلة ،التي سارع أهلها لطلب الأمان منه ،وهو ما سمح للداعي من دخولها دون مقاومة ،وذلك في سنة 289هـ/902م[2] ،أمّا النويري فيذكر أنّ دخوله المدينة كان بعد أن «قاتل من بها وغلب على جميع أرضها»[3].

وبسقوط المدينة في يد الشيعي، تحرّك الجيش الأغلبي بقيادة أبي عبد الله الأحول لقتال الداعي الشيعي ،حيث انتصر الأحول ،ودخل تازروت وأحرقها ،كما هدم قصر أبي عبد الله الشيعي ،ثم قفل راجعا إلى رقادة[4]، ثمّ عاود خروجه مرة ثانية لقتال الشيعي ،حتّى وصل سطيف ،غير أنّه انهزم هذه المرة ،وتمكّن أبو عبد الله الشيعي من دخول مدينة ميلة[5] ،وإحكام سيطرته عليها ،وأجبر الأحول على الرجوع إلى رقادة ،أين لقي حتفه على يد أخيه ،إثر فتنة حدثت في بلاط حكم بني الأغلب ،والّذي تربّع على عرشه حينها زيادة الله[6].

ب- دخول مدينة سطيف:

ما إن استقام الأمر لأبي عبد الله الشيعي بدخول ميلة ،حتّى زحف بجموع جيشه إلى مدينة سطيف ،الّتي حاصرها مدّة ،ورجع عنها إلى إيكجان ،ثمّ أعاد الكرّة من جديد وأحكم حصارها حتّى دخلها[7] ،غير أنّ دخوله هذه المدينة ،اختلف عن دخول ميلة ،وهو ما يوضّحه ابن خلدون

([1])- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 40، المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص 142.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص133، عبد النور قراوي: «طبنة ودورها الحضاري من الفتح حتّى نهاية القرن05 هـ/11م»، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط،كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر،1429-1430هـ/2008-2009م، ص 139.

([3])- النويري: المصدر السابق، ج 28، ص 56.

([4])- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 90، محمد الصالح مرمول: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 46.

([5])- عماد الدين الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تح، محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ص 91.

([6])- هو زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد آخر ملوك بني الأغلب بإفريقية، الّذي فرّ إلى المشرق بعد انهزام جيشه في معركة الأربس، سنة 296هـ/909م، أمام جيش أبي عبد الله الشيعي، أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق،مج 2، ص 193.

([7])- النويري: المصدر السابق، ج28، ص 58.

بقوله: «فحاصرها مدّة ... واستأمن أهل سطيف فأمّنهم ،أبو عبد الله ودخلها ،فهدمها»[1]. وعليه فقد لجأ الداعي الشيعي إلى أسلوب الهدم عند دخول هذه المدينة ،وإن كان ابن خلدون لم يحدّد ما هدم من المدينة فإنّ القاضي النعمان يذكر أنّه عمد إلى تهديم سورها[2].

وهو ما يراه أيضا أحد الدّارسين المحدثين وهو محمد الطالبي الّذي أشار إلى أنّ الداعي الشيعي اقتحم المدينة بجيوشه ،وقتل من قتل من أهلها ،وهدم أسوارها ،فكان الأمان الّذي منحه شبيه بأبشع استسلام[3].

ولّما بلغت أخبار الانتصارات الّتي حقّقها الشيعي إلى مسامع زيادة الله ،جهّز عساكره وأرسلها لمحاربته إلاّ أنّها انهزمت أمام جيوش أبي عبد الله الشيعي[4].

ج- دخول مدينة طبنة:

بعدما توالت الهزائم على جيش الأغالبة ،أصبحت أراضي دولتهم تتقلّص شيئا فشيئا ،فبعد سقوط كل من ميلة وسطيف ،ازدادت رغبة أبو عبد الله الشيعي في مواصلة توسّعاته وكان مقصده هذه المرة مدينة طبنة قاعدة الزاب ،والّتي لا شكّ أنّه أدرك أهمّية موقعها ،فهي القاعدة الخلفية الّتي تحمي دولة الأغالبة من الجهة الغربية ،وفتحها يعني التوغّل داخل البلاد الأغلبية.

إلاّ أنّ الداعي الشيعي لم يجد سهولة في اقتحام المدينة إلاّ بعد أن طوّقها من كل جانب ،كما نقب سورها فدخلها وأمّن أهلها ،فضمّت بذلك إلى قائمة المدن المفتوحة ،حيث اتّخذها قاعدة لفتح بقية المدن[5].

د- دخول مدينة بلزمة:

ما إن فتح أبو عبد الله الشيعي مدينة طبنة سنة 293هـ/905م حتّ زحف إلى مدينة بلزمة ،الّتي تمكّن من فتحها سنة 294هـ/907م ،واختلف فتح هذه المدينة عن فتح مدينة طبنة ،إذ تعرّضت للهدم والتخريب والحرق بالنار ،كما أورده أغلب المؤرّخين[6].

---

(1)- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 45.

(2)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 103.

(3)- محمد الطالبي: الدولة الأغلبية (184- 296هـ/ 800-909م)، تعريب، منجي الصيادي، مراجعة، حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م، ص 733-734.

(4)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 138.

(5)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 107 ، العروي: المرجع السابق، ص 61.

(6)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 111، ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 141، ابن خلدون: العبر: ج 4، ص45، الداعي إدريس: المصدر السابق، ص 119.

وعليه لم تحظ مدينة بلزمة[1] بالأمان الّذي حظيت به طبنة ،بل كان دخولا عنيفا ترك المدينة في حالة سيئة.

و لم تقف توسّعات الداعي الشيعي عند هذا الحد ،بل تواصلت ضمن إقليم الزاب[2] ،فكان دور قلعة دار ملول[3] ،سنة 294هـ/904م ،والّتي فضّل أهلها الاستسلام ،اتّعاظا بما حلّ بمدينة بلزمة ،وفي نفس السنة فتحت مدينة تيجس[4] وعلى نفس الطريقة.

وأمام هذه الانتصارات المتتالية خرج زيادة الله في أوائل سنة 295 هـ/907م إلى أبي عبد الله الشيعي ،إلاّ أنّ رجاله أثنوه عن ذلك فرجع إلى رقادة ،في الوقت الّذي استطاع الداعي الشيعي دخول مدينة باغاية[5]. وبذلك يكون الداعي الشيعي قد أتمّ فتح إقليم الزاب ،ثمّ واصل تقدّمه نحو مناطق الشرق بعدما تمكّن من فتح مجانة[6].

هـ- دخول مدينة تيفاش:

بعدما فتح أبو عبد الله الشيعي مجانة، كانت مدينة تيفاش محطته التالية، حيث زحف نحوها بجيشه ،واستقرّ بالقرب منها ،وما إن علم صاحبها إسحاق بن أبي سلاسل بذلك ،حتّى لحق

---

(1)- مدينة من المدن الرومانية القديمة، تقع على الطريق بين القيروان والزاب، وهي في يومنا هذا بالقرب من مدينة مروانة بولاية باتنة، تبعد عنها بـ05 كلم، أنظر: محمد الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1414هـ-1994م، ص 270.

(2)- هو منطقة أو إقليم يطلق على المنطقة المحصورة بين بجاية شمالا، و جنوبا حتّى بلاد الجريد وكذا صحاري وارجلان ،وهو إقليم كثير الحرارة قليل المياه، وأهمّ مدنه: طبنة، المسيلة، مقرة، بسكرة، بادس، طولـقا، تهوذا، أنظر: الحسن الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ج2،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص138.

(3)- هي مدينة عامرة، تقع على بعد مرحلة من طبنة، وعلى ثلاث مراحل من نقاوس، وجبل أوراس منها على مرحلة، و لم تحافظ هذه المدينة على ازدهارها طويلا طيلة العهد الإسلامي، إذ ما لبثت أن تحوّلت إلى خرائب، وعليه يصعب تحديد موقعها في يومنا هذا، أنظر: الإدريسي: المصدر السابق، ص 264. أنظر كذلك أنظر: الملحق رقم: 02.

(4)- هي مدينة قديمة شامخة البناء، يحيط بها سور، وهي كثيرة الزرع والمياه، وتقع هذه المدينة على مقربة من مدينة تيفاش على الطريق بين القيروان وقلعة بني حماد، وهي تقع اليوم بعين البرج، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 232.

(5)- هي مدينة قديمة عظيمة، تقع ضمن إقليم الزاب، تحت جبل أوراس تحيط بها الأسوار، وهي مدينة كثيرة الأسواق، غنية بالمزارع والأنهار والبساتين، وهذه المدينة تشكل حلقة وصل بين مدن مهمة تبعد عن كل واحدة منها بمرحلة واحدة، وهي: مجانة، تبسة، دار ملول، طبنة، مقرة، المسيلة، أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 164، وللمزيد أنظر: الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص276.

(6)- مجانة أو مجانة المطاحن أو قلعة بسر: مدينة قديمة صغيرة، يحيط بها سور، وهي غنية، بالزروع والمياه، كما اشتهرت بغناها بالمعادن كالحديد والفضة، وكذا معدن لقطع الحجارة، وتبعد هذه المدينة عن تبسة بمسافة يوم واحد، وبذلك فهي أقرب إلى تبسة، وعليه يرجّح أن يكون موقعها بجبل الونزة حاليا، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 227، و للمزيد أنظر: الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص 293.

بالداعي الشيعي ،وترك المدينة طالبا الأمان ،وهو ما أتاح الفرصة لأبي عبد الله الشيعي من دخول تيفاش[1] دون مقاومة ،كما سلم أهاليها من قتل و بطش جنده[2].

لم يكتف أبو عبد الله الشيعي بما حقّق من انتصارات ودخول للمدن حتّى مدينة تيفاش ،بل لقيت بعدها عدّة مدن نفس المصير على غرار مسكيانة[3]،تبسة[4] ، قفصة[5] ،و قسطيلية[6].

و- وقعة الأربس[7]:

مع استمرار عمليات التوسّع وإخضاع المدن[8] من طرف أبي عبد الله الشيعي ،فقد حملت له سنة 296 هـ/ 909م ،بشائر النصر والتمكين ،وذلك بعدما خرج بجيشه قاصدا الأربس لمحاربة جيوش بني الأغلب ،إذ يذكر ابن خلدون أنّه زحف «سنة ست وتسعين ،في مائتي ألف من العساكر إلى إبراهيم بن أبي الأغلب بالأربس ،ثم اقتتلوا أيام ،ثم انهزم إبراهيم واستبيح معسكره»[9] أين دخل جيش الداعي الشيعي المدينة ،وعاث فيها فسادا وقتلا و نهبا[10].

وبهذا يكون أبو عبد الله الشيعي قد طوى الصفحة الأخيرة من تاريخ بني الأغلب ببلاد المغرب ،كيف لا وزيادة الله ما إن وصلته أنباء الشؤم ، بالهزيمة الّتي مني بها جيشه ،حتّى حزم أمتعته ،و ترك عاصمته، قاصدا بلاد المشرق[11].

---

(1)- تيفاش أو تيفش، تسمى أيضا تيفاش الظالمة، مدينة قديمة، تبعد بثمانين ميلا عن مدينة بونة، وهي محاطة بسور مبني بالحجر ،وتمتاز بغناها بالزروع والبساتين والعيون، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص231.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 45.

(3)- قرية عامرة، بها أسواق وعيون، تقع بالقرب من مجانة و تبسة، وهي اليوم تعرف بهذا الاسم، وهي على بعد 94 كلم من مدينة عين البيضاء بأم البواقي، أنظر: الإدريسي: المصدر السابق، ج 2، ص 295.

(4)- مدينة كبيرة، مبنية بالحجارة، على الطريق الرابط بين القيروان و قسنطينة، وهي اليوم تعرف بهذا الاسم، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج 2، ص 330.

(5)-مدينة حصينة تتوسط القيروان وقابس مازالت إلى يومنا هذا تعرف بهذا الاسم ،أنظر: مجهول: الاستبصار، ص152.

(6)- هو إقليم من بلاد الجريد، كثير المدن، قاعدته توزر، وأطراف هذا الإقليم ممتدة وغير مضبوطة الحدود، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 225، و للمزيد أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 155،

(7)- مدينة تقع على مسيرة ثلاث أيام من القيروان ،إذ تقع في بسيط من الأرض،وهي محاطة بسور، ولها ربض كبير ،كما أنها غنية بالثمار والزروع، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 223.

(8)- أنظر كل من: الملحق رقم: 03 ورقم: 04.

(9)- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 46.

(10)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 143، العروي: المرجع السابق، ص 62.

(11)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 147، بروكلمان: المرجع السابق، ص 251.

وما إن بلغت أخبار الفرار إلى مسامع أبي عبد الله، حتّى سار إلى رقادة، و دخلها في غرّة رجب من عام 296هـ/909م ،ونزل قصورها[1] ،بعدما خرج إليه شيوخ القيروان ،وهنّأوه بالفتح ،فنادى بالأمان في القيروان ،وأخرج العمال إلى البلدان، و دوّن الدواوين ،وضرب السكة ،وزاد في الآذان بحي على خير العمل ،وفرّق الدور على كتامة[2].

ز- الحملة على سجلماسة:

بعد وقعة الأربس ،وانهزام الجيش الأغلبي كان ذلك إعلانا صريحا عن سقوط الدولة الأغلبية السنية[3] ،وميلاد دولة شيعية على أرض المغرب. وعليه فبعد ما رتّب أبو عبد الله الأمور في رقادة والقيروان وكان قد أعلن أنّه يدعو لصاحب الأمر ،كما أنفذ إليه الرسل بعد ما بلغت دعوته مبلغا كبيرا وكان ذلك حوالي سنة 291 هـ/903م ،وهو في سلمية يدعوه للحضور إلى المغرب ،ويعلمه أن الأمر قد استقام للشيعة بأرضه ،عندئذ سار عبيد الله المهدي[4] قاصدا أبا عبد الله الشيعي حتّى استقرّ المقام به في سجن سجلماسة [5].

وعليه فتلبية لنداء الواجب كان لزاما على أبي عبد الله الشيعي أن يسير إلى سجلماسة لتخليص المهدي من سجن اليسع بن مدرار[6] ،فأعدّ العدّة لذلك ،وخرج بجيشه من رقادة في رمضان من سنة 296هـ/ماي 909م قاصدا سجلماسة ،حيث تمكّن من إخراج سيّده وصاحب

---

(1)- عبد المنعم ماجد:ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر،ط4،دار الفكر العربي،القاهرة، 1414هـ-1994م،ص79.

(2)- موسى لقبال: المرجع السابق، ص 315.

(3)- للمزيد عن سقوط الدولة الأغلبية أنظر: حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، (د.ط)، المطبعة التونسية، سوق البلاط، تونس، 1336هـ/1917م، ص 79.

(4)- لم يتّفق المؤرّخون حول نسبة العلوي قديما ولا حديثا، وهو حسب من نسبه إلى البيت العلوي عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي رضي الله عنه، أمّا أغلب مؤرّخي السنة فينكرون نسبه هذا وينسبونه إلى عبد الله بن ميمون القداح، دخل المغرب سنة 291هـ/903م، وتوفي به سنة322هـ/934م، أنظر: محمد بن مالك اليماني:كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة...، تح، محمد الخشت،(د.ط)، دار الهدى للطباعة والنشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر،1991، ص35، وللمزيد أنظر: شمس الدين الذهبي: الإعلام بوفيات الأعلام، مج1، تح، مصطفى عوض وربيع عبد الباقي، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1413هـ-1993م، ص222، وللمزيد أكثر أنظر: عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تح، أحمد بن ميلاد، مراجعة، حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1410هـ-1990م، ص266.

(5)- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب،ط2،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة، 1958،ص52، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس،(د.ط) ،دار الرشاد مكتبة الأسرة ،مصر،2004، ص 143.

(6)- هو اليسع بن المنتصر بن أبي القاسم تولّى سجلماسة بعد وفاة محمد بن ميمون سنة 270 هـ/883م، وقتل سنة 297هـ/910م، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 335-336.

دعوته عبيد الله المهدي من السجن[1] ،وقتل اليسع بن مدرار صاحب المدينة ،وأعلن بيعته للإمام قائلا: «هذا مولاي و مولاكم» ،ثمّ قفل إلى رقادة ودخلها المهدي ،عام 297هـ/910م[2].

4- قيام الكيان السياسي للشيعة بالمغرب:

أ- خلافة عبيد الله المهدي (297-322هـ/909-934م):

لقد أخلص أبو عبد الله الشيعي لدعوة الشيعة، و أتمّ ذلك بإخراج سيّده عبيد الله المهدي من السجن وتسليمه مقاليد الأمور ،فدخل هذا الأخير رقادة ،ونزل بقصورها ،وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين ،وكان بذلك أوّل خلفاء دولة الفاطميين بأرض المغرب ،حيث عكف على تنظيم شؤون دولته بتعيين الحجاب والقضاة وأصحاب الدواوين. وكان أبرز ما ميّز عهده من أحداث مقتل أبي عبد الله الشيعي ،وبنائه مدينة المهدية ،وقضائه على حركات التمرّد ضدّ الدولة خاصة بتيهرت.

- مقتل أبي عبد الله الشيعي:

اختلفت الروايات التاريخية الّتي طرقت حادثة مقتل الداعي أبي عبد الله بأمر من عبيد الله المهدي ،إذ نجد أنّ الروايات الشيعية تروي لنا ذلك في قالب مفاده أنّ سبب مقتل الداعي وأخيه أبي العباس مردّه إلى ذلك التغيّر المفاجئ الّذي طرأ على شخصية أبي عبد الله الشيعي حينما آثر الخروج على سيده ومولاه ،وبلغ الأمر به إلى التشكيك في صحّة إمامته ،وإن كانت تلقي اللوم الأكبر على أخيه الّذي همس في أذنه بأقاويل فتاكة حتّى استفزّه الشيطان ،وأصغى إليها فكان عاقبة أمرهما أن سارا إلى هلاكهما ،وهلاك من دان لهما وسعى سعيهما.

ولا بأس أن نذكر طرفا ممّا ساقه القاضي النعمان بخصوص تفاصيل ذلك التغيّر حينما يقول: «ففسدت نيّته و تداخله الحسد ،واستفزّه الشيطان فأغواه وزيّن فاستهواه ...وأبو عبد الله يتعاظم ذلك وينكره عليه... وأبو العباس يزيد في ذلك ويستطيل ... وقال له ملكت أمرا وأنطاع لك ،فجئت بمن أزالك عنه ،وأخرجك منه و تنقّصك واضطّهدك»[3].

([1])- لمّا وصل خبر أبي عبد الله بطلب المهدي إلى المغرب ،شاع ذلك الخبر عند الناس فعلم به الخليفة العباسي، الّذي اختلفت المصادر حول شخصه فمنهم من قال أنّه المعتضد، ومنهم من قال أنّه المقتفي، ومنهم من قال أنّه المكتفي، وربما يرجع هذا الاختلاف إلى التضارب في تحديد تاريخ خروجه. وعليه فباكتشاف أمره، خرج أبو عبيد الله المهدي من سلمية خفية، وأصدرت الأوامر بالقبض عليه، فسار إلى طبرية، ثمّ الرملة، ثم مصر، فطرابلس، حتّى وصل سجلماسة، أين سجنه صاحبها اليسع بن مدرار، أنظر: مجهول: الاستبصار، ص204، وللمزيد أنظر: حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب،(د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1366هـ-1947م، ص123-136.

([2])-ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 153 ،ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 47.

([3])- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص187.

والمتأمّل لهذه الرواية الشيعية يجد أنّها تنكر على أبي عبد الله الشيعي إصغاءه لأخيه ،وتغفل عن جانب مهم و إن كانت تقرّ ذلك بنفسها و هو ذلك التحاشي الّذي نهجه المهدي تجاه شخص أبي عبد الله ،عندما غضّ عنه الطرف حين ولّى المناصب أصحابها وأغفله وهو صاحب التمكين لدعوة الشيعة بأرض المغرب في بادئ أمرها.

وما يعقّد مهمة الباحث في قضية مقتل الداعي الشيعي هو ما تورده بعض المصادر التاريخية السنية الّتي تشكّك في نسب عبيد الله المهدي ،بل حتّ أنّ بعضها يذكر أنّ عبيد الله المهدي قد قتل في سجن اليسع بن مدرار ،وأنّ أبا عبد الله الشيعي لجأ حينها للاختيار من أصحابه من يقوم بالمهمة لّما كان في سجلماسة [1].

وخلاصة القول فإنّ المهدي أمر بقتل أبي عبد الله وأخيه فقتلا سنة 298هـ/ 911م[2] ،وكان لمقتلهما عواقب على مستقبل هذه الدولة الشيعية ببلاد المغرب[3].

ب- خلافة القائم بأمر الله (322-334هـ/934-945م):

بوفاة الخليفة الأوّل لدولة الشيعة بالمغرب، اعتلى ابنه القائم بأمر الله عرشها ،فأتمّ وضع قواعد هذه الدولة ،وسار سيرة أبيه في إدارة شؤونها ،وكان أبرز حدث ميّز عهد هذا الخليفة هو خروج الثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري عليه ،حينما أعلن الثورة ضدّ الفاطميين وما كان لهذه الثورة من أثار سيئة على عمران مدن المغرب خصوصا مدن المغرب الأدنى كتبسة ،باجة ،سبيبة ،الأربس ،سوسة ،القيروان وتونس [4].

ج- خلافة المنصور إسماعيل[5] (334-341هـ/945-952م):

تولّى المنصور الخلافة في ظروف صعبة بعد هلاك أبيه في حصار الثائر أبي يزيد النكاري لمدينة المهدية ،فكان أهمّ عمل استهلّ به شأن خلافته هو القضاء على هذه الثورة وعلى زعيمها أبي يزيد ،وقد تمكّن من ذلك بعدما تغيّرت موازين القوى لصالح الفاطميين[6].

---

(1)- حول تفاصيل ذلك، أنظر: موسى لقبال: المرجع السابق، ص 324.

(2)- ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص 461، النويري: المصدر السابق، ج 28، ص 66.

(3)- وذلك حيث قامت عدة حركات تمرّدية إثر هذه الحادثة،منها ثورة أهل القيروان على الكتاميين، وكذا ثورة بني مارطي ضدّ المهدي في بلاد كتامة، حول تفاصيل ذلك أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق،ج1، ص166.

(4)- محمد أبو عبد الله ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح، التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، (د.ط)، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص 53.

(5)-توفي في المنصورة سنة 341هـ/952م، أنظر: الذهبي: المصدر السابق، مج 1، ص 234.

(6)- ابن حماد: المصدر السابق، ص 65.

د- **خلافة المعز لدين الله[1] (341-362هـ/952-972م):**

بعد وفاة أبيه صار أمر المغرب إليه، و قد عدّ من أعظم ملوك بني عبيد، لما ميّز فترة خلافته من أحداث هامة ،كان أهمّها وصول قائده جوهر الصقلي في فتوحاته حتّ أرض المغرب الأقصى ،والبحر المحيط ؛أين أخضع نواحي المغرب حيث افتتح مدنه ،كما سيّره أيضا إلى مصر سنة 358هـ/958م فافتتحها ،لينتقل إليها المعز لدين الله الفاطمي في سنة 362هـ/972م ،وعهد إلى بلكين بن زيري بأمر بلاد المغرب[2].

II- الحكم الصنهاجي للمغرب الأوسط و الأدنى:

1- قيام الدولة الزيرية:

تجمع المصادر التاريخية، على أنّ المعز الفاطمي بعد انتقاله إلى مصر ،استخلف على المغرب بلكين بن زيري بن مناد[3] (362-373هـ/972-984م)، حيث سمّاه يوسف ،وكنّاه أبا الفتوح ،كما أوصاه بثلاث وهي: أن لا يرفع السيف عن البربر[4] ،ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ولا يوّلي أحدا من أهل بيته[5]. ويضيف ابن خلدون أنه: «عهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه وقطع علائق الأموية منه ،وارتحل يريد القاهرة سنة اثنتين وستين وثلاثمائة»[6].

وهكذا فقد انتقلت السلطة من العنصر العربي إلى العنصر المغربي (البربري) [7] ،وأصبح بلكين بن زيري شبه مستقل بالمغرب الأدنى والأوسط. وبذلك فقد سعى إلى توحيد كامل بلاد المغرب ،وحتّ مناطق المغرب الأقصى، إلاّ أنّ هذه المحاولات لم تكلّل بالنجاح في ظلّ الصراع مع قبائل زناتة المدعومة من طرف دولة بني أمية بالأندلس ،والّتي كثيرا ما أقلق شأنهم ملوك بني

---

(1)- اسمه معد، لقبه المعز لدين الله، كنيته أبو تميم، ولد سنة 319هـ/931م بالمهدية، وتوفي بالقاهرة سنة 365هـ/975م، أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج 5، ص 225، و للمزيد أنظر: الذهبي: المصدر السابق، مج 1، ص 250.

(2)- عماد الدين إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار، السبع السادس، تح، مصطفى غالب، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص 154.

(3)- هو بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، توفي سنة 373هـ/984م، أنظر: جمال سويدي: الشخصيات البارزة في تاريخ الجزائر القديم من القديم إلى 1830م، (د.ط)، منشورات التل، البليدة، الجزائر، 2007، ص 50.

(4)- لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح، إ. ليفي بروفنسال، ط2، دار المكشوف، بيروت، لبنان، 1956، ص 228.

(5)- عبد الحميد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج3، (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، و مطبعة أطلس، القاهرة، مصر، 1990، ص 325.

(6)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 206.

(7)- رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986، ص 188.

زيري[1] ،لاسيّما بما تثيره من اضطرابات في تيهرت -التي كانت عاصمة المغرب الأوسط- سواء بمهاجمة ولاّتها ،أو بتحريضهم على العصيان والتمرّد على حكام بني زيري ،ممّا كان يضطّر الملوك الزيرين إلى إرسال عساكرهم للقضاء على هذه الثورات ،وتأديب المتمرّدين، مثلما فعل بلكين بن زيري مع العناصر الزناتية ،التي يقودها زيري بن عطية المغراوي[2].

ومن هنا، فبرحيل الفاطميين و استخلاف بلكين، كان ذلك ميلادا لدولة صنهاجية يحكمها البيت الزيري ،وكان تاريخها حافلا بالأحداث التاريخية ،كان العمران أبرزها، في ظل ما شيّدوه من مدن ،وما طال هذه الأخيرة من خراب ،وما أفضى إليه من تراجع لدورها.

2- الدولة الزيرية في ظلّ النفوذ الفاطمي:

إنّ رحيل الفاطميين عن بلاد المغرب واستخلافهم لبني زيري على أرضه ،ما كان يعني تخلّيهم عن البلاد بشكل مطلق ،بل يبقى المغرب إقليما تابعا لنفوذهم يحكمه بنو زيري باسمهم ويتمثّل ذلك النفوذ في ضرب السكة باسمهم ،والإبقاء على شعاراتهم ،وتبادل الهدايا فيما بينهم ،ومباركة الخليفة الفاطمي في مصر من يحكم المغرب من بني زيري. وعليه فقد ظلّ المغرب الأوسط والأدنى يخضع للنفوذ الفاطمي ،وتحكمه الأسرة الزيرية منذ أن أوكلوا مهمة إدارة شؤونه إلى بلكين بن زيري ،ليرث عرشه ابنه المنصور بعد وفاته.

- المنصور بن بلكين[3] (373-386هـ/984-996م):

أخذت البيعة له بعد وفاة أبيه، حيث استهلّ عهده بتعيين عمّه أبي البهار على المغرب الأوسط[4] ،الّذي عاصمته تيهرت، و أخاه يطوفت على أشير[5] ،وأبرز ما ميّز فترة حكمه من أحداث كان ذلك الصراع المتواصل مع القبائل الزناتية ،في الجزء الغربي من المغرب الأوسط ،كما

---

(1)- تنسب الدولة الزيرية إلى زيري بن مناد الصنهاجي، الّذي تميّز بالشجاعة والإقدام منذ سن مبكر من عمره، وكان له باع في حرب قبيلته ضدّ قبيلة زناتة، حتّ عظم شأنه، وكثر أصحابه، حينها اهتدى إلى بناء مدينة له عرفت بأشير، كما كان له دور كبير في إنقاذ الدولة العبيدية من ضربات أبي يزيد النكاري، وكان مقتله في حملته على زناتة سنة 360هـ/971م، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 88، و للمزيد أنظر: إسماعيل العربي: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1980، ص 43-44.

(2)- عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 24.

(3)- هو المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد، توفي سنة 386هـ/984م، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 102.

(4)- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 207.

(5)- عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص 558.

قامت في عهده ثورتان بأرض كتامة[1] ،كانت الأولى بزعامة أبي الفهم الخراساني سنة 378هـ/988م ،أمّا الثانية فكانت سنة 379هـ/ 989م ،حيث قادها أبو الفرج ،وقد تمكّن المنصور من القضاء على كلتا الثورتين ،إضافة إلى أنّ عهده عرف مخالفة عمه أبي البهار له ،وذلك سنة 379هـ/989م بمدينة تيهرت ،مما اضطرّ المنصور للخروج بجيشه إليه ،وتمكّن من هزيمته[2].

- باديس بن المنصور (386-406هـ/996-1016م):

بوفاة المنصور انقضى عهد ،و بدأ عهد جديد، باعتلاء ابنه باديس عرش دولة بني زيري سنة 386هـ/996م ،فعكف هذا الأخير على تنظيم شؤون دولته ،حيث أقرّ عمه يطوفت على ولاية تيهرت ،وعمه حماد على أشير[3]. ولعلّ الحدث الأبرز الّذي ميّز عهد ملوك بني زيري وعهد باديس نفسه، هو تواصل الخطر الزناتي الّذي كثيرا ما كان ينغّص على ملوك بني زيري ،ويقلق راحتهم ،وتكون تيهرت في كل مرّة أهمّ بؤرة من بؤر ذلك التوتر ،ومجالا خصبا لنشاط الحركة الزناتية كشأن زيري بن عطية الزناتي عند حصاره مدينة تيهرت سنة 389هـ/999م ،أين انهزم الجيش الّذي أرسله باديس لإخضاعه ،فخرج بنفسه إليه ،وأجبر خصومه على الفرار[4].

وتتوالى الأحداث في عهد باديس بخروج أعمامه عليه ،ونظرا لانشغاله بمحاربة فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي أوكل إلى عمّه حماد مهمة محاربة مخالفيه ،حيث تمكّن هذا الأخير من هزيمتهم ،وتبديد شملهم[5]. وإذا كان حماد قد هزم مخالفي ابن أخيه باديس بن المنصور، فإنّه هو الآخر قد خالفه ،وهو ما اضطرّ باديس إلى الخروج إليه وقام بمحاصرته في القلعة الّتي بناها حماد ،وعرفت باسمه ،أين بقي حماد متحصّنا في تلك القلعة ،وباديس يحكم حصارها ،حتّ وفاة هذا الأخير سنة 406هـ/ 1016م ،وهو على حصاره لها[6].

- المعز بن باديس (406-454هـ/1016-1062م):

إذا كانت أغلب المصادر التاريخية تصف عهد المعز بن باديس بن المنصور (ت454ه/1062م) بأنّه علامة مميّزة في تاريخ الدولة الزيرية على غرار المؤرخ ابن خلدون القائل: «واستمرّ ملك المعز

([1])- الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية (تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، ج1، ترجمة، حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص 111-112.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 244 ،إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 84.

([3])- عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 560.

([4])- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 93.

([5])- من بين أعمامه الذين خالفوه: ماكسن، زاوي، جلال، معتز وعزم. أنظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 209.

([6])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 111.

بإفريقية والقيروان وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه و أبدخه»[1] ،فإنّ هذا لا يعني أنّ عهده قد خلى من الاضطرابات الّتي تسبّبت له المتاعب ،وتعكّر صفو الأمن و السلام لدولته ،إذ نجده يستهلّ عهده بمواصلة الصراع مع حماد ،وتمكّن من هزيمته ،وتمّ عقد الصلح بينهما ،ولكن هذا الصلح لم يضع حدا لذلك الصراع ،الذي تجدّد بينهما فيما بعد خلال سنة 432هـ/1040م ،وقد استمرّ لردح من الزمن.

هذا ناهيك عن الصراع الطائفي الّذي تغذّيه عناصر القبائل الزناتية ،حتّى وصل الأمر بعناصرها إلى مهاجمة مدينة المنصورية نفسها طمعا في الملك ،كما أورده ابن عذاري في حوادث سنة 420هـ/1029م[2].

غير أنّ الحدث الأعظم الّذي طبع عهد المعز كان إعلان القطيعة عن الفاطميين بمصر[3] ،وما شهده المغرب من أعمال ضدّ عناصر الشيعة خاصة بالمغرب الأدنى ،أين قاموا بقتل أعداد كبيرة من العناصر الشيعية. و لاشكّ أنّ ما أقدم عليه المعز كانت عواقبه عظيمة على مستقبل دولته ،وهو ما سنأتي على دراسته في ما هو قادم من الفصول[4].

3- صراع الأسرة الزيرية و قيام دولة بني حماد:

تعود البدايات الأولى لهذا الصراع إلى عهد باديس بن المنصور ،الّذي عهد إلى حماد بمحاربة أعمامه الّذين خالفوه، كما أوكـل إليه مهمة استئصال شأفة زناتة، و في المقابل أقطعه أشير ،وكل ما يفتح من مناطق المغرب الأوسط[5] ،فعمد حماد إلى ما أوكل إليه من مهام ،حيث انتصر على إخوانه[6] ،وعلى زناتة ،كما قام ببناء القلعة سنة 398هـ/07-1008م ،بل وسعى أيضا إلى التوسّع في بلاد المغرب.

---

(1)- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 210.

(2)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 274.

(3)- شهاب الدين ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج5، تح، عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، (د.ط)، دار ابن كثير، دمشق، وبيروت، (د.ت)، ص 180.

(4)- أنظر: الفصل الثالث من هذا البحث.

(5)- عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ-1991م، ص 61.

(6)- لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج1، تح، محمد عبد الله غنان، ط2، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1393هـ 1973م، ص 432.

وهكذا و نتيجة لما حقّقه حماد، خاف باديس على دولته، كما لعبت الوشاية دورها في إفساد ذات البين ،عندئذ رأى باديس سنة 403 هـــ/1012م ،أن يختبر ولاء حماد ،حينما طلب منه التنازل لابنه المعز عن تيجس ،وقصر الإفريقي[1] ،وقسنطينة[2] ،غير أنّ حماد خالف دعوة باديس فدخل الطرفان في صراع وحروب[3] ،بعدما زحف باديس إليه بجيشه ،وبعد سلسلة من الهزائم الّتي لحقت بحماد ،التجأ هذا الأخير إلى القلعة للاحتماء بها ،غير أن باديس كان قد أحكم حصارها ،وبقي على ذلك حتّى توفي سنة 406هـــ/1015م ،ولم تكن وفاته لتضع حدّا لذلك الصراع ،الّذي تجدّد في عهد المعز بن باديس ،أين تمكّن من هزيمة حماد ،فسارع هذا الأخير إلى طلب الصلح ،وأجابه المعز إلى ذلك ،وتوّج هذا الصلح ،بإقطاع المعز لحماد عمل كل من مدن: المسيلة ،طبنة، الزاب ،أشير وتيهرت ،وذلك سنة 408هـــ/1018م[4] ،فوضعا حدّا للصراع بين أبناء العمومة و لو إلى حين.

وبذلك أصبح استقلال المغرب الأوسط أمرا واقعا، تحت حكم حماد[5] ،والّذي سيتوارث أبناؤه حكم هذه البلاد لفترة تزيد عن القرن من الزمن[6] ،عرفت البلاد خلالها ،تجدّد الصراع مع أبناء العمومة من بني زيري ،وتواصل الصراع التقليدي مع قبيلة زناتة ،وغيرها من الأحداث التاريخية الهامة والّتي كان لها تأثير على الجانب الحضاري لبلاد المغرب ،المتمثّل في المدن على وجه الخصوص ،سواء سلبا أو إيجابا.

4- دولة بني زيري بعد القطيعة مع الفاطميين:

كان الوضع السياسي للدولة الزيرية في ظلّ النفوذ الفاطمي قد عرف أشكالا مختلفة من الصراعات والحروب تمثّلت -كما أسلفنا- في الصراع ضدّ قبيلة زناتة ،ومع أبناء عمومتهم خلفاء حماد ،ولا ريب أنّ ذلك قد أثّر سلبا على أمن واستقرار الدولة ،خاصة بعد انقسام مملكة بني زيري إلى فرعين: أحفاد باديس ،وخلفاء حماد في سنة 408هـــ/1017م. كما أنّ الوضع السياسي لهذه

([1])- يصفها الجغرافي البكري بأنّها «مدينة جامعة على شرف من الأرض، ذات مسارح ومزارع كثيرة»، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج 2، ص 232.

([2])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 107، مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، تقديم و تصحيح، محمد الميلي، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت)، ص 231.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 228.

([4])- رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 34.

([5])-توفي حماد بن بلكين بن زيري، مؤسس الدولة الحمادية،سنة419هـــ/1029م،أنظر:إسماعيل العربي:المرجع السابق، ص117.

([6])- حول نسب عائلة بني حماد، أنظر، الملحق رقم: 05

الدولة بعد إعلان القطيعة مع الفاطميين ،وما شهده من أحداث ،ونخصّ بالذّكر هجرة بني هلال وبني سليم ،وما نجم عنها من حروب ،قد أضعفت دولة بني زيري إيمّا إضعاف.

وإذا كان المؤرّخون قد اختلفوا في تقدير نسبة التأثير السلبي للهجرة العربية خاصة الهلالية على المغرب الأوسط والأدنى ،فإنّ أغلبهم يتّفق على أنّ الدولة الزيرية قد ضعفت و تقلّص نفوذها بشكل كبير بعد تلك الهجرة.

وبذلك فعهد المعز بن باديس حدّ فاصل بين فترتين مختلفتين من تاريخ بني زيري فترة القوة والسيطرة ،وفترة الضعف والتقلّص ،كيف لا وقد واجه خلفاؤه اضطرابات سياسية أعنف من سابقيهم من ملوك بني جلدتهم ،فقد تولّى تميم بن المعز[1] (454-501هـ/1062-1108م) ملكه بعدما فقدت دولته حاضرة القيروان وأرباضها بعدما استولت عليها العرب[2] ،ثمّ لقيت مدن عدّة نفس المصير على غرار صفاقس ،قابس وسوسة إثر تحالف أهاليها مع العرب ،ثمّ استئثارهم بها[3].

هذا إضافة إلى السياسة التوسّعية الّتي انتهجها خلفاء حماد على حساب جيرانهم ،من بني عمومتهم ،خاصة عندما أيقنوا ضعف مملكتهم ،فسيطروا على كل من القيروان ،وتونس ،بعدما تخلّى أهاليها عن ولائهم لبني زيري وأذعنوا بالولاء لبني حماد[4].

وبهذا فقد سعى تميم سعيا حثيثا لاسترداد ما أمكن من مدن ،حيث استردّ سوسة سنة 475هـ/1082م ،وكذا طرابلس سنة 488هـ/1094م ،وقابس سنة 489هـ/1095م وصفاقس سنة 493هـ/1099م[5].

وعلى الرغم من جهود تميم في العمل على إعادة الأمور إلى نصابها ،إلاّ أنّ أوضاع المملكة قد تأزّمت أكثر في عهود خلفائه ،يحي بن تميم (501-509هـ/1108- 1116م)[6] ،وبعده علي

(1)- هو تميم بن المعز بن باديس، أحد ملوك بني زيري، أشتهر بالحلم والحزم والشجاعة، توفى سنة 501هـ/1108م، وعمره 79 سنة بعدما حكم 46 سنة، أنظر: عماد الدين أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج2، علق عليه محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ-1997م، ص 42.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 211.

(3)- عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 72.

(4)- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 150.

(5)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 302، عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 72.

(6)- هو يحي بن تميم بن المعز بن باديس، صاحب المغرب الأدنى، توفي سنة 509هـ/1116م، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 160-161.

بن يحي (509-515هـ/1116-1121م)[1] ،وخاصة في عهد الحسن بن علي (515-543هـ/1121-1148م) [2] ،وذلك بسبب الصراع مع بني حماد ،وسيطرة العرب الهلالية على المدن. إضافة إلى تكالب نصارى النورمان على مدن مملكتهم ،حتّى انتهى الأمر بسيطرة النورمان على المهدية آخر معاقلهم ،وذلك سنة 543هـ/1148م[3] ،وبقي الأمر على ذلك الحال حتّى دخول الموحدين منطقة المغرب الأدنى وطرد النورمان من مدنه سنة 555هـ/1160م.

5- بنو حماد بين العاصمة الأولى و الثانية:

بقيت دولة بني حماد بالمغرب الأوسط، في منأى عن الاضطرابات الّتي أحدثتها الزحفة الهلالية في المغرب الأدنى بمملكة بني زيري حتّى عهد الناصر بن علناس[4] (454-481هـ/1062-1088م) ،هذا الأخير الّذي كان يطمح للتوسّع على حساب مملكة تميم بن المعز ،حيث لجأ إلى التحالف مع العرب من بني هلال ومع زناتة ،وسار بجيشه نحو مملكة بني زيري ،غير أنّه انهزم شرّ هزيمة، بموقعة سبيبة غرب القيروان ،سنة 457هـ/1064م[5] ،وبذلك فتح الناصر بابا للصراع مع القبائل الهلالية إلى جانب صراعه مع أبناء العمومة ،مما اضطرّه إلى انتهاج سياسة التفرقة بين هذه القبائل الهلالية ،لتفادي خطرها المتزايد على عاصمته وباقي مناطق مملكته[6] ،وفي ظلّ تلك الاضطرابات ،التجأ الناصر للبحث عن موضع يصلح لبناء عاصمة جديدة تكون في منأى عن تلك الاضطرابات ،فاتّخذ من بجاية موضعا لذلك ،حيث بناها سنة 460هـ/1067م[7] ،ثم انتقل إليها ابنه المنصور (481-498هـ/1088-1104م) سنة 483هـ/1090م[8] ،وترك القلعة عاصمة بني حماد الأولى.

---

(1)- هو علي بن يحي بن تميم بن المعز، كان كريما جوادا، توفي سنة 515هـ/1121م، وكانت ولايته خمس سنين، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 306.

(2)- هو الحسن بن علي بن يحي بن تميم بن المعز، ولد بمدينة سوسة سنة 503هـ/1109م، وهو آخر ملوك بني زيري، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 308.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 215، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 416.

(4)-هو الناصر بن علناس بن محمد بن حماد،خامس أمراء بني حماد،توفي سنة481هـ/1088م،أنظر ابن خلدون:العبر،ج6،ص 229.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 230، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 128.

(6)- سنتطرّق لذلك في مبحث موقعة سبيبة وخراب مدينة القلعة في الفصل الثالث من هذا البحث.

(7)- أنظر: مدينة بجاية في الفصل الأول من هذا البحث.

(8)- رشيد بورويبة: المرجع السابق، ص 74.

وبانقضاء عهد المنصور[1]، استمرّت الأوضاع في عهد خلفائه ،يميّزها الصراع مع ملوك بني زيري ،و سعيهم إلى التوسّع على حساب مملكتهم[2]. ناهيك عن استمرار عبث القبائل العربية في المناطق الجنوبية الغربية للمملكة الحمادية. وفي المقابل كان الخطر النورماندي يتزايد باستيلاء النورمان على العديد من مدن مملكة بني زيري ،كانت آخرها المهدية[3] ،وكذا مملكة بني حماد ،حتّى سيّر عبد المؤمن الموحدي حملته الكبيرة على مدينة بجاية في آخر عهد يحي بن العزيز[4] (515-547هــ/1121-1152م) فوضع بذلك حدا لعهد بني حماد ملوك القلعة وبجاية في بلاد المغرب الأوسط[5] خلال سنة 547هــ/1152م.

III-هجرة بني هلال وبني سليم إلى المغرب الأوسط و الأدنى:

من بين أبرز الأحداث التاريخية الّتي شهدها المغرب الإسلامي خاصة الأوسط والأدنى منه خلال القرن 05 ه/11 م[6] ،هو هجرة قبائل عربية من بني هلال وبني سليم إلى أرضه ،فمن هم هؤلاء القبائل يا ترى؟ ،وما أسباب هجرتهم؟ ،وأيّ موطن اتّخذوه للاستقرار؟

1- مفاهيم حول بني هلال و بني سليم:

أ- بنو هلال:

من بين المؤرّخين الّذين اهتمّوا بأنساب العرب، ومن بينها قبائل عرب بني هلال المؤرّخ ابن حزم ،هذا الأخير الّذي تطرق إلى نسبهم قائلا: «هم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خفصة ،بن قيس بن عيلان بن مضر»[7].

غير أنّنا نجد مؤرّخا آخر تطرّق أشار إلى تفاصيل أوفى بخصوص تاريخ هذه القبائل ألا وهو المؤرّخ ابن خلدون ،الّذي استعرض نسبها وأبرز بطونها[1] ،وكذا هجرتها إلى أرض المغرب ،وما

([1])- هو المنصور بن الناصر بن علناس بن محمد بن حماد، سادس ملوك بني حماد، توفي سنة 498 هــ/1104م، أنظر ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232.

([2])- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص156- 157.

([3])- إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 221.

([4])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 235.

([5])- حول إقليم دولة بني حماد حاليا، أنظر، الملحق رقم: 06.

([6])- حول بلاد المغرب الإسلامي والكيانات السياسية القائمة آنذاك، أنظر: الملحق رقم: 07.

([7])- علي بن حزم: جمهرة أنساب العرب، راجعه، عبد المنعم خليل إبراهيم، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ص 273، حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مج1، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1412هــ-1992م، ص 592.

كان من أمرها هناك ،فبنو هلال حسب هذا المؤرّخ ،هم قبيلة بدوية من عرب مضر ،الّتي كانت تجول صحراء الحجاز ،ثمّ استقرّوا قرب الطائف ،وكانوا يطوفون رحلة الشتاء والصيف أطراف العراق والشام يغيرون على الضواحي ،ويفسدون السابلة، ويقطعون على الرفاق[2].

ب- بنوسليم:

بنو سليم هم أيضا إحدى البطون العربية من مضر، ويكون نسبهم حسب ابن خلدون أنّهم: بنو سليم بن منصور ،بن عكرمة بن خفصة بن قيس بن عيلان بن مضر ،ويضيف بشأنهم «وربّما أغار بنو سليم على الحجّاج أيام الموسم ،وأيام الزيارة بالمدينة»[3].

وبناء على هذا النص الّذي أفادنا به ابن خلدون حول عرب بني هلال وبني سليم ،يتبيّن أنّ هذه القبائل الّتي انتقلت إلى بلاد المغرب من صعيد مصر بعدما أجازت النيل ،كانت قبل ذلك تستوطن أراضي الحجاز والطائف ،وأطراف العراق والشام ،ثمّ بعد ذلك انتقلت إلى صعيد مصر.

ويرجع المؤرّخون سبب انتقالهم هذا، ذلك أنّهم كانوا يغيرون على الحجّاج أيام المواسم بمكة والزيارة بالمدينة ،كما كانوا يقطعون الطرق على أطراف العراق والشام، ويفسدون السابلة ،وبقيام حركة القرامطة، انضمّ إليها بنو هلال وبنو سليم ،حتّ صاروا جندا فيها ،في كلّ من بلاد البحرين وعمان ،وكذا نواحي الشام.

وبانتصار الخليفة الفاطمي العزيز في مصر على القرامطة ،وبعدما تمكّن من انتزاع تلك المناطق منهم نقل أشياع العرب من بني هلال وبني سليم إلى مصر ،وأنزلهم بالصعيد في العدوة الشرقية من نهر النيل ،لكن أذاهم اشتدّ هناك على الزرع وأهل الحواضر ،وبقيت هذه القبائل مستقرة هناك حتّ أقبل القرن 05هـ/11م ،أين عرفت جموعها زحفا إلى الضفة الغربية من نهر النيل ألا وهي أرض المغرب ،وهو ما سنحاول الكشف عنه فيما يأتي تبعا.

([1])- من أشهر بطون بني هلال نجد: زغبة: وهم من إخوة رياح ينتسبون إلى أبناء أبي ربيعة بن نهيك ، وربيعة: وهم بطن من عامر من صعصعة من العدنانية، ورياح: وهم من أعزّ بطونها، و الأثبج: وهم أكثرها عددا وأوفرها بطونا ومنهم الضحاك و عياض، ومقدم ودريد وكرفة، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 30-37-54، وللمزيد أنظر: أحمد القلقشندي: نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1400هـ-1980م، ص272، وللمزيد أكثر أنظر: عمر كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج2، ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1418هـ-1997م، ص 420-457-475.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 94.

([3])- المصدر نفسه، ج6، ص 18.

2- أسباب الهجرة:

تجمع آراء المؤرّخين على أنّ القبائل العربية قد أضرّت كثيرا ببلاد الصعيد من أرض مصر حيث نفر الناس منهم ،كما أقلق وجودهم هناك الخلافة الفاطمية ،الّتي باتت تبحث عن منفذ للتخلّص من أذاهم إذا ما سمحت لها أيّ فرصة لذلك ،حتّى أعلن المعز بن باديس قطيعته عن الفاطميين في مصر ،عندئذ دفعت بهم إلى الهجرة إلى بلاد المغرب. فهل تعتبر حادثة القطيعة السبب الوحيد في انتقالهم إلى أرض المغرب أم أنّ هناك أسبابا أخرى كانت وراء هجرتها؟

بالنظر إلى ما أورده المؤرّخون بشأن أسباب الهجرة العربية لقبائل بني هلال وبني سليم إلى أرض المغرب ،نجد أنفسنا أمام رأيين أحدهما يتخذ من قطيعة المعز للفاطميين السبب الرئيس في ذلك ،في حين نجد بعض الدراسات الحديثة لا تكتفي بذلك سببا لتلك الهجرة ،بل ترى أنّ هناك أسبابا أخرى كانت وراءها. وعليه سنعرض كلا الرأيين ولو بقليل من التفصيل.

أ- الرأي الأوّل:

يعتمد أصحاب هذا الرأي إعلان المعز قطيعته عن الفاطميين سببا مباشرا في تلك الهجرة ،بيد أنّهم اختلفوا اختلافا بيّنا في تحديد تاريخها ،وإن انحصرت في مجملها ضمن الفترة الممتدة بين سنتي 433هـ/1041م ،و443هـ/1051م.

وعن بوادر قطيعة المعز عن الفاطميين قد تُعزى إلى حادثة درب المقلى في ناحية من القيروان ،أين شهدت مقتل جموع هائلة من عناصر الشيعة ،وذلك في محرم 407هـ/جوان 1016م ،غير أنّ المصادر التاريخية تباينت في سرد تفاصيلها ،ففي الوقت الّذي يشير التجاني(1) إلى أنّ المعز كان يؤذي الشيعة خفية ،نقف على نصوص أخرى لابن عذاري وابن خلدون(2) مفادها أنّ هذه الحادثة أعقبت خروج المعز في ركب في القيروان حيث حينما كبا به فرسه ذكر أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- فهبّ الناس من فورهم لقتل الشيعة.

غير أنّ النويري يرى بخصوص تلك الحادثة أنّها كانت بعد مرور المعز بجماعة فقيل له هؤلاء رافضة ،والّذين قبلهم سنّة ،ولّما سئل عن ماهيتهما أجابوه: أنّ السنّة يترضّون عن أبي بكر وعمر ،والرافضة يسبّونهما ،فقال: «رضي الله عن أبي بكر وعمر» ،فانصرف النّاس إلى قتل الشيعة ،وانتشرت عمليات القتل حتّى شملت جميع المغرب الأدنى ،بل وحتّى الأوسط(3).

---

(1)- عبد الله التجاني: رحلة التجاني، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981م، ص19.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 18.

(3)- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 111.

وكانت هذه الأعمال تمثّل ردّ فعل لمعانات أهل السنة المالكية جرّاء ظلم الفاطميين ،في ظل سياستهم المنتهجة لنشر مذهب الشيعة ،حينما ساموا أهل المغرب سوء العذاب ،حيث سلّطوا على مخالفيهم أنواعا شتّى من العذاب والتنكيل والتقتيل.

وإذا كانت هذه الحادثة تمثّل بداية القطيعة[1] ،فقد أقدم عليها المعز بشكل صريح حينما دعا للخليفة القائم بأمر الله[2] ،وقطع الخطبة للفاطميين وأحرق بنودهم ،وضرب السكة بغير اسمهم ،حيث ينفرد ابن عذاري[3] بذكر أنّ المعز أقدم على ذلك سنة 433هـ/1041م ،في حين يرى ابن الأثير[4] أنّه كان في سنة 435هـ/1043م. في الوقت الذي نجد ابن خلدون يحدّد تاريخ ذلك بسنة 437هـ /1045م ،وفي موضع آخر أنّه كان سنة 440 هـ/1048م[5] ،وهو ما أشار إليه أيضا ابن أبي دينار[6]. ثمّ نجد ابن عذاري في موضع آخر يورد أنّ تبديل السكة كان سنة 441هـ/ 1049م ،في حين كان صبغ الثياب بالسواد في سنة 443 هـ/1051م[7].

وأمام هذا التضارب بين آراء المؤرّخين، فإنّنا نقول أنّ هذه الحادثة قد تناولها بعض الدارسين المحدثين بالدراسة والنقد محاولة منهم للوقوف على التاريخ الأرجح لحادثة القطيعة ،وعلى رأس هؤلاء الأستاذ روجي إدريس ،الّذي اهتدى إلى ترجيح سنة 440هـ/1048م تاريخا لإعلان المعز قطيعته عن الفاطميين ،وحجّته في ذلك وجود دنانير زيرية ضربت باسم الخليفة الفاطمي قبل هذا التاريخ ،أمّا بعده فقد أصبحت من الطراز السني وحذفت منها العبارات العلوية[8] ،وهو التاريخ الّذي نميل نحن أيضا إلى ترجيحه.

([1])- لم تكن فكرة الانفصال عن الفاطميين وليدة مطلع القرن 05هـ/11م، بل ظهرت بوادرها زمن المنصور حينما جاؤوا ليهنّؤوه على ولايته فقال: «وما أنا في هذا الملك ممّن يولّي بكتاب ويعزل بكتاب، لأنّي ورثته عن أبائي وأجدادي حمير» لكنّه لم يتم عندئذ ،لفقدان الزيريين القوة الكافية لذلك، أنظر: حسين ممدوح ومصطفى شاكر: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري سنة 668-792هـ/1270-1390م ،دار عمار للنشر، عمان، الأردن، 1419هـ-1998م، ص 133.

([2])- من أفاضل خلفاء بني عباس، تولّى الخلافة سنة422هـ/1031م،وكانت وفاته سنة 467هـ/1074م، أنظر: محمد بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية،تح، ممدوح حسن،(د.ط)،مكتبة الثقافة الدينية، مصر،1999، ص274.

([3])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 278.

([4])- ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 295.

([5])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 19، شمس الدين الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2، تح، محمد زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ-1985م، ص 276.

([6])- محمد بن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تح، محمد شمام، (د.ط)، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت)، ص 83.

([7])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 278.

([8])- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 230.

ب- الرأي الثاني:

يعتقد أصحاب هذا الرأي ،أنّ سبب هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى بلاد المغرب لا يقتصر على حادثة القطيعة وما أعقبها ،حيث أرسلهم الخليفة الفاطمي انتقاما من ملوك بني زيري بل يرون أنّ السبب يتعدّى تلك الرواية التقليدية ،الّتي تحصر هذه الهجرة في كونها مأساة تحرّكت بدافع الغريزة والطموح ،من شهوة وعقوق ،ومن استعلاء وانتقام ،ثمّ أدّت إلى كارثة غير متوقّعة في حجمها وشمولها ،ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنّ هناك من عناصر بني هلال من وصل إلى طرابلس قبل سنة 441هـ/1049م ،من تلقاء أنفسهم بحثا عن الكلأ كما هو طبعهم ،بل وكانوا يضغطون على السلطة الفاطمية للسماح لهم بالمسير إلى المغرب بجماعاتهم ،غير أنّ الفاطميين كانوا يمنعونهم من ذلك[1]. وعليه لا يمكن اعتبار القطيعة سببا وحيدا في تلك الهجرة.

3- عمليات الانتقال:

بعد إعلان المعز بن باديس انفصاله عن الدولة الفاطمية الشيعية ،وإعلانه الولاء لبني العباس ،وفشل كل محاولات الفاطميين لإقناعه بالرجوع إلى حظيرتهم ،أيقن الفاطميون أن بلاد المغرب أفلتت من سلطتهم الروحية ،خصوصا بعد تلك اللهجة الشديدة التي خاطب بها المعز الزيري وزير الفاطميين اليازوري بألفاظ أساءت إليه ،ومنه فقد حقد هذا الوزير على المعز ،ورغب في الانتقام لتلك الاساءة ،إذ اهتدى إلى فكرة تقضي دفع قبائل بني هلال وبني سليم للانتقال إلى أرض المغرب[2] ،وإقطاعهم إيّاه ،انتقاما من المعز ،وتخليصا للبلاد من أذاهم[3].

([1])- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مج1، ص 197-198، عبد الله العروي: المرجع السابق، ج2، ص 93، محمد حسن: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، (د.ط)، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة تونس، تونس، 1999، ص 30، إدريس بوهليلة، وآخرون: المغرب والأندلس دراسات في التاريخ والأركيولوجية، تقديم، محمد الشريف، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 1427هـ-2006م، ص 90-91.

([2])- اختلفت روايات المؤرّخين حول الوزير الفاطمي الّذي كان وراء هجرة القبائل العربية إلى أرض المغرب بين من يرى أنّه الجرجرائي ،ومن يرى أنه الوزير الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري ،والراجح أنه اليازوري ،على اعتبار أنّ الجرجرائي توفي سنة 436هـ/1044م ،وخلفه على الوزارة اليازوري، أنظر: ابن حماد: المصدر السابق، ص 103 ،ابن الأثير: المصدر السابق، مج 8، ص 295.

([3])- أحمد الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، تح، جعفر الناصر ومحمد الناصري، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ص 167.

وقد اقتنع الخليفة الفاطمي المستنصر بهذا الرأي[1] ،فسمحوا للعرب بإجازة النيل إلى أرض المغرب ،بعدما كان غير مسموح لهم فيما مضى ،وأعطوا لكلّ واحد منهم دينارا وبعيرا ،فأجازت العرب النيل ودخلت بلاد برقة. ويحدّد ابن الأثير تاريخ إجازتهم هذه بسنة 442 هـ/ 1050م ،في حين يذكر ابن عذاري أنّها كانت سنة 443هـ/1051م[2].

ولّما نزل العرب بلاد برقة ،وفتحوا أمصارها واستباحوها ،كتبوا لإخوانهم شرقي النيل يرغّبونهم في البلاد ،فأجازوا إليهم بعدما أعطوا بكل رأس دينارين[3].

4- مواطن الاستقرار:

يذكر ابن خلدون أنّ المستنصر الفاطمي لّما أرسل العرب إلى بلاد المغرب «عقد لرجالاتهم على أمصارها...فعقد لمؤنس بني يحي المرادسي على القيروان وباجة ،وعقد لزغبة على طرابلس وقابس ،وعقد لحسن بن سرحان على قسنطينة ،ويضيف أنه «اقتسمت العرب بلاد إفريقية سنة ست وأربعين وأربعمائة ،فكان لزغبة طرابلس وما يليها ،ولمرداس بن رياح باجة وما يليها ،ثمّ اقتسموا البلاد ثانية ،فكان لهلال من تونس إلى المغرب»[4].

ويذهب مبارك الميلي إلى أنّ بلاد المغرب الأوسط قد دخلتها القبائل العربية من بني هلال وأحلافها ،وقد استوطنت هذه الأخيرة مناطق مختلفة من أرضه ،في حين لم تدخل المنطقة من قبائل بني سليم إلاّ القليل منها[5].

وفي ختام هذا الفصل يمكننا القول إنّه من خلال ما مرّ بنا تبيّن لنا أنّ بلاد المغرب الأوسط والأدنى على اختلاف التشكيلات السياسية المتعاقبة على حكمها ،قد عرفت أحداثا تاريخية هامة ،تخلّلتها الكثير من الاضطرابات والصراعات والحروب على اختلاف أسبابها ،وأطراف الصراع فيها ،والّتي لا شكّ أنّه كان لها تأثير كبير على حضارة المنطقة، خصوصا العمارة الإسلامية المتمثّلة في المدن ،بما أصاب عمرانها من خراب ،تعدّدت أشكاله ،وأسبابه ،ومن كان وراءه.

---

(1)- هو أبو تميم معد بن الظاهر بن العزيز بن المعز، ولد سنة 420هـ/ 1028م، وبويع بالخلافة سنة 427هـ/1035م، وهو ثامن ملوك الدولة الفاطمية، وخامسهم على مصر والشام، أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج5، ص 229-230.

(2)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 295، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 288.

(3)- قارن بين ما أورده ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 84، والنويري: المصدر السابق، ج 28، ص 117.

(4)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 21.

(5)- مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 179، سعد الحوتي: الموسوعة العلمية في أنساب القبائل العربية، ط1، مطبعة أبو العزم، الإسكندرية، مصر، 1422هـ-2002م، ص 139.

وعليه وقبل الخوض في دراسة ذلك الخراب الّذي لحق عمران المدن المغربية ،كان لزاما علينا أن نقف على بعض المفاهيم المتعلقة بالمدينة الإسلامية ،ونشأة المدن الّتي نحن بصدد دراستها ،وكذا عوامل تطوّرها ،حتّ نتمكّن من الوقوف على المجال الّذي كان مسرحا لتلك الأحداث ،وكيف انعكست عليه سلبا ،وما نتج عنها من أعمال نهب وتخريب وحرق ودمار.

الفصـل الأول

المدينة الإسلامية بالمغرب الأوسط والأدنى
(المفاهيم، النشأة، التطور)

I- المفاهيم الإسلامية للمدينة

1- المفهوم اللغوي للمدينة

2- المفهوم التاريخي للمدينة

3- المفهوم الجغرافي للمدينة

4- المدينة في نظر الفقهاء

II- المستشرقون والمدينة الإسلامية

III-شروط اختطاط المدن

IV-نشأة المدن وتطورها (نماذج)

1- المدينة الحصن أو المعسكر

2- المدينة الحاضرة (تيهرت)

3- المدينة الدعوة

4- المدينة الصنهاجية

5- المدينة الساحلية (وهران)

6- المدينة الصحراوية

I- المفاهيم الإسلامية للمدينة :

بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و استقرار المسلمين الفاتحين في أرضه، دخلت هذه البلاد طورا جديدا من تاريخها، ألا وهو انتشار الدين الإسلامي في أوساط المجتمع المغربي وما صاحبه من تغيّر ملحوظ في حياة هذا المجتمع بجميع جوانبها ،وكان من أهم هذه التحوّلات الّتي عرفتها هذه البلاد ،والّتي لها علاقة بموضوع بحثنا ،هي اهتمام المسلمين الفاتحين ببناء المدن وتشييدها ،وكان ذلك بالموازاة مع تواصل المعارك الّتي يخوضها قادة الفتح لاستكمال فتح بلاد المغرب.

و لاشكّ أنّ اهتمام الفاتحين ببناء المدن كان بعد استقرار البعوث العسكرية في أرض المغرب في مرحلة، ثمّ أعقبها استقرار القبائل العربية و امتلاك الأراضي بالمغرب. كما اتّخذت هذه القبائل في بادئ أمرها القلاع و الحصون موطنا للاستقرار، ثمّ أعقب ذلك طور جديد عرفت البلاد على إثره مرحلة التمصير ،إمّا ببناء مدن جديدة وفق النمط العمراني الإسلامي أو تجديد المدن التي كانت قائمة ،وذلك طبعا بما يتماشى و نمط العمارة الإسلامية.

و عليه و قبل أن نخوض في دراسة المدن الّتي بنيت على أرض المغرب الأوسط والأدنى ،وما حّل بها في ظلّ الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة، يجدر بنا أولا الوقوف على بعض المفاهيم الواردة بشأنها.

1- المفهوم اللغوي للمدينة:

إذا ما رمنا تعريف المدينة لغة، وجدنا ابن منظور[1] يذهب إلى أنّ مصدر المدينة: من مدن بالمكان: أقام به... ومنه المدينة ... وفلان مدن المدائن: كما يقال مصر الأمصار، والمدينة: الحصن يبنى في أطمة الأرض مشتّق من ذلك ،وكلّ أرض يبنى بها حصن في أصطمتها فهي مدينة... والجمع مدن ومدائن[2].

ومن خلال هذا المفهوم نلحظ أنّه لا يتطابق والتطوّر الحديث الّذي عرفته المدينة ،وهو ما يسعى إلى تأكّيده هشام جعيط ،الّذي يعتقد أنّ المفهوم العربي للمدينة «ربّما تعني حصنا أو بصورة

([1])- هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي المصري الأفريقي (630-711هــ/1232-1312م)، أنظر: فؤاد الأفرم البستاني: دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب، مج4، (د.ط)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1962، ص83.

([2])- جمال الدين ابن منظور: لسان العرب المحيط، مج5، قدم له، يوسف خياط، (د.ط)، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، 1408هــ-1988م، ص 455.

أدقّ المدينة الحصن ،وكذلك فهي مدينة بها حصن أو بناءات محصّنة»[1]. بيد أنّ هذا المفهوم هو الآخر مفهوم ضيّق للمدينة ،كونه يعرّفها بصفة عامة بناء على مدينة الكوفة كمقياس ،والأكيد أنّ مدينة الكوفة ليست النموذج الوحيد الذي تخضع له باقي المدن ولا يمكن تطبيقه على مجملها.

وحتّى نصل إلى المفهوم الوافي والشّامل للمدينة الإسلامية بصفة عامة و المغربية على وجه الخصوص ،كان لزاما علينا الرجوع إلى ما أورده المسلمون من مفاهيم حولها ،أو الّتي أشارت إلى ذلك طبعا على اختلاف الصيغ الّتي وردت بشأنها و تحمل نفس المدلول[2] من مثل: بلد ووطن ،ومصر ،ومدينة، ومدرة، وحاضرة، وحصن ،وسنقتصر على المفاهيم الّتي كان استخدامها من طرف اللغويين ،والمؤرّخين والجغرافيين ،وحتّ نظرة الفقهاء إليها. عندئذ قد يمكننا الوقوف على شمولية المفاهيم للمدينة الإسلامية على اختلاف مواطن ظهورها وأزمنة ذلك ،والقوى السياسية الّتي كانت سببا في بنائها.

وإذا كانت المدينة جزءا لا يتجزأ من العمران، فإنّ الراغب الأصفهاني يرى «أنّها نقيض الخراب ،يقال: عمرته فعمر فهو معمور ،قال: وعمروها أكثر ممّا عمروها ،والبيت المعمور. واعتمرته الأرض واستعمرته ،إذا فوّضت إليه العمارة»[3].

و المفهوم الإسلامي للمدينة الّذي يرتبط أصلا بعملية البناء تطبعه تلك العلاقة الوطيدة بالدين الإسلامي ،هذا الأخير الّذي يعدّ جوهر العملية التعميرية ،والتي ترتبط هي بدورها بجوهره ،فأيّ مجتمع لا يمكن أن ينفكّ عن ذلك حسبما يؤكّده شاكر مصطفى الّذي يذهب إلى حدّ القول أنّه «دين مدني مرتبط بالحضر ،وبالمدن والعمران وبالحياة الفكرية ،والاجتماعية والاقتصادية المتطوّرة ،وحتّى بالتنظيم المستقر للنّاس ،وبالاجتماع الأوسع المتعاون»[4].

وعلى هذا الأساس يكون للمدينة الإسلامية شخصيتها الخاصة ،وهويتها الّتي تميّزها عن غيرها من المدن غير الإسلامية ،ويضيف لنا إبراهيم بن يوسف أنّ شخصية المدينة ترتبط بمكوّناتها الّتي تشكّل مقوّماتها الروحية ،أو العفوية ،وهي لبّها ومضمونها ،كما أنّها هي الّتي تصنع شكلها ورموزها ،ولغتها ،وتغمرها بمعانيها ،وتضبط وظائفها ،ومنهج حياتها ،والمدينة لغة حسب هذا

([1])- هشام جعيط: الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005، ص 201.

([2])-عبد الجبار ناجي:دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية،ط1،شركة المطبوعات للنشر والتوزيع،بيروت،2001، ص59.

([3])- الراغب الأصفهاني: المصدر السابق، ص192.

([4])- مصطفى شاكر: المدن في الإسلام حتّى العصر العثماني، ج1، (د.ط)، مكتبة الأسد، دمشق، 1997، ص23.

الأخير ،تعود إلى كلمة «دين» ذات الأصل السامي ،وقد استعملها الأشوريون للدلالة على القانون[1].

وإذا كان الإسلام بمبادئه وأحكامه، ونظمه يشكّل المحور الأساسي الّذي تدور حوله المدينة ،بمختلف جوانبها ،وأشكالها ،كان لزاما الرجوع إلى المصدر الأول ألا وهو القرآن ،حتّى يتسنّ لنا فهم السياق التاريخي الّذي حكم المدينة.

ولذلك فقد حمل القرآن الكريم في الكثير من آياته إشارات ورد فيها ذكر للمدينة ،إذ ذكرت في أربعة عشر آية ،وهي تحمل توجيهات عامة تعدّ بمثابة الأصول الّتي تعتمد في مجال العمارة الإسلامية.

و إذا كانت متانة البنيان تستدعي أولا متانة الأساس الّذي تقوم عليه هذه المدينة ،فقد ورد في سورة التوبة إشارة إلى أنّ التّقوى هي القاعدة الّتي تقوم عليها عملية التعمير ،وأنّ البنيان السليم هو ما كان على تقوى من الله ،إذ يقول تعالى[2]: ﴿Jù&` ©M& [š ‹Ÿ»uZö/ ¨ãr? 4 ?q)s? 3

[illegible]

[illegible] ﴾[3].

أمّا في سورة الكهف[4] فيقول جلّ في علاه: ﴿r 2Ÿ‹ 7 /è#Y»Ÿ 6Ó ¡$ (q èZ/ A$%

[illegible]

[illegible]

b•Î Ó 6àN &m‰# ÇÈ ﴾[5] ،وفي هذه الآية إشارة إلى المرافق الّتي تحتويها المدينة ،إذ لا تقتصر

---

(1)- إبراهيم بن يوسف: إشكالية العمران والمشروع الإسلامي، (د.ط)، مطبعة أبو داود، الحراش، الجزائر، 1992، ص64.

(2)- ومعنى هذه الآية كذلك أنّه لا يستوي البنيان الّذي أسّس على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا، وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل فإنّما بنيانه على طرف حفيرة، أنظر: عماد الدين ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج7، تح، محمد السيد رشاد، وآخرون، ط1، مؤسسة قرطبة ومؤسسة الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، 1421هـ-2000م، ص290.

(3)- سورة التوبة، الآية: 109.

(4)- للمزيد حول الآيات الّتي ورد فيها ذكر المدينة، أنظر: محمد بسام رشدي الزين: المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، مج1، إشراف، محمد عدنان سالم، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، و دار الفكر، دمشق، سوريا، 1416هـ-1995م، ص 1090.

(5)- سورة الكهف، الآية: 19.

المدينة على كونها مركزا لتجمع الناس ،بل تحتوي أيضا على السوق الّذي تمارس فيه مختلف الأنشطة الاقتصادية ،الّتي تعدّ نشاطا مكمّلا لضرورات الحياة داخل مجتمع المدينة.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ ª!$# Ÿ@yèy_ /ä3s9 .`ÏiB öNä3Ï?qãç/ $YZs3y™ Ÿ@yèy_ur /ä3s9 `ÏiB ÏŠqè=ã_

ÉO»yè÷RF{$# $Y?qãç/ $ygtRqÿ™Ï‚tGó¡n@ tPöqtƒ öNà6ÏGøßr tPöqtƒur öNà6ÏGtB$s%Î) `ÏBur $ygÏ#qô¹r& $ydÍ‘$t/÷rr&ur $ydÍ‘$yèô©r&ur

$U^»rO& $·è»tFtBur 4'n<Î) &ûüÏm ﴾[1] ،وفي هذه الآية تذكير من الله تعالى بتمام نعمه على عبيده لما جعل لهم من بيوت هي سكن لهم يأوون إليها ،ويستترون بها[2] ،ودعوة لهم للتفكير في اتّخاذ تلك البيوت للسكن ،والاستقرار ،وتعمير الأرض ،والانتفاع بها سائر وجوه الانتفاع ،وليست هذه الآية فحسب بل هناك آيات أخرى أشارت إلى نشاطات و وظائف أخرى للمدينة[3].

كما وردت في القرآن الكريم آيات عدّة حول القرى، ومدلولها الّذي ارتبط بأحداث تعلّقت بحياة المجتمع ،وقد يكون المقصود بها المدينة الصغيرة ،أو المتوسّطة الحجم[4] ،ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ y7Ï9ºsŒ ô`ÏB Ïä!$t6/Rr& 3“tà)ø9$# ¼çmÁà)tR y7ø‹n=tã $pk÷]ÏB ÖNÍ¬!$s% Ó‰ŠÅÁymur ﴾[5] ،وقوله تعالى[6] : ﴿ öNx.ur $uZò6n=÷dr& `ÏB ¥ptƒös% ôNtÏÜt/ $ygtFt±ŠÏètB (y7ù=ÏFsù öNßgãYÅ3»|¡tB óOs9 `s3ó¡è@ .`ÏiB öNÏdÏ‰÷èt/ žwÎ) WxŠÎ=s% ($¨Zà2ur ß`øtwU tûüÏOÍ‘ºuqø9$# ﴾[7].

و لم تغفل السنّة النّبوية عن الإشارة إلى المدينة[8] بل نالت قسطا كبيرا من أحاديث المصطفى –صلى الله عليه وسلم- ،وكانت المدينة تحمل معاني أوسع من كونها مكان يجمع النّاس وإنما تعدّاه إلى تنظيم شؤونها وفق تعاليم الدين الإسلامي من معاملات في شتّى مجالات الحياة

([1])- سورة النحل، الآية: 80.

([2])- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج8، ص 337.

([3])- عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص 62.

([4])- المرجع نفسه، ص 63.

([5])- سورة هود، الآية: 100.

([6])- بيّن تعالى في هذه الآية عاقبة القرية وأهلها الّذين فخروا بمعيشتهم وألهتهم عن الإيمان بالرسل، فزالت نعمهم، وهلكت قريتهم، أنظر: عبد الرحمن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، قدم له، عبد الله بن عقيل ومحمد الصالح العثيمين، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ-1999م، ص 571.

([7])- سورة القصص، الآية: 58.

([8])- المدينة في اللغة مشتقة من الاستقرار، وحتّى القرية أيضا من الاستقرار، فالأساس اللغوي أن عرفت المدينة والقرية معا، أنظر: جمال حمدان: جغرافية المدن، ط2، عالم الكتب عبد الخالق ثروت، القاهرة، 1972، ص 05.

بالمدينة ،سواء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أو الدينية ،الّتي طبعت التاريخ العربي الإسلامي لمجتمعات المدن الإسلامية.

حيث اعتبرت المدينة المنورة المرجع الأساس لكافة المدن الإسلامية[(1)] ،بل وعدّها الرسول -صلى الله عليه وسلم- أرضا محرمة ،فقد ورد في صحيح مسلم، قوله -صلى الله عليه وسلم- «إنّ إبراهيم حرّم مكة و دعا لأهلها ،وإنّي حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة ،وأنّي دعوت في صاعها ومدّها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة»[(2)] ،على أنّ القاعدة الواردة بشأن العملية التعميرية تتجسّد وفق الحديث النّبوي الشهير «لا ضرر و لا ضرار»[(3)].

و حسب جميل عبد القادر أكبر فإنّ هذا الحديث يفيد المهتمين بمسائل العمران ،كون الفرد له حرية التصرّف ،ما لم يضر بالآخرين ،وقد استخدمه الفقهاء ،والحكّام، للحكم على تصرّفات الفرد الّتي تصيغ البيئة[(4)].

كما ورد حديث آخر حول المدينة في قوله –صلى الله عليه وسلم- : «... فقال: المدينة كالكير تنفي خبثها ،وينصع طيبها»[(5)].

([1])- ورد حديث في فضل المدينة، عن عبد الله بن يوسف عن مالك عن يحي بن سعيد قال: سمعت أبا الحباب سعيد بن يسار يقول سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد»، أنظر: محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح، ج2، شرحه، محب الدين الخطيب، راجعه، قصي الخطيب، ط2، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1403هـ-1983م، ص 22.

([2])- الحديث برواية مسلم عن قتيبة بن سعيد عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمر بن يحي المازني، عن عبادة بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم، وهو حديث صحيح، رواه مسلم أبوالحسين القشيري النيسابوري: الجامع الصحيح، ج4، طبع في مصر، سنة 1327هـ-1899م، ص 112.

([3])- الحديث عن أبي الحسن بن محمد بن إسحاق عن يوسف بن يعقوب عن محمد بن أبي بكر عن فضيل بن سليمان عن موسى بن عقبة عن إسحاق بن يحي بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن عبادة بن الصامت، أنظر: أحمد بن الحسين البيهقي: السنن الكبرى، ج6، تح، محمد عطا، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م، ص 258، و للمزيد أنظر: ابن ماجه: السنن، مج3، شرح، الحنفي السندي، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1416هـ-1996م، ص 106، و للمزيد أكثر أنظر: ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مج1، (د.ط)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1415هـ-1995م، ص 498.

([4])- عبد القادر جميل أكبر: عمارة الأرض في الإسلام، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1416هـ-1995م، ص 200.

([5])- الحديث عن عمرو بن عباس عن عبد الرحمن عن سفيان بن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، أنظر: البخاري: المصدر السابق، ج2، ص 25، و للمزيد أنظر: محمد بن عيسى الترميذي: الجامع الكبير، مج6، تح، بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 205.

و من خلال ما ورد من آيات وأحاديث حول المدينة، نجد أنّ ثقافة العمارة الإسلامية تجاوزت اعتبار المدينة الإسلامية فضاء مادي ،يحوز على مرافق عدة تسدّ حاجات السكّان ،بقدر ما أضحى ذلك السلوك قرين ببناء حياة الإنسان في حدّ ذاته ،هذا الأخير الّذي تترجم سلوكياته داخل مجتمع المدينة بما يتوافق وتعاليم كتاب الله وسنّة رسوله المصطفى –صلّى الله عليه وسلم-.

المفهوم التاريخي للمدينة:

إذا كانت المصادر التاريخية هي ملاذ المؤرّخ عند استقاء مادته الخبرية، فإنّ ممّا يُشار إليه أنّها لم تنصف المدن بما يتلاءم والدور الكبير الّذي لعبته المدينة في تاريخ المغرب الحضاري[1] ،بيد أنّ أحد المؤرّخين المهتمّين بالعمران قد خصّص للمدينة فصلا في تاريخه عندما طرق العمران بشيء أكثر من الدقّة والتحليل ،ألا وهو المؤرّخ ابن خلدون ،والّذي ستحظى دراستنا بالوقوف على بعض مفاهيمه للعمران والمدينة.

- **مفهوم ابن خلدون للمدينة:**

لقد كان ابن خلدون أحد أبرز الّذين اهتمّوا بالعمران، فالدارس لمصنّفه المقدمة يلحظ أنّ العمران بشكل عام ،والمدينة على وجه الخصوص ،قد حظيتا باهتمام بالغ من طرف هذا المؤرّخ ،حيث قسّمه إلى مجموعة من الأبواب والفصول ،تطرّق من خلالها إلى العمران وأنواعه ،والبناء وأحكامه ،واختطاط المدن وشروطه ،ودور المدن وأهميّتها ،وكذا تأثير العوامل الطبيعية والبشرية على عمران المدن سلبا وإيجابا. فالعمارة عند ابن خلدون جزء لا يتجزأ من المجتمع ،بل هي الّتي تميّزه عن باقي المجتمعات البشرية ،وذلك عبر مراحل تطوّرها ،أو تراجع دورها ،كما أنّه من خلالها يمكننا الوقوف على مدى تقدّم علومها وفنونها. والعمران عند ابن خلدون قسمان:

أولا: العمران البدوي:

يتجسّد العمران البدوي في أولئك الّذين شغلهم الرعي، وخدمة الأرض، وزراعتها وتربية الحيوان، واستغلال نتاجه ،ومنه «كان حينئذ اجتماعهم ،وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم

([1])- على سبيل المثال نجد عبد الواحد المراكشي يطنب في وصف الخليفة الموحدي أبا يعقوب يوسف ،ويقف على الجزئيات الدقيقة في جسمه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه كقوله : «كان أبيض، تعلوه حمرة، شدّيد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه، أعين، إلى الطول ما هو، في صوته جهارة، رقيق حواشي اللسان، حلو الألفاظ ...». بينما لم يخصّص هذا المؤرّخ أكثر من نصف صفحة لوصف مدينة مراكش، ونفس الكلام يقال على صاحب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ،أنظر: إبراهيم القادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي...، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1994، ص 124-125.

وعمرانهم من القوت والسكن ،والدفء إنّما هو بالمقدار الّذي يحفظ الحياة ،ويحصل مبلغ العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك»[1].

فقد كانت شروط حياة سكان البوادي، وأنماط معيشتهم، أو إنتاجهم تفرض عليهم عدم الاستقرار في مكان واحد ،بل الحركة المستمرّة. ومنه لم يكن اتّخاذ المدن أمرا ضروريا لذلك. إلاّ أنّ اتّساع أحوالهم ،وتحصيلهم لما فوق حاجاتهم من الغنى ،وكثرة الأرزاق إذ «تعاونوا في الزائد على الضرورة ،واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها»[2] ،وعند حصول ذلك أسرع هؤلاء النّاس إلى «توسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر»[3] ،فكان سكان البوادي بذلك يشكّلون أصلا للمدن والعمران كما يقرّه ابن خلدون حينما يورد : «فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما ؛لأنّ أوّل مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلاّ إذا كان الضروري حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقّ الحضارة ،ولهذا نجد التمدّن غاية للبدوي يجري إليها»[4]. وكانت حجّة ابن خلدون فيما ذهب إليه «إنّا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أوّلية أكثرهم من أهل البدو الّذين بناحية ذلك المصر ،وفي قراه ،وأنّهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الّذي في الحضر»[5].

ثانيا: العمران الحضري:

يقرن ابن خلدون العمران الحضري بذلك الناتج عن التطوّر الحاصل للنمط الأوّل من العمران ،فالحاجة للاستقرار ،ثمّ بناء البيوت والمدن هو تشكّل للعمران الحضري ،فيقول عن أولئك الناس أنهم :«يتّخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالجون في صرحها ،ويبالغون في تمجيدها ،ويختلفون في استجادة ما يتّخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون ،وهؤلاء الحضر. ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان»[6].

وبناء على التقسيم الخلدوني للعمران والّذي قرنه بأنماط العيش الّتي لا يمكن أن تنفصل عنه يتجلّى لنا مفهوم ابن خلدون للمدينة، و الّتي تكون حسبه ظاهرة اجتماعية مرتبطة أساسا

(1)- ابن خلدون: المقدمة، ص 97.

(2)- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3)- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4)- المصدر نفسه، ص 99.

(5)- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6)- المصدر نفسه، ص 97.

بنمط الحياة الخاص بالسكان ،إضافة إلى أنّها تعكس ذلك التطوّر التدريجي من مرحلة الحياة الريفية وصولا إلى حياة الاستقرار والتحضر وبناء المدينة حتّى يصبح جزءا لا يتجزأ منها ،ولاشكّ أنّه حينما يتخلّى عن عصبيته القبلية ،والخضوع لقوانين الحياة المدنية ،وكذا الشعور بالانتماء للمدينة.

وفي نفس المجال نجد تعليقا لآزاد محمد علي[1] حول النظرة الخلدونية للعمارة الّتي تجاوزت الطرح الاجتماعي إلى الدراسة (الفيزيائية) ،ذلك أنّ ابن خلدون يجعل من العمران ضرورة بشرية ،في الوقت الّذي تكون العمارة حسبه أكثر من ضرورة على اعتبار أنّها أساس ذلك العمران ،وعليه فأيّ اجتماع للبشر أو تعاون لهم يستلزم أن يتموضع في مجال جغرافي محدّد ،أي ضرورة وجود وعاء يعمل على تنظيم ذلك الترابط والتواصل البشري ،الّذي يتجسّد عمليا في أشكال السكن والعمارة.

ونبقى مع آزاد محمد علي الّذي يضيف إلى النظرة الخلدونية الّتي تجعل من العمارة جوهرا للفلسفة المكانية ،ذلك أنّ التطوّر الحاصل في جانب الحرف، وكذا ازدياد التعاون بين أفراد المجتمع يشكّل لنا في النهاية تشييد عمارة منظّمة ،ومتينة، تعدّ محصّلة لثمرات الترف الناتج عن المهن التجارية والصناعية[2].

وبالتالي يكون ابن خلدون قد درس جميع جوانب المدينة، من تخطيط، واختيار الموضع وعوامل تطوّر المدن وازدهارها، ودور العامل البشري في ذلك ،بل ويذهب إلى أكثر من ذلك ،حيث يرقى البناء على حدّ تعبيره ،إلى درجة تلك الصنائع الهامة في حياة المجتمعات ،وهو ما نعرضه على لسان هذا المؤرّخ حينما يقول: «أوّل صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتّخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن ذلك أنّ الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بدّ أن يفكّر فيما يدفع عنه الأذّى من الحرّ والبرد كاتّخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها»[3].

2- المفهوم الجغرافي للمدينة:

إذا رُمنا الوصول إلى مفهوم شامل للمدينة الإسلامية، وإبراز صورة كاملة عنها ،فلا مناص من الوقوف على مقولات الجغرافيين أيضا ،وما حدّدوه من مفاهيم بشأنها ،حتّى نتمكّن

(1)- محمد علي آزاد، وآخرون: الفكر الاجتماعي الخلدوني، المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، (د.ط)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2004، ص 174.

(2)- المرجع نفسه، ص 178.

(3)- ابن خلدون: المقدمة، ص 329.

من ضبط مختلف المصطلحات المتعلّقة بالمدن ،وقد آثرنا دراسة المفاهيم الّتي ساقها الجغرافي المقدسي ،الّذي يعدّ من أكثر الجغرافيين دقة في هذا المجال ،فقد أعطى ثلاث مفاهيم وتحديدات تتعلّق بمسألة العمران والمدن[1] ،ارتبطت بتعريف الأمصار[2] والمدن ،والأقاليم والنواحي ،وقد وقفنا على أن التحديدات الّتي أوردها هذا الجغرافي تمثّل لنا أربع وجهات نظر كما هو مفصّل فيما سيأتي تبعا:

أولا: الفهم الجغرافي:

يحدّد لنا المقدسي هذا الفهم بعدما قسّم العمران إلى أصناف تراتبية حسب درجتها وذلك بقوله:«اعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالرجالة»[3] وبتفسيره لهذه التعابير يصل إلى تحديد خصائص المدينة ،حيث يقول: «وأمّا نحن فجعلنا المصر كلّ بلد حلّه السلطان الأعظم ،وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال ،وأضيف إليه مدن الإقليم مثل دمشق[4] والقيروان...» [5] ،وهكذا يكون المقدسي قد أعطى مفهومه للمدينة محدّدا إياه بالموضع الّذي يستقرّ فيه الحاكم ،وتقوم فيه دولته بدواوينها ومختلف أعمالها.

ثانيا: رأي الفقهاء في المدينة:

إذ يذكر تعريف الفقهاء للمدينة، ويردّ عليهم فيقول: «فقالت الفقهاء: المصر كلّ بلد جامع يقام فيه الحدود ويحلّه أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه»[6].

ثالثا: الرأي المتداول بين الناس:

وهو ما كان متداولا بين النّاس بالنسبة إلى مفهوم المدينة فيقول: «والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل»[7].

([1])- عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص 71.

([2])- مفردها مصر، وهو يطلق على المدينة، وعلى الكورة الّتي يقسّم فيها الفيء، والصدقات، وتقام فيها الحدود، أنظر: محمد محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ط3، دار العلوم للطباعة و النشر، الرياض، السعودية، 1419هـ-1999م، ص 294.

([3])- شمس الدين محمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، علّق عليه، محمد أمين الضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2004م، ص 44.

([4])- لفظ دمشق، مشتق من دّمشق، وناقة دمشق أيّ سريعة، أو خفيفة الخطو، وهذه الكلمة ليست عربية، بل هي معرّبة، والدمشقة السرعة في المشي، وكل سريع دمشق، أنظر: علي بن الحسن ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج1، تح، محب الدين العمروي، (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415هـ -1995م، ص 19-20.

([5])- المقدسي: المصدر السابق، ص 46.

([6])- المصدر نفسه، ص 44.

([7])- المصدر نفسه، ص 45.

رابعا: وجهة نظر اللغويين:

ويرى هؤلاء الفقهاء أنّ المدينة أو المصر هي كلّ ما حجز بين جهتين مثل البصرة. هذا يضيف المقدسي إلى ذلك أنّ هذه الأمصار قد تكون لها نواح ،وأقاليم فيها مدن تابعة لها ،مثل تبعية الزاب لإفريقية. وأمّا هذه الأقاليم فلها مكوّناتها «ولا بدّ لكلّ إقليم من كور ثمّ لكلّ كورة من قصبة ثمّ لكلّ قصبة من مدن»[1].

أمّا مفهومه للنواحي فيضرب لنا المقدسي مثالا عن مجموعة نواحي قرطبة الّتي سأل عنها فقال: «قلت: هل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن؟ قال: لا ،قلت: فإشبلية وبجانة وذكرت عدّة من البلدان؟ قال: هذه نواح لها أقاليم كما تقول القيروان ،وتاهرت»[2].

ومن خلال المفاهيم الّتي أوردها المقدسي، يتجلّى لنا مفهوم المدينة في أنّها المكان الّذي يستقرّ فيه السلطان ،ويتّخذ فيه منبره ،ويدير انطلاقا منه شؤون بلاده ،وذلك يقتضي حسب هذا الجغرافي وجود سلطة قائمة بكيانها ،بمختلف دواوينها وتنظيماتها ،تسهر من خلالها على ضمان استقرار الرعية بالمدن ،وذلك بعدما قدّم استشهاداته على المفاهيم الّتي عرضها بشأن المدينة ،أو بالأحرى المصر ،وعليه تكون المدينة بذلك أحد وجوه السلطة ومظاهرها.

والحقيقة أنّنا إذا ما استبعدنا المفهوم الشائع عند النّاس للمصر، ونظرة اللّغويّين له ،قد نصل إلى أنّ مفهوم المقدسي لا يناقض ما جاء به الفقهاء من مفاهيم حول المدن بل نجد أنّ هناك خصائصا مشتركة بين التفسير الفقهي والجغرافي للمدينة ،أو بمعنى آخر بين التفسير النظري والتطبيقي ،فيكون المكان عندئذ له تقريبا نفس المواصفات ،كما واضح في الجدول الآتي:

المدينة عند الفقهاء	المدينة عند الجغرافيين
- البلد الجامع، المسجد الجامع.	- أن يحلّ المكان السلطان الأعظم.
- تقام فيه صلاة الجمعة، مختلف الحدود.	- أن تجمع إليه الدواوين.
- يحلّه أمير.	- أن تقلّد منه الأعمال.
- يقوم بنفقته ويجمع رستاقه(الكور).	- أن تضاف إليه مدن الأقاليم[3].

(1)-المقدسي: المصدر السابق، ص 44-47.

(2)- المصدر نفسه، ص 189.

(3)- عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص 73.

ومنه المقصود بتعبير السلطان الأعظم كما أشار إليه المقدسي يعادل منصب الأمير الّذي ذكره الفقهاء ،إضافة إلى أنّ المدينة عند الفقهاء ارتبطت بإقامة أركان الدين، خاصة شروط إقامة صلاة الجمعة في المسجد الجامع[1].

4- المدينة في نظر الفقهاء:

بعد الفوائد الّتي استقيناها ممّا أورده القرآن الكريم، والأحاديث النّبوية الشريفة بخصوص تحديد المفاهيم المتعددة للمدينة، فإنّه حريّ بنا أن نعرّج على موقف الفقهاء منها ،فهل كان للفقهاء رأي خاص حول المعايير والخصائص والمميّزات الّتي يشترط توافرها في مكان محدّد لكي تكون مدينة؟

إنّ الأكيد في ذلك هو وجود اتفاق بين فقهاء المسلمين حول الشروط الّتي يجب توافرها في عقد وإقامة الصلاة الجامعة في يوم الجمعة ،والّتي لا تقوم إلاّ في المسجد الجامع الّذي يمتاز بالخصوصية التمدّنية ،وذلك طبعا وفقا للمفهوم العربي الإسلامي ،وبالتالي فإقامة هذه الصلاة لا تكون في أيّ مكان دون تحديد ،بل يشترط أن تكون إقامتها في الأمصار ،مثل ما يقرّه الماوردي[2] الّذي أشار بشأن صلاة الجماعة قائلا: «لا يجوز إقامة الجمعة إلاّ في وطن مجتمع المنازل، يسكنه من تنعقد بهم الجمعة ،ولا يضعنون عنه شتاء و لا صيفا ،إلاّ ضعن حاجة ،سواء كان مصرا أو قرية»[3]، و منه فإنّ المدينة حسب الماوردي تـــعني المكان الّذي يجتمع فـــيه النّاس ،فضلا عن أنّ هذا يتوافق وما ذكرناه سابقا بشأن الآراء التي عرضها أصحاب المعاجم اللّغوية حول مدلول المدينة ،ثم يضيف الماوردي إلى ذلك الشرط شرطان آخران هما:

- ضرورة الاستقرار والإقامة في ذلك المكان ممّن تنعقد بهم صلاة الجمعة.
- عدم الضعن، أو الرحيل، صيفا أو شتاء لأولئك النّاس[4].

([1]) -*MARCAIS Georges: «La conception des villes dans l'Islam», <u>revu d'Alger</u>, numéro 10, Tome 2, Alger, 1945, p 526.*

([2])- علي بن محمد الماوردي: كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح، أحمد البغدادي، ط1، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ-1989م، ص 134.

([3])- إنّ مصطلح قرية يقع على المدن وغيرها، والقرية لفظ يماني الأصل، أطلق أساسا على كل مكان اتّصلت أبنيته، وتطوّر المعنى فيما بعد بحيث أصبح مفهوم القرية يدل على ما هوأصغر من المدينة، والقرية لا يكون لها أسوار، وإذا أحاطها سور تصبح مدينة، أنظر: محمد محمدين: المرجع السابق، ص294.

([4])- الماوردي: المصدر السابق، ص 134.

وإذا كان الفقهاء قد اتّفقوا على أنّ صلاة الجمعة تكون في الوطن المجتمع المنازل ،فإنّهم لم يحدّدوا عدد تلك المنازل برقم ،أو عدد معين بل اختلفوا في عدد الأشخاص الّذين تنعقد بهم صلاة الجمعة بين من يقول تنعقد باثنين فأكثر ،أو أربعة فأكثر ،ومن يقول بما يزيد عن الأربعين[1].

إلاّ أنّه و رغم توافر الأربعين شخصا في مكان ما كنصاب شرعي لإقامة الصلاة في ذلك المصر أو المدينة ،فإنّ هذا الرقم ومهما تضمّن الكثرة العددية غير أنّه لا يرقى لأن يكون مدينة من حيث اجتماع ذلك العدد.

و بالإضافة إلى ما سبق فإنّ هناك من الفقهاء من يحدّد مفهوم المدينة بناء على المكان الّذي يحتوي على المسجد الجامع ،ودار الإمارة[2]، وحولهما تبنى الدور ،والمساكن، ويمتدّ العمران في الأحياء المحيطة بالمسجد في مختلف الاتّجاهات[3] ،وهم يعتمدون في ذلك على المسجد النّبوي في المدينة المنورة كمقياس ،وأصلا للتوسّع العمراني الإسلامي.

أمّا زكرياء بن محمد القزويني فيضع لنا أصولا مهمة لتحديد مفاهيم المدينة، وذلك بناء على الحاجات الدّاعية إلى إحداث تلك المدن[4] ،والقرى فنجد المدينة حسبه هي تلك الحالة الّتي تضطرّ الإنسان إلى الاجتماع بغيره ،حتّى يحصل على الهيئة الاجتماعية، الّتي يتوقّف عليها المطعم والملبس ،واللّذان موقوفان على حدّ تعبيره على مقدّمات كثيرة لا يمكن لكلّ واحد القيام بجميعها وحده[5]. بل يذهب إلى حدّ السؤال حول كيف للشخص الواحد أن يتولى الحراثة ،وهي موقوفة على آلاتها وآلاتها تحتاج إلى النجّار ،والنجّار يحتاج إلى الحدّاد ،وكيف يقوم بأمر الملبوس وهو موقوف على الحراثة ،والحلج ،والغزل ،والنسج. وبذلك فإنّه على رأي القزويني تكون الحكمة الإلهية قد اقتضت الهيئة الاجتماعية ،حتّى ينتفع بعضهم ببعض ،وبذلك يضع قواعد الاجتماع الإنساني الّتي تقتضي التعاون ،والكامل ،ويضرب على ذلك مثلا بقوله: «فالخبّاز يخبز الخبز

([1])- سيد سابق: فقه السنة، ج1، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1419هـ-1998م، ص231، ناصر الدين الألباني:تمام المنة في التعليق على فقه السنة،ط4،دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، 1417هـ-1996م،ص 331.

([2])- محمد بن الحسن بن زبالة: أخبار المدينة، جمع وتوثيق ودراسة، صلاح عبد العزيز سلامة، ط1، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1424هـ-2003م، ص 31.

([3])- سيد بيسوني: فن العمارة، (د.ط)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007، ص132-133.

([4])- يرى الجويني أنّ بناء المساكن داخل المدن يجب أن يقتصر على مقدار الحاجة، ويحرم ما يتعلّق بالتنعيم، أنظر: الجويني أبوالمعالي: غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق ودراسة، مصطفى حلمي و فؤاد عبد المنعم أحمد، (د.ط)، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1979، ص 350.

([5])- زكرياء بن محمد القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص07.

،والعجّان يعجنه ،والطحّان يطحنه، والحرّاث يحرثه ،والنجّار يصلح آلات الحرث ،والحدّاد يصلح آلات النجار ،وهكذا تحصل الهيئة الاجتماعية»[1] ونتائجها تشكّل المدن والقرى ،والأمصار والديار[2].

وأمّا ابن الرامي البنّاء[3] (ت 734 هـ/1333م)، فقد وضع قواعدا للعمران وأسسا لبناء مرافق للمدن، شريطة ألاّ تكون مضرة بسكّانها ،مثل ما تعلّق بدخان الحمّامات والأفران وما قاربه ،أو ما تعلّق بأضرار الروائح الناتجة عن دبغ الجلود ،ونفس الشيء بالنسبة لمواضع الكمادين[4] والأرحية ،فيذكر عن مجاري مياه الدور على وجه الأرض ،ومياه الميازيب الّتي ترمي في الزقاق ،أنها إمّا ماء المطر أو ماء الغسّالات وللاستدلال على ذلك يورد مقولة: « المعلم محمد فيمن بنى درا أو أراد أن يخرج ماء صحن الدار على الطريق فلا يخلو إمّا أن يكون ذلك ماء الغسّالات ،أو ماء المطر ،فإمّا إن كان ماء الغسّالات منع ،وقد قال ذلك سحنون[5] ونقله ابن يونس في شرح المدونة[6]... وقد نزلت هذه بالقيروان وذلك أنّ أكثر ديارها يخرجون ماء الغسّالات في ثقب

(1)- القزويني :المصدر السابق، ص07.

(2)- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، (د.ط)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1408هـ-1988م، ص 20.

(3)- هو محمد بن إبراهيم اللخمي ويكنّى بأبي عبد الله الشهير بابن الرامي البناء، عاصر بعض قضاة الجماعة بتونس أمثال الغوري الصفاقسي المتوفى سنة 699هـ/1299م، وابن القطان السوسي، وابن عبد الرفيع المتوفى سنة 733هـ/1332م، ومحمد ابن الغمار، وقد ربطته بهم علاقة بحكم أنّه كان له النظر فيما يحدث في الأسواق والطرق من بنيان ويكلفه قاضي الجماعة بمعاينة النوازل الّتي ترفع إليه من المتخاصمين لما له من خبرة مهنية بأحوال البناء، أنظر: محمد ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنيان، تح، فريد بن سليمان، تقديم، عبد العزيز الدولاتي، (د.ط)، مركز النشر الجامعي، (د.ب.ن)، 1999، ص15.

(4)- الكماد: القصار الّذي يدقّ الثوب ويحوره، أنظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تقديم، محمد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1422هـ-2001م، ص 285.

(5)- هو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، وهو من أصل شامي من حمص، وقد سمع بإفريقية من علي بن زياد، والعباس بن أشرس وغيرهم ثمّ رحل إلى المشرق سنة 188هـ/804م، فسمع من العلماء بمصر، وبالمدينة، وبالشام ومكة، ثمّ قدم إلى القيروان سنة 191هـ/807م، فكان أوّل من أظهر علم أهل المدينة بالمغرب، توفي سنة 240هـ/854م، أنظر: عبد الرحمن بن محمد الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مج1، علّق عليه، أبو القاسم بن عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1426هـ-2005م، ص 42-54.

(6)- رواها الإمام سحنون التنوخي (160-240هـ)، وأصلها من سماع أسد بن الفرات المتوفي سنة 213هـ/828م، عن أبي القاسم، وهما من أصحاب مالك، فأخذها سحنون ورتّبها، ومات قبل أن يكملها، حول المدونة، أنظر:المرجي الثقفي: كتاب الحيطان أحكام الطرق والسطوح والأبواب ومسيل المياه والحيطان، تح، محمد رمضان يوسف، (د.ط)،دار الفكر المعاصر، بيروت، 1994،ص263-268، وللمزيد أنظر: إبراهيم بن نورالدين ابن فرحون:الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح، مأمون الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1417هـ-1996م، ص 161-162.

تحت باب الدار فتسيل إلى الشارع فدخلتها بسبب حاجة فرأيت أكثر ديارها يسيل ماء غسّالاتها على بابها فتحدّثت مع القاضي في ذلك... فأمر برّاحا يبرّح في البلد من لم يسد مجاري داره الّتي يسيل منها الماء في الزقاق أدّبت»[1].

كما يضع ابن الرامي شروطا لتنظيم الأرصفة والشوارع ،والطرقات بالمدن ،وما يجوز وما لا يجوز في الطريق فيقول: «قال سحنون: لا يمنع من ذلك وإنّما يمنع من الإضرار في التضييق بالسكّة إذا أدخل عليها ما يضرّ بها، أو يضيقها»[2] ،وكذلك ما تعلّق بالدكانة[3] بقوله: «وأمّا الدكانة الّتي تبنى برسم الجلوس تقابل باب[4] دار أحد تهدم وإن كانت لا تضرّ بالمار» ،ثمّ يضيف وسئل سحنون عن ذلك فقال: «يمنع من بنيانها إذا كانت تضرّ بالآخر»[5].

و هكذا فقد أخذنا ابن الرامي إلى مجال دقيق فيما يتعلّق بنظام المدينة في مصنّفه الشامل لكلّ ما له علاقة ببناء المدينة وشوارعها ،وبناء دورها، ونظم المياه، والقنوات والمجاري والطرق ،وغيرها كثير وإن كان هذا مجال آخر ،إذ لا يمكننا التوسّع أكثر فيه ،فإنّ ما يهمّنا فيه هو تلك التشريعات الّتي وضعت في مجال البناء الّذي أخضع إلى قوانين مستخرجة من ديننا الحنيف.

كما أخذت العمارة الإسلامية وفقهها قسطا وافرا من اهتمام الفرسطائي (ت 504هـ/ 1110م) ،حيث عالج صاحب هذا المصنّف أدقّ مسائل العمران[6] والمدن والقرى ،بدءا باختيار مواضع بنائها ،فبناء الحيطان ،ثمّ أحكام بناء المساجد وإقامة الأسواق ،ومساحات الشوارع ،وكذا القواعد الّتي تنظّم حياة السكان كحقوق الجيران[7] ،وغيرها من مسائل العمران والبناء.

([1])- ابن الرامي: المصدر السابق، ص 145، وللمزيد أنظر: أبوإسحاق إبراهيم أطفيش: مخطوط مختصر العمارات، مكتبة أبي إسحاق أطفيش للتراث، غرداية، الجزائر، ص 05-06.

([2]) ابن الرامي: المصدر السابق، ص 149.

([3])- هي الدكة المبنية للجلوس عليها أمام المنازل، أنظر: ابن الرامي: المصدر السابق، ص 150.

([4])- عمد كذلك عرفاء البناء إلى منع الأبواب من أن تكون متقابلة، باعتبار ما ينتج عن ذلك من كشف عورات الجيران وإيذائهم، أنظر: محمد بن حمو: «العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي»، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004-2005، ص 46.

([5])- ابن الرامي: المصدر السابق، ص 150.

([6])- اهتمّ الدارسون كثيرا بالعمران، حتّى أفردوا له علما خاصا به عرف بعلم العمران، والّذي تتوفّر فيه الشروط المطلوبة في العلم مما يجعله جدير بهذا الاسم، وهذا العلم هوالجسم الاجتماعي، الذي يبحث في طبائع العمران، أنظر: محمد الجابري: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ،1994، ص 106.

([7])- أحمد بن محمد أبوالعباس الفرسطائي: القسمة وأصول الأراضين كتاب في فقه العمارة الإسلامية، تحقيق وتعليق، بكير بن محمد بلحاج ومحمد الصالح ناصر، ط2، جمعية التراث القرارة، غرداية، الجزائر، 1418هـ-1997م، ص 192.

فبخصوص مسألة بناء الدور والبيوت، وما ينجم عنه من ظهور للمدن يضع الفرسطائي قواعدا لذلك بقوله: «... إذا أراد قوم أن يحدثوا منزلا عامة كانوا أو خواص فإنّهم يحدثونه في أرضهم أو في أرض من أذن لهم، أو في أرض لم تكن لأحد ،كما اتّفقوا على حدثه وعمارته فيما يعمّر كلّ واحد منهم ،ويجوز لهم الاتفاق على عمارته بالتسوية ،وعلى ما لهم فيه قلّ أو كثر ،ويجعلون له طرقه ،ومجازاته ومنافعه على ما اتّفقوا عليه من سعة طرقه وذلك باتفاقهم كلّهم العام منهم والخاص أو ما رأى لهم أهل النظر منهم أو من غيرهم ممّا اتّفقوا عليه من البنيان والإحداث ،فإن بنوا أو عمّروا أو أحدثوا فلا يصيب من أراد منهم نقص ذلك ولا نزوعه سواء في ذلك عامّتهم أو خاصّتهم أو غيره من النّاس»[1].

و حقيقة الأمر فإن خصائص ومميّزات المدينة الإسلامية تتجلى في تلك التعاليم الدينية الإسلامية الّتي تمنع ما يمكنه أن يضر بسلامة حياة المجتمعات ،أو ما يسبّب الأذى للغير ،ودفع كل ما يتعارض وقيم الدين الإسلامي ،هذه القيم التي تحدد سيرورة البناء ،وتمنع أنواع المبالغة في العمارة ،وتحثّ على الاقتصار على ما هو ضروري للحياة[2].

وهو ما يؤكده الفرسطائي حينما يتطرّق للمرافق العامة للمدينة الإسلامية وكيفية المحافظة عليها ،فيحدّد مواضعها في أحياء تخدم المصلحة العامة ،ومن جهة أخرى تفادي اتّخاذ الدور لغير ما أنشأت إليه من غرض، وذلك تفاديا لما ينجم عن ذلك من اضطراب في الحياة الاجتماعية ،أو الإضرار بسكان المدينة ،كما يحدّد أيضا حريم المدينة وآدابه بقوله: «وهذا الحريم إنما يمنع منه أصحاب المدينة من أراد أن يحدث مدينة أخرى بجانب مدينتهم ،وكذلك أصحاب القصر ،إنّما يمنعون من أراد أن يحدث قصرا آخر بجانب قصرهم ،وأمّا غير هذا من العمارة ممّا لم يضر بأصحاب المدينة وأصحاب القصر فلا يمنعون منه»[3].

وهكذا فقد طرق الفرسطائي فقه العمارة الإسلامية ووضع أسسها وقواعدها وشروطها كما حدّد نظمها ،ومجالات توسّعها، وحقوق الأشخاص، وعلاقاتهم مع غيرهم داخل المدينة.

II- المستشرقون والمدينة الإسلامية :

كان التراث العربي الإسلامي المتنوّع محلّ اهتمام الباحثين، والدارسين الأجانب، الّذين بذلوا جهودا كبيرة في دراسته، رغم كونه عالما غريبا عنهم ،وكانت المدينة جزءا من ذلك

([1])- الفرسطائي: المصدر السابق، ص 97.

([2])- الجويني: المصدر السابق، ص 350.

([3])- الفرسطائي: المصدر السابق، ص 448، محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 35.

الاهتمام ،إذ أخذت حظا وافرا من الدراسة الّتي عني بها المستشرقون الأوربيون[1] . وقد تباينت الدراسات الّتي قام بها هؤلاء المستشرقون بخصوص المدينة من حيث منطلقاتهم[2] وتعدّد جوانبها والغاية من دراستها ،فكانت دراستهم تتعلّق بالتركيبة الاجتماعية للمدينة ،والمكوّنات الّتي تشكّل كيانها ،وكذا المرافق المتوفّرة بها ،بيد أنّ ما يلفت الانتباه في هذا المجال ،أنّ أغلب الدارسين للمدينة الإسلامية ،قد جرّدوها من طابعها الإسلامي ،عندما أخضعوها لأحكام المدن الرومانية والإغريقية ،الّتي تعدّ حسب هؤلاء مقياسا للمدينة الإسلامية ،وهو ما سنقف على بعض من تفاصيله فيما يأتي تبعا:

يضع بين أيدينا عبد الجبار ناجي إحدى التحديدات المتعلّقة بالمدينة ،والّتي تستند إلى الدور السياسي والعسكري الّذي تؤدّيه هذه المدينة ،والّذي يقتضي وجود برج[3] (*Castle* أو *Burg*) ،وهذا الرأي الاستشراقي يعتبر المدينة قلعة حصينة ،يحتمي بها سكّانها من أيّ خطر خارجي، أيام الحروب والاضطرابات ،وبالتّالي فإنّ أصحاب هذا الرأي يركّزون على ضرورة بناء الأسوار والقلاع ،والزيادة في تحصينها، لدفع أيّ خطر يهدّد كيانها[4]. وهذا المفهوم الخاص بالمدينة الإسلامية يجعل الحروب والصراعات بين تلك المدن سبب وجودها وعامل قوّتها ،في

(1)- الاستشراق: تسمية تطلق على جملة الدراسات ذات الطابع اللّغوي، أوالتاريخي، و الّتي شملت أوّل الأمر لغات منطقة الشرق الأوسط، وثقافته، ثمّ توسّعت فيما بعد لتشمل الشرق بأكمله، أي مناطق آسيا وإفريقيا، ومن التسميات الّتي تطلق وهي مرادفة لمصطلح الاستشراق: علم الإسلاميات، الأبحاث الإسلامية. أمّا المستشرقون فقد تناولوا جميع الدراسات الشرقية بصفة عامة، والعربية بصفة خاصة، ولهم دوافع نفسية، تاريخية، اقتصادية، استعمارية وعلمية. ويرى بعض المؤرّخين أنّ أكثرهم من شوّه التاريخ الإسلامي، بهدف طعن الإسلام والسيرة النبوية، أنظر: محمد ياسين صريفي: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، ترجمة، سمير إبراهيم، ط1، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، مصر، 1408هـ-1988م، ص 14-15، وللمزيد أنظر: كلوس كريزر، وآخرون: معجم العالم الإسلامي، ترجمة، ج. كنورة، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1418هـ-1998م، ص 40-41، و للمزيد أكثر أنظر: إبراهيم خليل أحمد: المستشرقون والمبشرون في العالم العربي الإسلامي، (د.ط)، مكتبة الوعي العربي، الفجالة، 1384هـ-1964م، ص 73.

(2)- يعتقد الكثير من الباحثين في تاريخ الاستشراق، أنّ الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق، ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا، وحتّى نهاية القرن 19 م لم يكن الاستشراق قد حرّر نفسه من آثار الخلفية الدينية الّتي اشتقّ منها أصلا إلاّ بدرجة ضئيلة، أنظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1997،ص74، وللمزيد أنظر: عبد الله العروي: مفهوم التاريخ،ج1،ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت،لبنان،1997،ص 219.

(3)- البرج: والجمع أبراج وبروج، والبرج من المدينة بالضمّ هو الركن والحصن، وفي الصّحاح برج الحصن ركنه، والبرج كذلك قلعة أو كورة بنواحي حلب، أنظر: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس،ج5، تح، مصطفى حجازي، مراجعة، عبد الستار فراج، (د.ط)، مطبعة حكومة الكويت، الكويت 1389هـ-1969م،ص415.

(4)- عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص 16.

الوقت الّذي يكون ذلك مرتبطا بجوانب أخرى ،تخضع لظروف معينة ،بل وأكثر من ذلك قد تؤثّر سلبا على عمران هذه المدن ،كشأن مدن المغرب الأوسط والأدنى ،و الّذي نحن بصدد دراسته.

وتكون المدينة عند لويس ممفورد ذلك المكان للاجتماع الّذي يختلف إليه النّاس من حين لآخر ،قبل أن تصبح مقرّا للإقامة الثابتة ،ويكون ذلك الاجتماع بغية إقامة الطقوس الدينية وبالتّالي كان ذلك المكان «كعبة يحجّ إليها النّاس ترتكز فيه قوى روحانية معينة خارقة للعادة»[1].

أمّا عالم الآثار والمهتم بعمارة المغرب جورج مارسيه[2] ،فقد قسّم المدن إلى مدن طبيعية ،التي نمت على حد تعبيره طبيعيا بين مجموع السكان ،وبعد مدّة زمنية اتّخذوها مقرّات لهم للدفاع عن أنفسهم أمام الخطر الأجنبي. أما النوع الثاني فهي المدن المحدثة الّتي قامت بعد أن اختار الإنسان موضعها ،وخطّ حدود المدينة بغية استخدامها لحاجته[3].

جورج مارسيه كانت له وجهة نظر تقضي بأنّ الإسلام انتشر في أغلب مناطق العالم القديم الّذي كانت مدنه عامرة بالسكان، وهذه تشكّل عمرانها في فترات زمنية سبقت ظهور الإسلام بزمن طويل ،حيث استقرّ فيها الإنسان ،وصنع مجدها ،وبنى حضارتها ،مثل: مكة ،دمشق ،قرطبة وقسنطينة ،هذه المدن حسبه لم يؤسّسها المسلمون ،وإنّما استقرّوا فيها بعد فتحها ،وتمكّنوا من إضفاء الطابع الإسلامي عليها[4].

والّذي لا شكّ فيه أنّ هناك مدنا في بلاد المغرب ساهم المسلمون الفاتحون في إضفاء الطابع الإسلامي عليها ،ذلك أنّهم لم يعمدوا إلى هدم المدن الّتي وجدوها قائمة ،وفي المقابل بنيت مدن جديدة على أرض المغرب سواء من طرف المسلمين الفاتحين بعد استقرارهم في المنطقة ،أو من سكّانها المحليين ،وأخذت هذه المدن طابعا إسلاميا محضا ،بجميع مكوّناتها ،ويكفينا مثالا على ذلك: مدينة القيروان ،تيهرت ،أشير وقلعة بني حماد.

([1])- لويس ممفورد: المدينة على ممرّ العصور، أصلها وتطوّرها ومستقبلها، ج1، ترجمة وتعليق، إبراهيم نصحي، (د.ط)، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة-نيويورك، 1964، ص 15.

([2])- جورج مارسيه (1876-1962): هوعالم وأثري من أعلام الحضارة الإسلامية، تخرّج من مدرسة الفنون الجميلة، و نال لقب دكتوراه في الأدب، وقد عيّن مديرا لمعهد الدراسات الشرقية في الجزائر سنة 1913، ثم أستاذا للآثار في كلية الآداب بالجزائر عام 1919، و من بين آثاره: الفن الإسلامي والعمارة، تاريخ العرب في بلاد البربر، وغيرها، أنظر: يحي مراد: معجم أسماء المستشرقين، ط1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م، ص 651.

([3]) -*MARÇAIS Georges: Op. Cit, p 517.*

([4]) -*Ibid, p 517.*

ويرى أحد المستشرقين المهتمين بدراسة المدينة الإسلامية و هو جان لوي ميشون ،أنّ هذه المدينة شأنها شأن المدينة الرومانية القديمة ،ما هي إلاّ جماعة كبيرة من الأفراد الّذين يمتثلون لقوانينها. ويضيف بخصوص المدينة الإسلامية، أنّها تضمّ كل من يتّخذ الإسلام دينا ويشعر بالانتماء لهذه المدينة، وبأنّه مواطن فيها سواء كان منفردا أو في جماعة ،مقيما كان أو مرتحلا، من أهل البادية أو من أهل الحضر[1].

جان لوي ميشون ربط نجاح بناء الجماعة الحضرية في المدينة ،بما وضعه القرآن الكريم من مبادئ تسير وفقها الجماعات البشرية، كما كانت المدينة المنّورة المنار الّذي يهتدي به الحكام المسلمون في مختلف نشاطاتهم من خلال الأثر الراسخ الّذي خلّفته «بفعل التأثير الثلاثي الثنايا للتتريل الحكيم وشخصية النّبي -صلى الله عليه وسلم- والانضباط الجماعي الّذي التزم به المؤمنون الأوائل» ،وذلك هو سرّ نجاح الفتوحات الإسلامية، الّتي لم «تؤد إلى تدمير المدن القديمة أو هياكلها ،إذ ظلّت أساسا مقصورة على المحاربين والجيوش النّظامية»[2].

وعليه فإنّ جان لوي ميشون الّذي يضع تعريفا واحدا لجميع المدن على اختلاف أصولها أخضع المدينة الإسلامية لأصولها الدينية من خلال بحثه المستفيض لشكل المدينة والمهام الّتي تؤدّيها ،والّتي تنحدر من غايات دينية وفق مصادر التشريع الإسلامي.

أمّا روجي لوتورنو(*Rogger le Tourneau*) [3] ،فقد أبرز تصوّره للمدينة الإسلامية والّتي تكون ميزها الأساسية أنّ شكلها يتوسّطه المسجد الجامع والسوق المركزي ،وكلّما يزداد حجم المدينة اتّساعا إلا وصاحبه توسّع المسجد والسوق بما يتوافق وحجم المدينة الجديدة[4].

و لا يكتمل شكل المدينة حسب لوتورنو إلاّ إذا كانت دار الإمارة قريبة من المسجد ،بحيث تشكّل الكيان السياسي ،الّذي تخضع له هذه المدينة. ويضيف أنّ المدينة تكون محاطة بأسوار تأخذ شكلا دائريا ،أو مربعا، غير أنّه في أغلب الأحيان يتجاوز السكان تلك الأسوار ،في ظلّ النمو السكاني المتزايد[5].

([1])- جان لوي ميشون: المؤسسات الدينية، سلسلة مقالات حول المدينة الإسلامية، إشراف، ر.ب. سرجنت، ترجمة، أحمد محمد تعلب، (د.ط)، اليونسكو، 1983، ص 13.

([2])- المرجع نفسه ، ص 16.

([3])- حول هذا المستشرق أنظر: يحي مراد: المرجع السابق، ص 624-625.

([4]) -*LE TOURNEAU Rogger : Les villes musulman de l'Afrique du nord, la maison des livres, Alger, 1975, p 11-12.*

([5]) -*LE TOURNEAU Rogger : Op.Cit, p 14-15.*

والحقيقة فإنّ دراسة لوتررنو للمدينة الإسلامية أخذت بعين الاعتبار الظروف التاريخية لنشأة وتطوّر المدينة المغربية ،مع مراعاة التشكيلات والنظم السياسية الّتي ارتبطت بها ،وذلك ما يضع هذه الدراسة في مصاف الدراسات الموضوعية للمدينة خاصة بالمغرب الإسلامي.

أمّا المستشرق ليوبولد تورس بالباس المهتم بدراسة المدن الإسبانية الإسلامية ،فيرى أنّ المدن الإسلامية «في الشرق والغرب على السواء، كانت تنقصها لائحة قانونية إدارية ،ومبان إدارية ،فلم تكن المدن تشكّل كيانا سياسيا ،بل كانت منظّمة على هيئة معسكرات تسمح للعامة من المواطنين من أداء واجباتهم الدينية ،والتمسّك بمثلهم العليا الاجتماعية» ،بل وأكثر من ذلك يضيف تورس بالباس أنّ الشريعة الإسلامية لم تنص على شيء خاص بتنظيم المباني ولا بموقعها أو خصائصها ولا بالتخطيط أو بعرض الشوارع والمباني المحيطة بها[1].

وعلى نفس المنوال يسير المستشرق الانجليزي ستيرن (*Stern*) الذي اعتبر المدينة الإسلامية «خالية من المؤسسات وبشكل أخصّ من النقابات ،كما أنّه وجد أنّ خططها مقتبسة من خطط جاهزة للمدن اليونانية القديمة كالشارع والسوق المركزية، ... بأنّ المدينة لا تحتوي على وحدة تركيبية وأنّ بنيتها العمرانية مضطّربة»[2].

ويحذو حذوهما المستشرق لامنس (*Lammens*)[3] الّذي ينتقد المدن الإسلامية الأولى والّتي هي على حدّ قوله تفتقر إلى الصورة المنظّمة فهي مدن نامية ،يقتضي لنجاح هذه المدينة أن تكون خطّطتها سلطة مركزية[4].

ومن هنا فإنّ أغلب التعريفات الّتي عرضناها بدت وأنّها تركّز على جانب من الجوانب المتعلّقة بظهور المدينة عبر التاريخ ،وغفلت عن جوانب أخرى في غاية الأهمية. إضافة إلى أنّها مفاهيم لا تعدو كونها صورة مباشرة لنمط عمارة المدينة الغربية. ومنه نكون جانبنا الصواب إذا ما أسقطنا هذه المفاهيم على المدينة الإسلامية ،هذه الأخيرة المتميّزة بخصائصها عن غيرها.

([1])- ليوبولد تورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة، إليودورو و دي لابنيا، (د.ط)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2003، ص 109.

([2])- عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص 35.

([3])- لامنس هنري: هو مستشرق بلجيكي شديد التعصّب ضدّ الإسلام، ولد في مدينة خنت البلجيكية سنة 1862م ،وتوفي في أفريل 1937، للمزيد أنظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين والتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 504-505.

([4])- عبد القادر جميل أكبر: المرجع السابق، ص 177.

كما أنّ تلك الآراء و الأحكام بشأن المدينة الإسلامية الّتي دافع عنها أصحابها تنمّ عن جهلهم بأحكام هذه المدينة ،بل تعبّر عن تعصّبهم الأعمى لآرائهم. و عليه فإنّ إخضاع المدينة الإسلامية للطابع الغربي ،وقوانين المدن الرومانية خطأ كبير وقع فيه أولائك المستشرقين ،ناهيك عن أن لهم نظرة ضيّقة عن مكوّنات باقي الحضارات الأخرى ،وعلى رأسها الحضارة الإسلامية.

ويدّعم موقفنا هذا، مصطفى شاكر القائل: «ليست مدينة الرومان أو الإغريق، أو المدينة الغربية بالمثل الأعلى الّذي يجب أن يكون القياس عليه ،أو النموذج الّذي يمكن أن يجمع الصفات العالمية الكاملة. فلكلّ مجموعة من المدن ،في رقعة معينة ملامحها»[1].

ويضيف إلى ذلك جميل عبد القادر أكبر بأنّ تلك الانتقادات الاستشراقية تعبّر عن انعكاس مباشر لمقارنة هؤلاء الباحثين للمدن الإسلامية بالمدن الإغريقية والرومانية. إضافة إلى أنّ السلطات المركزية هي من خطّط المدن الإغريقية والرومانية واعتبرت تلك المدن مدنا مثالية ،أو منظّمة أو مرتبة مستقيمة الشوارع، ومتميّزة بتحاذي المباني[2].

وعليه فإنّ المفهوم الإسلامي للمدينة هو أنّها «بناء اجتماعي يتّكون من مجموعات من الأفراد تتفاعل مع بعضها، وتسيطر الأنشطة التجارية والصناعية والخدمية على بنائها المهني ،وهي تختلف عن تلك الأنشطة الّتي يمارسها السكان في الريف...كما أنّها مقر لإقامة الحكام والخلفاء ومركز لإدارة الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية وبخاصة إذا كانت عاصمة مركزية...بالإضافة إلى وجود المسجد الجامع والّذي يحتلّ مركز الوسط في المدينة ،تحيط به مجموعة من المساجد الصغيرة والزوايا»[3].

وخلاصة القول فإنّ المدينة الإسلامية لها من الخصوصيات المحلية ما يميّزها عن غيرها من مدن الإغريق والرومان ،فهي مستنبطة من عمق الحضارة العربية الإسلامية ،ولا شكّ أنّ هناك فروقا بين النمط العمراني الروماني وبين العربي الإسلامي ،وقد عرفنا ذلك عند تعرّضنا لمختلف المفاهيم حول المدينة الإسلامية.

وإذا كان بعض المستشرقين كما يذكر هشام جعيط قد وقعوا في تناقضات ،وأخطاء متعمّدين إضفاء العنصر السلبي على المدينة الإسلامية[4] ،فإنّ البعض الآخر منهم قد أنصف المدينة

(1)- مصطفى شاكر: المرجع السابق،ج1، ص 14.

(2)- عبد القادر جميل أكبر: المرجع السابق، ص 177.

(3)- سعيد ناصف: المدينة الإسلامية دراسة في نشأة التحضر، (د.ط)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999، ص 49.

(4)- هشام جعيط: المرجع السابق، ص 197.

الإسلامية لمعرفتهم بالشروط والخصائص الّتي خضعت لها هذه المدن ومنهم موريس لومبار الّذي تحدّث عن التمدّن الإسلامي «وأشاد بالنتائج التمدّنية الإسلامية الّتي جاء بها الإسلام واعتبرها من أعظم التطوّرات التمدّنية ،بل وأنّ التمدّن الإسلامي يعدّ أكثر بعدا وتأثيرا من التمدّن الروماني ويضاهي إلى حدّ كبير التطوّر التمدّني الهيليني و الأوروبي الوسيط»[1].

ومن هنا فدراسة المدينة الإسلامية بالمغرب الأوسط والأدنى لا يمكن فصلها عن اطارها الجغرافي ،وانتمائها التاريخي ،أو حتى عن خصائصها ومميّزاتها ،ومكوّناتها الخاصة بها ،والمرتبطة بعمق الحضارة الإسلامية ،والتي لاشكّ أنّ أبرز ميزاتها ذلك النسق المميز في نمط البناء ،بل الأهمّ من ذلك تلك المعاملات اليومية للعناصر البشرية المكوّنة للمدينة ،والمنبثقة من نصوص الشريعة الإسلامية الّتي تنظّم حياة هؤلاء العناصر ،بشكل قد يضاهي تلك الحياة الموسومة بحياة المدينة الفاضلة[2].

III- شروط اختطاط المدن:

لم يغفل المهتمون بالعمران عن ابراز الدور الكبير الّذي يلعبه حسن اختيار مواضع بناء المدن لضمان استقرار الشعوب وسلامتها ،على غرار ابن خلدون الذي وضع جملة من الشروط التي يجب توفّرها لاختطاط أي مدينة نورد بعضها فيما هو آت:

أولا: الحماية من المضار:

في هذا الشأن يرى ابن خلدون ضرورة أن: «يراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار[3] وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إمّا على هضبة متوعرة من الجبل وإمّا

([1])- عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص 31.

([2])- المدينة الفاضلة: هي المدينة الّتي يتصورها أبو نصر الفارابي (ت 339هـ/950م)، والّذي يجعل المدينة بمثابة الاجتماعات الإنسانية الكاملة، والّتي يقسّمها إلى ثلاثة مستويات: عظمى، وسطى وصغرى، فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة، و والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من مسكن أمة، ويضيف أن المدينة غير الكاملة هي اجتماع أهل القرية، واجتماع أهل المحلة ثمّ اجتماع في سكة، ثمّ اجتماع في منزل، وأصغرها المنزلة، والمحلة، والقرية. والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الّذي تتعاون أعضاؤه كلّها وكما أنّ البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى وفيها عضو واحد رئيس هو القلب، وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، و هذه المدينة تتطلب شروطا كي يحيا الفرد حياة طيبة، أنظر: علي عبد الواحد وافي: المدينة الفاضلة للفارابي، (د.ط)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص 41، وللمزيد أنظر: ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة، عطيات أبوالسعود، مراجعة، عبد الغفار مكاوي، (د.ط)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص 80.

([3])- حول أهمّية السور في العمارة الإسلامية، أنظر: محمد حسين جودي: العمارة العربية الإسلامية، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1427هـ-2007م، ص 79.

باستدارة بحر أو نهر بها حتّى لا يوصل إليها إلاّ بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها»[1] وهذا يتطلّب جندا للمراقبة والدفاع عن المدينة من خارج عمرانها[2]. ويضيف ابن خلدون فيما يتعلّق بصحّة بيئتها من طيب الهواء للسلامة من الأمراض ،لأنّ الهواء «إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة، أو مناقع متعفنة، أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها»[3].

ثانيا: جلب المنافع

وممّا يراعى في ذلك:

- وفرة الماء بحيث يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة.
- طيب مرعى السائمة، وقربها، لأن الزرع هو القوت إمكانية الميرة[4].
- وفرة الأشجار للحطب والخشب لاستعماله كوقود للنار و للمباني.
- القرب من البحر لتسهيل الحاجة القصية من البلاد النائية[5].

أمّا ابن أبي الربيع و الماوردي فيضعان الشروط التالية:

- تحصّن المنازل من الأعداء والذعار[6]، وأن يحيط بها سواد[7] يعين أهلها[8].
- اعتدال المكان ،وجودة الهواء وسعة المياه المستعذبة.

([1])- ابن خلدون: المقدمة، ص 279، مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1407هـ-1987م، ص 255-256.

([2])- عبد الحليم العفيفي: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ-2000م، ص 16.

([3])- ابن خلدون: المقدمة، ص 280، وليد عبد الله المنيس: «جغرافية الحضر»، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشر، الرسالة الخامسة و الستون، جامعة الكويت، الكويت، 1410هـ-1989م، ص 34.

([4])- الميرة: هي جلب الطعام، أو شراء الطعام، أنظر: الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص 431.

([5])- ابن خلدون: المقدمة، ص 280-281، ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك، ج2، تح، محمد بن عبد الكريم، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ت)، ص 766.

([6])- الذعار: يمكن أن تكون الكلمة زعار، جمع زعر، والزعر: الرجل الّذي فيه زعارة، والزعارة –بتشديد الراء- شراسة الخلق. ولها عدّة معاني، فالزعار هم أصحاب السوابق والزعارات الّذين يذعرون النّاس ويخوفونهم، ورجل زيعر قليل المال أو سيء الخلق، أنظر: الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص 360.

([7])- السواد: هو الأراضي الزراعية، والقـرى المأهولـة، ويقال سواد النّاس أي عامّتهم، وسواد البلدة أي قراها، أنظر: الفيروز أبادي: المصدر السابق، 263.

([8])- وليد عبد الله المنيس: المرجع السابق، ص 34، محمود السيد البنا: المدن التاريخية خطط ترميمها وصيانتها، ط1، مكتبة الشرق، القاهرة، مصر، 2002، ص 16.

وإضافة إلى هذا هناك من وضع شروطا أخرى ،إذ ربط اختيار المواضع ذات الإمكانيات الدفاعية بالمواقع التي تعتلي الجبال والتلال[1] ،أو تكون على سفح محمي ،وحتى بالوظيفة التجارية للمدينة [2] ،الّتي تكون على الطرق التجارية ،أو بالوظيفة الدفاعية حيث تسوّر المدينة وتعزّز بقلاع وتشدّد الاستحكامات الّتي تؤثر على أنماط الشوارع في المدينة ،وبناء الأسوار والأبواب[3].

أمّا ابن الفقيه فيبرز أهمّية حسن اختيار مواقع المدن وانعكاسات ذلك على البنية البشرية لسكان المدينة فيقول: «إنّ أصح البلاد ما كان على الجبال ،والأماكن الّتي تواجه مهب الصبا ،وما كان في قعور وأغوار ومواجهة بريح الجنوب» ،ويضيف أنّ في استقبال الصباح «صلاحا للأبدان لسرعة طلوع الشمس وضوئها عليهم»[4].

وعالج القزويني في كتابه أثار البلاد أسس اختيار مواضع المدن فقال: «ثمّ إنّ الملوك الماضية لّما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد ،وأفضل مكان في الناحية ،وأعلى مترل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال ،لأنّها تفيد صحّة أبدان أهلها ،وحسن أمزجتها ،واحترزوا من الآجام والجزائر ،وأعماق الأرض ،فإنّها تورث كربا وهرما ،واتّخذوا للمدن سورا حصينا مانعا»[5].

ولا غرو إن قلنا إنّ المدن الإسلامية فيها من التّشابه الكثير خاصة في التركيبة ،حتّى أنّها تظهر أنواعا مختلفة نتيجة مؤثرات الموقع المحلي ،فهناك عوامل عدّة طبيعية[6] كانت أو بشرية[7] تؤثّر إلى حدّ بعيد على أشكال المدن ،رغم اختلاف تلك العوامل من مكان لآخر ،إلاّ أنّ هذه الاختلافات تفرض علينا الإقرار بصعوبة إعطاء قاعدة عامة لطبيعة المدينة الإسلامية.

([1])- محمد محمدين: المرجع السابق، ص 300.

([2])- أحمد علي إسماعيل:دراسات في جغرافية المدن،ط4، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1413هـ-1993م،ص 74.

([3])- خالص الأشعت: المدينة العربية، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1403هـ-1986م، ص 09.

([4])- محمد محمدين: المرجع السابق، ص 301.

([5])- القزويني: المصدر السابق، ص 08.

([6])- هناك من يقرن زيادة عدد المدن ونقصانها بالعوامل الطبيعية، بحسب موجبات أحكام القرانات وأدوار الأفلاك الألوف، واعتدال الزمان، واستواء طبيعة الأركان، ونزول بركات السماء بالغيث، حينها تعمّر البلاد ويكثر بنيان المدن، أنظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ج1، إعداد وتحقيق، عارف تامر، ط1، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1415هـ-1995م، ص 190.

([7])- بالإضافة إلى ذلك فإنّ عامل المواصلات يعدّ مهما، كون غيابه يشكّل إحدى العقبات في سبيل التبادل التجاري، والتعاون بين المدن المغربية، وهو ما جعل ابن خلدون يضعه ضمن أهمّ شروط اختيار مواضع المدن، أنظر: سعيد محمد رعد: العمران في مقدمة ابن خلدون، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 1985، ص 377.

وإذا جئنا إلى مدن المغرب الإسلامي الأوسط والأدنى الّتي ظهرت عقب فترة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب نجد أنّ منها من تمّ مراعاة هذه الشروط عند اختيار مواضع بنائها ،في حين أُغفلت تلك الشروط عند بناء بعضها الآخر ،على غرار مدن: القيروان ،تيهرت ،المهدية ،وبجاية ،وهو ماسنعرضه في مبحثنا الموالي من هذا البحث.

IV- نشأة المدن وتطوّرها بالمغرب الأوسط والأدنى:

عرف المغرب الإسلامي الأوسط والأدنى بعد الفترة الّتي تلت عمليات الفتح الإسلامي لهذه البلاد -خاصة بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري(10 م)- بناء مدن جديدة ،وإحياء أخرى كانت قائمة ،وقد عرفت هذه المدن تطوّرا ملحوظا ،وازدهارا كبيرا. ولئن كانت دراستنا تقتضي التطرّق إلى نماذج من هذه المدن ،ونعني بها تلك الّتي تأثّرت بجملة من الانعكاسات السلبية الناجمة عن الحروب ،والنزاعات الّتي شهدتها الحالة السياسية للدول القائمة آنذاك ،وما نتج عنه من هدم أو تخريب للبنية العمرانية المتمثّلة في المدينة ،غير أننا سنقتصر على دراسة المدن المنشأة خلال الفترة الزمنية المتعلّقة بموضوع البحث ،والّتي مسّها الخراب ،وكذا المدن المنشأة قبل تلك الفترة إلاّ أنّها تعرّضت هي الأخرى للتخريب في حدود الفترة الزمنية السالف ذكرها. وهو ما يدفعنا للتساؤل حول كيفية نشوء هذه المدن المغربية؟ ،وفي أيّ ظروف كان ذلك ؟ ،وما ساعد على تطورها؟.

وإذا علمنا أنّ البدايات الأولى لظهور المدينة الإسلامية، تعود إلى مدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم- يثرب ،فإنّ هذه المدينة ،قد تحوّلت إلى مدينة بمفهومها الحضاري الواضح ،والّذي سعى نّبي الأمة –صلى الله عليه وسلم- إلى تحقيقه ،وكان أساسه طبعا الدعوة إلى الإسلام ،وعلى ضوء تعاليمه بدأت عملية إعداد المجتمع الإسلامي الجديد لحياة حضارية «تلازمت تماما مع اهتمامه بالكيان المادّي للمدينة فأدّى ذلك تدريجيا إلى تكامل المراكز الحضارية الإسلامية...وكان التفاعل بين هذه الاتّجاهات المتدرّجة المختلفة قويا ،فأدّى إلى خلق مجتمع واحد متماسك بعيد عن النزعة القبلية... ومن مستوى أنضج اتّجه الرسول –صلى الله عليه وسلم- إلى إبدال العصبية القبلية بعصبيّة الموطن والأرض»[1].

كما بدأت عملية الإنشاء بالمسجد الجامع ،ومن حول المسجد اختطّت المنازل والدور ،وقد عدّ المسجد الجامع محور الحياة والنشاط في المدينة الإسلامية[2] ،لذلك كانوا يبدأون بإنشائه

(1)- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 51.

(2)- محمود السيد البنا: المرجع السابق، ص 21.

قبل أيّ بناء آخر عند تأسيس أيّ مدينة ،الّتي ما يلبث العمران أن ينمو حوله من دور ومنازل ،ومختلف الأبنية.

وأمّا عن عملية تشكّل المدن ونشأها، يشير القزويني إلى أنّها عملية تحصل نتيجة ظروف بيئية ،أمنية وحيوية للبيئة الّتي يعيش فيها الإنسان ،فيقول: «ثمّ عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا في صحراء لتأذّوا بالحرّ والبرد والمطر والريح ،ولوتستّروا بالخيام والخرقات لم يأمنوا مكر اللّصوص والعدو ،ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى الّتي لا سور لها ،لم يأمنوا صولة ذي البأس ،فألهمهم الله تعالى اتّخاذ السور والخندق والفصيل ،فحدثت المدن والأمصار »[1].

وممّا سبق يتّضح أنّ ملامح تكوينات المدينة الإسلامية العمرانية، ومنهج تخطيطها بدأ أصلا في مدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وفي عهده ،واتّبع هذا المنهج فيما اختطّ من مدن ،إذ بعد نشاط الفتوحات الإسلامية الكبير ،واتّساع أقاليمها ،باتت الحاجة ملحّة لإدارة هذه الأقاليم ،واتّخاذ قواعد متقدّمة بها[2] ،تكفل دعم الجيوش، واستمرار قوّتها ،فأنشأت بذلك تلك المدن الّتي كانت بمثابة معسكرات متقدّمة لهذه الجيوش ،ومراكز لإدارة الأقاليم المفتوحة[3] ،ومعنى ذلك أنّ هذه المدن ارتبطت نشأتها بوظيفتها ،ثمّ أصبحت بمرور الزمن مدنا كما هو الحال بالنسبة لمدينة القيروان.

وإذا كان هذا النوع قد خضع للوظيفة العسكرية، فإنّ العامل السياسي هو الآخر كان له الدور الكبير في نشأة الكثير من المدن ،إذ كانت كلّ أسرة حاكمة تسعى لبناء عاصمة جديدة تكون رمزا لها ،ويتجمّع فيها أشياعها ،بل أكثر من ذلك كانت تهجر العاصمة القديمة ،وتحاول تدميرها[4] كي لا تقف في وجه تطوّر وازدهار العاصمة الجديدة ،ومن الأمثلة على هذه المدن مدينة تيهرت أيام سقوطها في يد دولة الفاطميين.

وقد لعب العامل الجغرافي هو الآخر دورا بارزا في نشوء مدن عدة تمّ اختيار مواضعها وفق الشروط الّتي أوردها ابن خلدون وغيره ،بيد أنّه وعلى الرغم من مراعاة القادة المسلمين الفاتحين لشروط الموقع والمناخ عند تأسيس مدينة القيروان على سبيل المثال ،إلاّ أنّ ابن خلدون

([1])- القزويني: المصدر السابق، ص 07-08.

([2])- سعيد ناصف: المرجع السابق، ص 54.

([3])- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 64.

([4])- سعيد ناصف: المرجع السابق، ص 57.

ينتقد موضع هذه المدينة قائلا: «كما فعله العرب لأوّل الإسلام في المدن الّتي اختطّوها بالعراق وإفريقية ،فإنّهم لم يراعوا فيها إلاّ الأهمّ عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح و لم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان ... وأمثالها ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لّما لم تراع فيها الأمور الطبيعية» ،ويضيف «ثمّ إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيّدها فعمر الدولة حينئذ عمر لها ،فإن كان أمد الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها ،وخربت ،وإن كان أمد الدولة طويلا ،ومدّها منفسحة ،فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدّد ،ونطاق الأسوار يتباعد وينفسح إلاّ أن تتّسع الخطة وتبعد المسافة...» [(1)].

وهكذا فقد خضعت المدينة بالمغرب الأوسط والأدنى لشروط مختلفة خلال مراحل نشأتها بسبب اختلاف الهدف الّذي تمّ إنشاؤها من أجله[(2)] ،وارتباط أسباب البناء بعوامل كثيرة طبيعية واقتصادية وحربية ،حيث تكون البداية بنواة عمرانية لتأخذ في مرحلة موالية مجموعة الملامح الّتي تتباين في بعض جزئياتها المتعلقة بمراحل النشوء ،أو التأثيرات الطبيعية ضمن مجالها الجغرافي[(3)] ،وهو ما نلمسه من خلال ظاهرة توزيع المدن المغربية بشكل متفاوت من إقليم لآخر على امتداد المجال الجغرافي لبلاد المغرب. ولاشكّ أنّ لهذا تأثير ملحوظ على التطور الاجتماعي والحضاري للأفراد ،الّذي أساسه المدن ومختلف مراكز العمران[(4)].

ومن بين أبرز المدن الّتي بنيت ببلاد المغرب الأوسط والأدنى وذات الصّلة بموضوع الدراسة تلك الّتي نقسّمها حسب الغاية والهدف من تأسيسها ،وكذا موقع المدينة ،والكيان السياسي الّذي اهتمّ ببنائها ،مثلما سنعرضه فيما يأتي:

1- المدينة الحصن أوالمعسكر:

لو رجعنا إلى المصادر التاريخية على قلّتها لوقفنا على أن النوع العمراني السائد ببلاد المغرب الأوسط والأدنى، في الفترة الّتي شهدت عمليات الفتح الإسلامي كان يغلب عليه أساسا

([1])- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ج2، حقّقها وقدّم لها، عبد السلام الشدادي، ط1، بيت الفنون والآداب والعلوم، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 173.

([2])- محمود السيد البنا: المرجع السابق، ص 16.

([3])- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 77.

([4])- إسماعيل العربي: المدن المغربية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 11، وحول بعض حواضر المغرب في القرنين 03 - 04هـ/ 09- 10م ، أنظر: الملحق رقم: 08.

طابع المدن الحصون[1] ؛ذلك أنّ هذه المنطقة شهدت مرحلة من السيطرة الأجنبية الّتي تركّزت بالمدن الساحلية على وجه الخصوص ،في حين سكن البربر الجبال ،كما يشير إليه ابن خلدون قائلا: «سكنوا القفار عصورا في الخيام وانتجاع الأمصار من الإسكندرية[2] إلى البحر ،وإلى طنجة[3] والسوس حتّى جاء الإسلام»[4].

بيد أنّه وفي هذه الفترة عرفت المدن الرومانية القديمة تراجعا وتناقصا في عدد سكّانها ،تزامن مع بداية مرحلة جديدة في تاريخ العمارة الإسلامية ببلاد المغرب في ظلّ اهتمام المسلمين باستحداث مدن جديدة وإعمارها ،وذلك بالقرب من المدن الرومانية ،خاصة تلك التي أخذت صبغة الحصن العسكري ،عندئذ خلت المدن الرومانية من السكان.

وهكذا فإنّه ومع الفتح الإسلامي عرفت بلاد المغرب مرحلة البناء ،خصوصا في ظلّ نجاح عمليات الفتح ،الّتي كانت تستدعي بناء أمصار لإيجاد فضاء لاستقرار الجند الفاتحين ،ثمّ العمل على توسيعها ،حتى تستوعب تلك الجماعات العربية الوافدة إلى الأرض المفتوحة.

ولو وقفنا على سيرورة مراحل تطور العمران بمنطقتي المغرب خاصة بعد القرن الثاني للهجرة لوجدنا أن تلك التحوّلات التي عرفها العمران لم تطوّره بشكل سريع ،وقد يُعزى ذلك إلى حداثة العهد بالإسلام ،والاضطرابات التي عرفتها المنطقة خاصة في عهد الولاة ،في حين

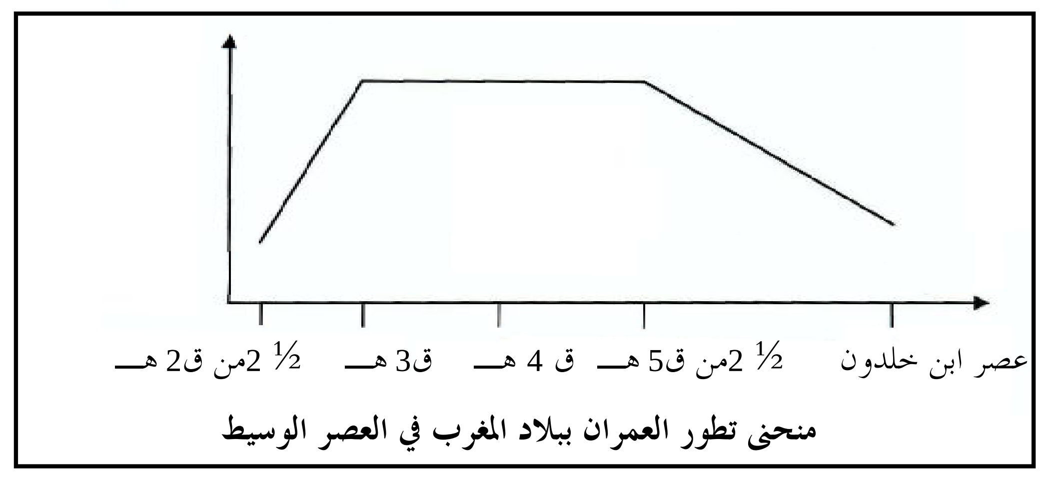
([1])- أحمد بن يحي أبو العباس البلاذري: فتوح البلدان، حقّقه وشرحه، عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، (د.ط)، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1407هـ-1987م، ص 273.

([2])- مدينة من أعظم مدائن الدنيا، وأقدمها وضعا، بنيت بعد الطوفان، في زمان مصرايم بن بيصر ابن نوح، وجدّدها الإسكندر المقدوني، وبقيت دار مملكة بمصر حتّى مجيء الإسلام، حيث افتتحها عمرو بن العاص، إلى أن صارت الفسطاط دار ملك بعدها، وهناك من يقول أنّ أوّل إنشائها يرجع إلى فرعون الّذي اتّخذ بها مصانع، وكان أوّل من عمّرها، وبنى فيها، فلم تزل على بنائه، ومصانعه، وتداولها ملوك مصر بعده، وتعدّ الإسكندرية حسب الجغرافيين مدينة رومية ساحلية، ذات شوارع واسعة الأرجاء، أنظر: المقريزي: المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، ج1، تح، محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997م، ص 406، وللمزيد أنظر: جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، تح، أبوالفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاءه، 1387هـ-1967م، ص 84، وللمزيد أكثر أنظر: أحمد بن يحي شهاب الدين ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح، دوروتيا كراقولسكي، ط1، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، 1407هـ-1986م، ص 149.

([3])- هي مدينة بها مساكن صنهاجة تقع على الطريق الساحلي المار إلى مدينة سبتة، وتقع المدينة في بسيط من الأرض على نحوميل، وقد افتتح هذه المدينة عقبة بن نافع، وفيها آثار للأولين والكثير من القصور، وأقباء وحمّامات وغيرها، انظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 291-292، وللمزيد أنظر: شمس الدين أبوطالب الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطربورغ المحروسة، 1381هـ-1965م، ص 235.

([4])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 123.

عرفت الفترة الممتدة من القرن 03 هـ/10م إلى القرن 05هـ/11م تطوّرا ملحوظا كما يوضّحه هذا الرسم البياني[1]:



منحنى تطور العمران ببلاد المغرب في العصر الوسيط

أ- مدينة القيروان[2]:

كان المسلمون الفاتحون يخرجون لفتح بلاد المغرب فينتصرون ثمّ يعودون إلى مقراهم بمصر أو دمشق ،ونظرا لبعد مقراهم تلك عن الأرض المفتوحة كان أهل المغرب ينقضون العهد الّذي عاهدوه مع الفاتحين ،ويرتدّ البعض منهم ممّن دخل في الإسلام[3] ،حيث نجد الفاتح عبد الله بن سعد بن أبي سرح[4] لم يفكّر في الاستقرار بأرض المغرب عقب انتصاراته كما يورده ابن عبد الحكم بأنّه لمّا طلب منه رؤساء أهل إفريقية أن يأخذ منهم مالا ويخرج من بلادهم ،رضي منهم ذلك ،ورجع إلى مصر ،ولم يولّ عليهم أحدا ،ولم يتّخذ بها قيروانا[5]. غير أنّه مع معاوية بن

(1)- الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص149-150.

(2)- اختلف في معنى لفظ القيروان، فقال الفيروز أبادي، معناها القافلة، وقيل هي موضع الكتيبة أو الجيش، وقال ابن منظور، هو الكثرة من النّاس. وهو لفظ معرّب أصله بالفارسية كاروان ،أو كريان و معناه القافلة، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، مج5، ص 250، وللمزيد أنظر: حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (د.ت)، ص 153، وللمزيد أكثر أنظر: يوسف أحمد المطوع، «نحاة القيروان»، حوليات كلية الآداب، الحولية السادسة، الرسالة الخامسة والعشرون، جامعة الكويت، الكويت، 1405هـ-1985م، ص 09.

(3)- محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص71.

(4)- هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، كاتب الوحي لرسول الله –صلى الله عليه وسلم- تولى مصر سنة خمسة وعشرين للهجرة، خرج في حملة إلى إفريقية على رأس جيش عظيم أين تمكن من قتل جرجير بموقعة سبيطلة ،توفي سنة 36هـ/656م ،أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 09-10، و للمزيد أنظر: يعقوب السبوي: المعرفة والتاريخ، ج1، رواية، عبد الله النحوي: تح، أكرم العمري، ط1، مكتبة الدار بالمدينة ،السعودية، 1410هـ-1990م، ص 254.

(5)- عبد الرحمن بن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب،ج2، تح، شارلز توري، (د.ط)، الذخائر، القاهرة، (د.ت)، ص 183.

خديج[1] فقد رأى هذا القائد ضرورة إقامة معسكر للفاتحين بالمغرب ،حينما اتّخذ قيروانا عند القرن ،وأقام به حتّى خرج إلى مصر[2].

وهو ما يسوقه المالكي أيضا بأنّ معاوية « اختطّ مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان ،وأقام بها مدّة إقامته بإفريقية ،وحفر أبارا عند باب تونس في ناحية الجبل منه منحرفا للشرق بالقرب من مصلى الجنائز تسمّى الآن آبار خديج»[3].

- **تأسيس القيروان:**

- **اختيار الموضع:**

يعدّ القيروان الّذي اتّخذه معاوية بن خديج بمثابة إرهاص حقيقي لما أقدم عليه عقبة بن نافع فيما بعد ،بعدما عيّن واليا على إفريقية من قبل الخليفة معاوية[4] ،والّذي أدرك أهمّية بناء قاعدة ثابتة يترك فيها حامية لحراسة المسلمين وما تمّ فتحه ،حيث تذكر المصادر التاريخية أنّه قال: «إنّ إفريقية إذا دخلها أمير تحرّم أهلها بالإسلام ،فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر ،وإنّي أرى أن

([1])- هو معاوية بن خديج الخولاني، أبونعيم ،التجيبي والكندي ،خرج سنة 34هـ/654م لفتح المغرب، أو استكمال الفتح، في خلافة معاوية بن أبي سفيان، والّذي أصبح عامله على مصر، سنة 48هـ/668م، وكذلك على إفريقية، انظر: أحمد بن سعد: الطبقات الكبرى: ج7، تح، محمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ-1990م، ص348، وللمزيد أنظر: خليفة بن خياط: كتاب الطبقات، تح، أكرم ضياء العمري، (د.ط)، مطبعة الغاني، بغداد، 1387هـ-1967م، ص 192، وللمزيد أكثر أنظر: ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق، ج1، ص 18.

([2])- الطاهر طويل: المدينة الإسلامية وتطوّرها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الهجري الأوّل إلى القرن الهجري الخامس، ط1، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، الجزائر، 2011، ص 86.

([3])- للمزيد من التفاصيل حول حملة معاوية وبنائه قيروان إفريقية بناحية القرن ،أنظر: عبد الله بن محمد المالكي: كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم و أوصافهم، ج1، تح، بشير البكوش، مراجعة، محمد المطوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م، ص 28- 30.

([4])- هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، مؤسّس الدولة الأموية في الشام، أسلم يوم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وجعله رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من كتابه ،ولاّه أبوبكر الصديق إمرة الجيش، ثمّ ولي الشام في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، حتّى عزله علي بن أبي طالب. نادى بالثأر لعثمان بعد مقتله، ونشبت الحرب بينهما، و وقعت فتنة، حتّى انتهى الأمر بخلافة معاوية سنة 41هـ/661م،توفي سنة= =60هـ/680م، انظر: أحمد بن الحسن ابن قنفد القسطيني: الوفيات، تح، عادل نويهض، ط4، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ-1983م، ص 73، للمزيد حول تفاصيل الفتنة بين علي و معاوية أنظر: تقي الدين ابن تيمية: مجموعة الفتاوى ج 35، أخرج أحاديثه، عامر الجزار وأنور الباز، (د.ط)، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، 1426هـ-2005م، ص18، أبوبكر بن العربي: العواصم من القواصم...، أخرج أحاديثه، محمود الاستانبولي، تح، محب الدين الخطيب، ط6، منشورات مكتبة السنة لنشر العلم، القاهرة، 1412هـ-1992م، ص 180، وللمزيد أكثر أنظر: عبد الله ابن قتيبة: كتاب الإمامة والسياسة، (د.ط)، مطبعة النيل، مصر، 1322هـ-1904م، ص 133.

اتّخذ بها مدينة نجعلها معسكرا ،وقيروانا ،تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر»[1]. وفي رواية أخرى أوردها ياقوت الحموي قوله: «إنّ أهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم ،إذا عضّهم السيف أسلموا ،وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عادتهم، ودينهم ،ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا ،وقد رأيت أن أبني ههنا مدينة يسكنها المسلمون فاستصوبوا رأيه»[2].

وبالنظر إلى هذه الرواية يتجلى لنا أن عقبة أدرك أهمية بناء قيروان بأرض المغرب لحماية المسلمين من جهة ،وتكون منطلقا لفتح المناطق التي لم تخضع لسيطرة المسلمين بعد ،وقد تحكّمت جملة من العوامل في اختياره موضع بناء مدينة القيروان نذكر بعضها فيما يأتي تبعا:

- البعد عن الساحل حتّى لا تتعرض لأساطيل البيزنطيين[3].
- القرب من البادية لمباشرة نشر الإسلام بين البربر[4].
- تأمين الإمداد الخاص بالجيش،وتأمين الغذاء والحماية للدواب كالإبل الّتي تحمل العسكر[5].

وقد ساق المؤرخون نصوص تاريخية تفيد أن عقبة آثر موضع بناء القيروان[6] على غيره من المواضع كونه الأنسب للاعتبارات التي ذكرناها آنفا ،كما يشير إليه كل من المالكي وابن عذاري[7] ملخصا فيما دار بين عقبة وأصحابه حول موضع البناء ،وما توصّلوا إليه من اختيار للموضع الأنسب لذلك إذ يذكر: «فقال بعض أصحابه قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين ،فقال لهم: إنّي أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطنية فيهلكها ،ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها غزاة البحر... فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير فأهلها مرابطون فاتّفق رأيهم على ذلك ،فقال قرّبوها من السبخة فقالوا: نخاف أن تهلكنا الذئاب ،ويهلكنا بردها في الشتاء، وحرّها في الصيف، فقال: «لا بدّ لي من ذلك لأنّ أكثر دوابكم الإبل وهي الّتي تحمل عسكرنا والبربر قد تنصّروا وأجابوا النصارى إلى دينهم ،ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بدّ

([1])- الدباغ: المصدر السابق، مج1، ص 42، ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص 320.

([2])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص 420.

([3])- عبد العزيز الدولاتي،وآخرون: أعلام ومعالم،ط2، الوكالة القومية للتراث والمعهد الوطني للتراث،تونس،1997، ص168.

([4])- السلاوي الناصري: المرجع السابق، ج1، ص 37.

([5])- موسى لقبال: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتّى انتهاء ثورات الخوارج، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 30.

([6])- أنظر: الملحق رقم: 09.

([7])- المالكي أبوبكر: المصدر السابق، ج1، ص 10-11، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 19-20.

من المغازي ،والجهاد ونفتح الأوّل منها فالأوّل فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى ،فأجابوه إلى ذلك».

و إذا ما اعتبرنا أن عقبة[1] قد وُفق إلا حدّ ما في اختياره لموضع القيروان ؛ذلك أنه راعى عند اختياره ذلك عدة جوانب على غرار عامل توفير الحماية من العدو ،وتأمين الغذاء ،فإن هناك من عاب عليه اتخاذ ذلك الموضع على غرار المقدسي الذي رأى أن ذلك الموقع يفتقر إلى أحد العناصر الضرورية للحياة بالمدينة ألا وهو الماء. غير أنه لا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا المشكل قد زال فيما بعد ،بعدما اهتمّ ولاّة القيروان بإيجاد المواجل ،وكذا الصهاريج[2] لتخزين المياه وهو ما جعل المقدسي يشيد بذلك التطوّر الّذي عرفته القيروان فيما بعد ،على الرغم من قلّة الماء بموضعها ،بعدما تغلّبوا على مشكل نقص المياه ،حينما يذكر: «القيروان مصر الإقليم بهي عظم حسن الأخبار... فهي مفخرة المغرب ،ومركز السلطان... الماء مخزون في مواجين»[3]. وعليه نعتقد أن هذا الموضع قد حقق الغرض الذي رامه عقبة من وراء بنائه القيروان ،التي اختطها وشرع في بنائها ،حتى غدت مقصد العلماء والتجار من بلاد المغرب والمشرق.

- **بناء المدينة:**

بعدما استقرّ رأي عقبة وأصحابه على بناء القيروان، واختيار موضعها، شرع في التمهيد لبنائها ،غير أن موضع البناء حسبما يورده بعض المؤرخين لم يكن سهل البناء بل كان واديا كثير الشجر كثير القطف تأوي إليه الوحوش والسباع والهوام[4]. ويضيف النويري أنّ الموضع كان شعارى وغياض لا تسلك ولا ترام[5]. وتمدّنا المصادر التاريخية بنصوص مفادها أن أصحاب عقبة

([1])- هو عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن طرف ،ولد قبل وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم- بسنة واحدة، دخل إفريقية فافتتحها في عشرة آلاف من المسلمين ،وأصبح أميرا على إفريقية بعد وفاة معاوية بن خديج، استشهد في تهودة، أنظر: المالكي: المصدر السابق، ج1، ص 10، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 19، وللمزيد أنظر: موسى لقبال: عقبة بن نافع أساس نظام الفهريين...، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 07.

([2])- صهريج: هو خزّان للماء العذب يبنى أحيانا فوق سطح الأرض، مثلما حدث في صهاريج القيروان ،كما أنّه غالبا ما يبنى في تخومها بالحجر أو الآجر، الّذي يتكون من الجير ،ويتميّز بقدرته على تحمّل الرطوبة الأرضية، ولا تسمح بتسرب المياه من الصهريج ،انظر: عاصم رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية ،مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ص 173.

([3])- المقدسي: المصدر السابق، ص 182.وللمزيد أنظر أيضا : أحمد الخالدي: المدن والآثار الإسلامية في العالم، ط1، دار المعتز للنشر والتوزيع ،عمان، الأردن، 2009، ص59. محمد نويصر: الآثار الإسلامية، (د.ط)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1997، ص 115.

([4])- ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ج2،ص 196،البلاذري:المصدر السابق،ص320،السلاوي:المرجع السابق، ج1،ص 37.

([5])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 12.

سألوه عن كيفية البناء الّذي أمرهم به في ذلك الموضع الصعب ،حينها لجأ عقبة ؛الّذي غزا إفريقية ومعه خمسة وعشرون صحابيا[1] وكان مستجاب الدعوة إلى دعاء ربه عزوجل[2] مناديا «أيّتها الحيّات والسباع نحن أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ارحلوا عنّا ،إنّا نازلون ،ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ،فنظر النّاس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها ،والذئاب تحمل أجراءها ،والحيّات تحمل أولادها»[3]. عندئذ أقبل المسلمون يقطعون الأشجار ،ويمهّدون الأرض لتخطيط المدينة. ولّما فرغوا من ذلك اختطّ عقبة المدينة ومسجدها ودار الإمارة ،وحدّد شوارعها وبُنيت المساكن والدور[4].

وإذا كان بناء المسجد من أولويات عقبة عندما أقدم على اختطاط القيروان فإنه لم يحدث فيه بناء ،وإنّما كان يصلي فيه دون بناء ،وعندما وقعوا في مشكل تحديد القبلة[5] ،واختلفوا في ذلك ،وقال أصحابه له: «إنّ جميع من بالمغرب يضع قبلته على هذا الجامع...فاختلف رأيهم في نصبها» عند ذاك دعا الله جل في علاه «فآتاه آت في منامه وقال له إذا أصبحت فأحمل لواءك على عاتقك فإنّك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد غيرك فالموضع الّذي يقطع عنك التكبير فيه فهو مصلاّك وهو محراب مسجدك» ففعل ذلك وركز لواءه حيث انقطع التكبير وقال: «هذا محرابكم فاقتدى به جميع مساجد المغرب»[6].

و يرجع ذلك الاختلاف إلى شعور المسلمين بما سيكون لتحديد القبلة من أثر يأملون أن يتحقّق بما سيبنى من مساجد ،عندما ينتشر الإسلام ،وتتحقق الغاية من بناء هذا القيروان[7].

([1])- يذكر المالكي أنّهم خمسة عشرة صحابيا، *أمّا* عند ابن عذاري فعددهم ثمانية عشر صحابيا، أنظر: المالكي: المصدر السابق، ج1، ص 11، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 19.

([2])- كما دعا عقبة الله عز وجل بخصوص مدينة القيروان قائلا: «اللّهم إملأها علما وفقها، وأعمرها بالمطيعين، والعابدين، واجعلها عزا لدينك، وذلاّ لمن كفر بك، وأعزَّ بها الإسلام...»، أنظر: محمد أبو العرب القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق ،علي الشابي ونعيم حسن اليافي، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 56، و للمزيد أنظر: يوسف أبوراشد: الحضارة الإسلامية-نظم-علوم- فنون، ط2، مكتبات ونشر العبيكان، الرياض، 1426هـ/2005م، ص 370.

([3])- ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص 320.

([4])- محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص 78.

([5]) *-GOLVIN Lucien: Essai sur l'architecture religieuse musulmane, Tome 3, Edition Klinksieck, 1974 , p 133, MARÇAIS Georges: Les villes d'art célèbres Tunis et Kairouan, librairie Renouard, Editeur Tournon, Paris, 1937, p 14. ,*

([6])- الدباغ: المصدر السابق، مج1، ص 44.

([7])- المالكي: المصدر السابق، ج1، ص 13، حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الأوّل، (د.ط)، مكتبة المنار، تونس، 1965، ص47.

أمّا عن بنايات القيروان و دورها ومقدار مساحتها ،وكذا تاريخ إتمام بنائها يذكر ابن الأثير أنّ «دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وتمّ أمرها سنة خمس وخمسين»[1]. في حين يحدّد ابن عذاري[2] مساحة دورها بالذراع بأنّها «ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع»[3]. والحقيقة فإنّ هذه المساحة الّتي تشغلها القيروان عند نشأتها كما يورده ابن عذاري فيها نوع من المبالغة ،إذ لا يعقل أن تتسع القيروان أيام نشأتها لتشغل تلك المساحة الواسعة ،وهي لم تعرف التوسع الكبير ،والتطور بعد.

وإذا كانت القيروان أوّل مدينة إسلامية أنشأها عقبة ببلاد المغرب[4] ،فإنّ هناك تضاربا في آراء المؤرّخين حول تاريخ بناء هذه المدينة ،ففي الوقت الّذي نجد أغلب المؤرّخين حدّد ذلك بسنة 50هـ/670م[5] ،فإنّ هناك آراء للمؤرّخين تتفرّق بين من ذكر سنة 51هـ/671م على غرار ابن عذاري ،في الوقت الذي حدده أبو العرب بسنة 56هـ/676م[6]. غير أن هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك حينما جعل من سنة 60هـ/679م تاريخا لبداية البناء[7]. وفي ظل هذا التضارب[8] نعتقد أن التاريخ الأرجح هو سنة 50هـ/670م ،كون أغلب المؤرخين مال إليه ،وهو ما رجحته أيضا جل الدراسات التاريخية الحديثة التي اهتمت بالتأريخ للمدينة.

وقد عزل يزيد بن معاوية عقبة عن أمر إفريقية سنة 55هـ/675م، ثمّ أعيد مرّة ثانية سنة 62هـ/681م ،فعمل على تشييد مدينة القيروان وتعميرها فعمرت ،وعظم شأنها ،وشدّ النّاس إليها المطايا من كلّ أفق[9].

([1])- ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص 320.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 21.

([3])- الذراع: فيه خلاف فهو عند القدماء اثنان وثلاثون أصبعا، وعند المحدثين أربع وعشرون أصبعا، وذراع القدماء أطول من ذراع المحدثين بثمان أصابع، أنظر: عماد الدين أبو الفدا: تقويم البلدان، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 15.

([4])- محمد حسن العيدروس: المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008، ص 486، حسان حلاق: مدن وشعوب إسلامية، ج1،(د.ط)،دار الراتب الجامعية سوقنير، بيروت، لبنان،1412هـ-1992م،ص 157.

([5])- خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تح، أكرم ضياء العمري، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1405هـ-1985م، ص 210، الدباغ: المصدر السابق، مج1، ص 42، ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص 320، الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 05، السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 36، محمد حسن: المرجع السابق، ج1، ص 211.

([6])- أبو العرب القيرواني: المصدر السابق، ص 71، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 20.

([7])- أحمد بن رسته:كتاب الأعلاق النفيسة، مج7، (د.ط)، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1891، ص 347.

([8])- انظر: صالح الإيلاني: مفاخر البربر، تح، عبد القادر بوباية، ط2، أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2008، ص 206.

([9])- جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط1، دار الجيل، بيروت، 1415هـ-1994م، ص 250.

- **تطوّر مدينة القيروان:**

لقد تدرّجت مدينة القيروان في التوسّع ،وامتدّت أطرافها ،حيث اعتنى كبار ولاّة الأمويين بالزيادة في معالمها ،وفي طليعتهم حسّان بن النعمان[1] ،الّذي جدّد بناء مسجد القيروان بما هو أحسن في سنة 84هـ/703م ،ثمّ توالت بعد ذلك الحركة العمرانية[2] على القيراون وتعدّدت حسب حاجة المدينة ،والنمو الّذي عرفته وكذا حركة السكّان بها. وكان أبرز ما ميّز ذلك:

- **الحصون والأبواب:**

كانت حاجة المدينة للدفاع عنها تستدعي إقامة الأسوار، والمحارس، وعليه لم تخل المدينة من مثل تلك التحصينات على غرار ما أشار إليه البكري بشأن القيروان ،التي كان لها «من القديم سبعة محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها ،وكان للقيروان في القديم سور طوب سعته عشرة أذرع بناه أحمد بن الأشعث[3] ابن عقبة الخزاعي[4] سنة أربع وأربعين ومائة...وكان في قبليه باب سوى الأربعة وهو بين القبلة والمغرب ،وبين القبلة والمشرق باب أبي الربيع...وفي جوفيه باب تونس ،وفي غربيه باب أصرم وباب سلم». ثمّ يضيف «وللمدينة اليوم أربعة عشر بابا منها المذكورة باب النخل وباب الحديث ،وللفصيل بابان وباب الطراز... وباب القلالين ،وباب أبي الربيع ،وباب سحنون الفقيه»[5].

وعلى هذا الأساس يبدو لنا أن مدينة القيروان أصبحت مدينة محصّنة من الداخل والخارج بحيث يمكن الدفاع عنها من أيّ خطر خارجي قد يتهدّدها.

([1])- هو حسّان بن النعمان بن عدي بن بكر بن معيث بن عمر بن مزيقيا بن عامر بن الأزد، ولي إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان سنة 78هـ/697م، فقدم إفريقية في عسكر عظيم، ونزل القيروان، وقاتل الروم والبربر قتالا ذريعا، كما هزم الكاهنة، انظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 34-36.

([2])- حول تطوّر الفن المعماري والحركة العمرانية لمدينة القيروان ،أنظر: حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، القسم الأوّل، ص 51، و للمزيد أنظر: *MARÇAIS Georges et POINSSOT Louis: Objets Kairouanais IXe au XIIIe siècle, Fasc1, Direction des antiquités et arts, Tunis, 1948, p 355-358.*

([3])- بوبة مجاني: أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ط1، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 1430هـ-2009م، ص 199.

([4])- هو محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي، من كبار القواد في عصر المنصور العباسي، ولاه مصر سنة 141هـ/758م، ثمّ أمره بإنجاد إفريقية من بعض المتغلّبة الإباضية ،فوجّه إليها جيشا بقيادة أبي الأحوص الذي انهزم أمام أبي الخطاب فسار إليه بنفسه في سنة 142هـ/759م، وتمكّن من أبي الخطاب سنة 144هـ/761م، ودخل القيروان حتّى ثار عليه أحد قواده عيسى بن موسى بن عجلان، وأخرجه من القيروان سنة 148هـ/ 765م، أنظر: خير الدين الزركلي: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستشرقين والمستعربين)، ج6، ط15، ، دار العلم للملايين، بيروت،لبنان، 2006، ص 39.

([5])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 198.

- **الأسواق:**

لم يغفل عقبة عند تخطيطه مدينة القيروان عن الأهمّية الكبيرة التي يكتسيها السوق في الحياة الاقتصادية للمدينة ،وهو ما يتجلى من خلال مساحة سوق القيروان المعروف بالسماط التي تبدأ من المسجد[1] إلى باب الربيع ،ومن المســـجد إلى باب تونس ،وحقيقة هذه السعة تعكس التنظيم المحكم في تخطيط المدينة. ويصف لنا البكري سعة هذا السوق بقوله: «وكان سماط سوق القيروان قبل نقله إلى المنصورية متّصلا من القبلة إلى الجوف ،وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل ،وكان سطحا متّصلا منه جميع المتاجر والصناعات وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك»[2].

وبذلك غدت مدينة القيروان أهمّ مدينة تجارية وصناعية ببلاد المغرب[3] ،وهو ما يؤكّده ابن حوقل حينما يبرز أن القيروان: « كانت أعظم مدينة بالمغرب ،وأكثرها تجرا أموالا وأحسنها منازلا وأسواقا ،وكان فيها ديوان جميع المغرب وإليها تجبى أموالها وبها دار سلطانها»[4].

- **مشاريع المياه:**

كنّا قد أسلفنا أنّ المقدسي وجّه نقدا لموضع القيروان بشأن قلّة الماء به ،وهو ما ذهب إليه أيضا أبو الفدا حينما ذكر أنها: «مدينة محدثة بنيت في صدر الإسلام في جنوبي الجبل وهي في صحراء ...وليس له ماء جار»[5]، وبيّنا أن ذلك العائق قد زال في ظل المشاريع العديدة الّتي أقامها الحكّام والولاّة لأجل التغلّب على ذلك المشكل ،فهذا صاحب الورقات يذكر أنّ هناك بئرا عذبة غزيرة الماء بين المسجد ودار الإمارة ،ولا تبعد عنهما بأكثر من خمسة عشر مترا ،بل إنّ

([1])- لقد بنيت المساجد في القيروان وكثر عددها حتّى بلغ ثلاثمائة مسجد إلاّ أنّ أعظمها وأشهرها المسجد الجامع الّذي أسّسه عقبة، والّذي بذل كثير من الولاّة والأمراء جهودا كبيرة لتجديده وتحسينه، حتّى أضحى تأثيره قويّا على المدينة كلّها، فقد كان يتوسّط المدينة، وتحيط به الأسواق، أنظر: محمد بن الحبيب الغضبان: «مدينة القيروان بين نشاط السكة وهاجس الشرعية...»، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 65، السنة السابعة عشرة، قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية بمركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 1430هـــ-2009م، ص 24، و للمزيد أنظر: *MARÇAIS Georges: Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman, tome 1, l'imprimerie officielle du Gouvernement général de l'Algérie, Alger, 1957, p 20.*

([2])- البكري: المصدر السابق، مج 2، ص 198.

([3])- لويس. ر. أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط 500-1000م، ترجمة، أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم، محمد شفيق غربال، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص 330.

([4])- أبوالقاسم ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض، ط2، دار صادر، بيروت، 1938، ص 96، مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح، يوسف الهادي، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1419هـــ-1999م، ص 133.

([5])- أبوالفدا: تقويم البلدان، ص 145.

عامل القيروان عبد الله بن الحبحاب[1] أنشأ خمسة عشر ماجلا[2] خارج سور المدينة تكون سقايات لأهلها[3].

وتميّزت مواجل القيروان بكبرها وإتقان بنيانها ،وكان أعظمها الماجل المعروف بالفسقية ،وكان عجيب الشأن غريب البنيان ،حتّى قال فيه عبيد الله المهدي: «رأيت بإفريقية شيئين لم أر مثلهما بالشرق: الحفير الّذي بباب تونس -يعني الماجل- والقصر الّذي بمدينة رقادة»[4].

كما أنّ هناك مواجل أخرى كانت في وسط بعض المساجد مثل مسجد الزيتونة الّذي بني سنة 73هـ/692م ،وكان النّاس يحتاجون إلى الماء في المنازل، فيجلب من وادي السراويل ،وهو غير صالح للشرب نظرا لملوحته، أمّا مياه الشرب فكانت من الآبار[5].

- **الحمّامات:**

حظيت القيروان باعتبارها عاصمة الإقليم بإقامة الحمّامات وهو ما يؤكد لنا أن مشكل نقص المياه في المدينة لم يعد عائقا يحول دون إقامة المشاريع والمنشآت داخل القيروان ،كالحمامات التي يعدّ الماء العصب الرئيس لإنشائها ،فقد اشتهرت المدينة بكثرة الحمّامات ،حيث يذكر البكري أن: «في القيروان ثمانية وأربعون حمّاما»[6].

ومنه فقد عرفت مدينة القيروان تطوّرا وازدهارا كبيرا منذ بنائها ،ومرورا بفترة حكم الولاّة ،ثم الأغالبة ،ولاشكّ أنّ أدقّ وصف لما شهدته من تطور عمراني واقتصادي وثقافي ،ذلك الوصف الّذي أورده الرحّالة والجغرافيون بشأنها ،ومن ذلك: الأصطخري[7] الّذي يصفها بأنّها «أجلّ

(1)- هو عبيد الله بن الحبحاب، كان أميرا جليلا، ولاّه هشام بن عبد الملك على المغرب والأندلس، إضافة إلى عمله بمصر سنة 116هـ/734م، وفي وقته دخل الخوارج وعلى رأسهم ميسرة إلى المغرب، حيث بايعوه على الخلافة، انظر: الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب ،تحقيق، محمد زينهم عزب، ط1، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1414هـ-1994م، ص 66-67.

(2)- الماجل: هوالخزان أوالصهريج الّذي يجمع فيه ماء المطر.

(3)- حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، القسم الأوّل، ص 57.

(4)-البكري: المصدر السابق، مج2، ص 199، مجهول: الاستبصار، ص 115.

(5)- الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 59.

(6)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 199.

(7)- الاصطخري، بكسر الألف وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون الخاء المعجمة، وفي آخرها الراء، نسبة إلى أصطخر، وهي من كور فارس، أنظر: عبد الكريم السمعاني: الأنساب، ج1، صححه، عبد الرحمن اليماني، ط1، مجلس دارة المعارف العثمانية، حيدرأباد، الهند، 1382هـ-1962م، ص 285.

مدينة بأرض المغرب خلا قرطبة بالأندلس»[1]. أمّا الإدريسي فإنّ المدينة حسبه تعدّ «أمّ أمصار ،وقاعدة أقطار ،وكانت أعظم مدن الغرب قطرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا، و أوسعها أحوالا ،وأتقنها بناء... وأربحها تجارة وأكثرها جباية...والقيروان كانت مدينتين إحداهما القيروان والثانية صبرة أو صبره وكانت دار الملك... وعلى ثلاثة أميال منها قصور رقادة الشاهقة»[2]. ويضيف أحد الجغرافيين إلى ذلك قوله: «والقيروان مدينة عظيمة جمعت بين طيب الهواء وعذوبة الماء وجميع المحاسن ،وهي أوّل مدينة عمّرت في الأرض ،وكانت عظيمة البناء ،فيها من الرخام الأبيض تماثيل ،وهي أحسن بلاد الله فواكها وزرعا ،كانت تضاهي بغداد ...وكان فيها من العلماء ،والفقهاء ،والشعراء ،والأدباء ما كان في البصرة ،ذكر أنّه كان فيها أربعة آلاف كرسي للعلم ،وأربعمائة شاعر»[3].

وصفوة القول فقد مثّلت مدينة القيروان منذ بنائها مركزا (استراتيجيا) وعسكريا وسياسيا واقتصاديا ودينيا وثقافيا مهما ،فبعدما كانت نقطة انطلاق للانتشار العربي الإسلامي غدت مركزا للإشعاع الحضاري. وإذا كان ذلك التطور قد استمرّ في عهد الولاّة[4] ،والأغالبة فإنّ السؤال الّذي يطرح هل بقي ذلك النسق التطوّري على شاكلته أثناء العهد الفاطمي ،ثمّ الزيري؟ أم كان لتطور مدينة القيروان شأن آخر؟ وهو ما نسعى للإجابة عليه في حينه.

ب- مدينة ميلة:

ميلة مدينة من المدن الرومانية القديمة ،تقع شمال غرب مدينة قسنطينة على الطريق بينها وبين سطيف[5]. وقد سكن النوميديون هذه المدينة ،واستقرّوا فيها في الفترات القديمة ،وحسب

---

(1)- إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري: المسالك والممالك، تح، محمد جابر الحيني، مراجعة، محمد شفيق غربال، (د.ط)، دار القلم، القاهرة، 1381هـ-1961م، ص 34.

(2)- الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص 284.

(3)- محمد الزهري: كتاب الجغرافية، تح، محمد حاج صادق، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر، (د.ت)، ص 109.

(4)- يمثّل الوالي الأساس الّذي انبنى عليه النظام العربي، فهوممثل الخليفة الّذي يجمع بين كل عناصر السيادة، لأنّه قائد الجيش وإمام الصلاة، ورئيس الإدارة، وقد عرفت إفريقية اثنتين وعشرين واليا، منهم: موسى بن نصير، حنظلة بن صفوان ،انظر: هشام جعيط: تأسيس الغرب الإسلامي القرن الأوّل والثاني هـ/(7-8 م) ،دار الطليعة، بيروت، 2004، ص 137-138.

(5)- عبد العزيز فيلالي وإبراهيم بحاز: مدينة ميلة في العصر الوسيط، دراسة سياسية ثقافية إدارية عمرانية، (د.ط)، دار البلاد للإتصال والخدمات، قسنطينة، 1998، ص 09.

بعض الدارسين المحدثين تكون المدينة قلعة عسكرية أمامية[1] ،ومكانا دفاعيا ؛فهي تقع في المناطق الجبلية الشمالية [2].

وقد عرفت المدينة بـــ «ملو» و«ميلاف» وميلوفيثانيا ،وميلويوم، وميلا ،وميلوين ،إلاّ أنّ العرب فضّلوا اسمها القديم ميلة ،وهي ميزة تميّز بها العرب المسلمين الّذين كانوا يستعملون الأسماء القديمة للمدن الرومانية أو البيزنطية الّتي يحوّلونها إلى مدن إسلامية ،مع تحريف بسيط حتّى يسهل نطقها[3].

وكان فتحها على يد أبي المهاجر دينار[4] (55-62 هــ/675-681م) بعدما تقلّد ولاية المغرب من قبل معاوية بن أبي سفيان ،حيث قاد جيشا سنة 55هـــ/675م وافتتحها ،وكان يبعث منها السرايا والحملات العسكرية للجهاد. وفضّل أبا المهاجر موقعها كونها تتوسّط مدن المغرب الأوسط الشرقية من جهة ،وكذا منطقة المغرب الأدنى والأوسط من جهة أخرى. كما أقدم أبو المهاجر دينار على تشييد مسجد القصبة على أنقاض القلعة القديمة[5].

ونظرا لأهمّية المدينة الإستراتيجية فقد أضحت منذ القرن 08م حامية عسكرية تحت اشراف والي طبنة ،ولعبت هذه المدينة دورا كبيرا في مواجهة حركة الخوارج الإباضية والصفرية ،أما في العهد الأغلبي فكانت مقرا لوال أغلبي إلى حين دخولها من طرف أبي عبد الله الشيعي بجيشه ،بعدما ضيّق الخناق عليها ،فاضطرّ أهلها إلى طلب الأمان وتسليم المدينة سنة 290هـــ/902م[6].

وقد عرفت هذه المدينة نموا عمرانيا واقتصاديا كبيرا مثل ما يورده صاحب الاستبصار بأنّها: «مدينة أزليّة فيها آثار للأوّل ،وهي الآن عامرة كثيرة الخصب رخيصة السعر» ،ويضيف في نفس السياق بأنها كثيرة الأسواق والمتاجر ،يحيط بها سور صخر جليل[7].

بيد أنّ الوصف الّذي أورده ياقوت الحموي تبدو المدينة من خلاله أقلّ شأنا من الحال الّتي وصفها عليه صاحب الاستبصار حيث لا تعدو مدينة ميلة عن كونها مدينة صغيرة ،قليلة الماء

([1])- اتّخذها أبو المهاجر دينار، معسكرا لجيشه، أنظر: بوبة مجاني: «مدينة قسنطينة في الفترة الإسلامية»، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 08، جامعة قسنطينة، 1997، ص53.

([2]) -*CAMBUZAT Paul-Louis: L'évolution des cité de telle en efrikia du 7ème 11ème siècle, Tome 2, Office des publication universitaires, Alger, 1986, p 166-167.*

([3])- عبد العزيز فيلالي وإبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 10.

([4])- عين واليا على إفريقية عام 55هـــ/675م ،أستشهد مع عقبة بتهودة ،أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 28.

([5])- مختار حساني: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج3، (د.ط)، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 156.

([6])- عبد العزيز فيلالي وإبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 24.

([7])- مجهول: الاستبصار، ص 166.

بأقصى إفريقية[1]. ويمكن أن يُفسّر ذلك الاختلاف في وصف حال المدينة بين الذي وصفها بالمدينة ذات الازدهار الاقتصادي والعمراني ،على غرار صاحب الاستبصار والإدريسي[2] ،وبين من قلّل من شأنها في مجال النمو والتطوركما أشار إليه الحموي إلى أن دور هذه المدينة عرف تراجعا -كان بداية من العهد الأغلبي- لصالح مدن أخرى ،وبشكل أكبر ربّما لتلك الأحداث التي عرفها تاريخ المدينة ،وكان لها تأثير كبير على حضارتها ،وهو ما سنعالجه بشيء أكثر تفصيلا خلال دراستنا هذه[3].

ج- أذنة قاعدة الزاب:

إنّ تراجع الروم إلى حصونهم وتفاديهم المجابهة مع جيش الفاتحين سمح للمسلمين بالسيطرة على إقليم الزاب ،إذ بعدما أتمّ عقبة فتح باغاية ،أشرف على إقليم الزاب خاصة عاصمتة مدينة أذنة ؛هذه المدينة الّتي عدّت قاعدة للزاب في تلك الفترة التي وردت في المصادر التاريخية والجغرافية بأسماء اختلفت وتعدّدت ،غير أنها تشير في مجملها إلى المدينة نفسها، فهي إزبة أو أذنة أو إربة[4].

وتكاد أغلب المصادر تتّفق على الدور الهام لهذه المدينة ،ومكانتها في منطقة الزاب ،على غرار ما يسوقه الرقيق القيرواني حينما يجعلها المحطّة التالية لعقبة بن نافع بعد باغاية وحصن لمباز بقوله: «فرحل إلى بلاد الزاب فسأل عن أعظم مدائنهم قدرا فقالوا مدينة يقال لها أذنة. ومنها الملك وهي مجمع ملوك الزاب وكان حولها ثلاثمائة قرية وستون قرية وكلّها عامرة»[5].

و ترد المدينة عند البكري بصيغة البلد عندما يقول في شأنها: «وبلد أدنة بلد كثير الأنهار والعيون العذبة ... بينها وبين المسيلة مرحلة ،وبشرقيها وادي مقرة[6]...وبين عين الكتان وأدنة

([1])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج5، ص 244.

([2])- أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 265، مرمول كربخال: إفريقيا، ج3، ترجمة، محمد حجي، وآخرون: دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1409هـ-1989م، ص 13.

([3])- أنظر: خراب مدينة ميلة و منطقة كتامة في الفصل الثاني من دراستنا هذه.

([4])- ذكرها المقدسي بلفظ أوذنة، وهي عنده آخر مدن الزاب ممايلي المغرب، في حين وردت باسم إربة عند اليعقوبي ،أنظر: أحمد اليعقوبي: البلدان،تح،محمد أمين ضناوي،ط1،دار الكتب العلمية ،بيروت،2002 ،ص191 ،المقدسي: المصدر السابق،ص180.

([5])- الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 11-12.

([6])- مدينة صغيرة، على مرحلة من المسيلة، تكثر بها المزارع والحبوب، وزراعة الكتان ،أنظر: الإدريسي: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حقّقه ، محمد صادق، (د.ط)، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر،1983، ص 119.

نهر سهر ونهر النساء»[1]. ومنه فإنّ أذنة بناء على هذا المفهوم تكون أكثر حجما من المدينة ،خاصة إذا رجعنا إلى المصادر التاريخية الّتي ألحقت بهذه المدينة باقي القرى العامرة المنتشرة حولها.

وعليه فقد كان إقليم الزاب وافر العمران يضم العديد من المدن والحواضر ،التي كانت بمثابة حصون دفاعية قوية تحميه من الأعداء ،كانت أهمها قاعدة أذنة العامرة بالسكان. إلاّ أنّ هذا الدور الهام الّذي لعبته هذه الأخيرة كمدينة حصينة قد عرف تراجعا كبيرا مع بداية القرن الثاني للهجرة ،وأخذت مكانتها مدينة طبنة. فما أسباب ذلك التراجع يا ترى؟.

د- مدينة طبنة:

عرفت مدينة طبنة[2] في العصور القديمة باسم توبوني ،وقد مثّلت هذه المدينة حينئذ منشأة عسكرية رومانية يعود بناؤها إلى مطلع القرن الثاني للميلاد ،إذ يتّفق المؤرخون على كونها مدينة رومانية ،حافظت على تسميتها حتّى العهد الإسلامي ،أين حصل تحوّل جزئي في إسمها القديم ،فكانت طبنة الشكل المعرّب للاسم اللاتيني القديم للمدينة[3].

- **طبنة المدينة الأغلبية:**

مثّلت مدينة طبنة خلال عهد الولاّة مركزا أساسيا لمقاومة الخارجين والثائرين على السلطة الشرعية بالقيروان ،ونظرا لأهمّيّتها (الإستراتيجية) والعسكرية فقد كانت مسرحا لعديد من الأحداث التي عرفتها منطقة المغرب في عهد حكم الولاّة[4]. أمّا في العهد الأغلبي فقد اكتسبت مدينة طبنة مكانة عظيمة خاصة في فترة حكم إبراهيم بن الأغلب[5] ،كما مثّلت القاعدة الخلفية للقيروان للدفاع عنها ،والوقوف أمام التهديدات المحتملة عليها من جهة الغرب[6].

([1])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 328.

([2])- تقع آثار مدينة طبنة حاليا على بعد حوالي 04 كلم جنوب مدينة بريكة الحالية على الطريق المؤدّية إلى مدينة بسكرة، وهي تقع ضمن بلديات دائرة بريكة وتسمّى بلدية بيطام، انظر: موسى لقبال: «طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى»، مجلة الأصالة، العدد 60-61، مطبعة البعث، قسنطينة، أوت، سبتمبر 1978، ص 83.

([3])- حول موقع المدينة ،أنظر: موسى لقبال: «قاعدة طبنة والشرعية الخلاقية في بلاد المغرب الإسلامي»، حوليات جامعة الجزائر، العدد 05، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، 1990-1991، ص 91-92.

([4])- اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190، موسى لقبال: «طبنة في مجال العلاقة بين زناتة والفاطميين حتّى نهاية عهد المنصور الفاطمي»، حوليات جامعة الجزائر،العدد 06، ج2، مركز الطباعة،جامعة الجزائر،بوزريعة،الجزائر،1991-1992،ص45-48.

([5])- هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال، تولّى أمر إفريقية بأمر من الخليفة هارون الرشيد، واستقلّ بملكها ،للمزيد أنظر: محمد ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، حقّقه وعلّق على حواشيه، حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص 93.

([6])- عبد العزيز فيلالي: المظاهر الكبرى في عصر الولاّة ببلاد المغرب والأندلس، (د.ط)، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، (د.ت)، ص 88.

- **تحصينات المدينة:**

في ظل الأوضاع التي تعرفها مدينة طبنة -كما أسلفنا- أضحى أمر إقامة التحصينات لحمايتها محلّ اهتمام ولّاة أمرها ،بل ضرورة ملحّة لذلك ،خصوصا عندما أصبحت طبنة حسب ما يؤكده البكري أكبر مدينة من القيروان إلى سجلماسة[1]. وعليه فقد أقاموا الحصون ،وأحيطت المدينة بالأسوار المتقنة البناء ،سواء كان بناؤها من طين ،أو من الصخر الجليل[2].

ولقد كانت تلك التحصينات تخدم مجال المدينة داخليا في ظل الاختلاف في تشكيلات المجتمع الطبني الذي كانت تتكون عناصر سكّانه من «أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر»[3]. ومع اتساع المجال الجغرافي لمدينة طبنة ،وتنوع عناصر سكانها يلفت انتباهنا البكري إلى نقطة مهمّة مفادها أنّ سكان هذه المدينة طبعت الحرب أغلب فترات حياتهم ،في ظل الاختلافات فيما بينهم خاصة العرقية بين العرب والعجم.

أمّا عن أبواب المدينة ،فقد أحيطت طبنة بأبواب من مختلف جهاتها، سواء الشرقية أو الغربية أو الجنوبية ،وكانت هذه الأبواب متينة ،إذ صنعت من الحديد ،ويذكرها البكري في معرض الأخبار التي ساقها عن المدينة بأن لها «من الأبواب: باب خاقان ،مبني بالحجر ،عليه باب حديد ،وهو سري ،وباب الفتح: غربي، باب حديد أيضا... وباب تهوذا ،قبلي عليه باب حديد...والباب الجديد: حديد أيضا ،وباب كتامة: جوفي»[4].

- **اقتصاد مدينة طبنة:**

إنّ موقع طبنة في وسط الإقليم أهّلها لامتلاك مقوّمات اقتصادية هامة، ولا أدّل على ذلك أكثر ممّا ذكره ابن حوقل بقوله أنّها: «كبيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير... وأكثر غلاّتهم السقي ويزرعون الكتان ،وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة ،وكانت وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم»[5].

وإن كان ابن حوقل يبرز لنا صورة عن الازدهار الاقتصادي الّذي عرفته المدينة ،فإنّ الجغرافي الّذي كان متأخرا عن فترة حياة ابن حوقل ألا وهو البكري يورد نصّا يفيد بأنّ دور

([1])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 229.

([2])- مجهول: الاستبصار، ص 172، الحموي: المصدر السابق، مج4، ص 21.

([3])- ابن رستة: المصدر السابق، مج7، ص 350.

([4])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 228.

([5])- ابن حوقل: المصدر السابق، ص 85.

المدينة الاقتصادي قد تراجع في زمانه ،عندما يصفها بالمدينة ذات البساتين اليسيرة الملاصقة للربض[1]. ولعلّ بين أيدينا ما يبرّر ذلك التراجع ،إذا لم نغفل عن أحد العوامل الّتي كان لها تأثير كبير على الجانب الحضاري ،والاقتصادي لمنطقة المغرب الأوسط والأدنى[2] ،ومن ضمنه مدينة طبنة ،ألا وهي ثورة صاحب الحمار أبي يزيد مخلد ،والذي سنأتي عليه في حينه.

إلاّ أنّ المدينة عادت للظهور مرّة أخرى بنشاط اقتصادي مزدهر ،وهو ما نستشفّه من خلال ما أورده الجغرافي الإدريسي من وصف بشأنها فهي: «كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير... وبها صناعات وتجارات وأموال لأهلها متصرّفة في ضروب من التجارات والتمر بهاكثير وكذلك سائر الفواكه»[3].

غير أنّ هذه المدينة ورغم المكانة المهمّة الّتي حظيت بها، والازدهار الاقتصادي الّذي عرفته ،فإنّها ستعرف تراجعا ملحوظا مسّ مختلف نواحي الحياة بها ،وذلك مع نهاية القرن الثالث للهجرة ومطلع الرابع. ولاشكّ أنّ لهذا التراجع انعكاس ملحوظ على الجانب الحضاري والعمراني للمدينة ،خصوصا في ظلّ الاضطرابات السياسية الّتي عرفتها المنطقة ،وما كان لها من أثر بالغ على عمران ذلك الإقليم ،خاصة بعد بروز مدينة المسيلة كقاعدة أساسية في منطقة الزاب. فهل اقتصرت عوامل تراجع عمران هذه المدينة على تلك الأسباب؟ أم أنّ هناك أسبابا أخرى؟.

2- المدينة الحاضرة (تيهرت):

- تأسيس المدينة:

ما إن ملك الخوارج القيروان عام 140هـ/757م، حتّى عقدوا الإمامة لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري[4] ،هذا الأخير الذي ولّى بدوره عبد الرحمن بن رستم على القيروان ،وعاد هو إلى طرابلس لمواجهة العبّاسيين هناك، فأقام عبد الرحمن بن رستم على سدّة الولاية يدير شؤون البلاد[5].

([1])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 228.

([2])- موسى لقبال: طبنة في مجال العلاقة بين زناتة والفاطميين حتّى نهاية عهد المنصور، ص 48.

([3])- الإدريسي: نزهة المشتاق ج1، ص 263.

([4])- يوسف عبد الكريم جودت: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية،(د.ط)،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984،ص26.

([5])- عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1997، ص33 ،سلفادور قومث نوغاليس: «الرستميون قنطرة صلة بين الجزائر والأندلس من خلال الإباضية»، مجلة الأصالة، العدد46-47، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م، ص 14.

ونظرا لفشل الحملات الّتي أرسلها والي مصر محمد بن الأشعت لقتال الخوارج[1] بالمغرب ،اضطرّ هذا الوالي للخروج بنفسه في جيش كبير سنة 144هـ/761م ،وهزم أبي الخطاب بمنطقة تاورغة[2] ،وبمقتل أبي الخطاب فرّ عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب ،ولجأ إلى جبل سوفجج عند قبيلة لماية[3] ،وهناك اجتمع أتباع المذهب الإباضي[4] وبايعوه إماما عليهم ،وبذلك تتأسّس دولة بني رستم ،وتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المذهب والدولة.

وقد ذكر بعض المؤرّخين أنّ هذه المبايعة مبايعة بالإمارة أوّلا سنة 144هـ/761م ،تلتها مبايعة بالإمامة سنة 160-162هـ/776/777- 778/779م ،أو ما عرف بالانتقال من إمامة الدفاع إلى إمامة الظهور أين تبدأ مرحلة التأسيس الفعلي للدولة ،وكان أوّل عمل يقوم به عبد الرحمن بن رستم هو بناء المدينة الّتي ستكون عاصمة لدولته[5].

([1])- الخوارج: هم الّذين خرجوا على علي –رضي الله عنه- بعد وقعة التحكيم، واعتزلوه وأصحابه، وهم عشرون فرقة، أبرزها: المحكمة الأولى، الأزارقة، النجدات، الصفرية، العجاردة، الإباضية ،وأشدّ هذه الفرق تطرفا الأزارقة، وعمدة مذهبهم الكلام في الإيمان والكفر، والوعد والوعيد، والكلام في الإمامة، وغيرها، أنظر: محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك،ج5، تح، محمد إبراهيم، ط2، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971، ص 64، علي ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل،ج2، تح، محمد نصر وعبد الرحمن عميرة، ط2، دار الجيل، بيروت، 1416هـ-1996م، ص270، عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم...، تح، محمد الخشت، (د.ط)، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ، القاهرة، (د.ت)،ص 72، وللمزيد أنظر: محمد أبوسعدة: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، ط2، (د.د.ن)، القاهرة، 1998،ص 20، الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، ط2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1406هـ-1986م،ص 139، وللمزيد أكثر أنظر: فيصل الجاسم: حقيقة الخوارج في الشرع وعبر التاريخ ،غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان، الكويت، 1426هـ-2005م، ص24.

([2])- محمد بلغراد: «الحركة الإباضية في تاهرت وسدراتة»، مجلة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م، ص 45.

([3])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 249، إبراهيم بحاز: «ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي»، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 05، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1408هـ-1988م، ص 83.

([4])- نسبة إلى الإباضية، وهم فرقة من فرق الخوارج ينسبون إلى عبد الله بن أباض، وهذا المذهب منتشر في عمان، وطرابلس، وقد أدخله إلى المغرب سلمة بن سعيد، في أوائل المائة الثانية للهجرة، واجتمع به في المغرب كلّ من: عاصم السدراتي، وداود القبلي، وعبد الرحمن بن رستم، ثمّ انظمّ إليهم أبوالخطاب، أنظر: عمرو خليفة النامي: دراسات عن الإباضية، ترجمة، ميخائيل خوري، مراجعة، ماهر جرار، تعليق، محمد ناصر، وآخرون ،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص33، وللمزيد أنظر: علي يحي معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية،(د.ط)، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، (د.ت)، ص298، وللمزيد أكثر أنظر: سليمان داود بن يوسف: مساهمة علماء الإباضية في علم التفسير والحديث...، (د.ط)، مطبعة أبوداود، الجزائر، 1992، ص78، بكير أعوشت: أضواء إسلامية على المعالم الإباضية...، (د.ط)، الدار العمانية للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، (د.ت)، ص 54-56.

([5])- يوسف عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 26-27.

وبشأن سبب تأسيس مدينة تيهرت[1] في عهد الإمام الرستمي الأوّل عبد الرحمن ،يضع بين أيدينا أبو زكرياء نصّا مفاده أن «سبب ولايته أنّ جماعة المسلمين اتّفقوا أن ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حرزا وحصنا للإسلام. فأرسلوا الروافد في الأرض ،فرجعوا فدلّوهم على تاهرت ،فاتّفق جمهور المسلمين مع أهل تاهرت القديمة على أشياء معلومة يأخذونها من غلّتها»[2].

وبذلك رأى عبد الرحمن بن رستم ضرورة تأسيس قاعدة لملكه ،بعدما فرّ من القيروان ،واجتمعت إليه طوائف من البربر الإباضية من لماية ولواتة[3] ونفزاوة[4] ،وهؤلاء تحالفوا معه ،كما يورده ابن خلدون أنّه: «نزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم فاجتمعوا إليه وبايعوا له بالخلافة وائتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي إمارتهم»[5].

وعلى الرغم من إجماع المؤرّخين على أنّ تاريخ 144هـ/761م، هو تاريخ فرار عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى أرض المغرب الأوسط وجبل سوفجج[6] إلاّ أنّهم اختلفوا في شأن تحديد تاريخ شروع عبد الرحمن بن رستم في بناء مدينة تيهرت ،حيث وقفنا على جملة من

---

(1)- تختلف المصادر في ذكر اسم المدينة بين تاهرت وتيهرت، ومن الّذين يذكرونها بصيغة تيهرت نجد كلّ من: أحمد بن سعيد الشماخي: كتاب السير، ج1، تح، أحمد السيباني، (د.ط)، وزارة التــراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1992، ص 130، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 197، الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 10، البكري: المصدر السابق، مج2، ص 248، سليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج2، تح، أحمد كروم وآخرون، دار البعث، الجزائر، 2002، في الكثير من صفحات الكتاب، أمّا من يذكرها بصيغة تاهرت بالألف فنجد: اليعقوبي: المصدر السابق، ص 195، عبيد الله ابن خرداذبة: المسالك والممالك، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1967، ص88، الأصطخري: المصدر السابق، ص34، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86، أبوالقاسم النصيبي ابن حوقل: المسالك والممالك، (د.ط)، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1872، ص60، المقدسي: المصدر السابق، ص 185، مجهول: الاستبصار، ص178، الحموي: المصدر السابق، مج2، ص 07-09 ،أحمد ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1967، ص79، أمّا بحاز إبراهيم: فيرجّح أن تكون التسمية الصحيحة هي تيهرت ،أنظر: إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية،ط1 المطبعة العربية، غرداية، 1994،ص86، ونحن نميل إلى هذا الرأي.

(2)- يحي أبوزكريا بن أبي بكر: سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تح، إسماعيل العربي، (د.ط)، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ-1979م، ص53.

(3)- قبيلة من بطون البربر البتر، ومن فروعها سدراتة بن نطيط، ومزاتة، وقد استقرّوا بجبل أوراس، ثمّ استقلّوا بالزاب وحتّى تيهرت ،أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 152-153.

(4)- هم قبيلة، من أبناء تطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك، من بطونهم: غساسة، ومرنيسة، و مكلاتة، و ورفجومة وغيرهم، نزلوا بالأوراس، و دخلوا في مذهب الإباضية و الخوارج، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 150.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 132.

(6)- أنظر: عبد الحميد حاجيات: كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، (د.ط)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 45.

الآراء جعلت من سنة 144هـــ/761م تاريخا لابتداء البناء[1]. غير أنّ النص الّذي أورده ابن عذاري حول مشاركة عبد الرحمن بن رستم في حصار طبنة سنة 153هـــ/771م أين انهزم بتهوذا قرب طبنة ،و رجع إلى جبل سوفجج[2] ،يجعلنا نستبعد شروع عبد الرحمن بن رستم[3] في بناء تيهرت قبل سنة 153هـــ/771م ،وعليه فالرّاجح أنّ شروعه في بنائها كان بعد ذلك التاريخ.

وإذا رجعنا إلى الدراسة الّتي قام بها الباحث إبراهيم بحاز حول دولة بني رستم ،فإنّ هذا الباحث توصّل إلى ترجيح تاريخ الشروع في بناء هذه المدينة بحيث كان خلال الفترة الممتدّة بين سنتي 155هـــ/773م و160هـــ/776م[4] ،على أنّ هذا لا يمنع من كون تعمير هذه المدينة قد مرّ عبر مراحل كان بالتوازي مع تطوّر الدولة[5] ،وهو ما أشار إليه عبد الكريم جودت من أنّ الدولة الرستمية لم تضع لنفسها حدودا سياسية مرسومة ،وإنّما جعلت من طبيعة مذهبها وعلاقاتها بالجماعات الإسلامية سبيلا جديدا بين حدودها[6].

ومنه فإنّ الانطلاق في بناء مدينة تيهرت حسب بحاز إبراهيم يكون بعد سنة 155هـــ/773م ،إلاّ أنّه وبدوره لا يرجّح تاريخا محددا لذلك. في حين يعتمد جودت عبد الكريم يوسف سنة 161هـــ/777م تاريجا لبداية البناء ،وذلك بناء على ما أشار إليه ابن عذاري حينما قال: «واختطّ النّاس مساكنهم. وذلك في سنة 161هـــ وكانت في الزمان الخالي مدينة قديمة ،فأحدثها الآن عبد الرحمن بن رستم »[7].

([1])- أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 132، أندري بريتان، وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة، اسطنبولي رابح، وآخرون، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 93.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 76.

([3])- هو عبد الرحمن بن رستم، ذو الأصل الفارسي، ولد بالعراق، و زار مكة، قدم إلى القيراون مع أمّه بعد وفاة أبيه، و استقرّ بها حتّ أصبح قاضيها بعد أن فتحها أبو الخطاب سنة 141هـــ/758م، وكان له الفضل في تأسيس الدولة الرستمية التي عدّ أوّل أئمّتها، كانت وفاته سنة 171هـــ-787م، أنظر: مصطفى شاكر: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ج2، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص 563، وللمزيد أنظر: تاديوش ليفيتسكي: المؤرّخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة، ماهر جرار و ريما جرار، (د.ط)، مؤسسة تاوالت الثقافية، (د.ب.ن)، 2007، ص 14-15.

([4])- إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص84.

([5])- هناك عدّة تواريخ حدّدها بعض الدراسات التاريخية لابتداء بناء المدينة منها: من حدده بسنة 150هـــ/767م، أنظر: أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1997، ص 47، ومن في سنة 169هـــ/785م حسب، أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2001، ص 56.

([6])- يوسف عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 61.

([7])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 196.

وبناء على ما سبق فإنّنا نميل إلى ترجيح ما ذهب إليه إبراهيم بحاز بشأن تاريخ الشروع في بناء المدينة من طرف عبد الرحمن بن رستم ،والّذي يقضي بأنّ عملية البناء تمّت على مراحل تدرّجت بداية من سنة 155هـ/773م ،واستمرّت حتّى سنة 160هـ/776م ،أين عمّرت المدينة وقصدها الإباضية من مختلف أنحاء المغرب.

ولقد كان بناء المدينة في موضع تيهرت ،حيث اختير هذا الموضع لما يمتاز به من خصوبة الأراضي ،ونقاء الهواء ،ووفرة المياه ،وكذا حصانته ومناعته من الأعداء ،وكان هذا الموضع على سفح جبل جزول ،على مسافة خمسة أميال من تيهرت القديمة ،أو تيهرت الرومانية(1).

وبخصوص هذا الموضع تذكر المصادر الإباضية أنّ موقع المدينة قبل البناء لم يكن مهيّئا للبناء ،حيث بعدما وقع اختيارهم على موضع تاهرت ،واتّفق جمهورهم مع أهل تاهرت القديمة على شيء معلوم يأخذونه على غلّتها ،كانت تيهرت «قبل ذلك رياضا لا عمارة فيها إلاّ السباع والهوام»(2).

كما وردت روايات حول تأسيس المدينة أقرب ما تكون لتلك المتعلّقة بتأسيس عقبة للقيروان ،وهو كما يورده أبو زكرياء بقوله: «فلمّا اتّفقوا على عمارتها ،أمروا مناديا ينادى ،إلى من بها من الوحوش والسباع: أن أخرجوا ،فإنّا أردنا عمارة هذه الأرض ،وأجلوا لها ثلاثة أيام. وبلغنا أنّهم رأوا بها وحشا تحمل أولادها في أفواهها خارجة منها ،فكان ذلك ممّا رغّبهم فيها وزادهم بصيرة في عمارتها وإنشائها»(3).

عندئذ أقدموا على إطلاق النيران بموضعها فاحترقت أشجارها ،وشرعوا في بناء المدينة في ذلك الموضع(4) ،حيث بدأوا ببناء المسجد ،ثم اختطّوا المدينة(5).

---

(1)- محمود السيد: تاريخ دول المغرب العربي (ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب-موريطانيا)، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2000، ص 32، محمد بوركبة: «الحياة الاجتماعية على عهد الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)»، رسالة ماجستير ،كلية العلوم الإنسانية والحضارة ،جامعة وهران، 1420-1421هـ/1999-2000م، ص 15.

(2)- أحمد بن سعيد الدرجيني: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تح، إبراهيم طلاي، (د.ط)، مطبعة البعث ،قسنطينة ،الجزائر، (د.ت)، ص 41.

(3)- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 53.

(4)- كان موضع المدينة لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا فوافقهم على أن يؤدي إليهم الخراج من أسواقها، أنظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج2، ص 09. أما البكري فيذكر أنّ الإباضية كانت وجهتهم تيهرت القديمة أو العليا في بادئ الأمر، ولمّا عزموا على تجديد بنائها، وتوسيعها كان كلّ ما بنوه في الليل يجدونه قد تهدّم في النّهار، فتركوا ذاك الموضع وانتقلوا إلى موضع تيهرت الحديثة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 249.

(5)- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، (د.ط)، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة،1990، ص 154.

و عليه اختطّت تيهرت في الشقّ الغربي للمغرب الأوسط على نمط الأمصار الإسلامية ،وكانت بداية تأسيسها مطابقة إلى حدّ بعيد للشروط الّتي أشرنا إليها في دراستنا لشروط اختطاط واختيار المدن ،بدليل أنّهم اختاروا مكانا جيّد الهواء ،كثير المياه ،خصب الأرض ،قابلا للعمارة ،في أمان من العدو ،ولعلّ المقدسي قد أبدع في وصف ذلك بقوله: «تاهرت هي اسم القصبة أيضا وهي بلخ المغرب قد أحدق بها الأنهار ،والتفّت بها الأشجار، وغابت في البساتين ،ونبعث حولها الأعين ،وجلّ بها الإقليم ،وانتعش فيها الغريب...» (1).

كما كان موقعها في سفح جبل قرقل(جزول) «على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب يسمّى مينة (منيت) ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمّى تانس ومنه تشرب أرضها»(2).

ويمكن اعتبار تيهرت من المدن الإسلامية الأولى المحدثة بمنطقة المغرب الأوسط ،هذه الأخيرة الّتي لم تشهد منذ الفتح الإسلامي ظهور أيّ مدينة جديدة حتّى بناء تيهرت ،وقد يُعزى ذلك إلى ما شهدته المنطقة من حروب وثورات ،وما نجم عنه من فقدان الأمن والاستقرار(3).

و عليه كانت هذه المدينة هي النواة الرئيسة في بناء حضارة بني رستم(4) ،نظير ما عرفته من تطوّر اقتصادي وحضاري في فترة لاحقة.

- تطوّر مدينة تيهرت:

إن الدارس لتاريخ دولة بني رستم ليقف على تلك البساطة الّتي طبعت ظروف قيامها على غرار ما أشار إليه المؤرّخ ابن الصغير حينما تطرّق إلى الوفد المشرقي الّذي قدم إلى تيهرت محمّلا بالمعونة المخصّصة للإمام الرستمي عبد الرحمن بن رستم فوجدوا هذا الأخير يشرف على بناء داره بنفسه ويصلح سطحها ،فعجبوا من ذلك ،حتّى شكّوا في شخصه هل هو الإمام أم لا(5).

(1)- المقدسي: المصدر السابق، ص 185.

(2)- مجهول: الاستبصار، ص 178.

(3)- يوسف عبد الكريم جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (09-10م)، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 343.

(4)- أسّس الإباضية بقيادة عبد الرحمن بن رستم إمارة لهم بتيهرتبعد مبايعة عبد الرحمن بالإمامة ،وكانت هذه الدولة تحدّها من الشرق دولة الأغالبة ،ومن الغرب دولة الأدارسة ،ومن الجنوب الصحراء، وقد وصل نفوذها حتّى طرابلس، وعرف أمراؤها بالأئمة ،وأشهر أئمتها عبد الرحمن بن رستم، ثمّ ابنه عبد الوهاب، ثمّ أفلح بن عبد الوهاب، وكان آخرهم اليقظان بن أبي اليقظان(294-296هـ/907-907م) ،الّذي سقطت في عهده هذه الدولة، أنظر: إبراهيم فخار: «دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب» ،مجلة الأصالة ،العدد42-43 ،مطبعة البعث ،قسنطينة ،الجزائر،1397هـ-1977م، ص38.

(5)- ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، تح، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، (د.ط)، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986، ص 29.

فكان هذا النص الّذي أفادنا به ابن الصغير يحمل بين طياته إشارة واضحة تفيد إعراض ولّاة أمر هذه الدولة في أول أمرهم عن حياة الترف ،آيام كانت تعرف مرحلة البناء والتأسيس. وإن كان هذا في أول عهدها ،فإنه ومع مُضيّ السنين ،وما عرفته المدينة من تطور تغيّر حال أئمة دولتها ،حينما مالوا إلى حياة الترف في ظل ما ترفل به المدينة الرستمية من ازدهار. وهو ما يؤكده ابن الصغير حينما يصف أحوال الحياة الرستمية التي وقف عليها الوفد المشرقي بعد الزيارة الثانية لها ،وما لاحظوه ،ذلك «أنّهم نظروا إلى قصور قد بنيت ،وإلى بساتين قد غرست ،وإلى إرحاء قد نصبت»[1].

ولقد كان هذا الازدهار الكبير الذي أضحت المدينة تعيش في ظلاله نتاج ذلك الرخاء الاقتصادي ،والتوسّع العمراني الذي ميّز حضارة بني رستم في أزهى عصورها[2] ،خاصة بعدما قصدها الوفود أفرادا كانت أو قبائلا ،وما كان لهؤلاء من دور في تعمير المدينة.

فبعدما شرعوا في البناء قاموا -حسبما يشير إليه ابن الصغير- بإحياء الأموات ،وغرس البساتين ،وإجراء الأنهار ،واتّخاذ الرحاء والمستغلات ،عندها اتّسعوا في البلد ،وتفسّحوا فيها وحينها «أتتهم الوفود والرفاق من كلّ الأمصار ،وأقاصي الأقطار»[3].

أمّا بخصوص مباني تيهرت ومساكنها فيذكر عبد الكريم جودت أنّها كانت موزّعة بين أحياء مختلفة ،ومقسمة إلى نواحي ،اختصّت كلّ قبيلة أو جنس بناحية منها[4] ،ونتيجة هذا التوسّع العمراني الكبير الّذي عرفته المدينة أصبحت «لا ترى دار إلاّ وقيل هذه لفلان الكوفي ،وهذه لفلان البصري ،وهذا مسجد البصريين ،وهذا مسجد الكوفيين»[5]. واختار هؤلاء السكان المواضع المجاورة للمساجد وحول القصور لبناء مساكنهم بالطين والحجارة ،وكذلك في المناطق المحاذية للأنهار[6].

([1])- ابن الصغير: المصدر السابق، ص 32.

([2])- كانت العمارة الرستمية ذات طابع هندسي مميّز، أنظر: *RAVEREAU André: Le m'zab, une leçon d'architecture, préface de Hassan Fathy, SNdbad, Paris, 1981, p 38-39.*

([3])- ابن الصغير: المصدر السابق، ص 31.

([4])- يوسف عبد الكريم جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأوسط، ص 350.

([5])- ابن الصغير: المصدر السابق، ص 32.

([6]) - *ZEROUKI Brahim: L'imamat de Tahart premier état musulman du Maghreb (144/ 296 de l'hégire), Tome 1, préface de Claude Cachen et de Charles Pellat, l'Harmattan, Paris, 1987, p 20.*

ومن مظاهر تطوّر مدينة تيهرت تلك التحصينات الّتي أقامها أئمتها ،فقد أحيطت بسور من الحجر[1] ،وأحكمت أبوابه ،غير أنّنا نجد بعض الجغرافيين على غرار ابن حوقل ،المقدسي والإدريسي ينفي أنّ يكون لمدينة تيهرت الجديدة سور ،في حين كان للمدينة القديمة سور. وهو ما يثير استغرابنا إذ كيف تخلو هذه المدينة في أوجّ قوّتها من التحصينات بما يكفل الأمان من الخطر الخارجي؟. غير أن بين أيدينا نصّا للجغرافي البكري يؤكد أنّ للمدينة سور حينما يقول: «ومدينة تيهرت مسوّرة»[2] ،ويضيف في نفس السياق كل من القلقشندي وصاحب الروض المعطار أن مدينة تيهرت مسوّرة بسور صخري من الحجر[3].

وإذا كان ما يصون المدينة ويحميها هي أسوارها ،وأبوابها ،فقد أحيطت المدينة أربعة أبواب وهي: « باب الصفا ،وباب المنازل ،وباب الأندلس ،وباب المطاحن»[4].

وعلى هذا الأساس شهدت مدينة تيهرت ازدهارا اقتصاديا كبيرا ،حتّى غدت أعظم مدن المغرب مدنية ،واقتصادا ،وعمرانا ،وهو ما يؤكّده المقدسي عندما يصف الحالة الاقتصادية لهذه المدينة فيذكر: «وهو بلد كبير كثير الخير... رشيق الأسواق، غزير الماء...» [5] ،ويضيف البكري إلى ذلك: «ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها ،وهو في شرقيها ،وفيها جميع الثمار ،سفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما وشمّا»[6].

وفي مجال النشاط التجاري وقفنا على أن المدينة كثيرة الأسواق ،وعامرة بمختلف البضائع ،والتجارات وهو ما يوضحه الإدريسي بقوله: «وبها ناس وجمل من البرابر ،ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة ،وبأراضيها مزارع وضيّاع جمّة...وأمّا البقر والغنم بها فكثيرة جدّا ،وكذلك العسل والسمن ،وسائر غلاّتها كثيرة»[7].

([1])- رشيد بورويبة: «الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة»، مجلة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م، ص 182.

([2])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 248.

([3])- محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار،تح،إحسان عباس،ط2،مكتبة لبنان،بيروت،1984، ص126 ،أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا،ج5 ،(د.ط) ،المطبعة الأميرية، القاهرة ،1333هـ -1915 م ،ص 111.

([4])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 248، ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج2، ص 08.

([5])- المقدسي: المصدر السابق، ص 185.

([6])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 248 ،وللمزيد أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 178.

([7])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 255-256.

ومن خلال ما سبق يتجلّى لنا أن ما عرفته المدينة من تكامل اقتصادي بين مختلف فروعه راجع إلى توفّر كل مقوّمات الزراعة بالمدينة ،من أراضي خصبة ،ومياه جارية ،وتنوّع للمحاصيل والغلاّت ،ومن كثرة للأسواق ،وغناها بشتّى أنواع البضائع والسلع.

وصفوة القول فإنّ هذا التطوّر العمراني الّذي عرفته مدينة تيهرت ،والاتّساع الكبير الذي أضحت عليه رغّب الجماعات البشرية في الوفود إليها من كلّ مكان ،على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ،وهذا بدوره انعكس إيجابا على حضارة المدينة ،وتطوّرها في شتّ نواحيه. غير أنّنا نقف عند هذا التطوّر التاريخي العمراني لمدينة تيهرت لنتساءل هل استمرّ ذلك التطور بعد سقوط البيت الرستمي سنة 296هـ/909م؟ أم أنّ تطوّرها ارتبط إلى حدّ كبير بتطوّر الدولة الرستمية؟.

3- المدينة الدعوة:

أ- مدينة إيكجان:

بقدوم أبي عبد الله الشيعي إلى أرض كتامة سنة 280هـ/893م ،الّتي استقرّ بها واتّخذها قاعدة له ولكلّ من تشيّع في المغرب. وعملا منه لنشر المذهب الشيعي في هذا الإقليم قام الشيعي أولا ببناء في موضع يعرف بـ: إيكجان على مقربة من مدينة قسنطينة ،مدينة سمّاها دار هجرة[1].

وإذا كان الباحث موسى لقبال قد حدّد موقع هذه المدينة في المنطقة الواقعة بين سطيف وقسنطينة وميلة[2] ،فإنّ الدارس لموقع إيكجان من خلال ما أوردته المصادر الجغرافية ليقف على اختلاف هذه الأخيرة في تحديد موقعها بشكل دقيق ،فإذا كان ياقوت الحموي يحدّده في: «ناحية بالمغرب من بلاد البربر ،ثمّ من بلاد كتامة منهم »[3] ،فإنها عند الإدريسي مجرّد حصن في «جبل بين سطيف وقسنطينة فيه قبائل [4]كتامة وبه حصن حصين ومعقل منيع»[5].

ولتحديد موقع المدينة بشكل أكثر دقة كان لزاما علينا الوقوف على بعض آراء الباحثين في علم الآثار ،حيث وجدنا أن المدينة تقع بين مدينة ميلة وسطيف حسب كلّ من المؤرّخ

([1])-*HEYDEN . M. Vonder: La berbérie orientale sous le dynastie des benoû, L'Aglab, 800-909, Paris, 1927, p 289*.

([2])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 154.

([3])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص 273.

([4])- حول القبائل الكتامية أنظر: لخضر سيفر: التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي، ج1، (د.ط)، الأمل للدراسات، الجزائر، 2006، ص 141 وما بعدها.

([5])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 269.

(الفرنسي) كومبيزا وكذلك شارل فيرو[1]. وهي إلى الشرق من جبال البابور بموضع يعرف اليوم باسم محلّي هو خربة إيكجان ،بمنطقة بني عزيز شرق مدينة سطيف. وهي المنطقة الّتي اتّخذها أبو عبد الله الشيعي موضعا لبناء مدينته ،ومركزا لنشر دعوته. وبهذه المنطقة توجد آثار باقية إلى يومنا هذا ،منها جزء من سور المدينة[2].

ولقد كان استقرار الدّاعي الشيعي بمنطقة إيكجان يشكّل بداية لمرحلة حاسمة من تاريخ دولة بني عبيد بمنطقة المغرب الأوسط ،حيث قام ببناء قصره، واتّخذه مستقرّا له ،وقرارا لأهل دعوته ،وبجانبه بنى مسجده ،الّذي منه انطلق في نشر دعوته[3]. ونضيف في نفس السياق أنّ أبا عبد الله الشيعي قد جمع بين الرغبة في نشر الدعوة وبين الهدف السياسي المتمثل في بناء دولة عظيمة على أرض المغرب. وهو ما يبرز لنا دور العامل السياسي في نشأة العديد من المدن الإسلامية ببلاد المغرب.

ومنه فإنّ بناء مدينة إيكجان يشكّل النواة الأولى لقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ،حيث اتّخذها منطلقا لتوسّعاته نحو مدن المغرب الأوسط والأدنى لدخولها وإخضاعها للنفوذ الشيعي. كما غدت هذه المدينة مقصدا لشيوخ القبائل الّذين استقطبهم الدّاعي الشيعي واتبعوا مذهبه ،وهو ما يؤكّده ابن عذاري بقوله: «فالتزمت كتامة الطاعة لأبي عبد الله ودخلت قبائل كثيرة في دعوته. فصيّر لهم ديوانا ،وألزمهم العسكرية»[4].

غير أنّ ما تجدر الإشارة إليه أنّ الوقوف على أوضاع هذه المدينة من مختلف جوانبها كتفاصيل تخطيطها وما تحوزه من مرافق ،حينما كانت تخضع لحكم أبي عبد الله الشيعي ،حبيس المادة الخبرية ،التي شحّت المصادر التاريخية والجغرافية عن ذكرها في الوقت الذي أطنبت في سرد الأخبار المتعلقة بأعمال الداعي الشيعي السياسية والعسكرية ،والمذهبية بإقليم كتامة.

ومع ذلك فإنّ هذه المدينة الّتي ناصرت الدّاعي الشيعي ،شكّلت منطقة التواصل بين القبائل الكتامية ،الّتي حملت على كاهلها مسؤولية نشر الدعوة الشيعية وبناء دولة الفاطميين بأرض المغرب. فما مصير هذه المدينة بعد قيام الدولة الفاطمية ،واتخاذها رقادة عاصمة لها؟.

([1])- ***FERAUD . L-Charles: Histoire des villes de la province de Constantine, société et archéologique de département de Constantine, 5ème volume de la 02ème série, 1871-1872, p 58.***

([2])- أنظر كل من: الملحق رقم: 10 و رقم: 11.

([3])- الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص 113.

([4])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 128.

ب- مدينة المهدية:

هي مدينة تقع على شبه جزيرة جمة ما بين سوسة وصفاقس ،أحدثها عبيد الله المهدي في الفترة الممتدّة ما بين (300-308هـ/912-920م) ،عندما كانت الدولة الفاطمية تسعى إلى تثبيت سلطاها على الأطراف الشرقية والغربية[1].

- **سبب البناء:**

يرجع بعض المؤرّخين سبب بناء مدينة المهدية إلى رغبة المهدي في بناء عاصمة جديدة تستقرّ فيها الأسرة الحاكمة تعبيرا عن طبيعة النّظام الجديد ،وكذا شعوره بالحاجة الماسّة لإيجاد موضع حصين يحميه من نفوس الرعية ،الّذين كان أغلبهم من أهل السنّة الكارهين للشّيعة والرافضين لوجودهم بأرض المغرب. كما أدرك أيضا أنّ مدينة رقادة أو القيروان الواقعة في وسط سهل فسيح لا تصلح لأن تكون حاضرة الشّيعة في المغرب ،في ظلّ ما تعرفه المنطقة من اضطرابات وثورات ،فكان لزاما إيجاد حصن منيع يستقرّ فيه الفاطميون ببلاد المغرب[2]. وبين أيدينا نصوص تاريخية تبرز رغبة المهدي الملحّة في ايجاد موضع يكفل للفاطميين الأمان من مختلف الأخطار الّتي تهدّد استقرار دولتهم ،وهو ما يؤكده كل من الحموي والتجاني حينما ذكرا مقولة الخليفة الشيعي عبيد الله المهدي بعدما فرغ من بناء مدينته المهدية ذات الموضع الحصين ،« اليوم أمنت الفاطميات يعني بناته»[3].

- **بناء المدينة:**

بدأ عبيد الله المهدي سنة 300هـ/912-913م بالطواف على السواحل بحثا عن موضع مناسب لبناء مدينته الجديدة ،فزار تونس وقرطاجنة[4] ،حتّى استقرّ على موقع في غاية الحصانة ،وصفها البكري بأن البحر « قد أحاط بها من ثلاث جهاتها ،وإنّما يدخل إليها من الجانب

([1])- بوبة مجاني: من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي ، (د.ط) ، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع ، قسنطينة ، الجزائر، 2007، ص166 ، (*DJAIT Hicham, TALBI Mohamed: Histoire de la Tunisie le moyen âge, société tunisienne de diffusion, Tunisie, p 214, CH- Andri Julien : Histoire de l'Afrique du nord (Tunisie, Algérie, Maroc), préface Stéphane Gsell, Payot, Paris, 1931, p 360.*

([2])- عبد الله كامل عبره: الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن ، الأفاق العربية، القاهرة ، 2001م، ص 38.

([3])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج5، ص 231، التجاني: المصدر السابق، ص 320.

([4])- هي مدينة رومانية تقع على شاطئ البحر، من أرض تونس، وهي حسب الجغرافيين مدينة عجيبة بها قصور من رخام محكمة البناء، وقد اختفت هذه المدينة، وأخذت مكانها مدينة تونس، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 216-221.

الغربي»[1] ،فكانت المدينة لحصانتها مستطيلة في البحر وهو دائر بها في غير مكان واحد ضيّق[2]. وعليه نرى أن عبيد الله المهدي قد وُفّق في اختيار لموضع بناء مدينته ،بعدما لم يجد موضعا أحسن ولا أحصن من موضع المهدية[3]. فشرع في بنائها سنة 300هـ/913م[4] ،وفرغ من أعمال البناء سنة 305هـ/917م ،وانتقل إليها سنة 308هـ/ 920م[5].

- **تحصينات المدينة:**

كان عبيد الله المهدي يشرف على عمليات البناء بنفسه ،حيث أمر ببناء قصر اتّخذه لنفسه وآخر لابنه[6]. كما أشرف على بناء مرسى المدينة الواقع في آخرها على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة في نصفها الشرقي. وكان في حصن الجبل كأنّه منقور في الحجر الصلد ،يتّسع لثلاثين مركبا[7]. إضافة إلى دار لصناعة السفن ،الّتي كانت في غاية من الحصانة ،تتّسع لمائة مركب من الحجم الكبير[8].

وكانت المدينة من الحصانة بمكان ،فكانت لها أبواب حصينة ومتينة ،إذ يذكر صاحب الاستبصار أن في الجهة الغربية «بابها... ولها بابان من حديد لا خشب فيهما زنة كل واحد منها ألف قنطار وطوله 30 شبرا...وهي من أعجب ما عمل في الإسلام»[9].

وبالاضافة إلى هذه الاستحكامات والتحصينات الهامة الّتي تكتسيها مدينة المهدية ،لم يغفل الفاطميون عن إحدى أهمّ وسائل الدفاع الّتي انتشرت في الفترة الإسلامية الوسيطة ،والممثّلة في

([1])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 202.

([2])- علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق، إسماعيل العربي، (ط.د)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1970، ص 144.

([3])- ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص 486.

([4])- هناك من يقول أنّ عملية البناء بدأت في سنة 303هـ/916م، أنظر: أبوالفدا: تقويم البلدان، ص 145، و للمزيد أنظر: التجاني: المصدر السابق، ص 320، و للمزيد أكثر أنظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 101.

([5])- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 71، البكري: المصدر السابق، مج2، ص 203، القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص199، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 184، نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، (د.ط)، الشركة العالمية للكتاب و دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1987، ص 132، ك.أ.س. كريزويل: العمارة الإسلامية في مصر الإخشيديون والفاطميون (939-1171م)، مج1، ترجمة، عبد الوهاب علوب، مراجعة، محمد الحداد ،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004، ص 04.

([6])- ابن حماد: المصدر السابق، ص 42.

([7])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 203.

([8])- التجاني: المصدر السابق، ص 322.

([9])- مجهول: الاستبصار، ص 117.

الأسوار ،والخنادق ،إذ كانت المدن تحاط بأسوار يتخلّلها أبراج تتكرّر عليها ،أو تكون جهة أركانها ،أو على حواف أبوابها ،ولم تخل مدينة المهدية من هذه التحصينات المحكمة إذ كان لها سور من حجارة[1] ،حيث يورد ياقوت الحموي وصفا دقيقا لسور المدينة بقوله: «وهي على ساحل بحر الروم داخلة فيه ككف على زند عليها سور عال محكم كأعظم ما يكون يمشي عليه فارسان عليه باب من حديد مصمّت»[2]. كما أنّ مدخل المدينة محصّن فحسب البكري فإن: «فيه ستة عشر برجا ثمانية منها في السور الأوّل ،وثمانية في الزيادة»[3].

ومن خلال ما سبق يبدو لنا أنّ مدينة المهدية أصبحت في منأى من الأخطار الّتي تهدّد دولتها ،وسلامة رعيّتها ،وذلك بفضل الاستحكامات والتحصينات الّتي زوّدت بها المدينة.

وبالموازاة مع تلك التحصينات التي عرفتها المدينة ،شهدت كذلك نموا اقتصاديا كبيرا ،حيث تتجلى الحالة الاقتصادية الهامة الّتي بلغتها المدينة من خلال ما أورده الجغرافي الإدريسي بأن «المهدية لم تزل ذات إقلاع وحطّ للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم...وإليها تجلب البضائع الكثيرة»[4]. وهذا تأكيد لما أورده الرحّالة ابن حوقل في شأنها عندما أقرّ أنّها: «حسنة الحمّامات والخانات خصيبة، كثيرة الفواكه والغلاّت»[5].

وفي الأخير فإنّ مدينة المهدية ،عدّت من أعظم ما شيّده ملوك بني عبيد على أرض المغرب في مجال العمارة ،فكانت حصنا منيعا حماهم لردح من الزمن ،في ظلّ ما عرفه المغرب من اضطرابات وحروب ،شكّلت فترات عصيبة في تاريخ دولة الفاطميين بأرضه ،ولنا أن نتساءل حول إذا كان ملوك هذه الدولة قد تجاوزوا تلك المحن ،والاضطرابات ،فهل سلم عمران المدينة من جرّاء تلك الأحداث؟.

ج – مدينة المسيلة:

كانت مدينة المسيلة محلّ اهتمام أغلب الجغرافيين والرحّالة الّذين زاروا بلاد المغرب وسجّلوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم -على الرغم من الاختلاف الوارد في بعض الأحيان في نصوص هؤلاء بشأنها- وذلك راجع في الكثير من الأحيان إلى طبيعة كلّ جغرافي أو رحّالة ،إذ هناك من كان

(1)- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 71.
(2)- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج5، ص 230.
(3)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 203.
(4)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 281.
(5)- ابن حوقل: المسالك والممالك، ص 48.

شاهد عيان ،ومنهم من سمع من غيره. وعلى الرغم من ذلك فإنّ المصادر تتّفق على أنّ المدينة محدثة من طرف محمد أبي القاسم بن عبيد الله المهدي ،القائم بأمر الله[1]. وحسب ابن عذاري فإن سبب بنائه لهذه المدينة بالمغرب هو تلك المقاومة العنيفة الّتي وجدها عند جبل بني برزال[2] ،عندما خرج باتّجاه المغرب لإحكام سيطرته هناك ،وفي طريق عودته مرّ بالهضاب العليا والحضنة ،أين رأى ضرورة حماية إفريقية من جهة الجنوب الغربي فأسّس في أواخر 315هـ/927-928م مدينة المحمّدية[3] ،الّتي عرفت فيما بعد باسم المسيلة ،وهو ما ذهب إليه ابن حماد أيضا حينما ذكر: «وقد هدّن أبوالقاسم المغرب ،وقضى منه المآرب وانصرف وفي انصرافه هذا مرّ بوادي (سهر) فاختطّ مدينة المسيلة ،رسمها برمحه وهو راكب على فرسه ،وأمر علي بن حمدون الجذامي[4]...أن يبنيها ويحصّنها ويحسنها وسمّاها المحمّدية باسمه»[5]. ومن خلال هذين النصين نلمس حاجة الفاطميين الماسّة لإقامة قاعدة للجيش الفاطمي ،حيث لجأوا إلى إقامة حصن في المنطقة يتمثّل في بناء مدينة المسيلة. وإن كنّا قد وقفنا على اتفاق أغلب المؤرّخين حول تفاصيل تأسيس المدينة ،فإنّ هناك تضاربا في آرائهم حول تحديد السنة الّتي تمّ فيها البناء ،إذ هناك من يذكر أنّه كان سنة 313هـ/25-926م ،في الوقت الّذي يتّخذ فريق آخر سنة 315هـ/28-929م[6] تاريخا لبداية البناء ،أمّا أحد المؤرّخين المحدثين فيشير إلى أنّ تاريخ بداية بناء المسيلة كان سنة 313هـ وأتمّ سنة 315هـ ،وهو بذلك قد جمع بين الرأيين السابقين[7].

([1])- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 85.

([2])- ينتمي بنوبرزال المسيلة إلى بطن من بطون زناتة من بني يفرن، وكانوا يقطنون بالمغرب الأوسط، أنظر: إبراهيم فخار: «بنوبرزال المسيلة في البرازيل أو أسطورة كريستوف كولومب»، مجلة الثقافة، العدد 20، السنة الرابعة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ-1974م، ص 38.

([3])- عيسى بن الذيب: الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، (د.ط)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 75.

([4])- هو جعفر بن علي بن حمدون بن سماك ، المعروف بابن الأندلسي، صاحب المسيلة، وأمير الزاب ،كانت بينه وبين زيري بن مناد محاسدة ،أفضت إلى مقتل هذا الأخير على يد ابن حمدون، الّذي فرّ إلى الأندلس أين قتل فيها سنة 364هـ/974م، أنظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ط1، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1971، ص 59.

([5])- ابن حماد: المصدر السابق، ص 46.

([6])-ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص718، ابن خلدون: العبر، ج4، ص50-51، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 72.

([7])- إسماعيل العربي: «ماضي المسيلة السياسي والثقافي و الخلاف بين زيري بن مناد و جعفر بن علي أمير المسيلة»، مجلة التاريخ، العدد 06، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1978، ص 135.

وقد اختطّت المدينة وشرع في بنائها وتحصينها ،حيث أحاطها ابن حمدون بسورين وجعل لهما أبواب. و لم تلبث هذه المدينة أن عرفت ازدهارا اقتصاديا هاما نظرا لامتلاكها ثروة اقتصادية هائلة كالقطن والشعير والأنعام والبقر[1]. وبذلك كانت موردا اقتصاديا هاما للفاطميّين يزوّدهم بالأقوات والمأكولات أيام المحن والأزمات[2].

وعليه فقد أمروا علي بن حمدون أن يدّخر ما يمكن ادّخاره من القوت في مخازن تلك المدينة. وهنا لفت انتباهنا أمر مهم و هو عدم حرص الدولة الفاطمية على أمور بناء وتشييد المدينة بقدر ما كانت حريصة على جباية الأموال[3] ،وإقامة المراصد على الطرق التجارية ،وبناء مخازن لتموين الدولة ،وبناء الحصون لحماية نفسها من أيّ خطر يهدّد كيانها. فحال مدينة المسيلة لا يزيد عن رغبة خلفاء الدولة الفاطمية في إقامة قاعدة في قلب المغرب الأوسط ،تكون مركزا للجيوش الّتي تحارب بعيدا عن مركز الخلافة[4]. و لم تعرف مدينة المسيلة الاستقرار السياسي لمدة طويلة ،ذلك أنّها عرفت عدّة اضطرابات وأزمات تصدّرتها ثورة صاحب الحمار أبي يزيد النكاري ،وفي فترة لاحقة هجرة القبائل العربية الهلالية إلى المنطقة ،فهل ستصمد هذه المدينة أمام تلك الاضطرابات وتحافظ على دورها الحضاري أم كان لمصير عمران المدينة شأن آخر؟.

4- المدينة الصنهاجية:

أ- مدينة أشير:

- تأسيس المدينة:

تجمع أغلب المصادر التاريخية على أنّ تأسيس مدينة أشير يرجع إلى القائد زيري بن مناد ،الّذي كان مقدّما في دولة بني عبيد بالمغرب مشهورا بالنجدة والبأس[5] ،وهم يستدلّون في ذلك

([1])- ابن حوقل: المسالك والممالك، ص60، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254، ابن حماد: المصدر السابق، ص 46.

([2])- و نظرا لما عرفته المدينة من ازدهار، وصفها ابن هانئ الأندلسي ببغداد المغرب، بقوله من البحر الطويل:

تبغـــدد مـــنه الزاب حتّى رأيته يهب نسيم الـــروض فيستجفي

أرضا وطئت الدر رضراضا بها والمسلك ترابا والرياض جـــنابا،

أنظر: يوسف عبد الكريم جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الأوسط، ص367.

([3])- كان ابن حمدون يتلقّى التوصيات من جوذر يحثّه على جباية الأموال، والحرص على ذلك العمل، أنظر:أبوعلي منصور العزيزي الجوذري:سيرة الأستاذ جوذر،تح،محمد كامل حسين ومحمد شعيرة،(د.ط)،دار الفكر العربي، مصر،(د.ت)، ص141.

([4])- عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب، (د.ط)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 151، رضا بن النية: «صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتّى عودة الفاطميين إلى مصر...»، رسالة ماجستير ،كلية العلوم الإنسانية ، جامعة قسنطينة، 1426-1427هـ/ 2005-2006م، ص 98.

([5])- جمال الدين الأزدي: أخبار الدول المنقطعة،ج1، تح، عصام هزايمة ،دار الكندي للنشر ،الأردن، 1999،ص 32.

بأبيات شعرية[1] أوردها البكري ،اعتمادا على يوسف الوراق ،ونقلا عنه ،إذ يذكر: «إنّ الّذي بنى أشير زيري والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون:

يا أيّها السائل عن عزبنا	وعـــــن محل الكفر أشير
عن دار فسق ظالم أهلها	قد شـــيّدت للكفر والزور
أسّسها الملـــعون زيرها	فلعنـــه الله على زيري»[2].

وإذا كانت هذه القصيدة تذمّ مدينة أشير مستنكرة تشييدها وأسبابه لاعنة بانيها ،فإنّها في الوقت نفسه أحد الأدلّة الثابتة لشخص مؤسّس المدينة.

وكان تأسيس المدينة من طرف قبيلة صنهاجة وذلك في ظلّ الكيان السياسي الشيعي ،حيث كانت هذه القبيلة على وفاق تام مع دولة الفاطميين ،بل لعبت دورا كبيرا في خدمة هذه الدولة إذ أنقذتها في كثير من المرّات من هزّات كادت تعصف بوجودها بأرض المغرب ،كما حدث في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد[3]. وفي الوقت الّذي أصبح قادة صنهاجة في حاجة ماسّة لبناء قاعدة لهم ولملكهم ،نتيجة كثرة أتباع زيري ،خاصة بعد انتصاره على زناتة واعترافا بالجميل وتقديرا للخدمات أذن له الخليفة القائم ببناء مدينة ،فاختار زيري موضع أشير[4].

و يبدو أن اختياره هذا كان صائبا فهي موضع حصين منيع ،وفير المياه ،كثير الخصب ،ذلك أنّها: «بين جبال شامخة محيطة بها ،دائرة عليها »[5].

واختيار هذا الموضع ربّما لم يكن لحاجة عسكرية أكثر من رغبة زيري في إيجاد مكان يجمع فيه أتباعه حوله على كثرتهم. ومن جهة أخرى كانت الدولة الفاطمية في حاجة لوجود قاعدة عسكرية[6] في الجهة الغربية لحماية حدودها من هذه الجهة ،وكذا مراقبة المناطق التابعة لسلطتها.

([1])- الأبيات من البحر السريع.

([2])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 241.

([3])- *Encyclopédie de l'Islam : nouvelle édition, tome 01, a-b, Article Achir, p 720.*

([4])-إسماعيل العربي: دولة بني زيري ملوك غرناطة، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 12.إسماعيل العربي: عواصم بني زيري ملوك أشير- القلعة-بجاية- غرناطة – المهدية، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1404هـ-1984م، ص 14، *LAROUI Abdallah: L'histoire du Maghreb un essai de synthèse, 2ème édition, centre culturel arabe, Casablanca, 2001, p 130.*

([5])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 241.

([6])- وعلى الرغم من ذلك لا يمكن بأيّ حال من الأحوال تجاهل العوامل العسكرية والأمنية، الّتي رغّبت زيري في بناء مدينة أشير، وهو ما جعله يختار موضعا حصينا عند سفح جبل تيطري، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 203.

إضافة إلى رغبة الفاطميين الملحّة لكسب ودّ قبيلة صنهاجة للوقوف في وجه الزناتيين ،والاستعانة بها لإخضاع المناطق المتمرّدة على كيانها خاصة بالمغرب الأوسط والأقصى.

- **تعمير المدينة:**

بعد اختيار الموضع شرع زيري بن مناد في بناء المدينة وتعميرها سنة 324هـ/935م ،فعمد إلى إحضار البنّائين والنجّارين من حمزة[1] والمسيلة وطبنة. وهنا يلفت انتباهنا أمر مهم بشأن بناء مدينة أشير الذي كان على النمط المحلي الصنهاجي بإسهام بنّائيها ومهندسيها.

كما ساهمت السلطة الفاطمية في عمليات البناء ،عندما أمدّه القائم بأمر الله (322-334هـ/ 934-946م) بالمهندسين والبنّائين ومادة الحديد. ولّما انتهى من بنائها قدّم الخليفة أيضا يد المساعدة في إعمار المدينة ببعض أعيان طبنة والمسيلة وحمزة[2]. ولا شكّ أنّ هذه الإسهامات في عمليات البناء والتعمير من قبل الفاطميين تؤكّد رأينا السابق حول أهمّية المدينة كقاعدة ،أو حصن دفاعي ضدّ الخطر الزناتي، وأنّه لا مناص من الاستعانة بصنهاجة الّتي ارتبطت بصراع قديم مع زناتة.

- **تحصينات أشــــير:**

إنّ الموقع الطبيعي لهذه المدينة جعل منها أحد المدن الحصينة ،فهي تقع على جبل ارتفاعه حوالي 1400 متر على مستوى البحر ،إضافة إلى أنّها أعلى قمم الجبل الأخضر. ويصف البكري حصانة موقع المدينة بقوله: أنّها مدينة «جليلة حصينة يذكر أنّه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما ،ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلاّ بموضع يحميه عشرة رجال ،وهو في شرقيها»[3].

و لما عرفت المدينة اتّساعا عمرانيا كبيرا عمد زيري إلى بناء سور يحيط بها. وبالموازاة مع ذلك التطوّر العمراني لهذه المدينة عرف اقتصادها هو الآخر نموا كبيرا ،حيث اشتغل أهلها بالزراعة والصناعة ،فعمّ الرخاء الاقتصادي[4]. كما استفادت المدينة أيضا من توافد السكان عليها

([1])- حمزة أو سوق حمزة، مدينة صغيرة على جبل بينها وبين البحر نحو ميل، ذات أعين، وموقعها في يومنا هذا في منطقة البويرة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 246.

([2])- النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 88 ،روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 44.

([3])- البكري: المسالك والممالك، مج2، ص 241.

([4])- عبد الحميد سعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص 297.

،حيث قصدها العلماء والتجار الّذين سمعوا بها ،وبما تعرفه من استقرار سياسي عُدّ أحد العوامل الرئيسة الّتي تساعد على الاستقرار ،وتطوّر مدينة أشير.

ومع هذا كلّه فإنّ موقع المدينة الممتاز والعسير ينطوي على عيوب عدّة ،أهمّها إشراف المدينة على سهول شاسعة تجول فيها قبائل زناتة ،وتقوم بقطع الطرق أمام القوافل المارّة بها ،وتمنع وصول المؤن إليها[1] ،وهو ما حال دون أن ترقى هذه المدينة إلى مصاف المدينة العاصمة ،وأن يتلاشى دورها وتفقد أهمّيتها ،وعلى رأس ذلك عمران مدنها ،في ظلّ ما عرفته بلاد المغرب من أحداث هامة.

ب- مدينة القلعة (قلعة بني حماد) [2]:

- تأسيس المدينة[3]:

إذا كانت السياسة العمرانية الرومانية والبيزنطية قد ركّزت على الساحل لبناء المدن ،فإنّ تلك السياسة قد تغيّرت بعد مرحلة الفتح الإسلامي للمغرب. حيث اتّجهت السياسة العمرانية الإسلامية نحو الجنوب بمحاذاة الأطلس الصحراوي ،لاجتناب الأخطار الأجنبية ،والسيطرة على الطرق التجارية ،كشأن بناء مدن: القيروان ،تيهرت ،أشير والقلعة[4].

والقلعة مدينة اختطّها حماد بن بلكين سنة 398هـ/1007-1008م[5] ،إذ تتّفق جلّ المصادر على أنّ شروعه في البناء كان في هذه السنة ،باستثناء ياقوت الحموي الّذي يرى أنّ بناء المدينة كان «في حدود سنة 370هـ »[6]. وإن كان الحموي قد انفرد بذكر هذه السنة كتاريخ

([1])- إسماعيل العربي: عواصم بني زيري، ص 16.

([2])- تقع هذه المدينة حاليا على الطريق بين مدينة بريكة والمسيلة، وتبعد عن المسيلة بمسافة 36كلم، عبر الطريق المؤدّي إلى المعاضيد، وقد صنفت خرائب هذه المدينة ضمن التراث العالمي لليونسكو، ولا تزال بذلك الموقع آثار باقية إلى يومنا هذا منها منارة جامع القلعة، أنظر كل من: الملحق رقم: 12، رقم: 13، ورقم: 14.

([3])- من بين أهمّ الحفريات الّتي اهتمّت بموقع القلعة تلك الّتي قام بها القائد دوبايلي، في كتابه قلعة بين حماد، أنظر: *GENERAL de Beylié : La Kalaa des Beni Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du nord au 10ème siècle, Paris, 1909.*

([4])- علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 83.

([5])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 228، عبيد بوداود: «مساهمة علماء القلعة في الحياة الفكرية ببجاية خلال القرن السابق الهجري (13م)»، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد العاشر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1430هـ-2009م، ص 27، *Contribution a l'étude de la céramique musulmane : les poteries faïences de la Qal'a des Beni Hammâd (XIème siècle), Constantine, 1913, p 05.*

([6])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص 390.

لبناء القلعة فإنّه ربّما يتكلم عن حصن بُني في تلك السنة من طرف بلكين بن زيري والد حماد. ومنه فقد يكون حماد بنى قلعته بجوار قلعة أبيه ،أو على أنقاضها[1].

موضع البناء الحصين:

أشار بعض المؤرّخين إلى وجود أنقاض لحصن قديم عرفه الرومان من قبل ،فالمؤرخ الصنهاجي ابن حماد (ت 628 هـ/1231 م) أمدّنا بنصوص هامة حول تفاصيل بناء مدينة القلعة ،حيث يذكر حصن تاقربوست[2] في الجبل الّذي لجأ إليه أبو يزيد النكاري سنة 335هـ/947م ،بعد ملاحقته من طرف الخليفة المنصور الشيعي فحاصره ،وضيّق عليه بعدما «ارتفع أبو يزيد ودخل قلعة كيانة وهي تاقر بوست المطلّة على قلعة بني حماد»[3].

وعليه يكون حماد بن بلكين قد فضّل موضع المدينة الّذي يقع في أسفل جبل تاقربوست المنسوب لقبيلة عجيسة[4] ،والذي كان موضعا حصينا منيعا ،حيث رام حماد من ورائه التحصّن والامتناع من العدو ،في ظل صراعه مع أبناء عمومته من بني زيري ،وكذا مع العناصر الزناتية. ويبدو أنه اختياره هذا كان موفّقا كون المدينة كما يعدّها ابن الأثير: «من أحصن القلاع وأعلاها لا ترام ،على رأس جبل شاهق يكاد الطرف لا يحقّقها لعلوها »[5].

وإذا كانت المدينة في سند جبل سامي العلو صعب الارتقاء فإن حماد بعدما أتمّ بناءها سعى إلى تحصينها فأحاطها بسور من الحجارة. وحسب الإدريسي فقد استدار سورها بجميع الجبل[6] ،وكان هذا السور يشتمل على ثلاثة أبواب ،باب الجنان الّذي يفضي إلى المسيلة ،وهو في جنوبها الغربي ،وعلى الجنوب الشرقي باب جراوة ،وهو على الطريق المؤدي إلى برج الغدير ،بالإضافة إلى باب الأقواس في الجهة الشمالية[7].

---

(1)- ارتبط تأسيس المدينة بظروف سياسية، وعلى رأسها رغبة حماد التخلّص من وصاية باديس بن المنصور، خاصة بعدما نجح في القضاء على ثورة أعمام باديس، أنظر: يوسف عبد الكريم جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ص 377.

(2)- تاقر بوست: كلمة بربرية تعني السرج.

(3)- ابن حماد: المصدر السابق، ص 72.

(4)- قبيلة عجيسة: بطن من بطون البرانس من ولد عجيسة بن برنس، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 192، وللمزيد حول قبائل فرع البرانس، أنظر: الملحق رقم: 15.

(5)- ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، أحداث عام 547هـ.

(6)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 255.

(7)- الغدير: مدينة كبيرة أوّلية، بين جبال، وفيها عين عذبة، كما بها جامع وأسواق عامرة بالفواكه الكثيرة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 240، إسماعيل العربي: عواصم بني زيري، ص 32-33.

- **تعمير المدينة:**

لقد أعقب عمليات بناء وتشييد مدينة القلعة ،طور مهم في تاريخها ألا وهو مرحلة تعمير هذه المدينة ،ويمكن اعتبار عملية تعميرها أشبه بعملية قصرية وإجبارية ،فابن خلدون يذكر أنّ حماد «نقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخرّبهما ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها»[1].

وبغض النّظر عن طريقة تعمير المدينة فإنّ هذه الأخيرة استفادت بشكل كبير من أولئك السكان الّذين نُقلوا إليها ،وسارعوا في اختطاط مساكنهم ،والأحياء الخاصة بهم. ولعلّ الحدث الأبرز والّذي أسهم كثيرا في تعمير المدينة ،حتّى عدّت في مصاف المدن الرئيسة في المغرب الأوسط والأدنى ،وعلا شأنها في أنحاء العالم الإسلامي ،كان ممثلا في ما طال مدينة القيروان من أعمال تخريب ونهب من طرف القبائل الهلالية- والّذي سنتناوله بالدراسة في الفصل الثالث من بحثنا هذا- ،فأخذت القلعة عندها مكانة القيروان كحاضرة استقطبت السكان وجذبتهم[2] خاصة القيراونيين. ومنه أضحت القلعة المكان الآمن حيث انتقل إليها أكثر أهل إفريقية ،وهي حسب البكري «مقصد التجار و بها تحلّ الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب»[3].

وقد ساهمت هذه العناصر البشرية الوافدة إلى القلعة بشكل كبير في توسيع عمران المدينة وازدهار اقتصادها ،حتّى أصبحت «من أكبر البلاد قطرا وأكثر خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا ،وأحسنها قصورا ومساكنا»[4].

و نتيجة لتزايد السكان الوافدين من مختلف الأقطار ازداد نمو مختلف الشرائح المكوّنة لمجتمع المدينة ،وانعكس إيجابا على نمو الاقتصاد ،ورواج التجارة ،فأخذت المدينة في النمو والتوسّع ،حيث تعدّدت المرافق[5] المكونة للمدينة ،ويشير ابن خلدون إلى حاجة المدينة للمرافق جرّاء تزايد سكّانها، حينما اضطرّ حماد إلى الإستكثار «فيها من المساجد والفنادق ،فاستبحرت في العمارة

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 228.

([2])- صالح بن قربة، وآخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، (د.ط)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر1954،الجزائر،2007، ص238.

([3])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص226.

([4])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 255.

([5])- نتيجة لتزايد العمران، فقد كان إلى جانب بيوت السكان مباني عظيمة ممثلة في القصور الّتي شيّدها ملوك بني حماد، ومنها: قصر دار البحر، قصر السلام، قصر الكوكب، قصر المنار، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232.

،واتّسعت في التمدّن. ورحل إليها من الثغور القاصية والبلد البعيد طلاّب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها»[1].

وصفوة القول فإنّ مدينة القلعة عرفت في ظلّ الدولة الحمادية رخاء وازدهارا اقتصاديا ،كما استبحرت في العمارة ،فذاع صيتها في الآفاق ،حتى كانت العاصمة الحصينة لهذه لدولة بني حماد لردح من الزمن. غير أنّه وفي النصف الثاني من القرن 05هـــ/11م اضطرّ ملوك القلعة لاتّخاذ عاصمة جديدة بدل القلعة ،كان موضعها بجاية. فما أسباب ذلك الانتقال يا ترى؟ و ما تأثير ذلك على عمران المدينة بشكل خاص ودور المدينة بشكل عام؟.

ج- مدينة بجاية:

مدينة صلداي[2] الرومانية أو بجاية الإسلامية هي المدينة الّتي أسّستها القبيلة الصنهاجية. وقد عدّت المدينة حسب الجغرافيين من الموانئ الّتي تفصل بونة[3] عن جزائر بني مزغنة[4] ،وميناء قلعة بني حماد ،لتصبح في القرن 06هـــ/12م مرسا كبيرا تصله السفن من مختلف البلدان[5].

ويرجع ابن خلدون أصل هذه التسمية إلى قبيلة صنهاجية التي كانت تقطن بالمنطقة «ونطق الكاف في لغتهم لا ينطق كذلك بل هو بين الكاف والجيم ،فلمّا خطّ الناصر بن علناس المدينة وسمّاها الناصرية ،سمّاها النّاس باسم القبيلة وهي بجاية»[6].

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 228، للمزيد أنظر: عبد النور بن خرباش: «نظام ومنشآت الري في قلعة بني حماد دراسة أثرية»، رسالة ماجستير في الآثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 14، *BOUROUIBA Rachid : La Qal'a des Bani Hammad, Alger, 1975, p 34-35.*

([2])- حول صلداي (*Saldae*) أنظر: *FERAUD Laurent – Charles: Histoire de Boujie, rééd Bouchénes, 2001, p 35-42*، وللمزيد أنظر: *GAID Mouloud: Histoire de saldae, région depuis l'antiquité jusqu'à 1954, SNED, Alger, 1976, p 51-56.*

([3])- بونة أوعنابة كما تعرف اليوم، مدينة أوّلية تقع على ساحل البحر الرومي، وكانت مدينة عامرة، كثيرة المساجد والأسواق والحمّامات، ومختلف المنتجات، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 233، وللمزيد أنظر: سعيد دحماني: من هيبون إلى بونة إلى عنابة تاريخ تأسيس قطب حضري ، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـــ-2007م، ص 61.

([4])- جزائر بني مزغنة أو مدينة الجزائر اليوم، هي مدينة جليلة، قديمة البنيان، فيها آثار للأوّل، وكان اختطاط هذه المدينة في العصر الإسلامي على يد بلكين بأمر من أبيه زيري بن مناد، بعد بناء مدينة أشير، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 247، وللمزيد أنظر: أحمد السليماني: تاريخ مدينة الجزائر، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص 07.

([5])- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 76 ،البكري: المصدر السابق، مج2، ص 268، مجهول: الاستبصار، ص 129.

([6])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232، مسعود بريكة: «النخبة والسلطة في بجاية الحفصية»، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1429-1430هـــ/2008-2009م، ص 26.

وكان تأسيس هذه المدينة على يد الناصر بن علناس سنة 460هـ/1067م[1] ،وليس كما يذكر صاحب الاستبصار[2] ،الّذي جانب الصواب حينما عزى بناءها إلى المنصور الحمادي (481-498هـ/1089-1105م) ،هذا الأخير الذي لم يتولّ الحكم إلاّ سنة 481هـ/1089م. أي بعد بناء المدينة بفترة زمنية تقارب العشرين سنة ،كما أنّ المدينة سميت الناصرية نسبة لمؤسّسها الناصر. وبخصوص الأسباب الداعية لتأسيس هذه المدينة فقد اختلف المؤرّخون في سرد تفاصيلها[3] ،وإن كان تطرّقنا لتلك الأسباب يعدّ سابقا لأوانه حسبما تقتضيه خطّتنا في هذا البحث. وعليه سنتناول ذلك بالدراسة في حينه[4]. و لم تلبث هذه المدينة بعد بنائها أن عرفت تطوّرا ملحوظا مسّ ذلك التطوّر مختلف جوانب الحياة ،اقتصادية كانت أو ثقافية أو عمرانية[5].

ودراسة تاريخ مدينة بجاية في الفترة الحمادية لا يمكن فصله عن تاريخ قلعة بني حماد ،إذ إنّ بناء هذه الأخيرة يعدّ الانطلاقة الحقيقية الّتي سيرتكز عليها تاريخ مدينة بجاية ؛لأنّها الرافد الّذي سيمدّها بمقوّمات النهوض فيما بعد ،كما أنّ الأحداث الّتي شهدتها القلعة نتيجة الهجرة الهلالية ستؤثّر على مستقبل المدينتين ،حتّى وإن اختلف ذلك التأثير من مدينة لأخرى.

5- المدينة الساحلية(وهران):

وهي مدينة تقع على ساحل البحر في الجهة الغربية من المغرب الأوسط ،ويرجع الجغرافي البكري تأسيس هذه المدينة إلى: «محمد بن أبي عون ومحمد بن عدون ،وجماعة من الأندلسيين البحريين الّذين ينتجعون مرسى وهران» ،وكان ذلك في سنة 290هـ/902م[6].

([1])- علي خلاصي: القلاع والحصون في الجزائر، (د.ط)، مطبعة الديوان، الشراقة، الجزائر، 2008، ص 115، يحي بوعزيز: «مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية...»، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأوّل، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران، 1414هـ-1993م، ص05، *BOUROUIBA Rachid: Abdelmu'min Flambeau des Almahades, 2ème édition, SND, 1982, p 41.*

([2])- مجهول: الاستبصار، ص 129.

([3])- تطرّق الباحث الفرنسي دومينيك فاليريون إلى أسباب بناء هذه المدينة والاختلاف الوارد حول ذلك في مقال نشره في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة العلوم الإسلامية بقسنطينة، أنظر: *VALERIEN Dominique: «De la Qal'a des Banû Hammâd à Boujie», Revue des lettres et sciences humaines, Université Emir Abdelkader des sciences islamiques, Constantine, Numéro 10, 1430-2009.*

([4])- أنظر مبحث نتائج التخريب الهلالي لمدينة القلعة، في الفصل الثالث من هذا البحث.

([5]) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 161، مفتاح خلفات: «علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي»، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 10، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1430هـ-2009م، ص 47.

([6])- البكري: المصدر السابق، مج 2، ص 252 ،ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 136.

وقد أشارت أغلب المصادر الجغرافية إلى ارتباط هذه المدينة ببلاد الأندلس أكثر من مدن المغرب ،فإذا كان البكري عدّها الواجهة البحرية لمدينة تيهرت على الطريق الأوّل نحو القيروان من الجهة البحرية ،وعزى تأسيسها إلى جماعة من الأندلسيين ،اعتبر المقدسي «وهران بحرية مسوّرة يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة»[1].

كما عدّت وهران مرسى بحريا هاما في غاية السلامة والصون من كل ريح[2] ،بحيث يبعد عن المدينة بمسافة ميلين ،ترسو فيه السفن والمراكب الكبار»[3]. ومدينة وهران كانت مدينة محصّنة بسور يحيط بها من تراب متقن[4].

و يبدو من خلال سور المدينة المبني بالتراب ،أنّ المدينة في المرحلة الأولى من تأسيسها كانت تفتقر إلى التحصينات القوية بالشكل الّذي يدفع عنها التهديدات المتوالية عليها ،ممّا اضطرّ ولّاة أمورها للزيادة في التحصينات في القرون الّتي تلت ذلك[5].

ومن الناحية الاقتصادية فإنّ مدينة وهران عرفت نموا اقتصاديا هاما[6] ،ومما ساعد على ذلك النمو كونها ميناء بحريا تقلع منه السفن والمراكب المحمّلة بالبضائع والسلع إلى مناطق مختلفة من أرض المغرب ،وحتّى إلى الضفة الأخرى لحوض البحر الرومي ،غير أنّ هذه المدينة ما كانت لتسلم من تهديدات عدّة أثّرت سلبا على اقتصاد المدينة ،وبدرجة أكبر على عمرانها.

6- المدينة الصحراوية:

أ-مدينة وارجلان (ورقلة):

هي مدينة من المدن الصحراوية القديمة في بلاد المغرب الأوسط ،ورد اسمها بتسميات عدّة عند الجغرافيين والمؤرّخين العرب ومنها: وارجلان ،واركلا، وركلان ،ورقلة ،وارقلان ،ورجلان وورجلن. ولا بأس أن نذكر بعضا من هذه الروايات حول هذه التسمية الخاصة بالمدينة ،فالحموي في معجمه يذكر: «ورجلان ،بفتح أوّله وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون كورة

(1)- المقدسي: المصدر السابق، ص 185 ،البكري: المصدر السابق، مج2، ص 251.

(2)- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 77.

(3)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 252.

(4)- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 77، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 252.

(5) - *BOUROUIBA Rachid: L'architecture militare de l'Algérie médiévale, office des publications universitaires l'Algérie, 1983, p 118.*

(6)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 252، ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 140.

بين إفريقية وبلاد الجريد»[1]. أمّا ابن خلدون فيقول: «بنو واركلان[2] إحدى بطون زناتة... من ولد فريني بن جانا...،واختطّوا المصر المعروف بهم على ثماني مراحل من بسكرة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب»[3].

- **تأسيس المدينة:**

اختلف المؤرّخون في تحديد زمن ظهور هذه المدينة على مسرح الأحداث ،كما اختلفوا أيضا في تحديد هوية المجموعة البشرية الّتي اختطّت هذا المصر ،وإذا ما اعتبرنا أنّ المدينة قديمة البناء فإنّ الوزان الفاسي يذكر أنّ «وركلة مدينة أزليّة بناها النوميديون»[4]. غير أنّ ابن خلدون يرى غير ذلك ويذهب إلى أنّ قبائل بني واركلا هم من بنى المدينة «واختطّوا المصر المعروف بهم»[5]. على الرغم من أن هذه الآراء تفتقر إلى دلائل وقرائن تثبت صحّة مقولة أصحابها.

وما يزيد الأمر تعقيدا أنّنا من خلال تقصّينا وبحثنا في المصادر التاريخية ثبت لنا شحّ المادة الخبرية المتعلّقة بتاريخ هذه المدينة في الفترة الّتي تلت الفتح الإسلامي ،ممّا يصعّب معرفة دور هذه المدينة في تلك الفترة. كما وقفنا أيضا على تضارب الآراء في ما بين أيدينا من نصوص -على قلّتها- حيث لم تكن هذه المدينة موضع اتفاق بين مختلف المؤرخين والجغرافيين ،إذ وردت بصيغ مختلفة من بلد أو مصر أو كورة أو حصن.

فالجغرافي البكري يضع بين أيدينا نصّا مفاده أنّ وارجلان تتكوّن من «سبعة حصون للبرابر»[6] ،في حين وردت المدينة عند صاحب كتاب الاستبصار بصيغة المدن بدل الحصون ،إذ يقول أنها: «بلد خصيب كثير النخيل والبساتين وفيه سبع مدن مسورة حصينة تقرب بعضها من بعض»[7]، لترد عند الحموي بصيغة الكورة[8].

([1])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 453.

([2])- إليهم التجأ أبويزيد مخلد بن كيداد أثناء ثورته على الفاطميين، أنظر: الدراجي بوزياني: القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها، ج1، (د.ط)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2007، ص 184.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 70.

([4])- الحسن الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص 136.

([5])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 70.

([6])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 371، إلياس حاج عيسى: «مدينة وارجلان دراسة في النشاط الاقتصادي والحياة الفكرية (04-10هـ/10-16م)»، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ/2008-2009م، ص 18.

([7])- مجهول: الاستبصار، ص 224.

([8])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص 453.

وربّما يعلّل ذلك الاختلاف بين تلك المفاهيم الواردة بشأنها بذلك التطوّر الّذي حصل لتلك الحصون ،الّتي ارتقت إلى نمط المدينة[1] في الفترات الّتي أعقبت المراحل الأولى من تاريخها ،إذ نجد صاحب الروض المعطار (الّذي عاش في القرن 09هـ/15م) يصف وارجلان بأنّها: «بلد خصيب كثير النخيل والبساتين وفيه سبعة مدائن مسورة حصينة»[2].

- **التطوّر التاريخي للمدينة:**

كانت مدينة وارجلان قبل دخول المذهب الإباضي خاضعة لقبائل بني توجين[3] ،أمّا عن بدايات وارجلان مع المذهب الإباضي فهي تعود إلى هزيمة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري[4]. وبانهزامهم انتشروا في المناطق البعيدة ،ومع انتشارهم هذا انتشر المذهب الإباضي في مواطن بعيدة عن الاضطرابات مثل وارجلان وتيهرت. رغم أنّنا لا نستبعد نزول الإباضية بوارجلان في وقت مبكر ،ثمّ ازدادت هجرتهم تدريجيا فيما بعد ،إذ نزل الكثير من الخوارج ما بين قصور الزاب ووراكلا ،واختطّوا قرى كثيرة ،ثمّ استبحر عمرانها[5].

أمّا العناصر الّتي تسكن المدينة فقد تعدّدت وتنوّعت على مرّ العصور من بربر زناتة والعرب الّذين هاجروا إلى المنطقة من بني هلال وبني سليم ،إضافة إلى العبيد السود الّذين استقدموا من بلاد السودان ،وكذا عناصر اليهود الّذين تركّزت أعمالهم خصوصا في التجارة[6].

- **الوضع الاقتصادي:**

تشير المصادر الجغرافية إلى أنّ مدينة وارجلان عرفت رخاء اقتصاديا ملحوظا ،نظير ما تمتلكه من مقوّمات اقتصادية متنوعة ،وذلك ما يؤكّده صاحب الاستبصار بأن وارجلان «بلد

([1])- للمزيد من التفصيل حول تطور المدينة أنظر: إبراهيم بن صالح الوارجلاني، المعروف بالشيخ أعزام: غصن البان في تاريخ وارجلان، مخطوط عبارة عن كراس مكتوب بخط اليد، مكتبة الشيخ بومعقل عمر بن داود الوارجلاني، ورقلة، الجزائر، ص 23، وللمزيد أنظر: مولاي بلخميسي: «مدينة ورقة في رحلة العياشي»، مجلة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، 1397هـ-1977م، ص 63 ،علي يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة، ط1، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة، 1399هـ-1979م، ص 273.

([2])- الحميري: المصدر السابق، ص 600.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 15.

([4])- هو عبد الأعلى بن السمح المعافري، مؤسس أوّل إمامة ظهور عند الإباضية ببلاد المغرب بعد سنة 140هـ/757م، وذلك في خلافة أبي عبد الله محمد بن جعفر، أنظر: ابن سلام الإباضي: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، تح، ر.ق. شقارتز وسالم بن يعقوب، ط1، دار اقرأ للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1405هـ-1985م.

([5])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 70.

([6])- إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 34-38.

خصيب كثير النخل والبساتين...وهي بلاد كثيرة الزرع والضرع ،والبساتين كثيرة المياه...» [1] ،وكذا الجغرافي ابن سعيد الّذي يرى أنّها: «بلاد نخل ومحمضات ومياه ...» [2].

وقد لعب الموقع الجغرافي لمدينة وارجلان دورا هاما في ازدهار اقتصادها ،حيث أهّلها لأنّ تكون محطة تجارية هامة ترتبط بعلاقات متشابكة مع أغلب المراكز التجارية الصحراوية ،فكانت وارجلان معبرا لتلك القوافل التجارية المحمّلة بالبضائع والعابرة خاصة إلى بلاد السودان ،فالمدينة حسب ابن خلدون «باب لولوج المسافرين من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان يسكنها التجّار والداخلون لها بالبضائع»[3].

ومن بين أهمّ التجارات الّتي يمارسها سكان المدينة وتذر عليهم أرباحا طائلة ،تجارة الذهب[4] ،فقد راجت هذه التجارة ووصل الأمر إلى ضرب النقوذ الذهبية بوارجلان[5] ،كما يؤكده صاحب الاستبصار بأنه: «تضرب ببلد وارجلان دنانير على نوع المرابطية... والدنانير الوارجلانية مشهورة»[6].

وعن ذلك الرخاء الاقتصادي لمدينة وارجلان ورواج التّجارة بها أضحت وارجلان حسب الإدريسي «مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجوّلون في بلاد السودان ...فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم»[7].

وفي الأخير ،فإنّنا نقول إنّ مدينة وارجلان على الرغم من الأهمّية الاقتصادية الّتي اكتستها المدينة ؛وكانت التجارة القوام الأساسي لذلك الاقتصاد ،إلاّ أنّ الأحداث المتشابكة الّتي شهدتها منطقة المغرب الأوسط على وجه الخصوص كانت ذات تأثير على الطبيعة الجغرافية والعمرانية

([1])- مجهول: الاستبصار، ص 224.

([2])- ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 126.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 70، محمد صالح ناصر: دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا، (د.ط)، الدار العمانية للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1992.

([4])- لعب التّجار الإباضيون دورا كبيرا في إنعاش تجارة المغرب الأوسط، عندما سيطروا على كل المسالك المؤدّية إلى الجنوب، ومنه الاستحواذ على محطّات قوافل الذهب، أنظر: جميلة بن موسى: تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي من القرن 09 م إلى 11م، ط1، منشورات بلوتو، الجزائر، 2001، ص 130-131.

([5])- إنّ ضرب وارجلان لدنانير ذهبية قد يوحي لنا بأنها كانت تتمتّع باستقلالية عن الدولة الرستمية بتيهرت، وربّما كان ولاؤها إلى بني رستم، ولاء مذهبيا لا أكثر.

([6])- مجهول: الاستبصار، ص 224.

([7])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 296.

لمدينة وارجلان ،خصوصا بعد سقوط دولة بني رستم وقيام دولة الشّيعة بأرض المغرب ،ثم في عهد دولة بني حماد.

ب- مدينة سدراتة:

إنّ أهمّ ما يقف عليه الباحث عند دراسة تاريخ مدينة سدراتة[1] هو قلّة المادة الخبرية المتعلّقة بهذه المدينة. فإن كان ابن خلدون قد أمدّنا بمعلومات حول تأسيس مدينة وارجلان[2] فإنّنا نجده يتجاهل الحديث عن تأسيس مدينة سدراتة. وفي ظلّ قلّة المادة الخبرية يصعب على الدارس لتاريخ المدينة حتى التفريق بين اسم المدينة سدراتة ،واسم القبيلة سدراتة ؟ على أنّ هناك من يرجّح أن تكون النسبة للقبيلة وذلك في غياب ما يثبت ذلك بشكل دقيق.

إنّ المعلومات الّتي أمدّنا بها الجغرافي البكري على قلّتها تشير إلى اسم قبيلة عرفت بسدراتة والّتي كانت تستوطن مدينة بسكرة ،إذ يذكر بشأنها: «وحولها من قبائل البربر سدراتة»[3]. وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أنّ قبيلة سدراتة كانت موزّعة على مناطق المغرب الإسلامي آنذاك.

وعن تأسيس هذه المدينة تتضارب آراء المؤرّخين حول ذلك وتنقسم إلى رأيين ؛فالمؤرّخون الإباضيون يرون أنّ تأسيس المدينة كان في القرن الأوّل للهجرة(07 م) ،وأنّها كانت عامرة بالإباضين منذ سنة 101هـ/720م[4] ، أمّاالثلة الثانية من المؤرّخين فقد رجّحت أن يكون تأسيسها خلال القرن الرابع الهجري(10م) ،وذلك بعد سقوط الدولة الرستمية سنة 296هـ/ 909م ،حيث أخذ الإباضيون يتخيّرون موضعا يأوون إليه ،فنزلوا مدينة وارجلان ،وهناك على بعد 14 كلم جنوبا أخذوا في تخطيط عاصمتهم الجديدة سدراتة[5].

([1])- يرى بعض المؤرّخين والجغرافيين أنّ سدراتة اسم لقبيلة بربرية، و هي بطن من بطون لواتة من زناتة، وتعرف باسدراتن ،كما أنّ هذه القبيلة كانت من القبائل الّتي بايعت إدريس الأوّل خلال القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ،أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 230، وللمزيد أنظر: مختار حساني: المرجع السابق، ج2، ص 176، وللمزيد أكثر أنظر: عمار غرايسة: «المدينة الدولة في المغرب الأوسط وارجلان نموذجا (ق4-6هـ)»، رسالة ماجستير في حضارة المغرب الإسلامي الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1428-1429هـ/ 2007-2008م، ص 44.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 70.

([3])- البكري: المصدر السابق، مج 2، ص 230.

([4])- أنظر: إبراهيم صالح أعزام: المرجع السابق، ورقة 32.

([5])- مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط، (د.ط)، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1417هـ-1996م، ص35، رشيد بورويبة: الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة، ص 188، موريس لومبار: الإسلام في مجده الأوّل القرن 02-05هـ/08-11م، ترجمة وتعليق، إسماعيل العربي، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1979، ص 91-93، بكير أعوشت: وادي ميزاب في ظلّ الحضارة الإسلامية دينيا، تاريخيا، اجتماعيا، (د.ط)، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1991، ص 58.

وفي غياب الدليل القاطع يصعب ترجيح رأيّ على آخر، ومع ذلك فإنّ بين أيدينا دراسة حديثة قام بها الباحث مسعود مزهودي سعى من خلالها إلى إماطة اللثام عن ذلك الاختلاف في تاريخ تأسيس المدينة ،حيث اهتدى هذا الباحث في آخر المطاف إلى ترجيح سنة 101هـ/720م كتاريخ لتأسيس المدينة ،معتمدا في ذلك على رواية الشماخي الّتي تنص على أنّ عاصما السدراتي[1] شارك بعدد كبير من السدارتيين في حصار القيروان ،وأنّ القيراونيين انتقموا منه وقاموا بقتله ،و ذلك خلال القرن الثاني للهجرة (08 م)[2] ،هذا ويضاف إليه وجود دراسة أخرى قام بها الباحث جون لوتيو الّذي أرجع تاريخ تأسيس هذه المدينة إلى القرن الأوّل للهجرة (07م) وحدّد ذلك بسنة 42هـ/622م[3]. وعليه تكون هذه الدراسة وسابقتها دعما لأصحاب الرأي الأوّل القائل بأنّ تاريخ التأسيس كان خلال القرن الأوّل للهجرة (07 م).

ومن خلال وقوفنا على ما أورده أصحاب الدراستين السابقتين من حجج اهتدينا نحن أيضا إلى ترجيح هذا الرأي ،إذ نعتقد أنّ مدينة سدراتة كانت موجودة قبل فرار فلول الإباضية إليها ،وهو ما تؤكّده الباحثة فان برشم مارغريت (*Marguerite Van Berchem*) ،الّتي ترى أنّه من الخطأ الاعتقاد أنّ فرار الإباضية من تيهرت نحو وارجلان كان سببا في تأسيس مدينة سدراتة ،المدينة الجديدة في تلك المنطقة ،ولكن الرّاجح –حسب فان برشم- أنّ مدينة سدراتة كانت موجودة قبل ذلك التاريخ بزمن بعيد ،غير أنّ خبرة النازحين الجدد من الإباضية في مختلف الفنون الّتي اشتهرت بها دولة بني رستم ،مكّنتهم من النهوض بالمدينة وتوسيع عمرانها ،وتطوير اقتصادها بعدما استوطنوها[4].

ونظرا لوقوع هذه المدينة على الطريق التجاري الرابط بين المغرب الأوسط وبلاد السودان –كشأن مدينة وارجلان- فقد جذبت السكان إليها ،وذلك ما ساعد على اتّساعها ونموحضارتها

([1])- عاصم السدراتي (ت141هـ/758م): من مشاهير علماء المغرب، قيل أنّه من قبيلة سدراتة، أو من وارجلان، كان أحد حملة العلم الخمسة الّذين هاجروا إلى البصرة أين درس، ثمّ رجع معهم، وكان أوّل من بايع أبا الخطاب بالإمامة في طرابلس، مات في القيروان عند حصار قبيلة ورفجومة بعدما دسّوا له السمّ في القثاء، أنظر: معجم أعلام الإباضية من القرن 01هـ إلى 15هـ، قسم المغرب، ج3، (د.ط)، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر،1420هـ-1999م،ص499-500، وللمزيد أنظر: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ط1،المطابع الذهبية، مسقط، سلطنة عمان، 1423هـ-2002م، ص137.

([2])- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 36.

([3])- *LETHILLEUX Jean: Ouargla cité saharienne des origines au début du XX, Paul Geuihnet, Paris, 1983, p23-39.*

([4])- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 36.

من خلال ما بنى فيها من قصور ،ومنازل رفيعة ،أحاطت بها جنّات وافرة من المزارع والمنشآت وتزخر بالفنون والعمران والعلوم ،حتّى أصبحت تحاكي كبريات المدن بأسوارها وقلاعها ومساكنها ودروب أزقّتها ومنظومة الري الدقيقة المنتشرة فيها[1].

ومنه كان لقدوم الإباضية إلى سدراتة دور بارز في نمو حضارة هذه المدينة وازدهار عمرانها واقتصادها والحياة الثقافية بها. لكن السؤال الّذي يطرح هو: هل استمرّ ذلك التطور العمراني للمدينة؟ أم كان للأحداث التاريخية الّتي ميّزت منطقة المغرب الأوسط في عهد دولة بني حماد تأثير على عمرانها؟. و هو ما سنتناوله بالدراسة في فصلنا الثالث من هذا البحث.

وفي الأخير فإنّه يمكننا القول أنّ المدن الّتي بنيت على أرض المغرب الأوسط والأدنى شهد عمرانها تطوّرا أو اتّساعا كبيرا ،حسب الازدهار والقوة التي كانت عليها الدول القائمة آنذاك ،على اختلاف مذاهبها ،وكذلك بناء على ذلك التفاوت في اهتماماتها بالعمران من دولة لأخرى. بيد أنّ ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ عمران تلك المدن قد تعرّض لتخريب على اختلاف حدّته من مدينة لأخرى ،نتيجة الاضطرابات السياسية والمذهبية الّتي عرفتها منطقة المغرب الأوسط والأدنى ،وإن كنّا قد مهّدنا في هذا الفصل بعرض التطوّر التاريخي لبعض المدن الّتي أوردت المصادر التاريخية نصوصا بشأن تعرضها لعمليات تخريب ،فإنّنا سنأتي على دراسة حيثيات ذلك التخريب والوقوف على مسبباته ونتائجه ،وذلك في الفصلين المواليين من هذا البحث.

---

(1)- رشيد بوروبية: الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة، ص 188.

الفصل الثاني

التخريب الفاطمي و الزيري

I- التخريب الفاطمي

1-خراب مدينة تيهرت

2-خراب مدينة وارجلان

3-خراب مدينة وهران

4-خراب مدينة أذنة

5-خراب مدينة إمارة إفكان

6-ثورة أبي يزيد ضدّ الفاطميين و خراب المدن.

II-التخريب الزيري

1-خراب مدينة تيهرت

2-خراب مدينة ميلة و منطقة كتامة

ما إن يقتحم الباحث مجال الدراسة في تاريخ المغرب الإسلامي الأوسط والأدنى في جانبه الحضاري ،خصوصا ما تعلّق بالمدن الإسلامية ،حتّ يجد نفسه أمام فراغ مهول كلّما سعى إلى دراسة جوانبها (المدن) الحضارية وبنيتها الاجتماعية والاقتصادية.

بيد أنّ الصعوبة تزداد تفاقما كلّما تصدّى لمعالجة الجوانب الدقيقة لعمران المدن والتعمّق فيها ،كدراسة العوامل الّتي ساعدت على قيامها ،وكذا الوقوف على الظروف الّتي كانت وراء تطوّر وازدهار عمرانها ،وصولا إلى مرحلة هامة في تاريخ المدن ألا وهي تراجع دورها وانحصاره.

ولو وقفنا قليلا على تفاصيل ذلك التراجع المتعلّق بدور المدينة لوجدنا أنّ أغلب المدن الّتي تراجع دورها ،وآلت إلى السقوط ،بعد ما شهدته من تطوّر وازدهار قد انحصر في تراجع اقتصادها بمختلف نواحيه صناعية كانت أو زراعية أو تجارية ،كما قد يمسّ أيضا الجانب الثقافي ،حسب مسبّبات ذلك التراجع أو السقوط ،سواء في ظل الصراعات ،أو الحروب ،أو الثورات التي يعرفها الإقليم. ولا غرو إن قلنا أنّ هذا ينعكس سلبا على البنية الاجتماعية والمؤسسات الثقافية والاقتصادية ،وبدرجة أكبر على السلطة السياسية الحاكمة ،الّتي غالبا ما تنهار لتحلّ محلّها قوى سياسية جديدة تسيطر على إقليم تلك المدينة.

غير أنّ هناك جانبا مهمّا منوط بسقوط هذه المدن ،متمثلا في مصير عمرانها بعد ذلك السقوط ،أو في ظل ذلك الصراع ،وهو ما لم يرد في الكتابات التاريخية إلاّ بكيفية خجولة ،ممّا جعل هذا الجانب يبقى قابعا في زوايا النسيان. وحتّ نكون منصفين فإنّ هناك إشارات بين طيّات كتب المصادر تجلّت من خلالها ملامح عن مصير عمران العديد من مدن المغرب الأوسط والأدنى ،كان أبرزها ذلك الخراب[1] الّذي طالها. وإن كانت تلك المصادر قد أطنبت في ذكر الأحداث السياسية المتعلّقة بتلك المدن فإنّها قد شحّت في سرد تفاصيل ذلك الخراب.

والحاصل أنّ الباحث يجد نفسه مرغما على المساهمة والبحث ومطارحة هذه الإشكالية بعينها ،سعيا منه لإزاحة الستار عن ذلك الجانب المنسي (الخراب) ،مع العمل على الاستفادة ممّا تضمّنته المصادر من شذرات متنوعة عن تاريخ خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى.

وقبل الشروع في دراسة ذلك الخراب والمدن الّتي مسّها ،يستوقفنا ابن خلدون في محطّات عدّة من مصنّفه المقدمة ،عندما يتعرّض لخراب المدن ،إذ نجده يثير إشكالات ويسعى للإجابة عنها بناء على ما استنبطه من فهم (ميكانيزمات) عمران المدن ،وكذا العوامل المتحكّمة فيها.

(1)- وقد استعمل المؤرّخون ألفاظا عدّة للدلالة على ذلك الخراب، منها: الهدم، التدمير، الحرق، النهب والإفساد.

ومن الأسئلة الّتي طرحها وأجاب عنها في آن واحد. لماذا يسرع الخراب لمدن المغرب؟ ،وما العلاقة بين المدينة المغربية وانقراض الدولة المؤسسة لها؟ ،وما سبب قلّة المدن والأمصار بإفريقية والمغرب؟. وهذه أسئلة مهمّة تخدم دراستنا إلى حدّ ما ،فهي تساعد على فهم بعض أسباب الخراب خاصة وأنّ ابن خلدون قد حدّد بعضها وجعلها إحدى موجبات خراب المدن ،كشأن فصله المعنون بأنّ الظلم مؤذن بخراب العمران ،إذ يفصّل ذلك قائلا: «فجباة الأموال بغير حقّها ظلمة ... والمانعون لحقوق النّاس ظلمة ،وغصّاب الأملاك على العموم ظلمة ،ووبال ذلك كلّه عائد على الدولة بخراب العمران ،الّذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله ،وأعلم أنّ هذه الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما نشأ عنه من فساد العمران وخرابه»[1] ،ويضيف إلى ذلك سببا آخرا يتمثّل في دور البداوة في ذلك الخراب ،إذ يقول: «والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع» ،هذا ويضاف إليه سبب آخر مرتبط بانقراض عمر الدولة ،وذلك أنه إن: «كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت»[2].

ومن خلال هذه النصوص الّتي أمدّنا بها ابن خلدون والمتعلّقة بمبادئ وأسباب خراب المدن ،ومنها مدن المغرب الأوسط والأدنى ،فإنّه قد فتح أمامنا باب الاستفهام حول أسباب خراب المدن الإسلامية ببلاد المغرب الأوسط والأدنى خلال فترة دراستنا؟ ،وكذا ماهية القوى السياسية ،الّتي كانت وراء ذلك التخريب؟ ،إضافة إلى مصير تلك المدن بعد ما حلّ بعمرانها من خراب؟.

I- التخريب الفاطمي:

لّما صفا الجو لأبي عبد الله الشيعي ودخلت كتامة في طاعته ،ودان له جزء كبير من أرض المغرب ،بعدما توالت المدن بالسقوط بين يديه ،خاصة بعدما زحف نحو المغرب الأدنى أين وقعت الهزيمة الكبرى على الجيش الأغلبي بموقعة الأربس -كما تقدّم ذكره- فتقدّم عندئذ الداعي الشيعي نحو القيروان فدخلها ،وبسط نفوذه على المنطقة ،وافتتح عهدا جديدا على أرضه بميلاد دولة شيعية سنة 296هـ/909م ،ثم عمد إلى ترتيب أمورها من ضرب للسكة[3] ،ووضع لدواوين

(1)- ابن خلدون: المقدمة، ص 229-230.

(2)- المصدر نفسه، ص 276.

(3)- تشير بعض الدراسات إلى أنّ أوّل دار لضرب السكة في عهد الفاطميين، كانت في عهد الخليفة الفاطمي المهدي عبيد الله ،غير أنّ هذه الدنانير لم تصلنا حتّى خلافة ابنه القائم ،أنظر: مايسة داود: المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة دراسة أثرية وفنية، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991، ص 24، وللمزيد حول سكة الفاطميين أنظر: صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

الدولة الفاطمية. وقد كان تاريخ هذه الدولة حافلا بالأحداث الّتي أثّرت إلى حدّ كبير على عمران المدن بالمغرب الأوسط والأدنى.

وإن كنّا قد وقفنا على أنّ هذه الدولة قد نهجت سياسة عمرانية متميّزة بإحداثها لمدن جديدة على أرض المغرب ،على غرار كل من مدينة إيكجان ،المهدية والمسيلة رغم اختلاف الأسباب الداعية لإنشائها من مدينة لأخرى ،إلاّ أنّ أهمّ ما استوقفنا من خلال تتبّعنا للأحداث التاريخية المتعلّقة بالجانب العمراني لهذه الدولة هو ما أوردته المصادر -على اختلافها في ذلك- حول ما تعلّق بعمليات تخريب مدن المغرب الأوسط والأدنى من قبل الفاطميين ،كخراب تيهرت ،وارجلان ،سدراتة ،وحتّ إفكان ووهران. فما هي الأسباب الداعية إلى ذلك يا ترى؟ ،وإلى أيّ مدى أثّر ذلك التخريب على مستقبل المدينة وعمرانها؟

1- خراب مدينة تيهرت:

لقد سبق وأن وقفنا على التطوّر العمراني الّذي شهدته مدينة تيهرت حاضرة[1] بني رستم وعاصمتهم ،وختمنا ذلك بالاستفهام حول هل استمرّ ذلك التطوّر أم اقترن بسقوط دولة بني رستم؟ ،وهل أصاب الخراب عمران المدينة بعد دخولها من طرف الفاطميين؟.

على أنّ الإجابة على ذلك تستدعي منّا أولا الوقوف على أسباب سقوط تيهرت ودولة بني رستم ،الّذي لم يكن -كما تورده أغلب المصادر التاريخية- حدثا عفويا ،بقدر ما كان نتيجة حتمية لّما وصلت إليه الأمور من تدهور وانحطاط[2] ،كان للبيت الرستمي الحاكم في ذلك الوقت الدور الرئيس فيه نتاج ما استقرّت عليه سياستهم ،وعلى رأس ذلك انحرافهم عن مبادئ مذهبهم ،الّتي كثيرا ما تحمّس إليها أسلافهم ،وتعصبّوا إليها أيّما تعصّب ،وهذا ما جعلهم يخسرون الكثير من تأييد المجتمع لهم.

إضافة إلى أنّ البيت الرستمي لم يول اهتماما كبيرا بالجانب العسكري ،كما افتقر إلى النزعة الحربية والنضال[3] ،وأهمل توفير الإمكانيات اللازمة لذلك ،حتّ يكفل حماية حدود الدولة وأمّن

([1])- يقصد بالمدينة الحاضرة، أنّها المدينة الأم أو المدينة الأولى في المنطقة أو الإقليم، وهي مدينة تتوفر فيها مختلف المرافق، وتستقطب النخب في شتّ المجالات، أنظر: محمد علوات وفوزي بودقة: «المدينة الحاضرة مفاهيم و آراء »، حوليات مخبر التاريخ والجغرافيا، العدد 04، مخبر التاريخ والحضارة والجغرافية التطبيقية، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2011، ص 94.

([2])- يوسف عبد الكريم جودت: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 70.

([3])- محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب حتّ منتصف القرن الرابع الهجري، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هــ-1985م، ص 230.

رعيّتها ،إن لم نقل السعي إلى توسيع حدودها على حساب أراضي المغرب آنذاك ،كشأن دولة بني الأغلب في تلك الفترة الّتي امتدّ سلطانها في الجهة الغربية حتّ منطقة الزاب ،وعاصمته مدينة طبنة[1]. وبذلك فإنّ الرستميين قد أهملوا أمر العناية بالجيش وتقويته باعتباره الركيزة الأساسية للدفاع عن المدينة ،ولاشكّ أنّ بإهماله ستعجز الدولة على الدفاع عن المدينة.

وممّا زاد أمور بني رستم في آخر عهدهم سوءا هو تلك الحروب والصراعات الّتي باتت تنخر جسم الدولة ،وكانت بين الرستميين أنفسهم[2] ،والّتي أفضت إلى انقسام السلطة الرستمية ،وبالتالي انقسام المجتمع. فساءت بذلك أوضاع مدينة تيهرت خاصة في عهد آخر حكّامها اليقظان بن أبي اليقظان (294-296هـ/906-908م) ،الّذي نقم عليه شيوخ الإباضية لاعتقادهم أنّه مشارك في مؤامرة قتل أبي حاتم[3]. وهذا زيادة إلى تلك المناقشات الحادّة الّتي سادت مجتمعات العلماء ،وحلقات الإباضية وهو ما فتّت وحدة الفكر في الدولة الرستمية[4].

إنّ هذا الضعف الّذي عرفته الدولة الرستمية قد أوجد فرصة للقوى الخارجية لوضع حدّ لها ؛حيث كان ذلك على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ/909م[5] ،ومنه سقوط الحاضرة تيهرت ،وبذلك يعتبر عثمان الكعاك أنّ ما عرفته الدولة الرستمية في آخر عهدها من ضعف واضطّراب في الأوضاع كان من «أسباب خراب الدولة»[6] ،في حين اعتبره الباحث موسى لقبال سببا «في تخريب نظام الإمامة الرستمية»[7].

(1)- كان إقليم الزاب قطعة من بلاد الدولة الأغلبية، يولّي الأمير الأغلبي ولاّتها، ويمنحهم استقلالا إداريا واسعا، كما يولّي قاضي القيروان قضاتها، أنظر: أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 22، وللمزيد أنظر: أحمد الشناوي، و آخرون: دائرة المعارف الإسلامية، مج10، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص 318.

(2)- سليمان أبو الربيع الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، (د.ط)، مطبعة الإرادة، تونس، 1357هـ-1938م، ص 49.

(3)- محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس 160-296هـ)، ط3، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1408هـ-1987م، ص 182.

(4)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 339، محمد العرباوي: في مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الانقسامية، (د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 137.

(5)- محمد ولد دادة: مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأوّل إلى انتصاف القرن السابع (دراسة في التاريخ السياسي)، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة، 1977، ص 55.

(6)- عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مراجعة و تقديم، أبو القاسم سعد الله، و آخرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص 137.

(7)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 340.

وإذا لم تكن النصوص التاريخية قد أشارت بصدد سقوط حواضر المغرب الأدنى -كالقيروان ورقادة- إلى تصرّفات من طرف الداعي أبي عبد الله الشيعي تجاه عمران تلك الحواضر ،وحتّ المخلّفات الفكرية والأدبية الّتي كانت تحتوي على عصارة فكر المسلمين في خزائن مكتباتها بما تزخر به من كتب ،فإنّ نصوصا أخرى ،وعلى رأسها النصوص الإباضية قد أشارت إلى أنّ حادثة سقوط تيهرت ،واستيلاء أبي عبد الله الشيعي على المدينة قد أعقبته عمليات تخريب لعمران المدينة ،بل وحتّ الاعتداء على مكتبتها المعروفة بالمعصومة ،الّتي كانت عامرة وغنية بأمهات الكتب في شتّ المجالات كما وصفته المصادر الإباضية على وجه الخصوص.

وإذا كانت النصوص الإباضية قد تطرّقت إلى عمليات تخريب لعمران تيهرت ولمكتبتها عقب سقوط الدولة مباشرة ،فإنّ بين أيدينا دراسة قام بها الباحث إبراهيم بحاز ،الّذي اهتّم بدراسة تاريخ هذه الدولة ،حيث توصل من خلالها إلى أنّ مدينة تيهرت لم تعرف الاستقرار بعد ذلك السقوط ،وإنما عاشت في ثورات وحروب متتالية[1] أثّرت على عمران المدينة ،حينما تعرّضت للتخريب لمرات عدّة طيلة فترة الحكم الفاطمي لبلاد المغرب.

أ- حملة أبي عبد الله الشيعي على تيهرت و خراب المدينة:

بعدما استقرّت الأمور لصالح أبي عبد الله الشيعي في رقادة والقيروان ،ووصول رسل عبيد الله المهدي[2] إليه تبلّغه طلب هذا الأخير النجدة والخلاص من سجن اليسع بن مدرار بسجلماسة كان على الداعي أبي عبد الله أن يلبّي واجب الدعوة ،ويسير لتخليص سيده. فسار بجيشه في رمضان سنة 296 هـ/909م ،حيث «اهتزّ أهل المغرب لخروجه وارتفعت القبائل وزالت عن طريقه»[3].

غير أنّ ما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه الحملة الّتي سيّرها أبو عبد الله الشيعي نحو سلجماسة لم تمر بسلام على مدينة تيهرت وأهلها ،وهو ما يفتح أمامنا باب الاستفهام حول لماذا شغل أبو عبد الله نفسه بأمر تيهرت وهو في طريقه لإنقاذ سيّده؟ ،وما أسباب ذلك؟.

(1)- إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 133.

(2)- المهدي لغة: هو اسم مفعول من الهدى، وهو الرشاد وهو ضدّ الضلال، وقد استعمل حتّ صار من الأسماء الغالبة، أنظر: محمد أحمد المقدم: المهدي، ط8، الدار العالمية، الإسكندرية، 1424هـ-2004م، ص 26.

(3)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 168، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص 148.

إنّ بين أيدينا نصوصا تاريخية مفادها أنّ ذلك الفصل من الصراع الأسري الحاد داخل أسرة بني رستم خاصة بعد مقتل الإمام أبي حاتم يوسف[1] من طرف أبناء أخيه سنة 294هـ/ 907م ،قد أفضى إلى اعتلاء اليقظان بن أبي اليقظان عرش بني رستم. ولّما استفحل أمر الشيعة وبسطوا نفوذهم على القيروان ورقادة ،أضحت دوسرا وإخوتها عيونا لأبي عبد الله الشيعي في تيهرت[2] ،كما اتّصلت به لّما علمت بمغادرته رقادة قاصدا سجلماسة و أعطت له صورة واضحة عن أوضاع تيهرت ،كضعف إمامها. وأبدت له رغبة ملحة في الثأر لأبيها[3] ،واعدة إيّاه أن تصير زوجة له إذا ما امتثل لرغبتها. ويتجلى لنا ذلك من خلال إحدى الروايات الّتي ساقها أبو زكريا بقوله: «أخبرته بقصة أبيها وما أنتهك من حرمته... ووعدته من نفسها إن هو أخذ بثأرها أن تزوّجه من نفسها»[4].

وإن اعتبرنا أنّ هذا من بين الأسباب الّتي حفّزت أبا عبد الله على السير إلى تيهرت فإنّ هناك أسبابا أخرى ،إذ يضيف أبو زكريا قائلا: «ثمّ أنّ الحجاني أخذ في طريقه إلى تاهرت فلمّا كان بقرب منها خرج إليه وجوه أهلها من المخالفين و الشيعة والواصلية[5] ومن بها من الصفرية ،وتلقّوه وشكوا إليه الإمارة ووعدوه العون من أنفسهم على جميع الرستميين»[6].

و يبدو لنا من خلال هذا النص أنّ المجتمع التيهرتي يضمّ أخلاطا غير متجانسة مذهبيا تضمّ عناصر شيعية موالية لشيعة أبي عبد الله ،وكذا الواصلية والصفرية ،إضافة إلى الجالية الأندلسية والنصارى والفرس المستعربين ،هذا ويضاف إليهم التجّار المشارقة والمغاربة[7] وطلاّب العلم من

---

(1)- تولّى الإمامة بعد وفاة أبيه، ودخل في نزاع مع عمه يعقوب بن أفلح دام أربع سنوات، فاضطرّ أبو حاتم للخروج من تيهرت واللجوء إلى حصن لواتة، ثمّ تمكّن من دخول تيهرت، واسترداد حقّه في الإمامة، غير أنّه لم يلبث إلاّ سنين قليلة حتّى قتله أبناء أخيه سنة 294هـ/907م، وعدّه الدرجيني آخر الأئمة الرستميين معتقدا أنّ من تولّى بعده لم تكن إمامته شرعية، أنظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص 1028-1029.

(2)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 338.

(3)- سليمان الباروني: الأزهار الرياضية، ج2، ص 358.

(4)- يحي أبو زكريا: المصدر السابق، ص 112.

(5)- هي فرقة من فرق المعتزلة الّتي تتّفق معها في الأصول، وتختلف في الفروع، أنظر: عواد المعتق: المعتزلة أصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، ط2، مكتبة الرشد للنشر و التوزيع، الرياض، السعودية، 1416هـ-1995م، ص 51.

(6)- يحي أبو زكريا: المصدر السابق، ص 112.

(7)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 339.

مختلف الأجناس ،وهذا ما أدخل المجتمع التيهرتي في حياة صراع طائفي شديد ،أدّى إلى تمزّق المجتمع وتفرّقه ،حتّى وصل الأمر إلى مدّ يد المساعدة للشيعة[1] ضدّ أئمة بني رستم.

وعليه فإنّ وصول الرسل من دوسرا ،وكذا من الطوائف الّتي ذكرناها إلى أبي عبد الله الشيعي ،بالإضافة إلى رغبته في القضاء على الإمامة الرستمية ،لاستكمال بسط نفوذه على أرض المغرب الأوسط بعد ما دان له الأدنى أدرك الداعي الشيعي أنّ ذلك لا يتمّ إلاّ إذا استولى على تيهرت عاصمة الرستميين. ولا ريب أنّ هذه الأسباب في مجملها كافية لإقناع أبي عبد الله الشيعي بضمّ تيهرت لملكه ،لاسيّما في ظلّ ما تعيشه هذه المدينة من تدهور للأوضاع ،كما صوّرته له دوسرا ،وكما أسلفنا نحن ذكره.

وإذا كانت مهمّة أبي عبد الله الشيعي محدّدة بالتوجّه نحو سجلماسة فإنّ ذلك لم يثن من عزمه على ضمّ تيهرت ،فقد أرسل رسلا إلى الإمام اليقظان بن أبي اليقظان يطلب منه القدوم إليه خارج أسوار المدينة فاستجاب اليقظان ،وخروج إليه مصطحبا أبنائه ،وإخوانه[2].

وإن كان امتثال اليقظان لطلب الداعي الشيعي والخروج إليه جعلنا نستغرب ذلك. إذ هل كان ذلك بدافع الخوف من القتل إن امتنع ورفض؟ كما أنّه كيف لم يفكّر في الفرار على غرار زيادة الله آخر ملوك بني الأغلب الّذي فرّ إثر هزيمة جيشه في الأربس سنة 296هـ/909م؟ أم أنّ الأمان الّذي أعطاه أبو عبد الله الشيعي لأهل القيروان ورقادة[3] بعدما افتتحهما قد قوّى عزيمته وجعله يثق في أبي عبد الله الشيعي؟ حتّى أنّنا نراه يخرج إليه ليس بمفرده بل بمعيّة أهله.

([1])- هم فرقة من النّاس الّذين تابعوا عليا وأهل بيته حتّى صار لفظا خاصا بهم، وقد اختلف المؤرّخون في تاريخ ظهورها كفرقة دينية سياسية، إذ يذكر البعض أنّه كان في القرن 03 هـ/09م، وقد انقسم الشيعة إلى عدّة فرق اختلفت في المبادئ والتعاليم، فمنهم الغالية، والرافضة، والزيدية، والإسماعيلية، وكان أوّل ظهورهم بالمغرب على يد الأدارسة، ولكن شأن تغلّبهم يعود للدولة الفاطمية، أنظر: علي أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، تح، محمد عبد الحميد، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1369هـ-1950م، ص 65، وللمزيد أنظر: محمد رشيد رضا: السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة، ط2، دار المنار، القاهرة، 1366هـ-1947م، ص 09، وللمزيد أكثر أنظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج3، ط7، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1351هـ-1933م، ص 211، زيدان جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، ج4، تعليق، حسين مؤنس، ط6، دار الهلال، القاهرة، 1972، ص 230، موسى جار الله: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، (د.ط)، مطبعة الكيلاني، باب الخلق، 1982، ص 110.

([2])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 112.

([3])- وذلك بعدما خرج إليه الوجوه من أهل القيروان، وسألوه الأمان فقبل منهم، أنظر: محمد محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، (د.ط)، مكتبة الإسكندرية، مصر، 1411هـ-1990م، ص 146.

ومهما يكن فقد خرج اليقظان للقاء أبي عبد الله الشيعي على أميال من تيهرت ،وعندما وصل إليه سأله الداعي الشيعي ،كما يذكر أبو زكريا عن «اسمه فقال له: اسمي يقظان. فقال له الحجاني: بل اسمك حيوان فكيف قتلتم أميركم ،وسلبتم لأنفسكم ملكه فأطفيتم نور الإسلام وألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار»[1] ،و لم يكتف أبو عبد الله الشيعي بتأنيب اليقظان بل «فأمر به و ببنيه فقتلوا عن آخرهم» [2].

وبمقتل اليقظان بن أبي اليقظان[3] انتهى عهد دولة بني رستم الإباضية بتهرت ،وتشتّت شملهم. وإن كان هذا حال الإمامة الرستمية بعد سقوطها ، وسقوط عاصمتها تيهرت. فما مصير عمران هذه المدينة بعد ذلك السقوط؟.

- دخول مدينة تيهرت:

تتّفق الروايات التاريخية حول مصير آخر أئمة بني رستم وأسرته ،ومآل دولته ،والّذي كان القتل ،والسقوط ،إلاّ أنّها تختلف في سرد تفاصيل ما أعقب ذلك في ظلّ ما أورده بعض المؤرّخين بشأن ما حلّ بعمران مدينة تيهرت ومكتبتها المعصومة ،ففي الوقت الّذي يذكر بعض المؤرّخين أنّ دخول أبا عبد الله الشيعي كان بعد الأمان الّذي أعطاه لأهل المدينة ،كما أظهر تسامحا مع الطوائف غير الشيعية من واصلية وصفرية[4] ،كما ذكرنا ،فإنّ هناك فريقا آخرا من المؤرّخين يرى أنّ دخوله قد أعقبته عمليات تخريبية في حق عمران المدينة. ولا بأس أن نسوق بعضا من هذه النصوص الّتي أوردها كل من الفريقين:

من أصحاب الرأي الأوّل نجد الجغرافي البكري يكتفي بذكر: «فوصل أبو عبد الله الشيعي إلى مدينة تيهرت فدخلها بالأمان ثمّ قتل فيها من الرستمية عددا كبيرا»[5] ،أمّا ابن عذاري[6] وهو

([1])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 112.

([2])- الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 94، سليمان الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص 49.

([3])- لمّا أيقنت دوسرا بمقتلهم تغيّبت، وهربت من أبي عبد الله الّذي طلبها فلم يجدها، وبحث عنها و لم يقدر عليها، أنظر: أبو زكريا: المصدر السابق، ص 112.

([4])- يختلف المؤرّخون حول نسب هذه الفرقة من الخوارج، إذ ينسبها بعضهم إلى زيادة بن الأصفر، وآخرون إلى عبد الله بن الصفار، وتنسب كذلك إلى الصفرة، أنظر: محمد عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تقديم، صدقي العطار، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1417هــ-1997م، ص 110، و للمزيد أنظر: أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج2، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1966، ص 257.

([5])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 249.

([6])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 153.

يسوق أخبار حملة الداعي الشيعي إلى سجلماسة يذكر: «فسار أبو عبد الله حتىّ حلّ بمدينة تيهرت فدخلها بالأمان، و قتل بها من الرستمية يقظان بن أبي يقظان وجماعة أهل بيته وبعث برؤوسهم إلى أخيه أبي العباس...وطوفت بالقيروان ،ونصبت على باب رقادة» ويضيف «ثمّ ولّى أبو عبد الله على تيهرت أبا حميد دواس بن صولات اللهيصي ،وإبراهيم بن محمد اليماني المعروف بالهواري»[1].

و يبدو أنّ نصّا البكري و ابن عذاري على الرغم من أهمّيتهما التاريخية إلاّ أنّهما يسكتان عـــن الحديث عمّا أعقب دخول الداعي الشيعي المدينة، الّتي قد يكون هذا الأخير اكتفى بدخولها ،وتأمين أهلها بعدما قتل آخر أئمتها وعائلته. ثمّ واصل سيره لاستكمال المهمّة الّتي خرج من أجلها ،بعدما ولّى على المدينة من يثق فيهما. غير أنّ هناك من المؤرّخين المحدثين من ذكر أنّ ذلك الأمان الّذي منحه أبو عبد الله لأهالي تيهرت قد تنكّر له رجاله ،وأقدموا على ارتكاب أفعال شنيعة في حق السكّان ،حيث قتل سائر من ينتمي إلى البيت الرستمي إلاّ من نجا بنفسه وفرّ من قبضتهم إلى جهات بعيدة[2].

أمّا الفريق الثاني من المؤرّخين فقد تصدّره المؤرّخون الإباضيون ،وعلى حدّ تعبير هؤلاء فإنّ أبا عبد الله لم يكتف بما اقترفه من عمليات سفك للدماء في حق الاباضيين ،الّذين لم يسلم منهم إلاّ من فرّ إلى وارجلان أو اختفى ،بل بلغ الأمر أكثر من ذلك إذ عاثت جيوشه داخل المدينة فسادا ،واستباحتها سلبا ونهبا و تخريبا ،وكل ذلك بأمره و ليستنكّرا من رجاله للأمان الّذي أعطاه لأهل المدينة ،وفي نفس السياق يذكر أبو زكريا «ثمّ أنّ الحجاني دخل المدينة وانتهبها وانتهك حرمتها»[3].

أمّا الدرجيني فيزيد على ذلك بقوله: «ودخل المدينة فانتهبها وانتهك حرمتها...وكان دخوله المدينة بالأمان[4] فلمّا دخلها غدر وقتل أهل بيت الإمامة من الرستميين وأهل الملك

([1])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 153.

([2])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 342، محمود عبد الرزاق: المرجع السابق، ص 232، محمد الحريري: المرجع السابق، ص 185.

([3])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 112.

([4])- الأمان في الحرب: هو إعطاء مجال من الأمن لمن يطلبه من المهزومين، وإذا أعطي وجب احترامه شرعا، أنظر: أحمد زماني: بحوث حول النظام العسكري في الإسلام، ط1، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م، ص 259-260.

،وأهلك الحرث والنسل»[1]. ويضيف صاحب الأزهار الرياضية قائلا: «ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى قضى على هذه الدولة بالانتهاء ،وحكم بخراب ملك هذه العائلة»[2].

وعليه فإنّ هذه النصوص الإباضية وفي غياب ما يعزّزها ويؤيّدها من نصوص تاريخية سنّية أو شيعية تبقى قيد الدراسة والتحقيق ،بل تدفعنا إلى وصفها بالمبالغة في بعض ما أوردته من أخبار ،الّتي قد تكون نابعة ومتشبّعة بنزعة ذاتية مليئة بالحقد الدفين للشيعة الّذين أسقطوا دولتهم الإباضية ،وبذلك تفنّنوا في وصف الدخول الشيعي لمدينة تيهرت بأبشع وصف ،حيث وصفوه بالكارثة[3] الّتي أتت على الحرث والنسل ،وأفنت دولتهم ،وشرّدت شملهم ،وعاثت فسادا في أرضهم ،وخرّبت عمران مدينتهم.

غير أنّه و في غياب ما يؤيّد صحّة أقوالهم فإنّنا وفي المقابل نفتقر أيضا إلى ما يؤكّد مجانبتها للصواب ،والمبالغة في نقل الأخبار، و هذا باستثناء إحدى الدراسات -في حدود ما نعلم- الّتي قام بها أحد المؤرّخين المحدثين وهو الباحث موسى لقبال ،الّذي أعطى هذا الموضوع حقّه من الدراسة والتحليل[4] بناء على مقارنات عقدها من خلال تتبّعه لسياسة أبي عبد الله الشيعي التوسعية تجاه المدن الّتي افتتحها قبل مدينة تيهرت ،كطبنة ،رقادة ،والقيروان ،وعدم لجوئه إلى أسلوب التخريب ،فكيف به ينهجه عند دخوله تيهرت. إضافة إلى دراسته لشخصية الداعي الشيعي وقف من خلالها على أنّها شخصية موزونة تقوم على احترام الآثار المادية القديمة[5].

وإن كانت هذه الدراسة وافية إلاّ أنّها غير كافية لتفنيد ما أوردته النصوص الإباضية بشأن ما حلّ بمدينة تيهرت.

وعليه فإنّنا نضيف إلى ما سبقنا إليه باحثنا موسى لقبال ،بأنّ خروج الداعي أبي عبد الله الشيعي كان لإنقاذ سيّده من سجن سجلماسة ،والّذي يمكننا اعتباره الهدف الأوّل ،وليس الوحيد ،بل كانت تيهرت أيضا إحدى محطّاته الّتي يعرّج عليها في طريقه ،حتّى يضع حدا للدولة

---

(1)- الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص94، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص479، محمود عبد الرزاق: المرجع السابق، ص232.

(2)- سليمان الباروني: الأزهار الرياضية، ج2، ص 354.

(3)- يقول إبراهيم زروقي بعد الكارثة الّتي أعقبت سقوط عاصمة بني رستم، حلّت بالإباضيين أزمة عميقة أثّرت على مستقبلهم، أنظر: *ZEROUKI Brahim: Op. Cit, p 150*.

(4)- أنظر: موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 340 وما بعدها.

(5)- موسى لقبال: «من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى (مكتبة المعصومة بتاهرت هل أحرقت أو نقلت عيونها إلى سدراتة في جوار بني وارجلان)»، مجلة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، 1397هـ-1977م، ص 52.

الرستمية ،وللمذهب الإباضي الّذي كانت تدين به ،وبذلك تكتمل سيطرته على المغرب الأوسط من جهة ،والعمل على نشر المذهب الشيعي بين أهله من جهة أخرى في تلك المنطقة.

وإذا كنّا نعلم أنّ أوضاع تيهرت كانت تصل إلى مسامع أبي عبد الله عن طريق جواسيسه[1] ،وحتّ من دوسرا -كما ذكرنا- وإن كنّا لا نميل إلى تصديق تلك الرواية الّتي تذكرها المصادر الإباضية بأنّ دوسرا أقنعته بدخول تيهرت والثأر لأبيها وأنّ تزوّجه نفسها ،لأنّ أبا عبد الله الشيعي ليس بالّذي ينجذب وراء النساء[2] بل له أهداف أخرى في غاية الأهمّية غابت عن دوسرا ،ولو علمتها ما أقدمت على ما قامت به ،ونعود إلى ما كنّا فيه فإنّ أبا عبد الله الشيعي قد أدرك أهمّية بالغة ينطوي عليها موقع مدينة تيهرت ،لوقوعها على الطريق العابر للصحراء ،والّذي تمرّ عليه القوافل التجارية المحمّلة بالبضائع الثمينة[3] ،ناهيك عن أنّ تيهرت في حدّ ذاتها مركزا تجاريا واقتصاديا هاما يذرّ أرباحا عظيمة على الدولة الشيعية إذا ما سيطرت عليه ،ويزوّد خزينة الدولة بالأموال الّتي تسعى هذه الدولة لتجميعها ،كما حدث بعدما أخرج سيّده عبيد الله المهدي من سجن سجلماسة ،ورجعوا إلى رقادة مرورا بكتامة أين أخذوا الأموال الّتي جمعها أبو عبد الله هناك[4] ،والّتي كانت من بين الأسباب الّتي أفسدت العلاقة بينهما وأفضت إلى هلاك أبي عبد الله ،وهو ما تؤكّده لنا أيضا السياسة المالية الّتي انتهجتها الدولة الفاطمية[5] تجاه رعيّتها فيما بعد ،والّذي سنتطرّق إليه في حينه.

وعليه فإنّ ما ذكرناه لاشكّ كفيل بأن يغري أبا عبد الله بالإطاحة بهذه الدولة وبعاصمتها بأيّ طريقة كانت ،حتّ وإن اقتضى الأمر العمل بالقاعدة الّتي تقول: «الغاية تبرّر الوسيلة» ،وأن يعمد إلى تخريب المدينة وحتّ حرقها بالنّار.

وقد يقول قائل حقيقة إنّ هذه الأسباب قد تغري لارتكاب أيّ عمل تخريبي إذا كانت الفائدة أعظم ،وإذا استلزم الأمر ذلك ،ولكن دخول أبي عبد الله المدينة كان بطريقة سهلة ودون أيّ عناء أو تكليف فما الداعي لتخريب العمران؟ فنقول طرح معقول ولكن يجدر بنا أن نتساءل

([1])- يوسف عبد الكريم جودت: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 71.

([2])- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

([3])- يرى إبراهيم بحاز أنّ الهدف الاقتصادي والتجاري قد حفّز أبا عبد الله الشيعي على تخريب تيهرت، أنظر: إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 133.

([4])- ابن خلدون، العبر، ج4، ص 47، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص 148.

([5])- أنظر: الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 72 وما بعدها.

نحن أيضا قائلين: كيف إذا كان الإمام الرستمي قد سلّم إليه أمره وخرج إليه بنفسه وأهله ،ولم يفكّر بالهرب والنجاة بنفسه ،بل وخرج إليه للقائه ولم ينتظره داخل المدينة حتّ يصل إليه ،فما كان من أبي عبد الله إلاّ أن أمر بقتله و قتل جميع أسرته ،ومن كان له صلة بمذهبه ،والأدهى من ذلك أن يرسل برؤوسهم إلى القيروان للطواف بها ،ثمّ تعلّق على باب مدينة رقادة[1] تشويها وتمثيلا بأصحابها ،وعبرة لمن تسوّل له نفسه عصيان هذه الدولة. ومنه فالّذي أقدم على مثل هذا الفعل في حقّ البشر فكيف نستبعد منه أن يأمر بخراب عمران هذه المدينة ،حتّى يقضي على وجودها المادي ،كما قضى عليه بشريا.

ب- حرق مكتبة المعصومة بتيهرت:

تشير المصادر الإباضية إلى وجود مكتبة بتيهرت غنية بأمّهات الكتب المتنوعة ،من الكتب الرياضية والأدبية والصنائع ،والآثار المذهبية. وإن كانت هذه المصادر لا تقف عند هذا الحد بل تذهب إلى أنّ مصير هذه المكتبة بعد دخول أبي عبد الله الشيعي إلى تيهرت كان الحرق ،إذ بعدما دخل هذا الأخير المدينة عمد إلى فحص كتبها[2] فانتقى منها الكتب الرياضية ،والصنائع والفنون ،ثمّ أمر بإحراق المكتبة بما تحتويه من أمهات كتب المذهب ودواوينه[3] ،بل وأضرم النيران حتّى في تيهرت أيضا ،ثمّ اتّجه إلى سجلماسة[4]. وفي ذلك يذكر أبو زكريا أنّه «وجد بها صومعة مملوءة كتبا فاستخرجها كلّها ،واقتنى منها كلّ ما يصلح للملك والحساب وأضرم النّار في بقيتها»[5] ،ومن ثمّ فقدت أغلب الأصول المذهبية ،وغدا رجال المذهب الاباضي بدون مصادر مذهبهم[6].

([1])- مدينة أنشأها إبراهيم بن محمد الأغلب سنة 263هـ/877م، على بعد أربعة أميال من القيروان، على مساحة قدرها عشرون ألف ذراع وأربعون ذراعا، وهي حسنة الموقع، كثير المتنــزهات والبساتين، والأسواق والحمّامات، وقد انتقل إليها مقر الإمارة من القصر القديم، وبقيت دار ملك الأغالبة حتّ سقطت دولتهم على يد الفاطميين، والّذين أقاموا بها حتّى سنة 308هـ/920م إذ انتقلوا إلى المهدية بعد بنائها، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 200، و للمزيد أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص 143.

([2])- قيل أنّها تحتوي على أكثر من 300 ألف مجلد، أنظر: محمد الحريري: المرجع السابق، ص 185.

([3])- الدرجيني: المصدر السابق،ج1،ص95،إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص128.

([4])- محمود عبد الرزاق: المرجع السابق، ص 233.

([5])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 113، محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ط1، طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 1383هـ-1963م، ص 618.

([6])- الباروني: الأزهار الرياضية، ج2، ص 358، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 479، عثمان سعدي: عروبة الجزائر عبر التاريخ، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 86.

إنّ حادثة حرق مكتبة المعصومة من طرف أبي عبد الله الشيعي تدخل ضمن عموم تخريب الشيعة لمدينة تيهرت ،وبذلك فهي أيضا مثار جدل ،وذلك أنّها هي الأخرى تفرّد المؤرّخون الإباضيون بروايتها. في الوقت الّذي نجد أنّ هذه الروايات الإباضية تفتقر إلى السند التاريخي الّذي يقوّيها ،سواء من طرف المؤرّخين السنّيين أو الشيعيين. وما تجدر الإشارة إليه أيضا هو أنّ هذه النقطة هي الأخرى قد أخذت حظّها من الدراسة والتحقيق من طرف الباحث موسى لقبال ،الّذي خصّها بالدراسة ،وسعى إلى كشف النقاب عن حقيقة هذا الخراب والحرق الّذي اقترفه الداعي الشيعي في حقّ هذه المكتبة.

وإن كان هو يستبعد تعرّض هذه المكتبة للحرق مستندا في ذلك إلى أنّ أبا عبد الله الشيعي لم يلجأ إلى أسلوب الحرق و التخريب إلاّ لضرورة حربية ،كما هو الحال حين دخل مدينة بلزمة والأربس ،وحتّ فيما بعد مدينة سجلماسة ،حين استخدم النّار لحرق الأبراج ،أو بعض الأماكن المحصّنة لأنّ سكّانها أظهروا المقاومة والعناد، أمّا حرق الكتب والآثار المذهبية ،فلم تشر إلى ذلك النصوص التاريخية لا في القيروان ولا في سجلماسة أين لقي رجاله مقاومة شديدة ،وتكبّد خسائر كبيرة. فكيف به والحال أنّ دخوله تيهرت كان دون مقاومة تذكر ،بل سلّمت له المدينة على طبق ،فلماذا يعمد إلى حرق المعصومة وتخريبها؟[1]

وليس هذا فحسب بل نجده يثير نقطة أخرى مهمّة تتمثّل في كون الداعي لم يقم بحرق الكتب السنّية عند اقتحامه رقادة والقيروان ،والّذي لاشكّ أنّ بهما مكتبات غنية بالكتب[2]. إضافة إلى أنّ الداعي لمّا أقدم على حرق المعصومة كان في طريقه إلى سجلماسة وليس لرقادة مركز الاستقرار ،وهو ما يزيد في مجال الشكّ حول صحّة دعواهم. إذ لا يعقل أن يثقل الداعي نفسه بالكم الهائل من الكتب وهو في مهمّة حربية لإخراج سيّده من السجن ،هذا من جهة ،ومن جهة أخرى فما دام أحكم سيطرته على المدينة وولّى عليها عمالا له فما الفائدة من نقل تلك الكتب ،وقد باتت المدينة تحت سلطته ونفوذه[3].

ومنه فهو يرجّح أن تكون تلك الروايات مضطّربة وغريبة ،سعى أصحابها إلى التشهير وإظهار العداء للشيعة على اعتبار أنّهم أعداء للفكر الإباضي،وهو ما يجعل تصديق رواية حرق

([1])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 345.

([2])- موسى لقبال: من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى، ص 53.

([3])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 346.

المعصومة حبيس الدليل القاطع. و يختم هذا الباحث ذلك بقوله: «ولعلّ حرق المعصومة إن حصل فعلا يعود إلى عصر الفتن الداخلية والصراع بين الأئمة الأواخر...ثمّ لماذا لا يفترض أنّ الفارّين من بقايا الأسرة الرستمية هم الّذين أخذوا شيئا غير قليل من هذه الكتب...غير أنّ بعضها ضاع في الطريق لانشغالهم بالدفاع عن أنفسهم ضدّ فرسان كتامة»(1).

ومن خلال ما سبق بدا لنا وأنّ الترجيحات الّتي اعتمدها المؤرّخ موسى لقبال للوصول إلى حقيقة ذلك التخريب والحرق من عدمه في غاية الأهمّية لكل دارس لهذا الموضوع. ومع ذلك فإنّنا وما دمنا نفتقر إلى أدّلة تاريخية ثابتة فإنّ تلك الترجيحات هي الأخرى في حاجة إلى ما يشدّ عضدها بدليل تاريخي ثابت ،كما أنّه و في غياب ذلك فإنّنا نحتمل أن يكون أبو عبد الله الشيعي قد أحرق المكتبة.

وعليه نقول: هل كون أبي عبد الله الشيعي لم يعمد إلى أسلوب الحرق والتخريب إلاّ إذا استعصى عليه دخول مدينة ما وأبدت هذه المدينة مقاومة في وجهه كما حدث في بلزمة وسجلماسة يعدّ قاعدة تقوم عليها أحكام الحرب وافتتاح المدن ،لا يحيد عليها في أيّ مدينة يسعى لدخولها؟ فإذا لم يقدم على حرق و تخريب رقادة والقيروان لا يعمد إلى حرق وتخريب تيهرت ومكتبها المعصومة؟.

كذلك ألا يمكن اعتبار عدم لجوئه إلى سلوك التخريب والحرق في رقادة لأنّه اتّخذها مقرا لكرسي ملك الشيعة ،ومنه فضّل تجنّب الحرق والتخريب حتّ لا يفتح جبهة للتمرّد عليه في قلب ومركز دولته ،خاصة وأنّ هذه الدولة ما تزال في بداية عهدها. أمّا في مدينة تيهرت فقد أحرق وخرّب لأنّه لم يكن يفكّر في اتّخاذها حاضرة ومركزا لاستقراره ،زيادة على كون هذه المدينة تنافس رقادة والقيروان بازدهارها الاقتصادي والثقافي ،وبذلك فزوالها خير من بقائها ،كما أنّها تشكّل محورا قد تجتمع الإباضية حوله من جديد وتعمل على بعث إمامتهم الإباضية ،فتخريبها وحرقها هو قطع للأمل إن راودهم أحلام إحياء الإمامة الرستمية الإباضية من جديد.

ونضيف أيضا ما أدرانا نحن لو أنّ مدينة سجلماسة فتحت لأبي عبد الله الشيعي أبوابها و لم تقاومه بأن لا يخرّبها ويحرقها حتّ وبدون مقاومة ،كما خرّب تيهرت وأحرقها ،ولماذا لا نعتبر أنّ مقاومة أهالي سجلماسة له كان خوفا من أن يسلّموه المدينة ورغم ذلك يحلّ بهم ما حلّ بمدينة تيهرت وأهلها ،ففضّلوا المقاومة حتّ يجنّبوا أنفسهم القتل وحريمهم السبي ،ومدينتهم الحرق

(1)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 347.

والتخريب خاصة وأنّنا نجد اليسع بن مدرار يفرّ خوفا من أنّ يحلّ به ما حلّ بآخر أئمة الإباضيين ،وأنّه رأى في فرار زيادة الله خير سبيل ينهجه عساه ينجو بنفسه من بطش الشيعي وجنده.

ونزيد بقولنا إنّ سقوط دولة بني الأغلب على يد الشيعي لم تخلّف حاضرة واحدة فقط ،بل كانت مدن عدّة مثل رقادة و القيروان و طبنة، في حين أنّ دولة بني رستم حاضرتها تيهرت فقط و بتخريبها و حرقها تفنى هذه الدولة مذهبا و عمرانا.

ولو رجعنا إلى القول بأنّه لم يقم بحرق كتب السنّة فكيف يحرق كتب الإباضية؟ فإنّنا نقول أنّ أبا عبد الله ربما أدرك عواقب ما يقدم عليه ،فلو أحرقها في رقادة والقيروان وغيرها فإنّه سيفتح جبهة لا طاقة لدولته الفتيّة بردّها أمام العدد الكبير للطائفة السنّية بأرض المغرب ،في حين أنّ في تيهرت وقعت فتن واضطرابات بين الإباضية أنفسهم ،وبينهم و بين الطوائف الأخرى ،إضافة إلى قتل أبي عبد الله الشيعي لعدد كبير من أهالي المدينة كما يذكر البكري «وقتل فيها من الرستمية عددا كثيرا»[1] ،عندئذ خلا له الجو للقضاء المبرم على هذه الدولة ومذهبها ،وهو ما تقرّه المصادر الإباضية بنفسها بأنّه بحرق تلك الكتب غدا المذهب الإباضي بلا مصادر مذهبه[2].

ونشير أيضا إلى أنّ الداعي الشيعي لّما دخل رقادة والقيروان لم يقترف أعمال قتل بل أمّن الأهالي ،ولكنّه لّما دخل تيهرت قتل خلقا كثيرا من الرستميين فما المانع من أن يخرّب يحرق كما فعل في سجلماسة.

وعن القول إنّه يستبعد أن يثقل نفسه بالكتب الّتي أخذها من المعصومة ما دام متوجّها نحو سجلماسة ،فإننا نتساءل عن عدد هذه الكتب الّتي يعجز عن حملها وكم تكون حمولتها يا ترى؟ إنّنا نعتقد أنّ حمولتها لاشكّ قليلة ،ذلك أنّه أحرق الباقي بعدما اختار فقط ما يفيده وأخذه معه وعندئذ فإنّ هذه الكتب المنتقاة ليست بالحمل الّذي يثقل حمله ،ولو افترضنا أنّه حقيقة لا يعقل أن يثقل نفسه بهذه الكتب وهو بصحبة جيش جرّار ،فهل في المقابل يعقل أنّ الفارّين من بقايا الأسرة الرستمية هم الّذين أخذوا تلك الكتب وأثقلوا بها أنفسهم ،وهم في حالة فرار وهلع من الجيش الشيعي ،فإن لم يحملها المنتصر فالأحرى بالمنهزم أن لا يفكّر إلاّ في النجاة بنفسه خاصة بعدما علم بما حلّ بالإمام الرستمي وأهله.

---

(1)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 249.

(2)- الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص 49.

وبين أيدينا أبيات لبكر بن حماد[1] حول مدينة تيهرت الّتي رثاها عندما خرّبها جنود الشيعيين في الشهور الأخيرة من حياته عام 296هـ/909م يقول فيها[2]:

زرنا منــازل قــوم لم يزورونــا	إنّا لفي غــفلة عمّا يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الــزاد و يحكم	حلّ الرحيل فما يرجوالمقيمونا
المــوت أجحف بالدنيا فخرّبهــا	وفــعلنا فعل قــوم لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم	فالحاملــون لعرش الله باكونا[3]

وبناء على ما سبق فإنّي وإن كنت لا أميل إلى تصديق الروايات الإباضية حول ما ذكرته من خراب وحرق للمدينة ومكتبتها في ظلّ غياب السند التاريخي الّذي يقوّيها ،فإنّي لا أستبعد كذلك أن يكون الداعي الشيعي قد أقدم هو وجنوده على مثل تلك الأعمال التخريبية في حقّ العمران، حتّ وإن لم يتصرّف مثل ذلك السلوك التخريبي فيما سبق ،وذلك للسبب نفسه.

ج- الصراع الشيعي الزناتي و خراب تيهرت:

بعد سقوط مدينة تيهرت في يد الفاطميين سنة 296هـ/909م بدأ فصل جديد من تاريخ المدينة ،مثّله الصراع الفاطمي الزناتي من أجل السيطرة على المدينة ،وكان لذلك الصراع أثر سيئ على عمران المدينة.

وتعود بدايات ذلك الصراع إلى حادثة قتل رسل أبي عبد الله الشيعي الّذين أرسلهم إلى عبيد الله المهدي بسجلماسة ،وعند عودتهم بعد إتمام مهمّتهم قتلوا عن آخرهم من طرف جماعة زناتية تخضع لمحمد بن خزر الزناتي، في منطقة الزاب قرب طبنة[4] ،ثمّ ازداد نشاط هذه الحركة العدائية منذ ولاية أبا حميد بن دواس بن صولات اللهيصي الكتامي[5] على تيهرت ،حيث ثار الزناتيون ضدّه بتيهرت ،وعملوا على إخراجه وطرد حاميته منها ،وذلك بقيادة محمد بن خزر المغراوي[6] الّذي وجد مساندة وتأييدا من سكّان المدينة ،وذلك من أجل القضاء على الوجود

(1)- توفي بكر بن حماد في شوال 296هـ/909م، بقلعة أبي حمة بمدينة تيهرت وعمره 96 سنة، أنظر: يحي بو عزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 125.

(2)- الأبيات من البحر الطويل.

(3)- يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، ص 125.

(4)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 349.

(5)- قتل سنة 299هـ/911م، أنظر: لخضر سيفر: المرجع السابق، ج1، ص 167.

(6)- نسبة إلى مغراوة، أوسع بطون زناتة ،أنظر: ابن خلدون: العبر، ج4، ص 36.

الفاطمي في المدينة ،كما سعوا إلى قطع الطريق أمام الداعي أبي عبد الله وعبيد الله المهدي عند رجوعهما من سجلماسة ،إلاّ أنّ أخبار تلك المؤامرة تسرّبت إلى والي المدينة الّذي سارع إلى محاربة ابن خزر وأجبره على الفرار[1] ،وذلك سنة 297هـ/910م[2].

ونظرا للاضطرابات الّتي أحدثتها عناصر زناتة من قطع للطرق والتمرّد على الولاّة الشيعيين في تيهرت خرج أبو عبد الله الشيعي سنة 297هـ/910م من رقادة بجيش كبير كما يورده ابن عذاري «مع جماعة من قواد كتامة ودعاتهم إلى أرض المغرب لمّا ظهر فيها من الإلتياث ،وفساد الطرق ،وقيام القبائل على عمالهم، فافتتح المدن ،وقتل ،وسبى»[3].

وقبل أن يعود الداعي إلى رقادة شنّ أيضا حملات قوية سنة 298هـ/911م على مضارب زناتة[4] ،أين تمكّن من قتل الكثير من رؤوس الفتنة ،كما سبى ذراريهم واستولى على ذخائرهم. ،غير أن داعي الشيعة أبي عبد الله عمد إضافة إلى ذلك إلى ذلك كما أقرّه ابن عذاري إلى إحراق بعض المدن بالنّار[5].

إنّ هذه الحملات الّتي قادها الداعي الشيعي، كانت تهدف إلى تهدئة الأوضاع ،وكبح جماح الثائرين ،وتأديبهم للمتمرّدين. غير أنّها لم تكتف بالقتل والسبي والاستيلاء على الأموال ،بل قامت أيضا بالاعتداء على عمران المدن ،الّذي تم تخريبه وإحراقه بالنّار ،وفي ظلّ سكوت المؤرّخين عن تحديد هذه المدن بعينها على غرار ابن عذاري ،تبقى أسماء هذه المدن الّتي أحرقت مجهولة.

و إن كانت كتب المصادر لم تشر إلى أيّ تخريب أو حرق لمدينة تيهرت بشكل محدّد من خلال الحملتين السابقتين ،فإنّ الحملة الّتي أرسلها عبيد الله المهدي سنة 299هـ/ 11-912م بقيادة جماعة من قواده لتأديب زناتة بتيهرت ،الّتي لم تكف عن معارضتها للنفوذ الفاطمي ،إذ قام محمد بن خزر بمحاصرة تيهرت ،ففرّ واليها إلى إلى تيهرت القديمة[6]. بيد أنّ الحملة الّتي أرسلها

([1])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 155، الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص 178.

([2])- محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 176.

([3])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 160.

([4])- من القبائل البربرية المنتشرة ببلاد المغرب وإفريقية، وأكثرهم بالمغرب الأوسط، وأهمّ بطونها: مغراوة، بنويفرن، جراوة، بنوبرزال ،وقد كان لها تأثير كبير على تاريخ المغرب، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج7، ص 03-04، أحمد القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح، إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب المصري، 1402هـ-1982م، ص 177.

([5])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 162.

([6])- محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 177.

عبيد الله المهدي بدّدت شملّ القبائل الزناتية ،وقتلت عددا لا يستهان به[1] ،وفرّ ابن خزر إلى الصحراء تاركا المدينة وسكّانها لجيش المهدي الّذي دخل «تيهرت يوم الثلاثاء لأربع خلون من صفر فقتلوا الرجال ،وسبوا النساء والذرية ،وانتبهوا الأموال ،وحرقوا المدينة بالنار»[2].

وبذلك فإنّ هذه الحملة كانت وبالا على عمران مدينة تيهرت ،الّتي اشتعلت الحرائق فيها وخرّبت بحجّة تأديب الثائرين. وهو ما يجعلنا نتساءل عن ما ذنب العمران في ذلك؟ ألاّ يكفي القتل والسبي و نهب الأموال لتأديب الثائرين وإخضاعهم؟.

وتتوالى النّكبات التي أصابت عمران مدينة تيهرت ،حيث يمدّنا ابن أبي زرع[3] بنص مفاده بأنّه «في سنة خمس و ثلاثمائة أحرقت النّار أسواق مدينة تاهرت قاعدة زناتة ،وأحرقت أسوار مدينة فاس»[4]. إلاّ أنّ هذا المؤرّخ -الذي ينفرد بذكر هذه الحادثة- لا يعطينا أيّ تفاصيل حول أسباب ذلك الحرق ،ومن كان وراءه.

و من خلال تتبّعنا للأحداث الّتي عرفتها مدينة تيهرت خلال سنة 305هـ/ 917م وجدنا أنّ مصالة بن حبوس[5] والي تيهرت-خلفا لدواس- تمكّن من افتتاح مدينة نكور[6] ونهبها

([1])- ذكر أنّ عدد القتلى بلغ ثمانية آلاف رجل، وهذا الرقم يدلّ على حجم المدينة الّذي يستوعب عددا كبيرا من السكّان، فعلى الرّغم من عمليات القتل هذه، والتّي سبقتها، ومع ذلك بقيت المدينة عامرة بالسكّان، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 166.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 166.

([3])- علي ابن زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، (د.ط)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 98.

([4])- مدينة بناها إدريس الأوّل سنة 172هـ/789م، وهي تتوسّط المدن في المغرب حيث تتقاطع فيها خطوط الاتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، و لم يلبث أن توسّع عمرانها، وقصدها العلماء والتجّار، فكثرت الخيرات والصنائع، ومع ذلك لم تضاهي مدينة القيروان آنذاك، أنظر: شمس الدين الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، تح، عبد القادر الأرناؤوط، تعليق محمد الأرناؤوط،ط1،دار ابن كثير، دمشق-بيروت، 1405هـ-1985م،ص55، وللمزيد أنظر: السيد علي السنوسي: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، (د.ط)، مطبعة الشباب، مصر، 1349هـ-1930م، ص69، وللمزيد أكثر أنظر: جمال أحمد طه: مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين...، (د.ط)، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص54-55.

([5])- قائد فاطمي من قبيلة مكناسة، ولاّه المهدي على تيهرت والمغرب والأوسط، قتل سنة 319هـ/931م، أنظر: عبد الله جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص 56-57.

([6])- مدينة أسّسها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور، وهي تقع على 05 أيام من مدينة زواغة، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 176، وللمزيد أنظر: إ. ليــفــي. بروقنصال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد حلمي، مراجعة، لطفي عبد البديع، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990، ص 08.

،وقتل رئيسها ،ثمّ قصد فاسا وهزم أميرها ،ثمّ عاد إلى تيهرت ،وكتب بالفتح إلى عبيد الله[1] ،وإن كانت المصادر لا تشير إلى أيّ صدام بين مصالة بن حبوس وزناتة ،إلاّ أنّه وفي ظلّ ما أورده ابن أبي زرع قد تكون عناصر زناتية قامت بإضرام النيران في أسواق تيهرت في فترة غياب مصالة لافتتاح نكور وفاس، أو أنّ مصالة هو من أحرقها تأديبا للتمرّد الزناتي الّذي حدث حينما غاب عن المدينة ،خاصة و أنّ ابن أبي زرع يذكر أنّ أسوار فاس أيضا تمّ إحراقها فيحتمل أنّ مصالة أحرقها وفعل مثل ذلك بعد رجوعه إلى تيهرت بأسواقها.

كما خرج أيضا مصالة بن حبوس على رأس قوة كبيرة سنة 312 هـ/924-925م من تيهرت قاصدا مضارب زناتة ،أين خرّبوا و نهبوا وقتلوا وسبوا ،لكنّه انهزم أمام ابن خزر ،ما جعل هذا الأخير يضغط كثيرا على تيهرت ،وعزم على اقتحامها لو لا علمه بأخبار حملة أرسلها المهدي نجدة لوالي تيهرت ،فانصرف عن اقتحامها[2] وانسحب إلى الزاب أين اصطدم بجيش المهدي بقيادة موسى بن محمد الكتامي[3] الّذي انهزم أمام ابن خزر ،فقام المهدي بإرسال حملة سنة 315 هـ/27-928م بقيادة ابنه القائم ووصل في سنة 316 هـ/28-929م إلى برقجانة[4] فحاصر حصنها ونقب سوره وهدمه «حتّى سقط وهلك ممّن كان تحته وفوقه عدد كبير»[5] ،وقتل وأسر جميع من كانوا فيه ،ثمّ واصل طريقه القائم ابن المهدي[6] إلى تيهرت.

و لا شكّ أنّ استمرار هذه الاضطرابات والحروب ،قد هيّأت أسبابا لخراب المدينة بأيّ شكل من الأشكال سواء بالحرق ،أو بالهدم ،وحتّى بالتأثير غير المباشر من خلال انتشار الفوضى ،وفقدان الأمن ،وإضعاف الاقتصاد ،والّتي لها انعكاسات سلبية على العمران.

([1])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 175.

([2])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 355.

([3])- قائد من قواد الجيش الفاطمي.

([4])- حصن يقع بتيهرت القديمة، أنظر: يوسف عبد الكريم جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ص 452.

([5])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 193.

([6])- ولد سنة 280هـ/893م في مدينة سلمية وقد خرج مع أبيه من سلمية نحو المغرب، وعهد إليه بالإمامة من بعده، وتوفي بالمهدية سنة 334هـ/945م، أنظر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: نزهة الألباب في الألقاب، ج2، تح، عبد العزيز السديدي، ط1، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1409هـ-1989م، ص 84، و للمزيد أنظر: يوسف بن ثغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1351هـ-1932م، ص287، وللمزيد أكثر أنظر: مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1965، ص 170.

وتتواصل الاضطرابات الّتي تشهدها مدينة تيهرت لتزداد حدّة عندما يقتحم دائرة الصراع العنصر الأموي الأندلسي الّذين أقلقهم النشاط الفاطمي في المغرب الأوسط والأقصى ،فلجأوا إلى التحالف مع المعارضين للسياسة الفاطمية وبالأخصّ الزناتيين[1] ،وكانت تيهرت هي المجال الّذي احتوى أغلب نشاط ذلك الصراع ،حتّى غدت بؤرة من بؤر التوتر الّتي تقضّ مضجع الخلفاء الفاطميين بالمهدية.

وعلى الرغم من أنّ الباحث موسى لقبال[2] يذكر أنّ تيهرت عرفت هدوءا نسبيا في الفترة الّتي أعقبت سنة 324هـ/935م ،غير أنّ ذلك لم يستمر فابن حماد يذكر بأنّ المنصور إسماعيل لمّا تغلّب على أبي يزيد ،سار إلى تيهرت وذلك سنة 336هـ/948م لملاحقة فلول خصمه ،وهناك أقدّم على أمر شنيع تمثّل في نبش قبر مصالة وفضل بن حبوس وحرق عظامهما كما «أحرق منبر جامعها لكونه خطب عليه لعبد الرحمن بن محمد»[3]. وإن كان ابن حماد لم يذكر دوافع ذلك العمل ،فلعلّه يرجع إلى حقد المنصور على مصالة الّذي مكّن موسى بن أبي العافية من ملك المغرب الأقصى ،وتنكّره للفاطميين ،ووالى الأمويين[4] بالأندلس[5] فيما بعد.

كما أنّه و في عهد الخليفة الفاطمي المعز استمرّ نشاط الزناتيين ضدّ الفاطميين ،ومنه ضدّ تيهرت ،حيث تمكّن يعلى بن محمد اليفرني[6] من الاستيلاء على تيهرت فسيّر المعز جيشا عظيما بقيادة جوهر الصقلي سنة 347هـ/58-959م لإخضاع تيهرت وكذا المغرب الأقصى ،فدخل الجيش الشيعي تيهرت وقضى على يعلى بن محمد ،وأسر ابنه يدّو ،وفي ذلك يقول المقريزي: ودخل المدن ونهبها وأحرقها[7]. وبذلك تتعرّض المدينة لمرات عدة إلى الحرق والتخريب ودائما بدعوى القمع والتأديب والإخضاع.

([1])- محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 184-185.

([2])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 358.

([3])- ابن حماد: المصدر السابق، ص 77.

([4])- محمد الصالح مرمول: المرجع السابق، ص 120.

([5])- هي جزيرة متّصلة بالبر، على شكل مثلث يحيط بها البحر من جميع جهاتها، افتتحها طارق بن زياد أيام الوليد بن عبد الملك، حول الأندلس، أنظر: الحموي: المصدر السابق، مج1، ص 262، أحمد بن يحي الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس...، طبع في مدينة مجريط روخس،1882، ص 10.

([6])- من بني يفرن توفي سنة 347هـ/58-959م، أنظر: المستشرق زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة...، أخرجه حسن محمود و زكي بك، (د.ط)، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م، ص 113.

([7])- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 170.

ورغم ذلك لم يتّعظ الزناتيون بل واصلوا نشاطهم ضدّ تيهرت ،وأقلق محمد بن الخير بال المعز قبل رحيله إلى القاهرة ،وكره المعز أن يغادر المغرب ويتركه ثائرا ضدّ النفوذ الفاطمي فأوعز إلى بلكين بن زيري بالسير إليه سنة 361هـ/71-972م[1] ،واستولى كما يذكر صاحب مفاخر البربر على تاهرت و المسيلة و طبنة و باغاي و بسكرة و بجاية [2]. ويعبّر ابن خلدون عن تلك الانتصارات الّتي حقّقها بلكين على زناتة بقوله: «فمحا من المغرب الأوسط آثار زناتة»[3]. ويضيف موسى لقبال[4] أنّ النشاط الزناتي الّذي سبق هذه الحملة قد أدّى إلى تخريب تيهرت من طرف الخير بن محمد في إحدى حملاته ضدّها.

ومنه فإنّ حركة المعارضة الزناتية للفاطميين كانت لها آثار سلبية على عمران مدينة تيهرت الّتي تعرّضت للتخريب المتكرّر ،وذلك منذ قيام الدولة الشيعية على يد الداعي الشيعي أبي عبد الله وحتّى عهد المعز لدين الله وهذا الجدول يوضّح ذلك:

في عهـــد الخليفة	ســـة التخريب	العمران المخرّب
أبو عبد الله الداعي (ليس خليفة بل هو داعي)	296 هـ/909م 296 هـ/909م	تخريب المدينة حرق مكتبة المعصومة
عبيد الله المهدي	298 هـ/911م 299 هـ/912م 305 هـ/917م 316 هـ/28-929م	حرق مدن مجهولة تخريب و حرق المدينة حرق أسواق المدينة هدم سور المدينة
إسماعيل المنصور	336 هـ/948م	إحراق منبر المدينة
المعز لدين الله	347 هـ/58-959م حوالي 360 هـ/971م	نهب و إحراق المدينة تخريب المدينة من طرف الخير بن محمد

جدول: سنوات تخريب تيهرت في عهد الخلفاء الفاطميين

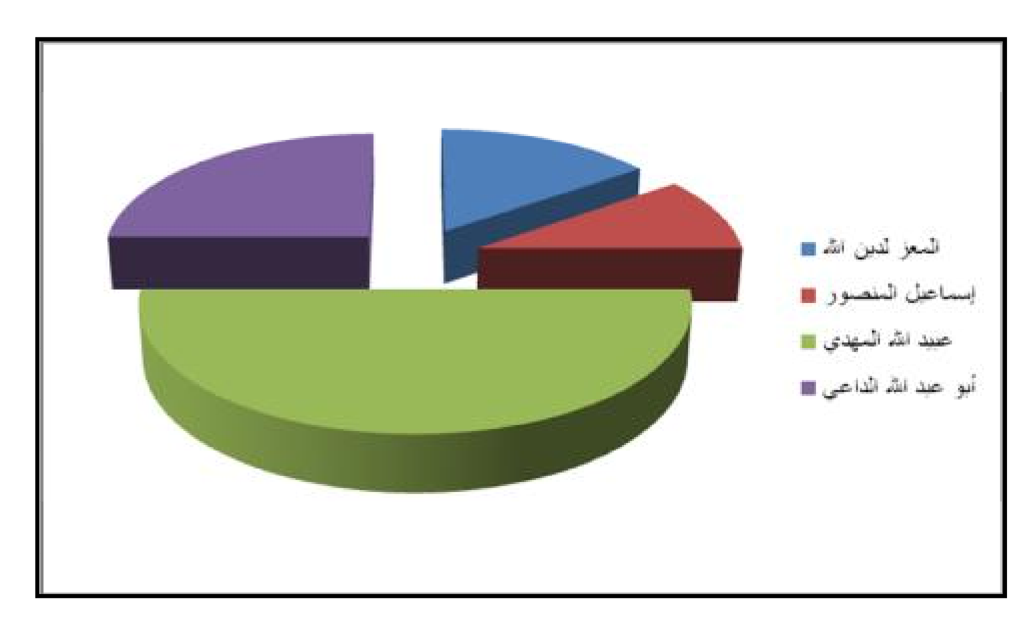
(1)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 361.

(2)- الإيلاني: المصدر السابق، ص 109.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 361.

(4)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 361.

وتتّضح أكثر نسبة تخريب المدينة من خليفة شّيعي لآخر -مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ أبا عبد الله الشيعي لا يعدّ خليفة- بل داعي الشيعة في المغرب ،كما يبيّنه هذا الشكل البياني:



شكل: نسب التخريب لمدينة تيهرت حسب فترة كل خليفة

وبناء على ما سبق ،فإنّ مدينة تيهرت قد شهدت في عهد دولة الشيعة عمليات تخريبية متتالية لعمرانها ،اختلفت حدّة ذلك التخريب من حملة إلى أخرى ،ولا شكّ أنّ ذلك قد أثّر على التطوّر العمراني لهذه المدينة ،كما أثّر على التطوّر والازدهار الاقتصادي والثقافي الّذي عرفته أيام بني رستم ،فما هي نتائج سقوط هذه المدينة في يد الشيعة؟ وما انعكاسات ذلك على مستقبلها ،وسيرورة تطوّرها؟.

إنّ أبرز ما نتج عن ذلك يمكن أن نوجزه في ما يأتي:

- قضاء الدولة الشيعية على المذهب الإباضي ،وتشتيت شمل أنصاره في أراضي الصحراء.
- سيطرة الدولة الشيعية على مركز اقتصادي هام على طريق القوافل التجارية تشرف من خلاله على حركة التجارة بين المشرق والمغرب ،وبين مناطق الشمال و الصحراء والسودان الغربي.
- بالسيطرة على تيهرت أوجدت الدولة الشيعية قاعدة لمراقبة تحرّكات القبائل الزناتية ،وإفشال معارضتهم[1].

(1)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 344.

- انتشار الفوضى، و الاضطرابات ،وفقدان الأمن بالمدينة ممّا جعل البعض من سكّانها يهاجرون إلى وارجلان ،وجبل نفوسة ،ومنطقة جربة والأوراس[1].
- تراجع دور النشاط الاقتصادي والإشعاع الثقافي الّذي عرفته المدينة فيما مضى ،وذلك نتيجة كثرة الاضطرابات والفتن ،وما نتج عن ذلك من هجرة للعلماء من المدينة. إضافة إلى أنّها لم تبق مقصدا للعلماء وطلبة العلم.
- اشتدّ الصراع الشيعي الزناتي[2] ،حيث لقي الزناتيون دعما كبيرا من طرف أمويّو الأندلس[3] ،وكذلك ظهورنشاط كبير لحركة الخوارج النكار ضدّ الدولة الشيعية[4].

وصفوة القول فإنّ مدينة تيهرت في عهد الدولة الفاطمية عرفت حياة مضطّربة حيث لم تعرف الاستقرار ،خصوصا في ظلّ الصراع الشيعي الزناتي من أجل السيطرة على هذه المدينة ،الّتي كانت سجالا بين الطرفين و لم تصف لحكم احد من الطرفين لمدّة طويلة من الزمن. وعليه فإنّ التطوّر التاريخي لعمران مدينة تيهرت ما كان ليعرف استمرارية النمو والتطوّر ،بل ارتبط إلى حدّ كبير بتطوّر الدولة الرستمية ،والّتي بسقوطها أخذ عمرانها في التراجع[5]. غير أنّ ما تجدر الإشارة إليه هو ما مصير عمران هذه المدينة في الفترة التي أعقبت رحيل الفاطميين عن بلاد المغرب، فهل انتعش دور هذه المدينة ،واستعادت تطوّرها العمراني أم كان للمدينة في عهد دولة بني زيري فصل جديد مع الصراعات والاضطرابات ،وما يتبعه من خراب للعمران؟.

2- خراب مدينة وارجلان:

إنّ المصادر التاريخية لا تحدّد بشكل دقيق علاقة مدينة وارجلان بالدولة الرستمية ،ويبدو أنّ مدينة وارجلان الّتي كانت تحت سيطرة شيوخ القبائل القاطنين بها لم تكن تابعة تبعية مباشرة

([1])- محمد الحريري: المرجع السابق، ص 186.

([2])- للمزيد حول ذلك الصراع، أنظر: داود بن يوسف سليمان: «دولة بني يفرن الإباضية بتلمسان»، مجلة الأصالة، العدد 26، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1395هـ-1975م، ص 117.

([3])- يشير شكيب أرسلان إلى أنّ أصل كلمة الأندلس مشتّق من الــڤــاندالس، وهم جيل من النّاس كانوا يسكنون بين نهر الأودر ونهر الفيستول في شرقي ألمانيا حاليا، وقد زحفوا من الشمال إلى الجنوب، أنظر: شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية،ج1، (د.ط)،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت)،ص 32.

([4])- محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 240.

([5])- هناك آثار لحضارة بني رستم بمدينة تيهرت باقية إلى يومنا هذا وتتمثّل في: آثار لموضع مسجد الإمام الرستمي يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب، وكذا لقنوات المياه، أنظر كل من: الملحق رقم: 16 ورقم: 17.

للدولة الرستمية ،بل ربّما ولاء روحي نابع من إتّباع مذهب واحد ،وهو المذهب الإباضي ،كما قامت بينهما أيضا علاقات تجارية ،كونها محطّة للتجارة ،والتجارة العابرة[1]. ولعلّ هذا يعتبر العامل الأساسي الّذي جعل يعقوب بن أفلح الرستمي الفارّ من الفاطميين يفضّل مدينة وارجلان على غيرها من المدن كملجأ للاستقرار.

وقد لاحظت أنّ المصادر التاريخية لم تول اهتّماما كبيرا بتاريخ هذه المدينة إلاّ بعد سقوط الدولة الرستمية ،حتّ أنّ الّذي يمعن النظر في ذلك يشعر وكأن بداية تاريخ مدينة وارجلان السياسي مرتبط بقدوم يعقوب بن أفلح إليها. وإن كان ما يهمّنا نحن بصدد ذكر هذا هو: هل كان لما حلّ بعمران مدينة تيهرت بعد سقوطها في يد الفاطميين من تخريب وقع مماثل على مدينة وارجلان ،خاصة وأنّها كانت ملاذا للفارّين الرستميين؟ أم أنّ هذه المدينة سلمت من ذلك التخريب؟.

يجمع الكثير من المؤرّخين وفي مقدّمتهم الإباضيون على أنّه بسقوط مدينة تيهرت فرّت دوسرا وإخوانها ،وعمّها أبو يوسف يعقوب بن أفلح وجماعة من الإباضيين ،وكانت وجهتهم مدينة وارجلان ثمّ سدراتة[2] ،وذلك خوفا من بطش الشيعي أبي عبد الله الّذي دمّر تيهرت[3]. وكان في استقبالهم عند وصولهم شيخ وارجلان أبوصالح جنون يمريان[4] ،الّذي عرض على أبي يوسف يعقوب أمر إحياء الإمامة الإباضية[5] ،غير أنّ هذا الأخير رفض بحجّة انعدام القوة قائلا: «لا يستتر الجمل بالغنم»[6].

([1])- إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 39.

([2])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 113، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 104، عبد العزيز شهبي: مساجد أثرية في منطقتي الزاب و وادي ريغ، (د.ط)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، 2011، ص177، و أنظر كذلك: *CHITOUR Chemseddine: Histoire religieuse de l'Algérie …, ENAG, Alger, 2001, p 70.*

([3])- عبد العزيز شهبي: «مساجد أثرية في منطقتي الزاب و وادي ريغ»، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد التاريخ والآثار، جامعة الجزائر، 1984-1985، ص 174.

([4])- كان يتولّى أمور وارجلان، ويعلّم النّاس، وينفق على تلاميذه من ماله الخاص، ونظرا لمكانته العلمية اتجّه العلماء وطلبة العلم إلى وارجلان للاستفادة من علمه الغزير، أنظر: مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 43.

([5])- عمرو خليفة النامي: «ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان...»، مجلة الأصالة، العدد 42-43، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هــ-1977م، ص 18، عمر سليمان بوعصبانة: «معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان (296-626هــ/909-1229م)»، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، المعهد الوطني لأصول الدين، الجزائر، 1412هــ-1991/1992م، ص 88، محمد الحريري: المرجع السابق، ص 186.

([6])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 124، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 105.

و لم يغفل الفاطميون وفي مقدّمتهم عبيد الله المهدي عن تلك الهجرة ،وكذا عن أمر إحياء الإمامة الإباضية الّتي رأى فيهما تصريحا عدائيا موجها ضدّ الحركة الشيعية الإسماعيلية[1] ،ناهيك عن أنّ عبيد الله المهدي لم ينس حادثة إساءة معاملته من طرف بعض سفهاء قصر بكر التراب[2] حينما كان في طريقه إلى سجلماسة بمعيّة ابنه أبي القاسم، أين ألقوا التراب على وجهه فغادرهم إلى سجلماسة[3].

وبذلك فقد كان أوّل عمل أقدم عليه عبيد الله المهدي بعد تخليصه من سجن اليسع بن مدرار ،هو الأمر بإرسال قوة عسكرية إلى وارجلان لحصارها ،وتأديبها على إيواء الفارين ،والقضاء عليهم قضاء مبرما ،وبالتالي تموت فكرة إحياء الإمامة الإباضية من جديد ،وذلك سنة 297هـ/910م[4].

وما إن علم الإباضية الفارّين بأمر الحملة الشيعية المرسلة إليهم ،ولاتقاء شرّها سارعوا للاعتصام والتحصّن بجبل كريمة[5] ،فضرب عليهم جنود الشيعة حصارا حتّى يهلكوا عطشا وجوعا. وتذكر لنا المصادر الإباضية أنّهم حينها اهتدوا إلى حيلة تنجّيهم من ذلك الحصار ،وهي أنّ أحدهم اقترح إحضار قصاع كبيرة مملوءة بالزيت ،ثمّ أخذوا يقدّمونها للجمال الّتي تمكّن منها العطش ،فأقبلت عليها الجمال تحسبها ماء ،ولّما وجدته زيتا لفظته من أفواهها ،فاعتقد جنود الشيعة أنّهم يعطون الماء لجمالهم لتشرب ،وتأكّدوا أنّه لا جدوى من الحصار[6].

وإن كان المعتصمون قد نجوا من بطش جنود الشيعة ،فإنّه و بفشل الحصار لجأ جنود الحملة الفاطمية إلى تخريب المدينة ،والاستيلاء على ما بها من أموال وغنائم ،وعن بعض مظاهر ذلك التخريب يذكر أبو زكريا أنّهم ارتحلوا «عن أهل وارجلان فحرقوا المسجد الكبير لجنون ابن يمريان رحمه الله ،فدخلوا ديارهم ففتّشوها...» [7].

([1])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 342.

([2])- قصر من قصور مدينة وارجلان، فوارجلان مبنية قصورا متقابلة، متقاربة، أنظر:ابن خلدون: العبر، ج7، ص 70.

([3])- الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 93.

([4])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 113، موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 342.

([5])- هي جبل أوكدية عالية تقع في جنوب وارجلان، وتبعد عنها بستة أميال،أنظر: الدرجيني:المصدر السابق،ج1، ص 95.

([6])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 113، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 95.

([7])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 113.

أمّا الدرجيني فيضيف إلى سابقه حول تلك الأعمال التخريبية بقوله: «فلمّا وصلهم العسكر دمرّ الدّيار وحاصروهم في الكدية وطوّق بها سبعة أطواق...حتىّ يهلكوا عطشا»[1] ،وفي ذلك إشارة إلى أن أعمال التخريب التي قام بها الجيش الفاطمي كانت قبل حصار جبل كريمة. عكس ما أورده أبو زكرياء الّذي ذكر أنه كان بعد فشل الحصار المضروب عليها. غير أنّنا نجد الدرجيني في موضع آخر من كتابه يعود فيذكر أن الجيش الفاطمي بعد فشل حصاره لجبل كريمة وقبل رحيله قام بنهب ديار وارجلان[2] ،وهذا قد يدفعنا للاعتقاد أنّ عمليات النهب والتخريب التي قام بها جنود الحملة الشيعية في حق عمران المدينة قد طالتها قبل الحصار وبعده. وأهمّ مظاهر ذلك التخريب حرق مسجدها وانتهاب ديارها وتدميرها.

وعلى الرغم من الإشارة إلى تفاصيل هذه الحملة على وارجلان من طرف المصادر الإباضية إلاّ أنّ بعض الغموض ما زال يكتنف جوانبا هامة منها ،خاصة ما تعلّق بتحديد وقت انطلاقها ومكانه ،هل كان من تيهرت من طرف أبي عبد الله الشيعي ،أم من سجلماسة بأمر من عبيد الله المهدي بعد خروجه من السجن ،أم أنّ هذه الحملة انطلقت من رقادة بعد دخولها من طرف عبيد الله المهدي؟

وإن كان هذا الغموض قد سعت دراسات عدّة إلى كشفه ،فهناك من رجّح أن يكون أمر انطلاقها كان من رقادة بإفريقية ،وهو بذلك يوافق المصادر الإباضية في ما ذهبت إليه وأقرّته[3]. وهناك من يستبعد ذلك ويرى أنّ الحملة انطلقت من سجلماسة[4]. بيد أنّ دراسة أخرى استبعدت كلا الرأيين ،وذهب صاحبها إلى أنّ انطلاق الحملة الشيعية إلى وارجلان كان من تيهرت ،حيث قسّم أبو عبد الله جيشه إلى شطرين شطر قاد الحملة إلى وارجلان ،في حين سار الشطر الباقي نحو سجلماسة ،ولّما فشلت الحملة في الظفر بالفارّين عمدت إلى التخريب والحرق[5] ،ثمّ قفلت راجعة نحو سجلماسة ،أين كان عبيد الله المهدي في انتظارها ،حيث يدعّم ذلك ما يورده ابن خلدون بأنّ عبيد الله المهدي بعد تخليصه من السجن بقي أربعين يوما في

(1)- الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 95.

(2)- المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

(3)- إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 41، عمار غرايسة: المرجع السابق، ص 67.

(4)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 342.

(5)- إبراهيم بحاز: الدولة الرستيمة، ص 128، مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 41.

سجلماسة[1] ،فربّما كان ذلك انتظارا منه لعودة جنود الحملة من وارجلان ،كما أنّه هل يعقل أن يغادر الجيش تاهرت صوب سجلماسة ثمّ يرجع إلى رقادة و بعدها يسير إلى وارجلان ،وذلك لبعد المسافة ،وطول المدّة[2].

غير أنّه وفي غياب مصادر أخرى غير الإباضية، تدعّمها ،وتساعد على كشف الغموض ،تبقى كلّ تلك الترجيحات مجرد اجتهادات تفتقر إلى السند التاريخي الّذي يقوّيها ،وتبقى كل الاحتمالات واردة ،إذ يحتمل أنّها قد انطلقت حقا من رقادة لأنّ عبيد الله المهدي بعد خروجه من السجن لا شكّ أنّ اهتّمامه سينصبّ حول أمر مصير دولته أكثر من الاهتمام بشأن فلول الإباضية. وعليه سار إلى رقادة لترتيب شؤون الدولة وبعدها التفرّغ لأمر الإباضية الفارّين ،وتأديب أهل وارجلان. كما أنّه وارد أن تكون قد انطلقت من سجلماسة، قبل المسير إلى رقادة ربحا للوقت ،واختصارا للمسافة ،والإسراع إلى تأديب الفارّين وأهالي وارجلان تحسبا لأيّ فعل قد يقدم عليه أهالي المدينة إلى جانب يعقوب ابن أفلح ضدّ الدولة الفاطمية. ونحن نميل كثيرا إلى هذا الرأي.

كما أنّه يمكن أن يكون الداعي أبو عبد الله الشيعي قد أرسل جيشا لملاحقة الفارّين مباشرة بعد سقوط مدينة تيهرت ،حيث بعث بجيش قليل العدد و أبقى الكثرة معه لإنجاز المهمّة الكبرى في سلجماسة ،ونظرا لقلّة عدد ذلك الجيش الفاطمي كان مصير الحملة الفشل في الظفر بالفارّين وحصارهم في جبل كريمة عندها قاموا بتخريب المدينة ،وحرق مسجدها.

وعليه فإنّ مدينة وارجلان قد جلبت لنفسها بإيوائها للفارّين غضب الفاطميين الّذين لم يتورّعوا عن أعمال شنيعة في حقّ عمران المدينة ،الّذي أقدموا على تخريبه ،وحرق مسجدها. و لم يكتفوا بانتهاب الأموال ،إذ لّما فشلت حملتهم صبّوا جمّ غضبهم على عمران المدينة ،وقد لا نستغرب ذلك إذا ما رجعنا إلى مدينة تيهرت الّتي فتحت أبوابها للفاطميين ،ورحّبت بهم وقد أصابها من الخراب ما أصابها. فكيف بوارجلان وقد استعصى عليهم الإمساك بالفارين ،كما أنّ أهالي المدينة أظهروا تعاطفا مع هؤلاء الفارّين وآووهم بل وعرضوا عليهم أمر إحياء الإمامة الرستمية.

([1])- ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 47.

([2])- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 41.

وخلاصة القول فإنّ حملة الفاطميين على مدينة وارجلان ،وما أنجرّ عنها من تخريب للمدينة قد زادت من حدّة العداء للفاطميين ،وليس نتيجة لما حلّ بمدينتهم فحسب ،بل لما حلّ أيضا بمدينة تيهرت وأهلها ،على اعتبار ما ذكرناه سابقا من تبعية روحية مذهبية لها. ولقد ترجم ذلك العداء فيما شهده تاريخها من أحداث سياسية ،أبرزها مساندة سكّان المدينة لثورة أبي يزيد النكاري ضدّ دولة الشيعة ،إذ كانت وارجلان من بين الأماكن الّتي لجأ إليها الثائر النكاري أبو يزيد عند هروبه من السجن سنة 325هـ/936م[1].

كما شارك أهل وارجلان في ثورة الوسيانيين ضدّ الفاطميين سنة 358هـ-968م[2] في خلافة المعز لدين الله الفاطمي ،الّذي استطاع القضاء عليها. وهكذا كان سكّان وارجلان في عداء دائم مع الفاطميين طيلة وجودهم بأرض المغرب ،حيث لم تهدأ أوضاع هذه المدينة في عهد خلفائهم من بني زيري ،خصوصا دولة بني حماد ،التي سيطرت على إقليم المغرب الأوسط ومنه مدينة وارجلان.

3- خراب مدينة وهران:

أ- التخريب الأول:

لقد سبق و أن تطرّقنا في فصلنا الأوّل لنشأة هذه المدينة وتطوّرها. و أتينا عليه بالاستفسار عن هذه المدينة الساحلية هل تعرّض عمرانها للتخريب أم لا؟. وحتّى نجيب على ذلك ،نقول أنّ هذه المدينة تعرّضت حقيقة لعمليات تخريبية عدّة أتت على عمرانها حرقا وهدما. لكن ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ هذه المدينة رغم تعرّضها للخراب المتكرّر في عهد الدولة الفاطمية ،إلاّ أنّ هذه الدولة لم تساهم في ذلك بشكل مباشر ؛أي بإرسال حملات موجهة مباشرة لمدينة وهران ،ونجم عنها تخريب لعمران المدينة ،بل تعرّضت هذه المدينة لذلك التخريب نتيجة الأحداث السياسية الّتي شهدها المغرب الأوسط في ظلّ حكم الفاطميين ،الّذين كثيرا ما قامت في وجههم حركات تمرّدية ،وتنافس بين القبائل المغربية من أجل السيطرة على الإقليم ،خاصة قبيلة زناتة ،خاصة بفرعيها الكبيرين مغراوة ،وبني يفرن ،والّتي لقيت دعما كبيرا من أمويّي الأندلس كما أسلفنا.

(1)- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 71.

(2) هي ثورة تزعّمها أبوخزر يغلي بن زلتاف الوسياني وأبي نوح سعيد بن زنغيل الوسياني ضدّ الفاطميين، وكان سببها أن المعز لدين الله الفاطمي لّما استشعر خطر أبي القاسم يزيد بن مخلد الوسياني، وكان يظنّ أنّ قبيلة مزاتة رهن طاعته، فأمر بقتله وهو ما أثار حفيظة الإباضية الوهابية فثاروا ضدّ المعز، ولكن هذه الثورة فشلت، أنظر: إلياس حاج عيسى:المرجع السابق، ص41-42.

- **أسباب الخراب:**

تشير المصادر التاريخية إلى أنّه في عام 297هـ/909م زحفت عدّة قبائل على مدينة وهران ،وطالبت من سكّانها أن يسلّموا لها بني مسقن[1] الّذين فرّوا إليها ،وذلك حتىّ تأخذ قصاصها منهم بحجّة مشاكل ودماء سالت بين الطرفين ،غير أن أهالي المدينة إلاّ أن رفضوا طلبهم ،فقامت تلك القبائل بفرض حصار على المدينة ،وقطعت عنها الماء وشدّدت الحصار على السكّان ،وضيّقت عليهم ،ففرّ بنومسقن من المدينة ليلا[2] ،واستجاروا بقبيلة وزداجة[3].

- **خراب المدينة:**

إنّ هذه الحادثة الّتي تذكرها المصادر التاريخية تفتقر إلى تفاصيل أكثر حول الأسباب الداعية لطلب الثأر من قبائل بني مسقن ،إذ اكتفت بذكر «دماء سالت بينهم». وإن كنّا نفتقر إلى تلك التفاصيل فإنّ ما بين أيدينا هو أنّه نتيجة للحصار المضروب على مدينة وهران فقد فرّ أيضا سكّان المدينة وتركوا أموالهم ومدينتهم لتعبث بها أيادي التخريب كيف ما تشاء ؛حيث قام المحاصرون بإضرام النيران في المدينة وأحرقوها ،وخرّبت[4] ،وكان ذلك التخريب في نفس السنة (ذي الحجة 297هـ/910م) [5].

إنّ هذا العمل التخريبي الّذي طال مدينة وهران من طرف مجموعة قبائل لم يذكر المؤرّخون أسماءها ،ناهيك عن الغموض الّذي يكتنف تفاصيل أسبابها ،ليدفعنا للاستفسار عن موقف الدولة الفاطمية آنذاك من حادثة التخريب هذه ،إذا ما استبعدنا أن تكون لها يد في ذلك ،فقد تكون هذه الدولة وراء ذلك التخريب ،فالمتتبّع للأحداث التاريخية الّتي صاحبت قيام الدولة الشيعية على أرض المغرب ليقف على عمليات تخريب متكررة ارتكبها الجيش الشيعي لعمران مدينة تيهرت في

([1])- يعرفون كذلك بأهل مسرقتن، أنظر: يحي بوعزيز: وهران، (د.ط)، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 32.

([2])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 252، محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق، المهدي البوعبدلي، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ-1978م، ص 84، قدور إبراهيم عمار: وهران تاريخ وثقافة، (د.ط)، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 1425هـ-2005م، ص 18، يحي بوعزيز: وهران، ص 32.

([3])- وزداجة، أو وازداجة: أحد بطون البرانس، وعدّهم الكثير من النسّابة من بطون زناتة، كانت مواطنهم بمنطقة وهران، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 190-191.

([4])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص252، محمد الزياني: المصدر السابق، ص84، *BENCHOHRA Mahdi: Oran sagesse et noblesse, Dar El Adib, Oran, Algérie, 2007, p 19.*

([5])- هناك من يذكر أنّه كان في ذي القعدة وليس ذي الحجة، أنظر: *BENCHOHRA Mahdi: Op.Cit, p19*.

عام 296هـ/909م ،ثمّ تلقى مدينة وارجلان نفس المصير في السنة الموالية (297هـ/ 910م) ،ثمّ نجد أنّ مدينة وهران تخرّب في نفس هذه السنة.

إلاّ أنّنا نفتقر إلى الدليل التاريخي الّذي يثبت صحّة قولنا ،ويزيل الالتباس أمامنا ،ومع ذلك يجدر بنا أن لا نترك بعض الأحداث تمرّ علينا مرّ الكرام ،وعلى رأسها ما تعلّق بالنفوذ الشيعي على مدينة تيهرت ،الّتي عيّنوا على ولايتها أبا حميد دواس بن صولات. فهل اقتصر نفوذ دولة الشيعة على هذه المدينة فقط ،أم تعدّاه إلى ما بعدها من مناطق بالجهة الغربية ؟. ومنه ألا يحتمل أن يكون عبيد الله المهدي قد بعث بواليه على تيهرت لإخضاع تلك المناطق كوهران ،وغيرها؟ أو أن تكون تلك القبائل قد أقدمت على ذلك الحصار ،ومن ثمّ التخريب والحرق بإيعاز من عبيد الله المهدي بواسطة أبي حميد دواس ابن صولات؟.

إنّ هذا الالتباس قد يزول حينما نقف على ما أورده ابن خلدون بأنّه في سنة 297هـ/ 910م أوعز عبيد الله المهدي إلى عامله على تيهرت أبي حميد اللهيصي بحصار مدينة وهران ،وقتال أهلها ،أين حوصرت المدينة ،وخرج منها أهلها تاركين أموالهم للنهب ،عندئذ «استبيحت وهران وأضرمت نارا»[1]. وسبب ذلك حسبما يذكر هذا المؤرخ هو إخراج رجالات الدولة الأموية[2] منها ،بعدما وافقه في ذلك بنومسقن[3].

و في ظلّ التضارب بين ما أورده البكري و ابن خلدون واختلافهما في تحديد المتسبّب في تخريب وهران ،وكذا الأسباب الداعية لذلك التخريب ،فإنّنا وبالرجوع إلى ما أورده ابن عذاري من حوادث تلك السنة الّتي حدث فيها تخريب مدينة وهران ،نجده يسكت عن ذكر هذه الحادثة -خاصة إذا ما اقتنعنا برأي ابن خلدون - رغم أنّه تطرّق لتاريخ دولة الشيعة في تلك الفترة بشيء من التفصيل. ومع ذلك فإنّ ابن عذاري وهو يذكر حوادث سنة 297هـ/ 910م يشير إلى حملة قادها أبو عبد الله الشيعي مع جماعة من قواد كتامة إلى أرض المغرب حيث افتتح « المدن ،وقتل

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 91، عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 289.

([2])- الدولة الأموية نسبة إلى معاوية بن أبي سفيان أوّل خلفاء بن أمية، ولكن ابن خلدون يقصد هنا الدولة الأموية الّتي قامت بالأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية سنة 138هـ/756م، أنظر: عمر بن يوسف بن رسول: طرف الأصحاب في معرفة الأنساب، تح، ك.و. سترستين، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1412هـ-1992م، ص 77، و للمزيد أنظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، 1405هـ-1985م، ص 681 وما بعدها.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 91.

،وسبى»[1] ،وعلى الرغم من أنّه لا يذكر أسماء هذه المدن الّتي فتحت ،وقتل من أهلها ،فقد أضاف أنّه في نفس السنة[2] «وصل أبو عبد الله الشيعي إلى مدية تنس»[3] ،بل و لم يرجع الداعي الشيعي إلى رقادة حتّ انقضت سنة 297هـ/910م ،ودخلت سنة 298هـ/910م وهو ما زال في أرض المغرب -كما أورده ابن عذاري- حيث يضيف «وفي سنة 298هـ تحوّل أبو عبد الله الشيعي في بلاد المغرب ،وحارب صدينة[4] ،وزناتة و قتل الرجال ... وأحرق بعض المدن بالنّار... ثمّ قفل أبو عبد الله إلى مدينة رقادة»[5].

إنّ هذه النصوص التاريخية الّتي أوردها ابن عذاري حتّ وإن لم يرد فيها ذكر لمدينة وهران ضمن المدن الّتي أحرقها أبو عبد الله الشيعي ،إلاّ أنّ الّذي لا شكّ فيه أنّ مدينة وهران خرّبت وأحرقت في الوقت الّذي كان فيه الجيش الشيعي بقيادة أبي عبد الله يجول ويصول في أرض المغرب ،يقتل ،ويسبي ،ويفتتح المدن. فهل كانت مدينة وهران أحد هذه المدن؟. إنّنا لو أجبنا عرضا بنعم ،فهل كان أبو حميد دواس والي تيهرت بصحبة أبي عبد الله الشيعي في حملته؟ ولماذا لا يشير إلى ذلك ابن عذاري ،أو حتّ ابن خلدون؟.

إنّه و في غياب النص التاريخي الّذي يزيل عنّا هذا الغموض ،ويلهمنا ربط هذه الأحداث التاريخية ببعضها البعض للوصول إلى حقيقة أسباب ،ودوافع تخريب مدينة وهران ،نجد أنفسنا أمام نص تاريخي يتّفق حوله هذه المرّة كلّ من البكري وابن خلدون، مفاده أنّه في السنة الموالية لتخريب مدينة وهران ،وبأمر من أبي حميد دواس بن صولات حسب البكري فقد «عاد أهل وهران إليها في السنة بعدها ،سنة ثمان وتسعين ومائتين ،بأمر أبي حميد دواس بن صولات...عامل تيهرت وابتدأوا بنيانها في شعبان من هذه السنة»[6] ،وهو ما يقرّه أيضا ابن خلدون بقوله: «ثمّ جدّد بناءها دواس»[7]. إن هذا وإن كان يوحي لنا من جهة إلى أنّ مدينة وهران كانت تحت

---

(1)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 160.

(2)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 161.

(3)- مدينة ساحلية بينها وبين البحر ميلان، يوجد في وسط هذه المدينة حصن منيع، يحيط بها سور، وتسكنها قبائل من البربر، أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 151-152، و للمزيد أنظر: أبو طالب الأنصاري: المصدر السابق، ص 235.

(4)- بطن من بطون بني فاتن من ضريسة إحدى بطون البرابرة البتر، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 155.

(5)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 162.

(6)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 253.

(7)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 191.

النفوذ الشيعي ،فإنّه ومن جهة أخرى يوحي لنا أيضا أن هناك علاقة لدولة الشيعة بذلك الحصار والتخريب لعمران مدينة وهران ،حتىّ ولو بشكل غير مباشر.

ولكن و بناء على ما سبق فإنّنا لا نميل إلى ما ذهب إليه ابن خلدون الّذي ذهب إلى أنّ تخريب وحرق مدينة وهران كان بإيعاز من دولة الفاطميين ،بل نرجّح ما أقرّه البكري بأنّ تخريبها كان على يد تلك القبائل ،الساعية وراء الثأر والقصاص ،وبعدما تعذّر عليها ذلك وفرّ من تطلبهم عمدت إلى حرق المدينة وتخريبها ،خاصة وأنّها أصبحت خالية من السكّان ،وحجّتنا في ذلك ،هو تفرّد ابن خلدون فيما ذكره ،وسكوت بعض المصادر على غرار ابن عذاري على التطرّق لذلك الحدث ،في الوقت الّذي أطنب في ذكر بقية الأحداث المتعلّقة بدولة الفاطميين في بداية عهدها. كما أنّنا لم نقف على أيّ نص تاريخي تعرّض لقيام الدولة الفاطمية ببناء المدن الّتي خرّبتها لا في تيهرت ولا في وارجلان ،فكيف تسعى إلى تخريب وحرق مدينة وهران ،وفي العام الموالي تعمد إلى إعادة البناء والإسكان.

ب- التخريب الثاني لمدينة وهران:

بعدما تعرّضت مدينة وهران للحرق والتخريب سنة 297هـ/910م، عاد إليها أهلها ،بأمر من أبي حميد بن صولات عامل تيهرت ،الّذي مدّ يد المساعدة في بنائها ،وتعميرها ،وعين عليها محمد بن أبي عون[1] ،وذلك في سنة 298هـ/910-911م ،ثمّ سيطر بنو خزر عليها ،وكان أوّلهم خزر بن حفص[2] ،الّذي أحاط المدينة بسور ،وشيّد الأبنية العديدة ،فاتّسع عمرانها وحسن[3].

غير أنّ أوضاع مدينة وهران السياسية لم تعرف الاستقرار ،إذ ميّزها الصراع بين بني خزر المغراويين المواليين للأمويين بالأندلس ،وبين محمد بن أبي عون و الوزداجيين المواليين للشيعة وذلك ما جعل المدينة تتعرّض للخراب مرّة أخرى.

- أسباب الخراب:

رغم أنّ عمران مدينة وهران عرف نموا و اتّساعا بعد الخراب الّذي شهدته، إلاّ أنّها لم تعرف الاستقرار السياسي، بل كانت ميدانا لصراع دائم بين عمال الفاطميين على تيهرت ،ومن

([1])- البكري: المصدر السابق،مج2،ص253، أبوطالب الأنصاري: المصدر السابق،ص235، ابن خلدون:العبر،ج6، ص191.

([2])- هو خزر بن حفص بن صولات بن ونزمار بن صقلاب بن مغراو، من قبيلة مغراوة الزناتية، وكان موالي للأمويين بالأندلس، أنظر: يحي بوعزيز: وهران، ص 33.

([3])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 253، محمد الزياني، المصدر السابق، ص 84.

ورائهم خلفاؤها ،وبين بني خزر المغراويين ،ومن ورائهم بنو أمية في الأندلس ،إذ تداولوا حكمها لمرّات عدّة.

فبعد أن تولّى حكم مدينة وهران خزر بن حفص ،تولاّها بعده ابنه محمد بن خزر ،الّذي سعى إلى مدّ نفوذه نحو الجهة الشرقية ،ودخل في صراع مع الفاطميين[1] ،حتّ انهزم سنة 306هـ/918م ،أين انتزعها العجيسيون والوزداجيون منه. وبعد سلسلة من الحروب استعادها مرّة أخرى عام 313هـ/925م ،وعيّن عليها ابنه الخير ،الّذي حارب الفاطميين في تيهرت وغزا حتّ المسيلة ،والزاب وبسكرة[2]. و بقيت وهران تحت سيطرته حتّ استطاع دواس بن صولات الكتامي عامل تيهرت انتزاعها منه سنة 318هـ/930م ،وأعاد على ولايتها مرّة أخرى محمد بن أبي عون[3].

- **تخريب المدينة:**

رغم أنّ نفوذ الشيعة قد عاد لحكم مدينة وهران تحت ولاية محمد بن أبي عون ،إلاّ أنّ يعلى بن محمد بن صالح اليفرني عامل الأمويين قد تحالف مع الخير بن محمد بن خزر ضدّ مدينة وهران و أهلها ،وتمكّن من دخول المدينة[4] سنة 343هـ/954م[5] ،و عمل على خرابها والعيث فسادا فيها ،حيث أوقد فيها النيران فأحرقها[6]. وفي ذلك يذكر البكري قائلا: «إلى أن أوقع يعلى بن محمد بن صالح اليفرني بإزداجة ...و فرّق جماعتهم...سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة. فدخل يعلى مدينة وهران ، وملكها...وخربت مدينة وهران وحرقها ،وبقيت كذلك سنين»[7].

([1])- محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 222.

([2])- بسكرة: مدينة في الجنوب من المغرب الأوسط، استوطنها البربر قديما، و فيها استشهد القائد عقبة بن نافع بمنطقة تهوذة عام 63هـ/683م، وقد عرفت في العصر الوسيط رخاء اقتصاديا، فكانت كثيرة النخيل، والزيتون، وأصناف الثمار، حتّ عرفت ببسكرة النخيل، أنظر: عبد العزيز شهبي: «بسكرة عاصمة الزيبان نشأة المدينة وتطوّرها»، الملتقى الرابع للبحث الأثري والدراسات التاريخية، تندوف، 19-24 أفريل 1996، ص91-94، و للمزيد أنظر: محمد الصغير غانم: مدن تاريخية مواقع ومدن أثرية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988، ص 17.

([3])- يحي بوعزيز: وهران، ص 35، لخضر سيفر: المرجع السابق، ج1، ص 177.

([4])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 253، ابن خلدون: العبر، ج7، ص 24، محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 228.

([5])- يذكر يحي بوعزيز أنّه حدث في سنة 344هـ/955م، أنظر: يحي بوعزيز: وهران، ص 35.

([6])- عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 289.

([7])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 253.

وهنا نجد أنّ الجغرافي البكري يقرّ أنّ هذا الخراب كان نتيجة الحرب بين يعلى اليفرني وبين وازداجة وبني مسقن[1] الزناتيين ،أين انتصر يعلى وأقدم على حرق المدينة وتخريبها ،في الوقت الّذي نجد ابن خلدون يسكت عن ذكر وازداجة وبني مسقن ويقتصر على ذكر «واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة وأجلب على وهران فملكها... فدخلها يعلى عنوة على بنيه وخرّبها»[2].

ومهما اختلفت آراء المؤرّخين في ذكر أسباب وتفاصيل ذلك الخراب ،فإنّ مدينة وهران قد أصبحت خرابا بعدما كانت عامرة البناء وآهلة بالسكّان.

وبتخريب هذه المدينة وحرقها تدهور عمرانها ،واستمرّ على ذلك الحال مدّة من الزمن كما يورده البكري بقوله: «وبقيت كذلك سنين»[3]. أمّا ما حلّ بأهل المدينة بعدما عادت إلى ما كانت عليه من التدمير والخراب ،فقد تفرّقوا بعدما بدّد شملهم يعلى اليفرني ،فمنهم من هاجر إلى الأندلس[4] ،ومنهم من يذكر البكري[5] أنّ يعلى نقلهم «إلى مدينته المعروفة»[6].

وجماع القول إنّ مدينة وهران ورغم الخراب الّذي لحقها للمرّة الثانية ،فإنّها بعد مدّة من الزمن تراجع النّاس إليها ،وعمّرت[7] ،ثمّ أعيد بناؤها[8] ،وحصّنت واستبحر عمرانها ،وازدهر اقتصادها ،وقصدها العلماء والفقهاء في أواخر القرن الرابع الهجري(10م)[9] ،ثمّ عادت سيطرة الوزداجيين عليها عام 406هـ/1016م[10] ،واهتّموا بعمرانها وبتحصينها ،حتّ أنّه عندما زارها الرحّالة والجغرافي ابن حوقل أشاد بالعمران الواسع ،وبالتحصينات المحكمة ،وبالازدهار الاقتصادي والثقافي، إذ يقول: «وإن كانت مدينة محدثة فلها سور... وماؤها من عين ماء جارية بها ،وغلاّتهم من القمح ،والشعير ،والمواشي عندهم كثيرة ،ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة

---

(1)- بنو مسقن هم من ازداجة، إحدى بطون زناتة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 252.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 24.

(3)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 353، محمد الزياني: المصدر السابق، ص 84.

(4)- يحي بوعزيز: وهران، ص 35.

(5)- البكري: المسالك والممالك، مج2، ص 253.

(6)- ويقصد بها مدينة إفكان.

(7) -*BENCHOHRA Mahdi: Op. Cit, p 19.*

(8)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 253، محمد الزياني: المصدر السابق، ص 84.

(9)- قدور إبراهيم: المرجع السابق، ص 19.

(10)- يحي بوعزيز: وهران، ص 37.

والصون من كل ريح... و عليها سور ،وماؤها من خارجها جار عليها في واد عليه بساتين ،وأجنّة كثيرة فيها من جميع الفواكه»[1].

4- خراب مدينة أذنة:

شكّلت هذه المدينة مركزا رئيسا في المرحلة الّتي تلت الفتح الإسلامي مباشرة ،فكانت قاعدة الزاب ،غير أنّ دور هذه المدينة أخذ في التراجع مع بداية القرن الثاني للهجرة ،إذ تحوّل الدور الرئيسي لمدينة طبنة ،ليتحوّل إلى مدينة المسيلة مع مطلع القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ،وقد يعزى ذلك إلى ما يحدث غالبا عند ظهور أيّ مدينة جديدة فيصاحبه تراجع واختفاء دور المدينة الأخرى.

على أنّ تراجع دور هذه المدينة لم يقتصر على اختفاء دورها في ظلّ بروز مدن جديدة بجوارها فحسب ،بل إنّ عمران هذه المدينة تعرّض أيضا إلى عمل تخريبي ،فمن المتسبّب في ذلك الخراب ،وما السبب يا ترى ؟.

- أسباب التخريب:

إنّ تخريب مدينة أذنة يدخل ضمن سلسلة الاضطرابات الّتي عرفتها منطقة المغرب الأوسط والأدنى تحت سيادة الحكم الفاطمي ،والّتي كثيرا ما كانت هذه الدولة تعمد إلى تخريب المدن في إطار قمع المتمرّدين وتأديبهم ،وإخضاعهم لسلطتها[2].

وهو ما أشار إليه الجغرافي البكري حينما تطرّق لسبب تخريب هذه المدينة بأنّه «في وقوع ميسور الفتى إلى المغرب»[3] ،وذلك في الوقت الّذي كان ميسور راجعا من حملته على المغرب الأقصى ،حيث حارب أهل فاس[4] ،وحاصر ابن أبي العافية[5].

---

(1)- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 77-78.

(2)- على غرار ما حدث في مدينة تيهرت.

(3)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 328.

(4)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 209.

(5)- وذلك في إطار حملة أرسلها القائم بأمر الله لإخضاع المغرب الأقصى للسلطة الفاطمية، وقد حاصر ميسور فاس سبعة أشهر و لم يقدر عليها، ثمّ حاصر موسى بن أبي العافية، وعند رجوعه من المغرب الأقصى عرّج على تيهرت الّتي ثار أهلها على واليها الجديد أبي مالك بن يغمراسن بن أبي شحمة سنة 323هـ/935م، و ولّوا على أنفسهم واليا جديدا اسمه أبو القاسم الأحدب، غير أنّ الوضع لم يستمر سوى سنة واحدة، إذ تمكّن ميسور الفتى من قتل أبي القاسم الأحدب، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 209، و للمزيد أنظر: موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 358.

ومع ذلك فإنّ سبب تخريب مدينة أذنة يبقى غامضا ،إذ ما علاقة حملة ميسور الفتى بتخريب أذنة؟ خاصة و أنّ من خرّب أذنة هو علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي[1] ،وليس ميسور.

و في ظلّ العوز للنص التاريخي الّذي يحدّد السبب المباشر الّذي جعل علي ابن حمدون يقدم على تخريب مدينة أذنة ،والّتي لم يظهر أهاليها أيّ تمرّد أو عصيان في وجه دولة الفاطميين ،ومع ذلك تتعرّض للتخريب ،فإنّه و على الرغم من ذلك فإنّ تخريبه للمدينة قد يعزى إلى تلك الأعمال التخريبية الّتي تقدم عليها الدولة الفاطمية —كما أسلفنا- لإخضاع المتمرّدين ،وكذا تأديب المتعاونين معهم ،خاصة إذا كنّا نعلم أنّ هذه الفترة شهدت نشاطا كبيرا لحركة خارجية تجمع إمكانياتها للثّورة ضدّ الحكم الفاطمي بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد ،الّذي كان ينتقل في هذه الفترة في منطقة الزاب لتجنيد الرجال[2] ،وشحن الهمم للنهوض في وجه السلطة الفاطمية[3] ،لذلك فإنّ علي بن حمدون قد خرّبها[4] بإيعاز من الخليفة الشيعي القائم تأديبا لتلك المناطق من إقليم الزاب[5] الّتي تنقّل فيها أبو يزيد ،حتّى لا تقدّم له يد العون في ثورته ،ولو أنّ ذلك الإيعاز لم يكن بشكل مباشر[6].

غير أنّ الجدير بالذكر أنّ مدينة أذنة كانت نهايتها على يد مؤسّس مدينة المسيلة ،الّذي خرّبها سنة 324هـ/936م[7] ،سواء بإيعاز من الفاطميين أو بمحض إرادته.

([1])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 328، الحميري: المصدر السابق، ص 20.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 52، مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 70-71.

([3])- وكان نتيجة ذلك اعتقاله من طرف عامل توزر سنة 325هـ/937م وبقي في السجن حتّى أخرجه أصحابه، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج7، ص 19.

([4])- وممّا يلفت انتباهنا أنّ تخريب هذه المدينة كان في سنة 324هـ/936م وهي السنة نفسها الّتي تمّ فيها بناء مدينة أشير على يد زيري بن مناد الذي أحضر البنّائين من المسيلة، وطبنة، وسوق حمزة، لبناء مدينته، أنظر: إسماعيل العربي دولة بني حماد، ص48، ومنه نلحظ ظاهرة متميزة في مجال العمران، وهي استحداث مدن جديدة، و في الوقت نفسه تخريب أخرى وهدمها.

([5])- لقد تعرّضت أذنة قاعدة الزاب فيما مضى، إلى غارات من طرف بعض القبائل المجاورة لها، وعلى رأسها قبيلة هوارة، وهو ما يوحي ربّما أنّ هذه المدينة لم تكن من الحصانة والمناعة ما يجعلها في منأى عن أعمال التخريب، والإغارة، و هو ما سهّل على علي بن حمدون فيما بعد عملية تخريبها، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2،ص328.

([6])- يذكر عيسى بن الذيب أنّ الخليفة القائم بأمر الله لمّا رأى استفحال أمر الثائر أبي يزيد أخذ يعدّ نفسه للوقوف أمامه، وكان من جملة الإجراءات الّتي اتّخذها توسيع ولاية علي بن حمدون على المسيلة وما جاورها، فسارع هذا الأخير لاتّخاذ احتياطاته من أجل حماية المدينة، فأقدم على تخريب مدينة أذنة، أنظر: عيسى بن الذيب: المرجع السابق، ص90.

([7])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 328، الحميري: المصدر السابق، ص 20.

و ما تجدر الإشارة إليه أيضا أنّ ابن عذاري أورد نصّا حينما يذكر حوادث سنة 324هـ/936م ،يفيد بأنّه: «و في سنة 324هـ، خرّب علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي مدينة المسيلة ،وكان بينها وبين طبنة مرحلتان»[1]. وهو بذلك ينفرد بذكر هذه الحادثة الّتي تستدعي منا الوقوف عليها.

وعليه فإنّنا لا ندري من أين استقى ابن عذاري هذه الرواية الّتي ساقها إلينا ،والّتي تحدّد أنّ المدينة الّتي خرّبها علي ابن حمدون هي مدينة المسيلة بدلا من أذنة. ويبدو أنّ ابن عذاري قد اختلط عليه الأمر ،فعوض أن يذكر أنّها مدينة أذنة ذكرها باسم المسيلة ،خاصة وأنّ المدينتين قريبتين من بعضهما البعض فأذنة على «مقربة من المسيلة بينهما اثنى عشر ميلا»[2] ،كما أنّ المسافة الّتي تفصل بينها وبين طبنة هي نفس المسافة الّتي تفصل مدينة المسيلة عن مدينة طبنة كما ذكرها ابن عذاري بقوله: «مدينة المسيلة وكان بينها و بين طبنة مرحلتان»[3] ،وهي نفسها الّتي يذكرها البكري بقوله: «ومن أذنة إلى مدينة طبنة مرحلتان»[4].

وعلى هذا الأساس نرجّح أن تكون المدينة الّتي خرّبها علي ابن حمدون هي مدينة أذنة وقد التبس الأمر على ابن عذاري الّذي ذكرها باسم المسيلة بدلا من أذنة.

وهناك احتمال آخر قد يتبادر إلى الذهن مفاده أنّ ابن عذاري اعتبر مدينة أذنة إحدى القرى التابعة لمدينة المسيلة نتيجة قرب المسافة بينهما ،والّتي لا تزيد على مرحلة[5] هذا من جهة ،ومن جهة أخرى لأنّ دور المدينة قد عرف تراجعا كبيرا في تلك الفترة لصالح مدينة المسيلة ،الّتي أحدثها علي بن حمدون[6] ،وأصبحت هي قاعدة الزاب وعلى هذا الأساس ذكر تخريب علي ابن حمدون لمدينة المسيلة ،وهو يقصد مدينة أذنة الّتي ألحقها بالمدينة الكبرى.

- **نتائج تخريب المدينة:**

نظرا لتراجع دور المدينة لصالح مدن بنيت بالقرب منها كطبنة ،ثمّ المسيلة ،ثمّ فيما بعد تعرّض هذه المدينة لذلك التخريب ،فإنّ ذلك كلّه قد أثّر على مستقبلها إذ اختفى دورها بشكل

---

(1)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 214.

(2)- الحميري: المصدر السابق،ص20،أما البكري فيقول:«بينها وبين المسيلة مرحلة»،أنظر:البكري:المصدر السابق،مج2،ص328.

(3)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 214.

(4)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 328.

(5)- المصدر نفسه، مج2، الصفحة نفسها.

(6)- الحميري: المصدر السابق، ص 20.

نهائي ،ويكفينا دليلا على ذلك ما أورده البكري بشأنها حينما يقول[1]: «وهي خالية أخربها علي بن حمدون».

وصفوة القول فإنّ للسياسة الفاطمية دورا كبيرا في تراجع دور هذه المدينة، سواء تعلّق الأمر بتخريبها ،أو بسياستها الرامية إلى إقامة مدن ،وحصون لحماية دولتها ،كما فعلت عندما أسّست مدينة المسيلة غير بعيد عن مدينة أذنة ،فأدّى ذلك إلى تحوّل مركز الزاب إلى المدينة الجديدة ،وانتهى دور أذنة بشكل نهائي.

5- خراب مدينة إمارة إفكان:

من بين المدن الّتي شيّدتها القبائل المغربية مدينة إفكان[2] هذه المدينة الّتي كانت في أوّل أمرها سوقا من أسواق زناتة ،فقام بنو يفرن ببنائها ،ومدّنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني ،الّذي باشر بناءها سنة 338هـ/950م وارتحل إليها بعد ذلك «أهل المعسكر»[3] حسبما أورده البكري.

ورغم حداثة عهد هذه المدينة فإنّ المصادر الجغرافية تصفها بأنّها مدينة عامرة ،والخيرات بها وافرة ،كما أنّها متعدّدة المرافق. فابن حوقل يصفها بأنّها «مدينة لها أرحية وحمّامات وقصور وفواكه... ذات سور من تراب في غاية الارتفاع و العرض»[4] أمّا البكري فيضيف «وعلى مدينة فكان سور طوب ،وبها جامع وحمّام وفنادق»[5].

من خلال هذه النصوص تبدو لنا مدينة إفكان في غاية الحصانة ،سواء بسورها ،أو بموقعها الطبيعي الحصين فهي تقع «في سفح جبل أوشيلاس وهو بجوفيها و لهذا الجبل شعراء غامضة»[6] ،لكن هل جنّبها هذا الموقع الحصين أيّ عمل تخريبي لعمرانها؟ خصوصا وأنّ موقعها ضمن مجال يعرف اضطرابات عدّة جرّاء الأطماع التوسعية لكل من الدولة الفاطمية والأموية من جهة ،ومن جهة أخرى بين قبيلة زناتة -التي تراوح ميولها بين الفاطميين حينا و الأمويين أحيانا أخرى- وقبيلتي صنهاجة وكتامة المواليتين لدولة الفاطميين.

---

(1)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 328.

(2)- وردت في المصادر بعدة ألفاظ منها: إيفكان، إفكان، فكّان، آفكان.

(3)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 262، ابن خلدون: العبر، ج7، ص 24، محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 222.

(4)- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 88.

(5)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 263.

(6)- المصدر نفسه، ج 2، الصفحة نفسها.

وللإجابة على ذلك نقول أنّ إفكان لم تكن بالحصانة الكافية الّتي تمكّنها من الصمود في وجه أيّ قوة زاحفة إليها ؛ذلك أنّ هذه المدينة تمّ إخضاعها لسلطة الفاطميين سنة 347هـ/58-959م[1] إثر زحف الجيش الفاطمي عليها بقيادة جوهر الصقلي[2] ،والذي لم يكتف بدخول المدينة وإخضاعها بل تعدّاه إلى تخريب جزء من عمران المدينة. فما أسباب هذه الحملة يا ترى؟

- **أسباب الخراب:**

يستمرّ الصراع الفاطمي مع فروع القبائل الزناتية في منطقة المغرب الأوسط ،وكان لذلك الصراع أثر على عمران مدن المنطقة ،إذ كانت مدينة إفكان هذه المرّة أحد المدن الّتي تتعرّض للتخريب نتيجة ذلك الصراع.

و عن سبب تخريبها يتّفق المؤرّخون على أنّ المعز لدين الله الشيعي سيّر قائده جوهر الصقلي في حملة إلى المغرب الأوسط والأقصى سنة 347 هـ/58-959م لإخضاع المنطقة للسلطة الفاطمية بعد تمرّد حكّام مدن المغربين عن سلطتها وولائهم للأمويين بالأندلس ،وكان وقتئذ على تيهرت وإفكان يعلى بن محمد اليفرني[3] ،فبلغ الخليفة المعز سنة 347هـ/58-959م بأنّ يعلى بن محمد اليفرني داخل الأموية »وأنّ أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة»[4] وبذلك سيّر المعز جوهر الصقلي في حملة إلى المغرب[5] ،فسار جوهر وفي طريقه اصطحب معه جعفر بن علي صاحب المسيلة ،وزيري بن مناد صاحب أشير و قصد تيهرت[6].

([1])- تقي الدين المقريزي: كتاب المقفى الكبير (تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية)، تح، محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1407هـ-1987م، ص 328.

([2])- هو جوهر بن عبد الله القائد الصقلي الرومي، مولى المعز لدين الله، ولد سنة 312هـ/924م بجزيرة صقلية، صار إلى ملك غلام لهم يقال له صابر، حتّ صار إلى الخليفة المنصور بالله الّذي حمله إلى ابنه المعز لدين الله، فربّاه، ورقّاه في الخدم، حتّ بلغ مرتبة الوزارة، وقائد الجيوش، حتّ تمكّن من فتح القاهرة، توفي سنة 381هـ/991م، أنظر: المقريزي: المقفى الكبير، ص327، وللمزيد أنظر: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 16، تح، شعيب الأرناؤوط و أكرم البوشي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1404هـ-1984م، ص 467، و للمزيد أكثر أنظر: حسن إبراهيم علي: تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963، ص 09-11.

([3])- محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظلّ صنهاجة، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 32.

([4])- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 59، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 547، مختار حساني: «الصراع بين الأمويين والفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي»، دبلوم الدراسات المعمّقة في التاريخ الإسلامي، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، 1977- 1978، ص 50.

([5])- حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: المعز لدين الله، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964، ص 31.

([6])- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 170، حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: المعز لدين الله، ص 31.

- **خراب المدينة:**

ما إن نزل جوهر الصقلي مدينة تيهرت حتّى لقيه بها[1] يعلى بن محمد اليفرني في جيش عظيم من زناتة[2] ،حيث التحمت الحرب بينهما ،واشتدّ القتال، فعمد جوهر الصقلي إلى توزيع الأموال والهدايا على زعماء كتامة مقابل الفتك بيعلى بن محمد ،فتمكّنوا من قتله ،وجاؤوه برأسه وهزم بنويفرن[3] ،وتفرّق جمعهم[4].

ولم يكتف جوهر الصقلي بالفتك بيعلى بل تتبّع الفارّين من أصحابه إلى مدينة إفكان «فدخلها بالسيف ونهبها ،ونهب قصور يعلى...وأمر بهدم إفكان وإحراقها بالنّار»[5] ،ويضيف ابن خلدون قائلا: «وخرّب إيفكان وآسر ابنه يدو بن يعلى»[6] وفي موضع آخر «وخرّب جوهر مدينة إيفكان ،وفرّت زناتة أمامه»[7]. وحتّى المقريزي فقد تطرّق هو الآخر إلى ذلك التخريب الّذي ألحقه جوهر بمدينة إفكان إذ يقول: «وحارب قوما ،وافتتح مدنا ،ونهب وأحرق»[8]. في حين نجده في موضع آخر يزيد على ما ذكره بقوله: «حتّى بلغوا بهم إفكان والسيف يعمل فيهم فدخلوا إفكان بالسيف فقتل أكثر أهلها ،ونهب كل ما فيها ،وأسر ابنه يدو بن يعلى»[9] ،ثمّ هدمت إفكان وحرقت بالنّار[10] ،وقد حدثت تلك الأعمال التخريبية بتاريخ يوم الاثنين جمادى الأولى 347هـ/جويلية 959م[11].

([1])- هناك من ذكر أنّه لقيه على مقربة من تيهرت، وليس في المدينة نفسها، أنظر: محمد الزياني: المصدر السابق، ص 85.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج4،ص59، الناصري السلاوي: المرجع السابق،ج1، ص86، لخضر سيفر: المرجع السابق، ص178.

([3])- محمد الزياني: المصدر السابق، ص 85-86، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 547.

([4])- للمزيد من التفاصيل حول قتال جوهر الصقلي ليعلى اليفرني، و وقائع الفتك به، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص 261، ابن خلدون: العبر، ج4، ص 59، محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 229-230.

([5])- ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص 261.

([6])- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 59.

([7])- المصدر نفسه، ج7، ص 25.

([8])- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 170.

([9])- هو يدو بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، توفي سنة 383هـ/933م، أنظر: زامباور: المرجع السابق، ص 113.

([10])- المقريزي: المقفى الكبير، ص 328.

([11])- هناك من المؤرّخين من يذكر أنّ جوهرا لم يلق يعلى عند ذهابه للمغرب وإنّما لقيه عند إيّابه منه، أنظر: محمد الزياني: المصدر السابق، ص 86.

من خلال هذه النصوص التاريخية يبدو لي أنّ سياسة المعز في حروبه ضدّ الموالين للأمويين في المغرب الأوسط وحتىّ الأقصى قد تميّزت بالقسوة والشدّة ،ويعتبر جوهر الصقلي سيفه البتّار فإذا كان قد بالغ في القتل والتنكيل بخصومه ،ونهب أموالهم ،فإنّه لم يتورّع أيضا عن تخريب المدن و هدمها ،وحرقها بالنّار ،مثل ما حلّ بمدينة إفكان.

و عليه فإنّ مدينة إفكان لم تعمر سوى تسع سنين من بنائها وتمدينها ،حتىّ تعرّضت للخراب ،والحرق والتدمير بسبب الصراعات والحروب الّتي لم ينج منها لا البشر ولا العمران.

و حول مصير هذه المدينة بعد حادثة التخريب ففي الوقت الّذي نجد صاحب الاستبصار يذكر أنّ هذه المدينة خرّبت ثمّ تمّ بناؤها وإعمارها بإيعاز من حكّام الأندلس الأمويين[1] ،نجد أنّ محمد الزياني صاحب دليل الحيران وأنيس السهران يرى رأيا آخرا مخالفا لما سبق بقوله: «ثمّ ذهب جوهر مغربا ومرّ بمدينة إيفكان...فخربّها فلم تعمر من ذلك الوقت»[2]. ومنه فقد يكون نجم هذه المدينة قد أفل جرّاء ذلك التخريب ،وحتىّ وإن عمّرت فإنّها لم تبلغ مصاف المدن الكبرى في الفترة الّتي تلت خرابها.

و في الأخير فإنّني أقول أنّ هناك مدنا عدّة في أرض المغرب الأوسط تعرّضت للتخريب والحرق والهدم ،نتيجة السياسة الفاطمية التوسّعية ،وصراعها مع القبائل الزناتية الثائرة والطامعة أيضا في السيطرة والتوسّع ،والاستقلال بمنطقة المغرب الأوسط عن الحكم الشيعي بكل ما أمكن ،مستغلة الدعم الأموي بالأندلس. وإن كان ذلك هو الحال ،فإنّنا نتساءل هل اقتصرت ظاهرة تخريب المدن على ما نتج عن تلك السياسة التوسّعية الشيعية؟ أم أنّ هناك مدنا أخرى كان مصيرها الخراب أيضا في فترة الحكم الشيعي ،ولكن ليس بأيدي شيعية؟.

6- ثورة أبي يزيد ضد الفاطميين و خراب المدن:

بعد وفاة الخليفة الشيعي عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب سنة 322هـ/934م خلفه ابنه القائم بأمر الله على عرش الخلافة الفاطمية بالمهدية ،إلاّ أنّ فترة خلافة هذا الأخير عرفت حدثا بارزا ،تمثّل في قيام ثورة قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري ضدّ الفاطميين، فما الأسباب الّتي دعته للقيام بها؟ ،وما انعكاساتها على مدن المغرب؟ ،وأيّ مدن مسّها الخراب جرّاء ذلك؟

(1)- مجهول: الاستبصار، ص 135.

(2)- محمد الزياني: المصدر السابق، ص 86.

أ- أسباب الثورة:

إنّ البحث في أسباب ثورة أبي يزيد[1] النكاري [2]يستدعي منّا ضرورة الوقوف على بحث العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدّينية الكامنة وراء هذه الثورة ،والّتي شجّعت قائدها على القيام بها في وجه دولة الفاطميين ،وإن كان هذا ليس مجال بحثنا فإنّنا سنقتصر على بعض منها ،حتّى نفهم طبيعة هذه الثورة الّتي تسبّبت في خراب المدن كالقيروان وباغاية وباجة وغيرها من المدن. ونوجز بعضها فيما هو آت:

- كان لعامل إسقاط الفاطميين للدولة الرستمية حاملة لواء المذهب الإباضي دورا كبيرا في تأجيج نار العداء بين الشيعة و الإباضية[3] ،فكان الإباضيون يتحيّنون أيّ فرصة سانحة للثورة ضدّ الفاطميين انتقاما لدولتهم ،وانتصارا لمذهبهم ،الّذي يختلف كثيرا عن مذهب الشيعة ،فأعلنت الثورة ضدّ الفاطميين[4] ،بعدما تمكّن أبو يزيد من القضاء على الانشقاقات الّتي كانت بين الإباضية أنفسهم[5].

(1)- هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن معيث بن كرمان بن عثمان بن ورينت بن جونيفر بن سميدان بن يفرن بن جانا، وهو من بني واركو، من بطون بني يفرن من زناتة، ولد بمدينة كوكومن امرأة هوارية حينما كان والده تاجرا في بلاد السودان، ولّما عاد به إلى مدينة توزر تعلّم بها القرآن وحفظه، وخالط النكارية وتأثّر بهم، وعكف على دراسة الفقه الإباضي، وأنشأ مدرسته في توزر لتعليم الصبيان، ثمّ انتقل بعدها إلى تيهرت، وامتهن تعليم الصغار القرآن، ثمّ انتقل إلى تقيوس، وبها بدأ يدعو للثورة ضدّ الشيعة سنة 316هـ/928م، بالدعوة إلى استباحة أموالهم، والخروج على سلطانهم، فاجتمع النّاس حوله، ولمّا بلغ خبره الخليفة القائم أرسل إلى عامله على قسطيلية بالقبض عليه، فسجنه واستطاع أصحابه تخليصه من السجن، فزار وارجلان سنة 325هـ/936م، وتنقّل بين مدينة المسيلة و وادي أريغ وبلاد الزاب لتجنيد الرجال، ومرّ بمرمجانة كذلك، ثمّ عاد إلى أوراس صحبة شيخه أبي عمار سنة331هـ/942م، أين أخذت البيعة على قتال الشيعة، أنظر: مجهول: الاستبصار،ص205-206، ابن خلدون: العبر، ج4، ص 52، وللمزيد أنظر: عبد العزيز المجذوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم، علي الشابي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ت)، ص 199.

(2)- نسبة إلى النكار، وهم الّذين أنكروا إمامة الإمام عبد الوهاب الرستمي، لّما اشترط زعيمهم يزيد بن فندين عند مبايعة الإمام عبد الوهاب، أن لا يقضي هذا الأخير في شيء دون مشورة جماعة مخصوصة، إلاّ أنّ البيعة تمّت، فأصرّ ابن فندين على موقفه، وحاول الثورة، لكنّه ذهب ضحيّتها، وسمي أتباعه بالنكار، أنظر: صالح بن عمر أسماوي: العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، الحلقة الأولى، ط1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1426هـ-2005م، ص 168.

(3)- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 72.

(4)- ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تح، عبد الرحمن الحجي، (د.ط)، نشر و توزيع دار الثقافة، بيروت، 1965، ص 192، كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية...، ترجمة، بدر الدين القاسم، ط1، دار الحقيقة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1972، ص 276.

(5) -*LAROUI Abdallah : Op. Cit, p 120.*

- سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لعامّة سكّان المغرب نتيجة السياسة المالية الّتي انتهجها عبيد الله المهدي ،واقتفى أثره فيها بقية الخلفاء الشيعيين ،فقد وضعوا خطة مالية جديدة بالمغرب لتدعيم أسس النّظام الشيعي فيه ولتحقيق الأهداف الكبرى التوسّعية ،والّتي تتطلّب موارد مالية كبيرة تتعدّى حتّى ما تنصّ عليه أصول المذهب الشيعي[1] ،ناهيك عن أصول السنّة الصحيحة ،وبذلك فقد عمدوا إلى مصادرة الأموال ونهبها معتمدين خلق الذرائع لتحقيق ما يصبون إليه[2].

وإذا كانت بعض النصوص الشيعية أنكرت ذلك على غرار القاضي النعمان ،الّذي لا يقتنع بالسبب الذي اتخذه أبو يزيد لإعلان ثورته ضد الفاطميين بحجّة الضرائب المجحفة الّتي فرضها الشيعة على أهل المغرب ،والمخالفة للنصوص الشرعية ،بقوله: «وبمثل هذا احتجّ علينا الدجّال البربري مخلد بن كيداد الّذي قام علينا محتسبا بزعمه»[3] ،فإنّنا نجد أحد المؤرّخين السنّيين وهو ابن عذاري عندما يتحدّث عن أحداث سنة 307هـ/919م ،يذكر: «وفي سنة 307هـ كان بإفريقية وما والاها إلى مصر طاعون شديد ،وغلاء سعر ،مع الجور الشّامل من الشيعة والتعلّل على أموال النّاس في كلّ جهة»[4]. ومنه فإنّه وبسبب هذه السياسة الضريبية المفروضة على الرعيّة[5] فقد اندفع النّاس للانضمام لحركة أبي يزيد الثورية.

- سوء السياسة الدّينية الّتي اعتمدها الفاطميون لنشر المذهب الشيعي ،والّتي جانبت العدل والمساواة بين الرّعية على اختلاف مذاهبها ،بل لجأوا إلى السيطرة بالقوة[6] ،وإجبارهم على

---

(1)- تذكر إحدى الدراسات أنّ الشيعة لم يبرعوا في نشر مذهبهم، نتيجة سياستهم المجحفة، والمعتمدة على القوة، فكان للمذهب الخارجي دور في اختفاء المذهب الشيعي، أنظر: محمد الناصري:«عوامل اختفاء المذهب الإسماعيلي من إفريقية الشمالية»، مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الأولى، وزارة عموم الأوقاف،الرباط، المغرب، 1377هـ-1958م، ص32.

(2)- الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 73.

(3)- القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، تح، الحبيب الفقي، وآخرون، ط1، دار المنتظر، بيروت، لبنان، 1996،ص 336.

(4)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 181.

(5) -*DIEHL Charles et MARÇAIS Georges: Histoire du moyen âge, Tome 03, les presses universitaires de France, Paris, 1936, p 429.*

(6)- تواصل العداء بين أهل السنّة والشيعة حتّى بعد انتقالهم إلى المشرق، حيث نشبت بينهم فتن وحروب، سفكت من ورائها دماء كثيرة، وحرقت دور ومساجد وغيرها، أنظر: علال خالد كبير: صفحات من تاريخ أهل السنة والجماعة ببغداد (200-500هـ/815-1106م)، (د.ط)، مطبعة هومة، الجزائر، (د.ت)، ص 60 وما بعدها، و للمزيد أنظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة، ج1، ترجمة، عبد الهادي أبوريدة، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1377هـ-1957م، ص 371.

الاعتقاد بمبادئ المذهب الشيعي غصبا[1] ،وإغراء بالمال ،ووصل الأمر بهم حتّ إلى القتل والتنكيل بالعلماء القيروانيين السنّيين ،وخاصة أصحاب مذهب مالك بن أنس[2] الّذين عذّبوا و قتّلوا أبشع قتل ،فكان ذلك الوتر الحساس الّذي ضرب عليه أبو يزيد مخلد ،ونجح في استمالة أهل السنّة وفقهاء المالكية وانضمامهم لثورته ،لأنّهم اعتبروها أملا وحيدا في الخلاص من حكم الشيعة ،ومن ثمّ بطشهم بهم[3].

وعليه فإنّ هذه السياسة الفاطمية الّتي سعى من ورائها خلفاؤها إلى التمكين لأنفسهم بالقوة و العنف واضطهاد العلماء ،والتفنن في أشكال العذاب المسلّط عليهم ،قد أتاحت الفرصة لظهور حركة سياسية ثورية مذهبية تزعّمها أبو يزيد النكاري ،والّتي كان لها آثار سلبية على العمران ،حيث خرّبت مدنا ،وأحرقت أخرى.

ب- المدن الّتي خرّبها في طريقه إلى القيروان[4]:

بعدما أخذت البيعة لأبي يزيد على قتال الفاطميين سنة 331هـ/942م ،واستباحة أموالهم ،واتّفقوا إن هم انتصروا ،واستولوا على القيروان و المهدية أن يصبح الأمر بينهم شورى ،فسار أبو يزيد بجيشه نحو القيروان ،وكان في طريقه يفتتح المدن و يخرّبها[5]. ومن هذه المدن نذكر:

- **مدينة باغاية:**

كانت أوّل المدن الّتي استهلّ بها عهده وافتتحها هذا الثائر ،هي مدينة باغاية سنة 332هـ/43-944م ،حيث هزم جيش عاملها ،واستباح قصورها ،ثمّ حاصرها مرة ثانية. بيد أنّه

---

(1)- علياء هاشم المشهداني: «فقهاء المالكية دراسة في علاقاتهم العلمية في الأندلس والمغرب حتّ منتصف القرن السادس للهجرة الثاني عشر الميلادي»، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية، جامعة الموصل، 1423هـ-2003م، ص 140.

(2)- توفي سنة 179هـ/795م، وحول حياته أنظر: عياض القاضي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج1، تح، أحمد بكير محمود، (د.ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1387هـ-1967م، ص 111، أبو الفرج ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج2، تح، محمود فاخوري، ط2، مكتبة النهضة الجديدة، القاهرة، 1390هـ-1970م، ص 180.

(3)- إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، ط1، دار الرسالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1422هـ-2002م، ص 448-449، سليمان بن الحاج داود: ثورة أبي يزيد جهاد لإعلاء كلمة الله، ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1402هـ-1981م، ص12.

(4)- أنظر: الملحق رقم: 18.

(5)- محمد الأندلسي الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج1، القسم الرابع، تقديم، محمد الهيلة، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ص 900.

هزم ،ولكن ذلك لم يثن من عزيمته عن المضيّ قدما لتحقيق هدفه المنشود ،حتّ ولو على حساب عمران المدن ،فواصل سيره حتّ وصل مدينة تبسة[1].

- **مدينة تبسة ومجانة:**

لقد أشار ابن خلدون إلى أنّ دخول أبي يزيد كل من مدينة تبسة ومجانة كان صلحا[2] ،غير أنّ ثلة من المؤرّخين قد خالفوه في ذلك وذهبوا إلى أنّ دخولها تمّ عنوة. إذ يذكر كل من المقريزي وابن الأثير «ثمّ فتح تبسة ومجانة وهدم أسوارها»[3]. وعليه لم تسلم أسوار المدينتين من الهدم والتخريب من طرف جيش أبي يزيد في طريقه إلى عاصمة الفاطميين ومقر سلطانهم ،ليواصل بذلك أسلوبه التخريبي للمدن وأسوارها.

- **مدينة سبيبة و الأربس[4]:**

ما إن تمكّن أبو يزيد من دخول تبسة ومجانة حتّ أرسل جيشه إلى سبيبة فدخلها وقتل عاملها[5]. أمّا مدينة الأربس فكان قد دخلها ،وفرّ الجيش الكتامي الّذي كان عليها فأحرقها أبو يزيد ،ونهبها[6] ،ويضيف المقريزي أنّه «أحرقها ،ونهبها ،والتجأ النّاس إلى الجامع فقتلهم فيه»[7].

- **مدينة باجة:**

بعد هذه الانتصارات المتتالية الّتي حقّقها أبو يزيد اشتدّت شوكته ،خاصة في عام 333هـ/944م ،فأصبح يغير على المدن فينهب يحرق ويسبي[8] ،عندئذ أيقن القائم بأمر الله أنّ الخطر يداهمه ،وقد يهدّد حتّ عاصمته المهدية ذاتها ،حينها جهّز الجيوش وأرسلها إلى كلّ من رقادة والقيروان بقيادة القائد ميسور الخصي ،وفي نفس الوقت أرسل جيشا آخر إلى باجة ،بقيادة

([1])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص19 ،محمد بن عميرة: «تاريخ الحركة النكارية» ،مجلة التاريخ،العدد21،المركز الوطني للدراسات التاريخية،الجزائر،1986،ص49.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 52، البشير غانية: المرجع السابق، ص 423.

([3])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 189، سامية مصطفى مسعد: العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، (د.ط)، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، 2006، ص 69.

([4])- هي مدينة قديمة البناء، تقع على الطريق بين القيروان وقلعة بني حماد، تسكنها قبائل بربرية، وترد هذه المدينة عند البكري بأنّها مدينة كثيرة الأنهار، والعيون والثمار، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 227.

([5])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 189، ابن خلدون: العبر، ج4، ص 52، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 157.

([6])- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 52، الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص 272.

([7])- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 157.

([8])- علي بن الحسن المسعودي: كتاب التنبيه والإشراف، (د.ط)، طبع بمدينة ليدن مطبعة بريل، 1967، ص334.

فتاه بشرى ،إلاّ أنّ هذا الأخير انهزم أمام جيوش أبي يزيد الّذي دخلها فنهبها ،وأحرقها ،وقتل الأطفال ،وسبى النساء. ورغم أنّ بشرى قد بعث بجيش للمرّة الثانية من تونس ،الّذي استطاع في البداية أن يحقّق انتصارا، إلاّ أنّ قوة إرادة أبي يزيد ورباطة جأش جيشه أرهبتهم ،فولّوا مدبرين منهزمين ،فطلب أهل تونس[1] حينئذ الأمان من أبي يزيد فأمّنهم ،وذلك بعد الفتنة الّتي وقعت في تونس ،حيث نهبت دار عامل المدينة[2].

وعن الأفعال الشنيعة الّتي ارتكبها أبو يزيد في حقّ أهل باجة[3] وعمرانها ،يذكر الداعي إدريس أنّه دخل باجة بالسيف ،فأحرق دورها «وأقام يقتل فيها ثلاثة أيام»[4].

ومنه و من خلال انتصارات أبي يزيد ،وافتتاحه للمدن الّتي يعمد في كلّ مرّة إلى أسلوب تخريبها وحرقها[5] ،زيادة إلى إسرافه في القتل والسبي ،فإنّ الطريق أصبح مفتوحا أمامه لدخول القيروان وأرباضها ،ومنه عاصمة الشيعيين المهدية ،فاتّجه أبو يزيد نحو القيروان. فكيف كان وقع جيوشه على عمرانها يا ترى؟.

ج- خراب القيروان:

بعد ما دخل أبو يزيد مدينة باجة وخرّبها ،ودخل تونس وأمن أهلها ،وولّى عليهم عاملا من قبله ،قام في ظلّ هذه الظروف الخليفة القائم بإرسال قائد جيشه بشرى لقتال أبي يزيد مرّة أخرى ،حيث نجح هذا نجح في إلحاق هزيمة بجيش أبي يزيد النكاري[6].

([1])- كانت قديما قرية بربرية على ضفاف البحر، تعرف باسم أفريكا، وهي بجوار قرطاج العظيمة في العهد البونيقي، ثمّ تحوّلت هذه المدينة منذ أوائل القرن الثامن إلى قلعة حصينة، ينطلق منها المسلمون الفاتحون لفتح المناطق المجاورة، وبذلك أخذت تونس بعد الفتح مكانة دفاعية إستراتيجية، فقد ورثت مزايا مدينة قرطاج، وهي لا تبعد كثيرا عن البحر، وقد أقام فيها حسّان بن النعمان دارا للصناعة وبناء السفن ،وظلّت ذات أهمّية ثانوية قياسا بالقيروان أو المهدية ،حتّى أواسط القرن11م،أين أصبحت قاعدة لولاية إفريقية تابعة لخلفاء الدولة الموحدية ،ثمّ غدت عاصمة للحفصيين ،أنظر: الحموي: المصدر السابق،مج5، ص60-61 ،وللمزيد أنظر: محمد بن عبد الله ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،ج2 ،ط1،المطبعة الخيرية ،1322هـ-1903م ،ص216 ،وللمزيد أكثر أنظر: الدولاتي: المرجع السابق ،ص 184.

([2])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 190، ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 53.

([3])- مدينة عتيقة بناها الرومان، تقع على نحو25 ميلا من البحر، و8 أميال من تونس، وهي مدينة كبيرة، محصّنة، تمتاز بكثرة الأنهار، أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 160، و للمزيد أنظر: الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 66.

([4])- الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص 277.

([5])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 216، إحسان عباس: «مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد»، مجلة الأصالة، العدد 60-61، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1978، ص 65.

([6])- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 53.

ولّما رأى أبو يزيد ما حلّ بجيشه ساءه الأمر ،وغضب لذلك ،فجمع أصحابه ،وسار بهم لقتال الجيوش الفاطمية ،وتمكّن من هزيمتها ،وطاردهم إلى رقادة ،واختار موضعا قرب القيروان في الجهة الغربية ونزل فيه بجيوشه ،ثمّ عاد إلى رقادة. وإن لم تذكر المصادر التاريخية أنّ أبا يزيد قد خرّب هذه المدينة أم لم يخرّبها فإنّ ابن خلدون يذكر أنّه نزلها في مائتي ألف مقاتل فهزمها وعاث فيها فسادا[1].

ثمّ وجّه أحد رجاله على رأس جيش كبير إلى القيروان فدخلها وملكها «في صفر سنة ثلاث وثلاثين»[2]، دون أن يلقى أيّ مقاومة تذكر من عاملها خليل بن إسحاق. ومع ذلك قام أبو يزيد بقتله. وكان لتهاونه وتقاعسه في الدفاع عن مدينته أن سهّل على أبي يزيد مهمّة دخول المدينة[3].

وعلى الرغم من أنّ هذه المدينة لم تبد أيّ مقاومة لهذا الثائر إلاّ أنّه لم يتورّع عن تخريبها والإفساد فيها ،إذ يذكر المؤرّخون أنّه لّما «دخل البربر المدينة فقتلوا وأفسدوا»[4] ،وأخذ رجاله ينهبون ويسبون البنات والنساء «ولم يرفع البربر أيديهم عن أهل القيروان وما زالوا يسبون وينهبون ويفتضون الأبكار»[5]. ويضيف ابن عذاري «ودخل إفريقية، وخرّب مدنها ودوّخها وقتل من أهلها ما لا ينحصر»[6] ،فاضطّربت أحوال القيروان ،وفزع النّاس وهلعوا ،واحتمى النساء بالمساجد ولم يشفع ذلك لهم إذ دخل عليهم رجال أبي يزيد «فافتضوا في المسجد الأبكار من البنات»[7] ،وأكثر من ذلك فقد كانوا «للجرأة على الله يرمون الأطفال في الهواء ثمّ يتلقّفونهم بالسيوف»[8].

([1])-ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 190ابن خلدون: العبر، ج4، ص 53.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1،ص218، ابن خلدون: العبر، ج4،ص53، روجي إدريس:المرجع السابق، ج1، ص48.

([3])- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 76.

([4])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 191.

([5])- الداعي إدريس القرشي: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب (المهدي القائم- المنصور- ثورة أبي يزيد) من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار، ج5،تح، فرحات الدشراوي، (د.ط)،مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل، تونس،1981،ص103-104.

([6])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 216.

([7])- الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص 277.

([8])- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ولّما اشتدّت الوطأة على القيروان وكثر القتل التخريب والفساد ،خرج إليه شيوخ القيروان وطلبوا منه الأمان فماطلهم ،وهم يتردّدون إليه ويشكونه ما حلّ بمدينتهم ،وإفساد رجاله فيها ،ورغم ذلك لم يتوقف رجاله عن النهب والتخريب ،إذ لّما شكوه وقالوا له: «خرّبت المدينة» ردّ عليهم بقوله: «وما تكون؟ خرّبت مكة والبيت المقدس؟»[1]، ثمّ بعد ذلك أمّن أهل القيروان «ورفع النهب عنهم»[2]. كما تمكّن من هزم الجيش الفاطمي الّذي أرسله القائم بأمر الله[3] لقتال أبي يزيد بقيادة ميسور ،وقتل في ذلك هذا الأخير ،وممّا تجدر الإشارة إليه أيضا هو انضمام شيوخ القيروان من أهل السنة المالكية[4] إلى أبي يزيد ،خصوصا وأنه أظهر الترحّم على أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما- وحثّ على قراءة مذهب مالك ،والاستناد في تطبيق قواعد الشرع على الكتاب والسنّة ،والدعوة للتكتّل لقتال الشيعة[5] ،ولذلك أعانه فقهاء المالكية[6] ،ودعوا للتجنّد للثّورة وجهاد الرافضة[7].

وهكذا فقد حقّق أبو يزيد انتصارات باهرة على الدولة الفاطمية ،ولو على حساب العمران ،واستطاع الاستيلاء على أغلب مدن المغرب الأدنى[8] ،إذ كان يفتتح المدن و يخّرب البلاد[9]. و لم

(1)- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 158.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 53.

(3)- يقول عنه الذهبي: «وكان القائم شرا من أبيه المهدي زنديقا ملعونا»، أنظر: شمس الدين الذهبي: تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والأعلام، ج5، تح، عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1413هـ-1992م، ص 31.

(4)- يذكر أحد المؤرّخين أنّ الونشريسي علّل غلبة المذهب المالكي في المغرب، كانت لّما تولّى القضاء سحنون سنة 234هـ/849م، ومنع الفتوى بغير مذهب مالك، واقتدى به جميع القضاة، وأهل الفتوى في معظم أنحاء المغرب، فصاروا يمنعون الإفتاء بغير المذهب المالكي، ويؤدّبون على ذلك، أنظر: كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، (د.ط)، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1996، ص 94.

(5)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 427.

(6)- أعانوه أيضا نتيجة لما لحقهم من أذى، من طرف الشيعة، وتقييد للحريات وتكميم أفواه العلماء، للمزيد من التفاصيل حول محنة المالكية، أنظر: عزيزة عكوش: «أصول الفتيا للإمام ابن حارث الخشني (المتوفى حوالي 371هـ)»، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، الجزائر، 1422هـ-2001م، ص 42-43.

(7)- سمّوا بذلك لأنّهم رفضوا أبا بكر وعمر، ويفضّلون عليا على عثمان، ولهم غلّو شديد في علي–رضي الله عنهم-أنظر: شهاب الدين أحمد ابن عبد ربه:العقد الفريد،ج2،تقديم، خليل شرف الدين،ط2،دار مكتبة الهلال، بيروت، 1990،ص 101.

(8)- القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص 214، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 100.

(9)- التجاني: المصدر السابق، ص 324.

يكتف بما حقّق بل أصبح يبعث السرايا إلى جميع النواحي لإخضاعها ،ويقول في ذلك القاضي النعمان: «وسار يطوي للبلاد يزيد إليه أهل الفساد والعدوان»[1].

د-خراب مدينة سوسة:

لّما دانت القيروان لأبي يزيد ،وخرّب جنوده عمرانها، و أفسدوا فيها ،سعى للاستيلاء على ما بقي من مدن المغرب الأدنى وعلى رأسها المهدية ،وكان قبل المسير إليها يرسل حملات عسكرية على المدن لإخضاعها ،فبعث جيشا إلى مدينة سوسة[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وسرّح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقتحموها عنوة ،وأكثروا من القتل و المثلة وعظم القتل بنواحي إفريقية ،وخلت القرى والمنازل ومن أفلته السيف أكمله الجوع»[3]. كما أحرق المدينة و تفنّن في البطش بأهلها ، فعل فيها كل الشنائع من تخريب ،وقتل وسبي[4].

و يبدو من خلال سياسة أبي يزيد في دخوله للمدن و تخريبها ونهبها ،أنّه كلّما ازدادت انتصاراته كلّما ازدادت أضراره على المدن من تخريب حرق أكثر ،وكأنّه يسعى للقضاء على الوجود الفاطمي من أرض المغرب بسفك دمائهم ،واقتلاع آثارهم المادية بتخريبها وحرقها ،والإفساد فيها ،فما خرّبه في القيروان زاد عليه في سوسة. وهو ما ساقه الداعي إدريس القرشي حينما قال: «ودخل البربر مدينة سوسة بالسيف وانتهبوها وقتلوا رجالها ،وسبوا نساءها وأخربوا منازلها ،وقتلوا من بقي من الرجال في سائر الكور والمنازل وعذّبوهم بأنواع العذاب الّتي لم يسمع بمثلها في الأمم ،مثل قطع الأعضاء، وتشويه الخلق ،وبقر البطون ،وشقّ الفروج...» [5].

هـ-حصار مدينة المهدية:

بعد تخريب كلّ من مدينتي القيروان وسوسة اقترب صاحب الحمار بجيشه من مدينة المهدية وعسكر على بعد أميال منها بجنده[6].

([1])- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 202.

([2])- مدينة كبيرة عتيقة، بناها الرومان على ساحل البحر الرومي على بعد 40 ميلا من تونس، تحيط بها الأسوار من كلّ جانب، ولها ثمانية أبواب، و حولها آثار عظيمة للأوائل، وهي غنية بالثمار، وكثيرة الأسواق، ومشهورة بجوامعها وحدائقها، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص207، وللمزيد أنظر: الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص84.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 21.

([4])- التجاني: المصدر السابق، ص 27.

([5])- الداعي إدريس: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، ص 107-108.

([6])- التجاني: المصدر السابق، ص 324.

و في سنة 333هـ/44-945م أمر القائم بحفر خندق على أرباض المهدية لمّا استشعر أنّ الخطر بات يحدق بعاصمته المهدية ،كما أرسل الكتب لصنهاجة وكتامة يستنفرهم لقتال أبي يزيد ،وما إن علم بذلك أبو يزيد حتّ بعث عيونه إلى المهدية فانتهبوا ما وجدوه ناحية المهدية[1] قتلوا من أصابوا[2] ،وانشغلوا بالسلب والنهب والتخريب ،فخرج إليهم جيش القائم في جمادى الأولى سنة 333هـ/944م ،والتقى الجيشان بمكان يعرف بسوق الأحد[3] ،وانهزم جيش كتامة ،فطاردهم جيش أبي يزيد حتّ وصلوا باب الفتح، ثمّ أعاد الكرّة في جمادى الأخيرة ووصل حتّ مصلى العيد ،الّذي بينه و بين المهدية رمية سهم[4].

واشتدّ حصار أبي يزيد على المهدية، بشنّ حملاته العسكرية عليها واحدة تلو الأخرى ،ورغم أنّ اقتحام المهدية قد تعذّر عليه إلاّ أنّه ضيّق عليها ،وأصبح من الصعب الدخول إلى المدينة والخروج منها ،فانتشر الجوع وغلت الأسعار ،ففتح القائم الأهراء الّتي صنعها المهدي ،ووزّع ما فيها من خيرات على رجاله ،ولكنّه لم يكن كافيا، إذ خرج النّاس من المهدية لشدّة الجوع ،حتّ قيل إنّهم أكلوا الدواب والميتة[5]. أمّا مصير الخارجين من المهدية فيورد ابن حماد تفاصيله بقوله: «كان أصحابه البربر يقتلون كلّ من ظفروا به من النّاس كائنا من كان عيثا عبثا ،خاصة من خرج من المهدية عند حصارهم إيّاها فرارا من الجوع والحصار ويشقّون بطونهم أحيانا فتشا عن المال ،وتوهما (منهم أنّهم) ابتلعوه»[6]،ويضيف الداعي إدريس أنّهم «كانوا يشقّون بطون الرجال وأرحام النساء يطلبون الخبايا من الدنانير والدراهم»[7].

وأمّا عساكر أبي يزيد فقد تفرّقت أيضا للتخريب والسبي والنهب حتّ أنّ ابن الأثير يذكر أنّهم «يأتون إلى أبي يزيد من كلّ ناحية وينهبون ،ويقتلون ،ويرجعون إلى منازلهم ،حتّ أفنوا ما بإفريقية ،فلمّا لم يبق ما ينهب توقّفوا عن المجيء إليه»[8].

([1])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 192.

([2])- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 158.

([3])- يحدّد مكان المعركة ابن عذري بوادي الملح، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 218.

([4])- التجاني: المصدر السابق، ص 325، ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 192.

([5])- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 54.

([6])- ابن حماد: المصدر السابق، ص 31.

([7])- الداعي إدريس: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، ص 125.

([8])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 193.

وبانشغال أصحاب أبي يزيد بالنهب والسلب استغلّ القائم تلك الظروف ،واجتمعت إليه العساكر من كتامة وصنهاجة[1] ،عندها بدت بوادر فشل ثورة أبي يزيد تلوح في الأفق ،غير أنّه وإن فشل في دخول المهدية ،فقد خرّب رجاله أرباضها وعاثوا فسادا في عمرانها ،ولم يحترموا مظاهر العمران من أربطة وحصون ،بل لم يحترموا حتّى حرمة مساجدها ،الّتي ارتكبت في حقّها أعمال تخريبية بحجّة أهداف نفعية ،يتصدّرها جهاد الشيعة ،ومقاومة طغيانها ،حتّى وإن كان العمران هو هشيم نيرانها.

و-خراب مدينة تونس:

لّما رأى أبو يزيد تفرّق القبائل عنه ورجوع بعض رجاله إلى القيروان أسرع مع قلّة من رجاله للّحاق بهم ،وفي القيروان دبّر له جماعة من أهل المدينة مكيدة لقتله لكنّها فشلت[2] ،وأمام هذا التفكّك في جيش أبي يزيد أيقن ضرورة إعادة تنظيم صفوف جيشه وترتيبها ،والعودة إلى ميدان القتال من جديد ،وإعادة بسط نفوذه على المناطق الّتي حاولت الخروج عن طاعته ،وقد ساعده في ذلك الشيخ أبو عمار الأعمى[3].

بإعادة تنظيم صفوف جيشه كان أوّل عمل أقدم عليه هو إرسال قائده مستويه إلى تونس عندما نقض أهلها بيعته ،وخالفوه ،ولّما أدرك القائم ذلك سارع هو الآخر بإرسال جيشه إليها بقيادة قائده عمار بن علي بن الحسن ،إلاّ أنّ مستويه كان السبّاق إلى دخول تونس في العشرين من صفر 334هـ/945م[4].

ولم يختلف دخول جيش أبي يزيد للمدينة عن سابق عهده في طريقة دخول المدن ،حيث دخلوا المدينة بالسيف وملكوها ،وانتهبوها وقتلوا أهلها وأحرقوا المسجد الجامع فيها فارتمى من نجا منهم في البحر ،وذلك حسبما يضيف الداعي إدريس امتثالا لوصية أبي يزيد إذ يذكر: «فلمّا

---

(1)- عندها مالت الكفّة إلى جانب القائم، الّذي وإن انهزم في معركة ذي القعدة سنة 333 هـ-944م، فإنّه وبدخول سنة 334هـ/945م، فقد تفكّك جيش أبي يزيد، وتفرّق أصحابه عنه، ودبّت الاضطرابات في معسكره كانت كلها في صالح الفاطميين، أنظر: الداعي إدريس: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، ص 127، و للمزيد أنظر: عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 542، و للمزيد أكثر أنظر: *DIEHL Charles et MARÇAIS Georges: Op. Cit, p 43*.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج4، ص 54.

(3)- المصدر نفسه، ج7، ص 19.

(4)- المقريزي: المقفى الكبير، ص 372.

خرج أصحاب أبي يزيد عنه فعلوا بوصيته ،ومضوا على شاكلته فلم يمرّوا ببلد إلاّ قتلوا أهلها واستبوا نساءها ولدانها ،فأخربوا البلاد وأهلكوا العباد»[1].

وقد قامت معركة بين جيش أبي يزيد وجيش القائم ،كان النصر في البداية حليف أبي يزيد ،لكنّ الأمور انقلبت لصالح القائم في الأخير ،وانتصر جيشه ،ودخل تونس في ربيع الأول 334هــ/نوفمبر 945م ، أخرجوا منها أصحاب أبي يزيد.

إلاّ أنّ أبا يزيد لم يتّعظ لذلك بل أرسل جيشا آخر بقيادة ابنه أيوب إلى تونس ،حيث «أمرهم بالقتل والسبي والنهب والخراب وإحراق المنازل ،فوصل عسكره إلى تونس فدخولها بالسيف... فقتلوا من عاد إليها وأحرقوا ما بقي فيها ،وتوجّه إلى باجة...ودخلها بالسيف ،وأحرقها ،وكان في هذه المدّة من القتل ،والسبي والتخريب ما لا يوصف»[2].

وهكذا فقد تمّ لأبي يزيد الاستيلاء على المدينة، و لكنّ بعد ما ألحق جيشه خرابا كبيرا بعمرانها، كإحراق المساجد ،وهدم الدور ،وإتلاف الحرث والنسل ،بل كان كل فتح لأيّ مدينة يقبل عليه وينتصر فيه ،إلاّ وانفتحت شهية جنوده للتخريب والتهديم و الإحراق ،فكان أحسن شعار يعبّر به عن الانتصار هو التخريب والتدمير.

ز-حصار مدينة سوسة:

بعد المعارك الطاحنة الّتي دارت بين الجيش الشيعي وجيش أبي يزيد ،والّتي تداولا النصر فيها انطلق أبو يزيد في السادس من جمادى الأخيرة سنة 334هــ/946م لحصار مدينة سوسة ،الّتي ثار أهلها عليه ،فضرب عليها حصارا شديدا وضيّق الخناق عليها ،وفي تلك الظروف توفي القائم بأمر الله في الثالث عشر من شوال من نفس السنة[3] ،وخلفه ابنه المنصور إسماعيل ،فشرع هذا الأخير من حينه في إعداد الجيوش لفكّ الحصار عن سوسة ،فأرسل السفن وقاد هو جيشا بريّا ،ورغم أنّ جيش أبي يزيد حقّق انتصارا في البداية ،إلاّ أنّه انهزم في الأخير ،حين أضرمت النيران في الحطب الّذي أعدّه أبو يزيد لإحراق سور المدينة ،فخيّم الظّلام من كثرة الدخان ،وانهزم الجيش الخارجي ،وفرّ إلى القيروان[4] ،فكان ذلك المنعرج الحاسم في تاريخ ثورة أبي يزيد ،الّتي بدأت

(1)- الداعي إدريس: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، ص 137.

(2)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 195.

(3)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 218 ،ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 194.

(4)- التجاني: المصدر السابق، ص 327، ابن خلدون: العبر، ج4، ص55.

الهزائم تتوالى عليه واحدة تلو الأخرى ،حتّى تمكّن المنصور من قتله[1] في شهر محرم من سنة 336هـ/أوت 947م.

ح-نتائج تخريب المدن من طرف أبي يزيد:

من خلال عرضنا لأهمّ أحداث ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ،و السياسة الّتي انتهجها خلال فتحه للمدن وما حلّ بها بعد ذلك أدركت من خلالها مدى وقع هذه الثورة على المظاهر الحضارية والعمرانية المتمثّلة في المدن ،من خلال ما أصابها من خراب ،وهدم وحرق وإفساد ،بل يمكن أن نعتبر هذه الثورة إحدى الكوارث الّتي أصابت مدن المغرب الأدنى ومنطقة الزاب خلال فترة الحكم الفاطمي.

فقد اتّصفت هذه الثورة بعمليات عدّة ومتتالية للنهب والتخريب المنظّم ،إذ عمّ الخراب خاصة في المغرب الأدنى ،كما هو واضح من خلال تلك الصورة القاتمة التي ميّزت الحياة بالإقليم مثلما يورده مؤرّخو الشيعة بأن هذه الثورة أتت على الأخضر واليابس ،وكانت كارثة عظيمة حلّت بمدن المغرب. فهذا الداعي إدريس يصف تلك الآثار بقوله: «وأخلوا الأقاليم بإفريقية ،فلم يبق سقف مرفوع ،ولا مهاد موضوع ،وانحفل من بقي في المدن إلى القيروان ،وإلى الحصون الّتي على البحر ،وخرجوا من منازلهم عراة حفاة»[2]. أمّا القاضي النعمان فقد قال: «فلمّا توسّط أمره ،وانخرق الأمر في يده ،فأهلك الحرث والسل ،وأخرب البلاد»[3].

و لم يغفل المؤرّخون الإباضيون عن ما حلّ بمدن المغرب الأدنى و إقليم الزاب من تخريب ،ودمار ،فيذكر أبو زكريا عن أبي يزيد بقوله:«ثمّ إنّ عدّو الله سار يريد القاسم بالقيروان وكلّ قرية ومدينة مرّ بها في طريقه خرّبها»[4] ،حتّى أنّه يحدّد عدد القرى الّتي خرّبت في عهد ثورة أبي يزيد بأنّها «ثلاثون ألف قرية لم تعمّر إلى يومنا هذا»[5]. ويضيف الدرجيني أنّه مرّ على قابس بمعسكره وقوّم جنّاتها «بكسر درهم فأمر بإفسادها فأقام عليهم مدّة يدمّر ويخرّب» [6].

([1])- وكان ذلك بعد عمليات مطاردة أفضت إلى القبض عليه وقتله، أنظر: الملحق رقم: 19.

([2])- الداعي إدريس: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، ص 108.

([3])- القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص 336.

([4])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 118.

([5])- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 118، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 101.

([6])- الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 101.

أمّا الروايات السنّية فقد عدّت ذلك التخريب أحد المصائب الّتي أضرّت بالمدن والقرى ،والحرث والنسل ،حيث لما دخل إفريقية خرّب مدنها. كما تصف المصادر السنّية وكذا الشيعية ،والإباضية الوهابية أنّ هذه العمليات التخريبية كانت بعلم أبي يزيد وأمر منه ،على غرار ما ذكرته بشأن تخريب جيوشه للقيروان ،وعندما خرج أهلها إليه وقالوا له: «خرّبت المدينة» أجابهم «وما تكون؟ خرّبت مكة و بيت المقدس؟» [1].

إنّ هذه الروايات الثلاث السنّية والشيعية والإباضية الوهابية الّتي أمامنا والمعادية لأبي يزيد النكاري قد لا تخلو من المبالغة في وصف الأعمال التخريبية الّتي ارتكبت في حقّ المدن ،خاصة عندما تغيب الرواية الإباضية النكارية. إلاّ أنّنا نقول إنّ هذه المبالغة قد تشمل تلك الروايات الّتي أسندت إليه ،ومنها أنّه كان لا يبيت كلّ ليلة إلاّ على أربع أبكار من البنات الحرات[2] ،إذ لا يعقل بشيخ تجاوز الستين من عمره أن يقدم على ارتكاب مثل تلك المنكرات ،خاصة وأنّه شيخ النكارية وقدوتهم. أمّا بخصوص خراب المدن وحرقها فإنّ تلك الأعمال التخريبية ،قد سبقته إليها الدولة الشيعية بسياستها ،عندما خرّبت كل من مدينة تيهرت ووارجلان ،فقد يقتدي بسياستها التّخريبية للقضاء عليها ،وعلى آثارها العمرانية. وعليه فإنّ تلك الروايات التاريخية تعكس لنا مدى التّخريب الّذي حلّ بمدن المغرب الأدنى وإقليم الزاب في ظلّ ذلك الصراع السياسي والمذهبي بدافع نفعي ومصلحي ،دفعت المدن ثمن ذلك بما حلّ بها من خراب ،وكان أهمّ ما نتج عن ذلك التخريب للمدن ما يلي:

- أصيبت موارد الدولة بالإفلاس، وأصبحت خزائن الدولة فارغة، نتيجة شدّة الحصار ،والخراب الّذي أحدثته الثورة بشكل لا يوصف[3].
- تغيير الدولة الفاطمية لعاصمتها بالانتقال من المهدية إلى مدينة المنصورية أو صبرة ،الّتي بناها المنصور ونسبها إليه بعدما كانت تسمّى صبرة ،هذه الأخيرة التي يشير ابن عذاري أنّه لّما استوطنها المنصور «خلت أكثر أرباض المهدية ،وتهدّمت»[4].

---

(1)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 195 ،ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 216 ،المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 158.

(2)- أبو زكريا: المصدر السابق، ص 119.

(3)- ابن الأثير: المصدر السابق، ص 195.

(4)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 219.

- لم تتوقف عمليات التخريب والحرق والهدم عى الحصون والأربطة ،والمنازل والقرى ،بل تعدّت ذلك إلى انتهاك حرمة المساجد ،وكذا الكنائس[1].
- تدخّل القوى الخارجية في شؤون المغرب ،كالتدخّل الأموي بالأندلس ،الّذين دعّموا ثورة أبي يزيد ،وأمدّوه بالمال.
- الهلع الكبير الّذي أصاب سكّان المغرب خصوصا الأدنى جرّاء عمليات سفك الدماء والتخريب وغيرها -ممّا أسلفنا ذكره- ممّا اضطرّهم للهجرة ومغادرة القرى والأرباض ،والاحتماء بالمدن المحصّنة ،شأن القيروان والمهدية ،إذ يصف ذلك ابن خلدون بقوله: «وعظم القتل بضواحي إفريقية وخلت القرى والمنازل»[2].

ومنه فإنّ هذه الحركة الثورية الّتي قادها أبو يزيد الخارجي ضدّ الدولة الفاطمية قد أضرّت بمظاهر الحياة الحضارية في منطقة المغرب الأدنى ،ومنطقة الزاب ،في الوقت الّذي كان عمران مدن المغرب الأوسط يعرف أعمالا تخريبية هو الآخر -حتّ وإن اختلفت حدّتها على المدن- من قبل المسبّبين في الخراب ،سواء كانوا خوارجا أو شيعة.

وأعود إلى نتائج الخراب الّذي ألحقته الجيوش الفاطمية بمدن المغرب فأقول: إنّ فترة الحكم الفاطمي لبلاد المغرب كان من أبرز ميزاتها تعرّض مدنه لعمليات تخريب بشعة ،تعدّدت أشكالها من حرق وتهديم ،مهما تعدّدت العلل والمبرّرات. كما و قفت على أنّ ذلك الخراب قد مسّ القسم الغربي من منطقة النفوذ الفاطمي -ونقصد بذلك منطقة المغرب الأوسط- والّذي كان ميدانا للحروب والصراعات بين الدولة الفاطمية والقبائل الزناتية المدعومة من طرف الأمويين بالأندلس ،في حين وجدت أنّ مدن المغرب الأدنى كانت في منأى عن ذلك الخراب ،والسبب يعود لا شكّ إلى أنّ الفاطميين خرّبوا مدن المغرب الأوسط بحجّة إخضاعها لسيطرتهم ،أمّا مدن المغرب الأدنى فكانت مجالا خصبا لنفوذهم وقاعدتهم الحصينة ،الّتي تنطلق منها الجيوش الشيعية الغازية أو المقتحمة للمدن.

كما أنّني ومن خلال ما أحصيته من مدن خرّبها الشيعة ،وقفت على أنّ فترة خلافة القائم بأمر الله 322-334هـ/934-945م هي الفترة الوحيدة في تاريخ خلفاء الشيعة بأرض المغرب الّتي لم تتعرّض فيها مدن المغرب الأوسط للخراب ،رغم أنّ النشاط الزناتي لم يفتر في تلك الفترة.

---

(1)- الداعي إدريس: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، ص 137.

(2)- ابن خلدون: العبر: ج7، ص21.

غير أنّه و إن سلمت مدن المغرب الأوسط من الخراب فإنّ ما حلّ بمدن المغرب الأدنى حينها أعظم ،نتيجة الخراب الّذي شهدته جرّاء ثورة أبي يزيد ،والّتي لم تتجاوز آثارها (ثورة أبي يزيد) التّخريبية التخوم الشرقية للمغرب الأوسط ،بل لم تتعدّ إقليم الزاب ،وبذلك فقد خرّبت عمران المغرب الأدنى دون الأوسط.

ورغم أنّ هذا الخراب لم يكن بأيدي شيعية إلاّ أنّها هي السبب الرئيس في ثورة أبي يزيد ،كما أنّها ساهمت فيه ولو بشكل غير مباشر ،سواء بسياستها قصد نشر مذهبها على أساس القوة ،أو بسط نفوذها بالعنف ،وبذلك فقد يكون هذا الثائر اقتدى بها في سياسة التخريب ،واستفاد من أسلوبها للقضاء عليها ،بأن يوجّه ضربته إلى عاصمتها ،كما فعلت هي حين سارت بجيشها لدولة بني رستم ،فخرّبت عاصمتها تيهرت ،فكذلك رأى أبو يزيد أن يسير إلى القيروان والمهدية حاضرتي دولة الفاطميين ،فخرّب المدن في طريقه إليهما ،وأحكم الحصار على المهدية. وهذه المدن الّتي خرّبت في هذا العهد ،نوضحها في الجدول التالي:

التخريب الشيعي		التخريب الزناتي		تخريب أبي يزيد	
المدينـــة	سنة التخريب	المدينـــة	سنة التخريب	المدينـــة	سنة التخريب
تيهـــرت	296 هـــ/909 م	وهـــران	297 هـــ/910م	باغـــايـــة	332 هـــ/43-944 م
مدن مجهولة	298 هـــ/911 م	وهـــران	343 هـــ/954م	تبسة ومجانـــة	332 هـــ/43-944 م
تيهـــرت	299 هـــ/912 م	تيهرت	360 هـــ/971م	سبيبة والأربس	332 هـــ/43-944 م
تيهـــرت	305 هـــ/917 م			القيروان وباجة	332 هـــ/43-944 م
تيهـــرت	316 هـــ/929 م			ســـوســـة	332 هـــ/43-944 م
تيهـــرت	336 هـــ/948 م			أرباض المهدية	333 هـــ/44-945 م
وارجلان	297 هـــ/910 م			تـــونـــس	334 هـــ/945 م
أذنـــــة	324 هـــ/936 م				
إفكـــان	347 هـــ/58-959م				

جدول: المدن الّتي خرّبت في عهد الدولة الفاطمية

ومنه فإنّ مدن المغرب الأوسط والأدنى قد لحقها من الخراب الشيء الكثير في عهد الدولة الفاطمية ،وتراجع عمرانها ،وتدهورت أوضاعها ،ويكفينا دليلا على ذلك أن نورد ما ذكره الرحّالة ابن حوقل في وصف أحوالها بعد سقوطها في يد الدولة الفاطمية بقوله: «وقد تغيّرت

تاهرت عمّا كانت عليه ،وأهلها ،وجميع من قاربها من البربر في وقتنا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط ،وكثر القتل والموت»[1].

ويضيف ابن حوقل أنّ المدن كانت تعيش فترة ازدهار لم تنقطع إلاّ ببروز الفوضى والاضطرابات السياسية والصراعات والحروب في عهد الدولة الفاطمية ،الّتي تغيّر فيها حال سكّان المدن ببلاد المغرب فيذكر أنه: «كانت حالهم فيما تقدم أزيد من هذا الوقت صلاحا ،وقد تغيّر بعض ما أدركته في سبي نيف و ثلثين من حالهم ،وفي وقتنا هذا فقد تدانت أحوالهم»[2] ،وهذه إشارة إلى أنّ المدن الّتي كانت تحت النفوذ الفاطمي قد تأثّرت بعدما ازدهرت في فترة التي ساد فيها الأمن قبل ظهور الأطماع الفاطمية ،وما نجم عنها من خراب للمدن وإن كان هذا حال المدن في فترة الحكم الفاطمي ،فهل سلمت من الخراب في عهد خلفائهم من بني زيري؟.

II- التخريب الزيري:

إنّ الدور الكبير الّذي لعبه الزيريون في المعترك السياسي والعسكري للدولة الفاطمية ،الّتي كانوا نصيرها الدائم ،وساعدها الأيمن للوصول إلى مبتغاها، من مآرب سياسية ومذهبية ،وغيرها ،خاصة أنّهم يحوزون على إمكانيات أهّلتهم للقيام بهذا الدور من حصانة طبيعية ،وجيش قوي ،وهذا ما رشّحهم لكي يكونوا خلفاءهم على حكم بلاد المغرب بعد رحيلهم إلى أرض مصر.

غير أنّ السياسة الفاطمية الّتي انتهجتها تجاه القبائل المغربية قد ميّزها أسلوب التفريق ،واعتماد مبدأ «فرّق تسد»، حيث حرصوا على استمالة القبائل المنضوية تحت لوائهم وتفادي أيّ صدام بينها (مثل قبيلة صنهاجة وكتامة) ،وفي المقابل أقدموا على ضرب أعدائهم ببعضهم البعض ،أو ببعض حلفائهم ،كما فعلوا بزناتة عندما ألبوا عليها صنهاجة[3] لكسر شوكتها ،ودرء خطرها وهذا الصراع الزناتي الصنهاجي[4] استمرّ بعد رحيل الفاطميين واستخلافهم لبني زيري على

---

(1)- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 96.

(2)- المصدر نفسه ، ص 104.

(3)- يدخل الصراع الصنهاجي الزناتي أيضا ضمن سلسلة الصراع التقليدي بين البدو البتر والبرانس الحضر، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 203، وللمزيد أنظر: مقال: _*AMARA Allaoua: «Ibn Khaldoun et les berbères»,* *revue de lettres et sciences humaines, N° 07, université Emir Abdelkader des sciences islamiques, Constantine, 1430-2009.*

(4)- عشراتي سليمان: الشخصية الجزائرية بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية، ج2، (د.ط)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2002، ص 144.

عرشهم ،وكان لاستمرار ذلك الصراع وقع سيء على عمران المدن ، تمثّل في خرابها ،فأيّ المدن مسّها ذلك الخراب يا ترى؟ و إلى أيّ حدّ أثّر عليها؟.

1- خراب تيهرت:

لقد مرّ بنا ما حلّ بتيهرت من خراب في فترة الحكم الفاطمي ،وهو ما يؤكّد أهمّية مركز هذه المدينة –خاصة الاقتصادية- ،الّتي كثيرا ما كانت محلّ أطماع القوى المتصارعة للظفر بهذا المركز، خاصة بعد سقوطها في يد الدولة الفاطمية ،وباستمرار ذلك الفصل من الصراع الزيري (الصنهاجي) الزناتي لم يسلم عمران هذه المدينة في الكثير من الأحيان من عمليات تخريب بسبب تلك الصراعات. وكانت أوّل مظاهر ذلك الصراع في عهد أوّل حكّام بني زيري بلكين بن زيري (362-373هـ/972-984م) هي انتفاضة أهالي تيهرت، فما هي أسبابها؟

- الأسباب:

لم تهدأ منطقة المغرب الأوسط بل استمرّت سلسلة الاضطرابات والفتن والتمرّدات ،ففي أوائل عهد حكم بلكين بن زيري قام أهل باغاية بثورة ،وخرجوا على عاملها ،فما كان على بلكين إلاّ أن خرج في شعبان 362هـ/ماي –جوان 973م على رأس جيش من الصنهاجيين حتىّ أدرك باغاية فدخلها ،ودانت له بالطاعة والولاء ،فعيّن عليها عاملا ،إلاّ أنّ أهالي هذه المدينة خرجوا عليه مرة أخرى ،و قاتلوا عاملها وتحصّنوا بأسوارها[1]. و في الوقت الّذي علم بلكين بن زيري بذلك همّ بالخروج إليهم. وهنا لم نقف على نص تاريخي يحدّد المكان الّذي يقيم فيه بلكين بعسكره ،هل كان راجعا إلى قصره بالقيروان[2] ،أم كان معسكرا قرب المدينة ،غير أنّ ما تتّفق حوله الروايات التاريخية هو أنّه لّما همّ بالرجوع إلى باغاية وصله نبأ من رسول عامل تيهرت ،بأنّ أهالي المدينة (تيهرت) قد خالفوا عاملها خلوف بن محمد ،فآثر بلكين الزحف إلى تيهرت ،وسار إليها في رمضان من نفس السنة.

- تخريب المدينة:

ما إن وصل جيش بلكين مدينة تيهرت حتىّ دخلها عنوة ،وأثخن في أهلها بالسيف قتلا وسبيا نهبا. ويبدو أنّ القتل والسبي والنهب لم يشف غليل بلكين في تأديب أهلها ،حتّى لجأ أيضا

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص206، النويري: المصدر السابق، ج24،ص93.

(2)- يذكر ابن خلدون أنّ بلكين بعدما تقلّد أمور الحكم نزل بقصره في القيروان، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 206، في حين يخالفه النويري ويذكر أنّه نزل قصر السلطان في المنصورية، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 93.

إلى إحراق المدينة -كما أورده المؤرّخون- على غرار ابن خلدون القائل «فرحل إليها وخرّبها»[1]. ويفصّل النويري أكثر بقوله : «ودخل البلد بالسيف في شهر رمضان فقتل ،وسبى ،ونهب ،وأحرق البلد»[2].

وبعدما خرّب بلكين تيهرت وأحرقها أخذ يستعدّ للسير نحو باغاية لتأديب المتمرّدين ،حتّى بلغه مرّة أخرى أنّ زناتة تمرّدوا في تلمسان[3] ،فزحف إليها ،ودخلها ،وأخذ المتمرّدين إلى أشير ،أين أقاموا بالقرب منها مدينة أسموها تلمسان ،ثمّ عاد بلكين إلى القيروان[4].

من خلال هذه النصوص التاريخية يتأكّد لنا أنّ منطقة المغرب الأوسط قد شهدت اضطرابات و تمرّدات متكرّرة ،ففي هذه الحملة مثلا الّتي خرج فيها بلكين لردع أهالي باغاية على تمرّدهم ،فما إن أخضعهم حتّى تمرّدوا من جديد ،لينتفض أهل تيهرت الّتي نهبها وأحرقها ،لتثور زناتة في تلمسان في نفس الفترة ،فسار إليها هي الأخرى وأخضعها. وتستوقفنا مسيرة هذه الحملة لنتساءل: هل كان خروج بلكين قاصدا مدينة باغاية فقط؟ ،ولماذا عندما أخضع أهالي باغاية ثمّ ثاروا من جديد تركهم وفضّل الزحف إلى تيهرت لردع متمرّديها؟ ،وكيف نفسّر تمرّد أهالي المدن في تيهرت وتلمسان رغم علمهم بأنّ جيش بلكين بن زيري يجوب تلك المنطقة لإخضاع المتمرّدين؟ ،وكذلك نجد تلمسان الّتي تمرّد أهاليها و لم يتّعظوا بما حلّ بمدينة تيهرت من خراب؟.

إنّ هذه الحركات التمرّدية هي إعلان صريح عن رفض القبائل الزناتية الخضوع لهذه السلطة الجديدة المتمثّلة في الحكم الزيري الصنهاجي ،وهذا قد يفسّر لنا سبب استمرار الجيش الزيري في الزحف غربا صوب تيهرت ،ثمّ تلمسان لكسر شوكة زناتة في أكبر معاقلها ومواطنها.

---

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 206، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 556، محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 245.

(2)- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 93، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 82.

(3)- هي مدينة قديمة، يتألف اسمها من كلمتين بربريتين هما: (تلم)، ومعناها تجمع، و(سان) ومعناها اثنان، ومعناهما معا (تجمع اثنين) أي التّل والصحراء، و في عهد دولة الأدارسة، دخلها إدريس الأكبر عام 173هـ/789م، و بنى مسجدها، و يصفها الرحّالة والجغرافيين بأنّها مدينة كبيرة، جميلة، مقسومة إلى اثنين يفصل بينهما سور، و بها جامع عجيب، و تتوفر على أسواق قائمة، كما أنّها كثيرة العلماء، و يقصدها طلاّب العلم، من كلّ جهة، فهي قاعدة المغرب الأوسط، أنظر: محمد العبدري البلنسي: الرحلة المغربية، تح، أحمد بن جدو، (د.ط)، نشر كلية الآداب الجزائرية، الجزائر، (د.ت)، ص 09-11، و للمزيد أنظر: يحي بو عزيز: تلمسان، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 15، و للمزيد أكثر أنظر: مبارك بوطارن: «مدينة تلمسان عوامل نشأتها و مراحل تطوّرها»، مجلة المبرز، العدد 10، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1998، ص100.

(4)- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 206، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 94.

وما يلفت الانتباه أيضا حول هذه الحملة الّتي قادها بلكين نحو الغرب لإخضاع المتمرّدين سواء في باغاية ،أو في تيهرت و تلمسان هو أنّ بلكين لم يلجأ إلى أسلوب الحرق والتخريب سوى في مدينة تيهرت ،فلم يخرّب لا باغاية ولا تلمسان ،رغم أنّ المؤرّخين لم يذكروا أيّ مقاومة أبداها أهالي تيهرت في وجهه ،ومع ذلك تتفرّد هذه المدينة بعمليات تخريبية من طرف بلكين بن زيري. فهل كان بلكين يرى أنّ هذه المدينة هي العصب المحرّك للفتن ،وعمليات التمرّد؟ أم أنّنا يمكن أن نعتبرها حلقة من سلسلة الحملات العسكرية الّتي قادها أسلافه من الشيعة على مدينة تيهرت ،وكان مصير هذه المدينة في أغلب تلك الحملات هو التخريب و الحرق والدمار؟

و في الأخير فإنّ مدينة تيهرت تعرّضت لهذا التخريب في عهد بلكين بن زيري في ظلّ الصراع المستمر بين قبيلتي صنهاجة وزناتة ،ولئن كان هذا الصراع قد استمرّ في عهد بلكين بن زيري أو في عهد خلفائه من ملوك بني زيري ،فإنّ هذه الحركات التمرّدية ،والعصيان وإعلان الثورات ضدّ السلطة الزيرية لم تتوقف بل تواصلت في مدينة تيهرت[1] ،وكان ثمنها الّذي دُفع هو حصد الأرواح ونهب الأموال و سبي النساء ،وما نتج عنه من سوء الأحوال. غير أنّني لم أقف على عمليات تهديم ،أوحرق ،أو تخريب لهذه المدينة في عهد خلفاء بلكين خاصة وأنّ الصراع فيما بعد قد دبّ في وسط البيت الزيري ،وأفضى إلى انقسامه. وبذلك أخذت فصول الصراع أشواطا أخرى، و تعدّدت القوى المتصارعة ،و برزت مدن في تلك الأحداث[2] ،ولم يكن لمدينة تيهرت الدور الرئيس فيها.

2- خراب مدينة ميلة و منطقة كتامة:

لقد استمرّ عمران مدن المغرب الأوسط والأدنى يشهد أعمالا تخريبية تتسبّب فيها السياسة الفاطمية حتّى بعد رحيلهم إلى أرض مصر ،كيف لا و قد بثّوا سموم العداء بين القبائل المغربية من خلال سياسة التفريق بينها ،وتأليبها علـــى بعضها البعض كيف ما تقتضيه الحاجة ،ووفق ما يخدم مصالحها.

فقد رأينا أنّها تعمد في بادئ أمرها إلى الاعتماد على قبيلة كتامة لتثبيت أقدامها في بلاد المغرب ،وترسيخ مبادئ المذهب الشيعي بين أفراده ،وامتنانا منها للتّضحيات الجسام الّتي بذلتها

([1]) -*GOLVIN. L: Le maghrib central à l'époque des zirides recherches d'archéologie et d'histoire, Arts et métiers graphiques, Paris, p 71-72.*

([2])- كمدينة أشير، و قلعة بني حماد.

كتامة في سبيل تحقيق منجزات الدولة الفاطمية منحتها امتيازات عديدة كتقليد بعض قادها مناصب عسكرية وإدارية في الدولة[1].

والأسلوب عينه استخدمته لاستمالة قبيلة صنهاجة للاستعانة بخدماها ،واعترافا بالجميل ،واسترضاء لها أوكلت إليها مهمّة خلافتها على المغرب بعد رحيلها إلى مصر ،ولم تمنح شرف استخلافها لحليفتها كتامة[2].

بيد أنّها لّما شعرت أنّ ملوك بني زيري بدأت نفوسهم تراودهم بأمر الانفصال عنها والاستقلال بالمغرب في عهد المنصور بن بلكين (373-386هـ/984-996م) ،الّذي استهلّ عهده بإقدامه على عزل عامل إفريقية[3] ولكنّه عدل عن ذلك[4] ،إضافة إلى تصريحه الّذي اتّضحت من خلاله ملامح الترعة الاستقلالية ،حينما قال قولته الشهيرة: «إنّ أبي و جدي أخذ النّاس بالسيف قهرا ،وأنا لا أخذهم إلاّ بالإحسان. و ما أنا في هذا الملك ممّن يولّى بكتاب ويعزل بكتاب ،لأنّي ورثته عن آبائي وأجدادي ،وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[5].

وعليه فقد استاء الخليفة الشيعي في القاهرة[6] من هذه المقولة ،وأخذ على عاتقه أمر إعادة الأمور إلى نصاها ،وانتظار أيّ فرصة تأديبية سانحة[7] ،ولم يجد بدّا من الاستعانة بالحليف التقليدي ،الّذي كان قد أوجد بديلا عنه فيما مضى (قبيلة صنهاجة) ،ثمّ عاد إليه و هو قبيلة كتامـــة ،الّتي

([1])- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 150.

([2])- قبيلة بربرية بأرض المغرب، تمتّد حدودها من بجاية غربا إلى كتلة الأوراس جنوبا، حتّى بونة شمالا من جهة البحر، وينحدر الكتاميون من كتم ابن بر الّذي ينحدر من مازيغ، وهي القبيلة الّتي احتضنت قيام دولة الفاطميين بأرض المغرب عند قدوم أبي عبد الله الشيعي، واستقراره فيها، أنظر: محمد بن موسى الحازمي: عجالة المبتدأ أو فضالة المنتهى في النسب، تح، محمد زينهم وعائشة التهامي، (د.ط)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998، ص 175، عز الدين ابن الأثير الجزري: اللباب في تهذيب الأنساب، ج3، (د.ط)، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت)، ص 83، وللمزيد أنظر: جلال الدين السيوطي: لب اللباب في تحرير الأنساب، ج1، تح، محمد عبد العزيز و أشرف عبد العزيز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م، ص 202، وللمزيد أكثر أنظر: مولود قايد: البربر عبر التاريخ من الكاهنة إلى العهد التركي، (د.ط)، منشورات ميموني، الجزائر، 2007، ص 31، موسى لقبال: «عناصر التكامل والوحدة ودور أبناء الغرب الأوسط»، حوليات جامعة الجزائر، العدد 03، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، 1988-1989، ص 28.

([3])- وهو عبد الله الكاتب، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 240.

([4])- عبد الحميد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص 330.

([5])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 240.

([6])- وهو الخليفة العزيز نزار بن المعز لدين الله الشيعي، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 240.

([7])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 590.

شجّعوها على التمرّد و العصيان. وبذلك اشتدّ الصراع الزيري (الصنهاجي) الكتامي ،وكان لذلك الصراع آثار لا يحمد عقباها على العمران ،كتخريب المدن وهدم البيوت والجدران ،وكانت مدينة ميلة إحدى المدن التي تعرّضت للتخريب ،إضافة إلى مدن كتامية أخرى من طرف جيش المنصور بن بلكين ،سعيا منه للقضاء على أشكال التمرّد و الثورة الّتي ظهرت بمنطقة كتامة[1] ،بدعم من الخليفة الشيعي بالقاهرة.

-أسباب التخريب:

رغم أنّ المنصور بن بلـــكين استمرّ على ولائه للشيعيين بالقاهرة يرسل إليهم الهدايا الثمينة[2] ،غير أنّ ذلك لم يبدّد مخاوف بلاط القاهرة من الترعة الاستقلالية الّتي أبداها المنصور ،وأصبح لزاما العمل على تأديبه من جهة ،ومن جهة أخرى ضمان استمرار الولاء للفاطميين بالقاهرة.

وكان أوّل إجراء اتّخذوه كتمهيد لذلك هو تعيين رجل فارسي يدعى أبا الفهم الخراساني داعيا ،وكلّفوه بمهمّة تنظيم الثورة ضدّ الزيرين، و أوفدوه من مصر إلى بلاد المغرب ،وكان ذلك في سنة 376هـــ/986م ،ثمّ اتبعوه بإجراء آخر تدعيما لسابقه ويتمثّل في وضع واعتماد عبد الله بن محمد الكاتب مشرفا على الدعوة الشيعية الإسماعيلية ببلاد المغرب[3].

وكانت هذه الإجراءات الّتي اتّخذها بلاط القاهرة واضحة المعالم وهدفها الرئيس وضع حدّ لنظام الزيريين ،وهو ما أشارت إليه بوضوح حينما كلّفت الداعي أبي الفهم حسن بن نصر الخراساني بالاستقرار في إقليم كتامة والتعاون مع قبائله ،والتنسيق بينهم لخلق المشاكل ضدّ المنصور الزيري[4].

وبترول هذا الداعي أرض المغرب لقي حفاوة وتكريما من طرف يوسف بن عبد الله الكاتب (نيابة عن أبيه) ،وأجرى عليه جرايات جليلة وأكرمه ،وأعطاه الأموال ثمّ توجّه الداعي إلى إقليم كتامة[5].

([1])- أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 102، نجم الدين الهنتاني: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 05هـــ/11م، (د.ط)، منشورات تبر الزمان، تونس، 2004، ص 172.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 240.

([3])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 100 ،موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 590.

([4])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 100.

([5])- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 112.

و في إقليم كتامة وجد الداعي الخراساني ترحيبا كبيرا وإقبالا عليه فابتدر دعوهم إلى ما أمره به نزار بن المعز[1] ،ووجدت دعوته استجابة من أهالي كتامة ،إذ يذكر ابن عذاري أنّه لمّا دعاهم «فأجابوه وتقرّرت أموره عندهم ،حتّ صار يركب الخيل ويجمع العساكر ،ويعمل البنود ويضرب السكة ،فعظم أمره وشاع خبره » [2].

وهكذا فقد اضطّربت شؤون إقليم كتامة وانتفض ضدّ سلطة الزيريين ،وفي ظلّ تلك الاضطرابات راسل المنصور بن بلكين خليفة القاهرة العزيز نزار يصوّر له الوضع المضطّرب[3] ويستشيره فيما يتّخذ من إجراء لحسم ذلك الدّاء ،غير أنّه أدرك ميول بلاط القاهرة إلى تأييد تلك الحركة الثورية[4].

-تخريب المدينة:

ما إن تيقّن المنصور أنّ لبلاط القاهرة يد في ثورة الكتاميين حتّ قرّر الزحف بنفسه على الثوار ،فخرج على رأس جيشه قاصدا بلاد كتامة. وعن سنة خروجه إلى كتامة يورد المؤرّخون في ذلك تاريخين لبداية مسيره ،فابن الأثير يذكر أنّه كان في أواخر سنة 377هـ/988م وتثاقل في مسيره عمدا حتّ دخلت سنة 378هـ/988م ودخل كتامة[5] ،وهو ما يذهب إليه النويري[6] أيضا. في حين نجد أنّ البكري عندما يتطرّق إلى حملة المنصور على ميلة يذكر أنّه كان «في سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة في شوال خرج المنصور من القيروان غازيا لكتامة»[7]. ويحذو حذوه ابن عذاري قائلا: «و في سنة 378هـ تحرّك أبو الفتوح المنصور بعساكره إلى بلاد كتامة»[8].

([1])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 100.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 240.

([3])- عبد الحميد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص 332.

([4])- تأكّد تأييد بلاط القاهرة لهذه الثورة الكتامية بوصول رسولين من الخليفة نزار بالقاهرة، إلى المنصور، وهما أبو العزم الكتامي ومحمد بن ميمون الوزان، وأبلغاه بمعارضة العزيز نزار لأيّ تصرف أو حركة ضدّ أبي الفهم في كتامة، غير أنّ المنصور أهانهما وأغلط في الكلام لهما، بل وصحبهما حتّ في معركته ضدّ كتامة، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 101، موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 591.

([5])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 331.

([6])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 101.

([7])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 245.

([8])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 243.

ورغم هذا الاختلاف حول تحديد هذا التاريخ فإنّ ما يهمّنا نحن من خلال دراستنا هذه هو مصير هذه الحملة ،إذ يذكر البكري أنّ المنصور إثر خروجه في هذه الحملة كان عازما كل العزم على «استلام أهلها واستباحتهم»[1] ،غير أنّه و في الوقت الّذي كان ينتظر أن يلقى جيش أبي الفهم في وجهه ،لقي جموعا من النساء ،والعجائز ،والأطفال عند باب المدينة ،فما كان منه إلاّ أن عفا عن أهل المدينة[2] ،ولكن هذا العفو لم يمر بسلام على عمرانها ،إذ أمر المنصور جيشه بهدم مدينة ميلة ،وأطلق أيدي رجاله لنهبها ، تخريبها ،وهدم أسوارها[3].

و لم تتوقف هذه الحركة التخريبية بل تواصلت تخرّب المنازل ،والقصور ،ومدن كتامة حتّى بلغت هذه الحركة المخرّبة مدينة سطيف[4] ،والمنصور لا يمرّ بدار ولا قصر ولا مترل إلاّ أمر بهدمه وحرقه بالنّار ،حتّى تمكّن من أبي الفهم في مدينة سطيف وقتله[5].

و يبدو أنّ المنصور في هذه الحملة التأديبية الّتي خرج فيها إلى بلاد كتامة لم يقصد تأديب أهلها على وقوفهم إلى جانب أبي الفهم فقط ،بل كان يسعى كذلك إلى تخريب مدينة ميلة ،وغيرها من مدن كتامة لتهديم و تخريب وحرق آثار حواضر كتامة الّتي أوت دعوة أبي عبد الله الشيعي فيما مضى. كما أوت وناصرت دعوة أبي الفهم الخراساني ،وكان هذا الخراب والدّمار والحرق لمدن كتامة ثمن الانتقام من الداعي الخراساني ومن ورائه الخلافة الشيعية بالقاهرة.

ونشير أيضا إلى أنّ الروايات التاريخية أشارت إلى أنّ المنصور على غرار تخريبه لمدينة ميلة وهدم سورها ،هدّم وخرّب أيضا مدنا أخرى من بلاد كتامة ،غير أنّها لا تذكر هذه المدن ،أو تحدّدها. وعليه فإنّ مدينة إيكجان الّتي بناها الداعي الشيعي أبي عبد الله قد تكون تعرّضت هي الأخرى لعمليات التخريب والهدم ،لأنّ موقعها يتوسّط مدينتي ميلة وسطيف ،وبذلك فهي ربّما

([1])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 245.

([2])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص 431.

([3])- كما أمر بنقل سكّانها إلى مدينة باغاية، الّذين خرجوا بأمتعتهم، غير أنّ ماكسن بن زيري لقيهم بعسكره، فأخذ جميع ما كان معهم، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص 245، وللمزيد أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 101.

([4])- هي مدينة بيزنطية قديمة، تقع على مرحلتين من بجاية على الجهة الجنوبية منها، وكانت من المدن التي استقرت فيها قبائل الفاتحين بعد الفتح الإسلامي، و هي مدينة حصينة كثيرة العمارة، تسكنها قبائل كتامة من البربر، وقد خضعت لسيطرة الفاطميين بعد قيام دولتهم، ولم تكن ذات أهمّية أيام سيطرتهم عليها، إلاّ أنّ الاهتمام الحمادي لهذه المدينة كان سببا في ازدهارها نتيجة قربها من بجاية، وحسب الجغرافيين فإنّ المدينة تمتاز بكثرة المياه و الزروع، والأشجار المثمرة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص259، و للمزيد أنظر: الإدريسي: المغرب العربي، ص 125.

([5])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 243.

على الطريق الّذي سلكه المنصور بعد تخريبه لمدينة ميلة متوجّها نحو مدينة سطيف أين يتحصّن الداعي الخراساني أبي الفهم وبذلك خرّبها مع المدن الّتي خرّبت في طريقه ،و إن كانت المصادر التاريخية لم تورد أسماء هذه المدن.

- **نتائج التخريب:**

بعد عملية التخريب الّذي أقدم عليها المنصور في حق عمران مدينة ميلة وبعض مدن كتامة ،ونقل سكّانها إلى باغاية يذكر البكري أنّ مدينة ميلة بقيت «خرابا ثمّ عمّرت بعد ذلك»[1].

ومن خلال ما أورده البكري يبدو لنا أنّ مدينة ميلة بعد تخريبها ظلّت مدّة من الزمن على ذلك الخراب ،الّذي أثّر على دور المدينة ،خاصة وأنّ التخريب لم يقتصر على هدم الأسوار ،بل تعدّاه إلى هدم البيوت والمنازل. ومنه ظلّ دور المدينة يتضاءل شيئا فشيئا ،وينقص سكّانها ،وتخرب مساكنها وعمرانها ،بعدما كانت عامرة في الأوّل ،كثيرة المساكن ،حسنة البناء[2].

و في مطلع القرن الخامس الهجري (11م) استعادت المدينة حيويتها ،ونشاطها في ظلّ الحكم الحمادي ،حيث عمّرت بعدما كانت خرابا،حيث جدّد عمرانها ،وبني سورها ،وهو ما نستشفه من خلال أوصاف الرحّالة والجغرافيين بشأنها.

فالجغرافي البكري يصفها في الفترة الّتي عاشها بقوله: «وعليها سور صخر اليوم ،وبها جامع ،وأسواق وحمّامات ،والمياه تطرد حولها»[3]. أمّا صاحب الاستبصار فيصفها قائلا: «وهي الآن عامرة ،كثيرة الخصب ،رخيصة السعر ،وهي كثيرة الأسواق ،والمتاجر»[4].

ولكن رغم ذلك فإنّ مدينة ميلة بعد ذلك الخراب لم تبرز كحاضرة ذات سيادة وإنّما تراجع دورها[5] لصالح مدينة قسنطينة[6].

---

(1)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 245 ،ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 243.

(2)- عبد العزيز فيلالي و إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 75-76.

(3)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 245.

(4)- مجهول: الاستبصار، ص 166.

(5)- عبد الحق معزوز: «مدينة ميلة الإسلامية بين النصوص التاريخية والآثار المادية»، مجلة دراسات تراثية، العدد 02، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، 2008، ص 201، حول ما بقي من آثار مدينة ميلة في يومنا هذا، أنظر كل من: الملحق رقم: 20 ورقم: 21.

(6)- مدينة شرق مدينة ميلة، تقع على قطعة جبل مربع فيه نوع من الاستدارة، وهي مدينة عامرة، مزدهرة النشاط الاقتصادي ،بها أسواق عامرة ،وتجارة زاهرة، وثمارها وافرة ،وقد انعكس ذلك على أهلها، فكانوا مياسير الأحوال ،أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 265، وللمزيد أنظر: الإدريسي: المغرب العربي، ص 121.

و في ختام فصلنا هذا ،يجدر بنا أن نشير إلى أنّ المدن الّتي تعرّضت للخراب خلال فترة الحكم الفاطمي لبلاد المغرب ،ثمّ في عهد خلفائهم من بني زيري ،كانت أسباب ذلك الخراب في الغالب ترجع لتلك الاضطرابات السياسية والعسكرية ،الّتي طغت على مجال المغرب الأوسط والأدنى في تلك الفترة ،في ظلّ ذلك الصراع المتواصل من أجل السيطرة والتوسّع من جانب ،ومن جانب آخر لردع المتمرّدين وتأديب المخالفين ،مستعملين في ذلك شتّى الوسائل ،دون مراعاة في الكثير من الأحيان التقاليد الحضارية المتعلّقة بأهمّية العمران ،و ثقافة البناء والتشييد ،والّتي غالبا ما تغيب في حال الحروب والصراعات الّتي تأتي على كلّ أخضر ويابس ،كحصد الأرواح ،وإفساد الزروع ،ونهب الأموال ،وتخريب المدن ،وهدم العمران.

ولو رجعنا إلى سياسة الفاطميين في مجال البناء والتشييد لوجدنا أنّ هذه الدولة قد أولت اهتماما بالغا بتشييد المدن وتعميرها كالمهدية ،المسيلة والمنصورية. غير أنّ إنشاء هذه المدن كان من أجل أهداف محدّدة تنتهي بمجرد انتهاء الغرض الّذي أنشئت من أجله كحال مدينة إيكجان الّتي أسّست في بداية نشر دعوتهم بالمغرب الأوسط ،وبانتقالهم إلى رقادة أهملوا أمرها وتركوها للخراب. غير أنّ الأغرب من ذلك هو سلوك هذه الدولة سياسة تخريبية للمدن كأسلوب قمعي وردعي للمتمرّدين ،مثل تخريب مدينة تيهرت ولمرّات متعدّدة.

و لاشكّ أنّ هذه السياسة التخريبية تنمّ عن فشل هذه الدولة في نشر وتثبيت التشيّع ببلاد المغرب ،ومن ثمّ تصبّ جمّ غضبها على المدن بتخريبها انتقاما من الثوار والمتمرّدين.

وهناك نقطة تجدر الإشارة إليها أيضا ؛وهي رغبة هذه الدولة الجامحة في السيطرة على موارد الثروة ،خاصة الثروة الذهبية ،وذلك ما يستعدي السيطرة على مسالك تجارة الذهب ،وهو ما أدخلها في صراع مستمرّ مع الأمويين في الأندلس ،ويتجلّى ذلك في الصراع السياسي والعسكري بين قبيلة صنهاجة ،ومن ورائها دولة الفاطميين ،وبين قبيلة زناتة ومن ورائها الدولة الأموية بالأندلس ،والّذي تعدّى ذلك الصراع التقليدي بينهما إلى صراع من أجل السيطرة على المسالك الحساسة لتجارة الذهب[1] ،وفي خضمّ ذلك تحصد المدن نتائج ذلك الصراع بما يحلّ بها من خراب ودمار.

ولقد كانت حدّة خراب المدن بشكل أكبر أيام ثورة أبي يزيد على دولة الفاطميين ،أين انتهكت حرمة العمران ،فلم تسلم حتّى المساجد من التخريب والحرق ،ولا نلقي اللّوم في ذلك

(1)- الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 84.

فقط على السياسة الفاطمية المالية والمذهبية الّتي جلبت للدولة أشكالا عدّة من الثورة والتمرّد ،بل إنّ هذه الثورة قد أتت على العمران بأشكال من التخريب ،حتّ قيل عن إضرارها بالعمران أنّها لم تفقها في ذلك أيّ حركة ثورية لا سابقة ولا لاحقة[1].

وإذا لم تشر المصادر التاريخية إلى أيّ صدام وقع بين قبيلتي صنهاجة وكتامة طيلة العهد الفاطمي ،فإنّ الصراع بينهما قد احتدم بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ،وإدراكهم أيام المنصور بن بلكين أنّ سلطان المغرب قد أفلت من أيديهم ،وأنّ بني زيري لا يحتفظون سوى بعلاقات زمنية معهم تفرضها اعتبارات تاريخية[2] ،حينها استنجدوا بكتامة ضدّ بني زيري ،إلاّ أنّ كتامة فشلت في ردّ ملكهم ،وجلبت على مدنها أصنافا عدّة من الخراب ،والحرق ،فتراجع بذلك دور هذا الإقليم.

وصفوة القول ،فإنّ أغلب حواضر المغرب الأوسط والأدنى كانت عرضة لأشكال عدة من التخريب من طرف جيوش الدولة الفاطمية ،أو جيوش وريثة عرشها الأسرة الزيرية. وإذا كان هذا هو حال المدن في هذه الفترة ،فما حالها في الّتي أعقبتها ؟ ،وقد تميّزت باحتدام الصراع داخل البيت الزيري ،وهجرة جماعية لجموع من القبائل العربية ،وعلى رأسها العرب الهلالية إلى بلاد المغرب؟.

(1)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 430.

(2)- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 83.

الفصل الثالث

التخريب الهلالي والحمادي

I- التخريب الهلالي

أولا: مدن المغرب الأدنى

1-خراب مدينة القيروان

أ- الزحف الهلالي نحو مدينة القيروان و تخريب المدن

ب-هزيمة حيدران و تخريب مدينة القيروان

ج- العوامل المساعدة على تخريب مدينة القيروان

2-حصار مدينة المهدية و خراب أرباضها

3- نتائج التخريب

ثانيا: مدن المغرب الأوسط

1-موقعة سبيبة و خراب مدينة القلعة

2-خراب مدينتي طبنة والمسيلة

3-نتائج التخريب

ثالثا: آراء المؤرّخين حول التخريب الهلالي للمدن

II-التخريب الحمادي

1-خراب مدينة أشير

2-خراب مدينة وارجلان و قرية وغلان (وعلان)

3-خراب مدينة سدراتة

III- خراب مدينة القلعة على يد الموحدين

مع مطلع القرن الخامس الهجري (11م) تولّى أمر المغرب المعز بن باديس الزيري 406-454هـ/1016-1062م، وكانت فترة حكم هذا الأخير حافلة بالأحداث التاريخية الهامة ،والّتي كان لها انعكاسات ملحوظة على الجانب الحضاري لمنطقة المغرب الأوسط والأدنى، ويتصدّر هذه الأحداث حدثين هامين:

يتمثّل الحدث الأوّل في انقسام البيت الزيري إلى قسمين خلفاء حماد و أحفاد بلكين بعد صراع حاد داخل هذا البيت، غير أنّ ذلك الانقسام لم يكن ليضع حدّا لذلك الصراع بل كان بداية لمرحلة جديدة من تاريخ الدولة الزيرية الّتي ميّزها الصراع المحتدم بين أبناء العمومة من أجل التوسّع كل طرف على حساب الآخر ،وإلى جانب ذلك الصراع الزيري كان الصراع التقليدي الصنهاجي الزناتي لا يزال هو الآخر قائما على أشدّه خاصة بين الأسرة الحمادية والقبائل الزناتية بحكم أنّ بني حماد هم من يسيطر على منطقة المغرب الأوسط ،و الّذين سعوا إلى توسيع نفوذهم على حساب المغرب الأقصى،وهو ماجعلهم يصطدمون بقبائل زناتة الّتي تعرف نشاطا كبيرا وحركية فاعلة ضمن ذلك الإقليم.

وأمّا الحدث الثاني والّذي لا يقلّ أهمية عن سابقه بل يفوقه على اعتبار نتائجه على المنطقة فيتمثّل في تلك الهجرة أو الغزو العربي الهلالي السليمي إلى أرض المغرب[1] بعدما أخذت سياسة المعز بن باديس الزيري منعرجا حاسما في توجّهها ،والّتي أخذت وجها مغايرا لما كانت عليه في عهد أسلافه من ولاء لبلاط القاهرة ،وللدعوة الشيعية. وبإقدام المعز على الانفصال عن الخلافة الشيعية بالقاهرة[2] ،وإعلانه الولاء لغريمتها الخلافة العباسية[3] كان قد جني على نفسه وعلى بلاده غضب بلاط القاهرة ،الّذي أيقن رجاله انقطاع خيط الأمل في عودة المعز بن باديس إلى حضيرة الولاء لهم فاستقرّ رأيهم على دفع العرب الهلالية والسليمية إلى الانتقال بجملتهم إلى المغرب[4] ،وإقطاعهم إيّاه ،بعدما هيّأوا الظروف لذلك.

([1])- أنظر: محمد أمين البغدادي السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1409هـ-1989م، ص 136-170.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 277-279، طارق بن زاوي: «استقلال المعز بن باديس الزيري عن الدولة الفاطمية (406-454هـ/1016-1062م»، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ/2008-2009م، ص 137.

([3])- عبد الله شريط و أبوالقاسم محمد كرو: عصر القيروان، ط1، دار المغرب العربي، تونس، 1973، ص22.

([4]) -*SOURDEL Dominique: Histoire des arabes, cinquième édition, paris, 1994, p 75.*

وعليه فقد عرف العصر الصنهاجي منذ بداية عهد المعز وضعا مضطّربا سمته الحروب والصراعات ،الّتي لم تكد تنقطع، يغذّيها ذلك الصراع داخل الأسرة الزيرية ،وكذا الصراع الحمادي الزناتي ،بل وأجّج ذلك الصراع وزاد في حدته الحدث الأبرز المتمثل في هجرة القبائل العربية[1]. و لم تخل هذه الصراعات والحروب بين القوى المتصارعة السالفة الذكر من آثار سلبية على مدن المغرب الأوسط والأدنى، نظرا لما خلّفته من خراب ودمار لأغلب هذه المدن في تلك الفترة، و من هذا الخراب ما ينسب لبني حماد في ظل صراعهم مع أبناء عمومتهم، ومع غريمهم التقليدي الزناتي. أمّا النصيب الأكبر من هذا الخراب الّذي تعرّضت له تلك المدن فقد نُسب للقبائل العربية الهلالية[2] وهو ما نستهل به فصلنا هذا.

I- التخريب الهلالي:

أثارت الهجرة الهلالية إلى أرض المغرب جدلا كبيرا بين المؤرّخين حول ما خلّفته من أضرار على البنية الحضارية للمغرب ،وما نجم عنها من خراب لمدنه ،وذلك بين مبالغ في وصف ذلك الخراب مضفيا على هذه الهجرة طابع السلبية لا غير ،وبين من قلّل من حدّة ذلك التخريب ،مبررا بأنّ هذه الهجرة على الرغم من سلوكها أعمال تخريبية فقد كانت لها نتائج أخرى إيجابية. وبين هذا وذاك فإنّا سنسعى للإجابة على هذه الأسئلة وهي: أيّ مدن المغرب تعرّضت لذلك الخراب؟ وما مدى حدّته على مدن المنطقة؟ و إلى أيّ حدّ بالغ بعض المؤرّخين في وصفه؟ وما هي آثاره وانعكاساته على مدن المغرب الأوسط والأدنى؟.

([1])- يرى شارل أندري جوليان، أنّ العزوة العربية لبلاد المغرب بلا منازع أهمّ حدث عرفته البلاد أثناء القرون الوسطى فهي الّتي أثّرت أكثر من الفتح الإسلامي تأثيرا طبع المغرب بطابع لم تمحه القرون، أنظر: شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي و البشير بن سلامة، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص97.

([2])- يذكر أغلب المؤرّخين أنّ الأضرار الّتي خلّفتها الهجرة العربية على الجانب الحضاري للمغرب الأوسط و الأدنى كان للقبائل الهلالية الدور الأكبر فيها، في حين لم تسجّل الروايات التاريخية أعمالا تخريبية تنسب لقبائل بني سليم إلاّ بشكل قليل جدا، و هذا ما يجعلنا نركّز في بحثنا هذا على التخريب الهلالي للمدن، و نقتصر على استعمال مصطلح الهلالي للدلالة على الهجرة العربية سواء الهلالية أوالسليمية و غيرها من القبائل العربية الّتي صاحبت بني هلال - أكبر القبائل العربية عددا و تأثيرا- في هجرتهم إلى أرض المغرب.

أولا: مدن المغرب الأدنى

1- خراب مدينة القيروان:

أ- الزحف الهلالي نحو مدينة القيروان و تخريب المدن:

لّما اجتازت القبائل العربية النيل قاصدة أرض المغرب كانت أوّل أرض وطأتها هي أرض برقة[1] وما والاها وذلك سنة 442هـ/1050م أين وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الأهل لأنّ زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعز ،فأقامت بها العرب واستوطنتها ،كما عاثوا في أطراف البلاد فسادا[2] ،عملا بوصية المستنصر الّذي «أباح لهم من برقة إلى ما بعدها»[3].

وعندما استقرّوا في برقة تقارعوا على البلاد كان لسليم الشرق، أي برقة ،ولهلال الغرب،أي طرابلس وما والاها غربا[4]. وخرّبوا المدينة الحمراء[5] وأجدابية[6] وسرت[7] واستقرّت في برقة بطون من سليم وأحلافها ،وسارت قبائل ذياب وعوف وزغب[8] وجميع بطون هلال إلى إفريقية «كالجراد المنتشر لا يمّرون بشيء إلاّ أتوا عليه حتّ وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة»[9].

([1])- مدينة بناها الروم، و هي برية و ساحلية، وتعدّ أوّل منبر ينزله القادم من بلاد مصر قاصدا أرض المغرب، افتتحها المسلمون أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- ومنها كان ابتداء فتح المغرب، ويصفها البكري بأنّها مدينة في صحراء حمراء التربة والمباني، وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة، كما أنّها كثيرة الثمار، وأصناف الفاكهة، أمّا الإدريسي فيصفها في وقته بعدما دخلتها العرب، بأنّ عامرها قليل، وأسواقها كاسدة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2، ص176، وللمزيد أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص310-311، وللمزيد أكثر أنظر: عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه، صلاح الدين الهواري، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1426هـ-2006م، ص 250.

([2])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 295، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 117.

([3])- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 84.

([4])- حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 602.

([5])- يقصد بها مدينة برقة.

([6])- هي مدينة كبيرة في صحراء، تقع في الجهة الجنوبية من مدينة سرت، و أهلها مياسير الحال و أصحاب ثروة، و أكثرهم من الأقباط، و تمتاز هذه المدينة بكثرة العيون و بالبساتين، و الأشجار المثمرة، و الحمّامات، و الفنادق، و الأسواق الكثيرة العامرة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2،ص177، و للمزيد أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1،ص311.

([7])- مدينة كبيرة على ساحل البحر، محاطة بسور من طوب، و لها ثلاثة أبواب، و بها أسواق، و حمّامات، و بساتين، و آبار كثيرة، أنظر: البكري: المصدر السابق، مج2،ص177.

([8])- بطن من بهتة من سليم، أنظر: السويدي: المصدر السابق، ص136.

([9])- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 66، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 582.

ولم تطل أعمال التخريب والإفساد أرض برقة فحسب، بل يضيف ابن أبي دينار أنّه «كانت لهم وقعات مع زناتة بإقليم طرابلس وكثر ضررهم وأفسدوا البلاد»[1] ،وهو ما يؤكّده الحسن الوزان بقوله: «فتوقّفوا أولا لمحاصرة طرابلس[2] حتّ أخذوها عنوة ونهبوها وقتلوا كل ما أمكنهم قتله بها»[3] ،ثمّ يردف قائلا: «ثمّ توجّهوا إلى قابس[4] وخرّبوها»[5].

وهكذا و قبل أن تصل جموع القبائل الهلالية الزاحفة نحو القيروان حتّ أتت على عمران المدن الّتي كانت في طريقها كبرقة و طرابلس و قابس و الّتي خرّبوها، و تدهورت أوضاعها.

وبين أيدينا نصوصا لعبد الواحد المراكشي يقف فيها على وضع تلك المدن بعد الخراب الّذي لحقها من طرف القبائل العربية حيث يقول: «وكان بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جدا...إلى أن خرّبت الأعراب تلك الحصون، ونفت عنها أهلها أيام خلى بنوعبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب وذلك في حدود سنة 440هـــ... فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا واستوطنها الأعراب وآثار هذه المدن باقية إلى اليوم»[6].

أمّا الحسن الوزان فيضيف بخصوص مدينة قابس الّتي كانت مدينة كبيرة، جليلة، استوفت من المحاسن الشيء الكثير، حتّ قيل أنّها جنة الدنيا، و دمشق الصغرى[7]. وبقيت على ذلك الحال حتّ نهبها الأعراب ،وتضرّر سكّانها من ذلك الخراب ممّا أدّى إلى انحطاطها، وهجرة سكّانها[8].

([1])- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص84.

([2])- مدينة من أرض (ليبيا) في يومنا هذا، تقع على ساحل البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط)، و كانت هذه المدينة في العصر الوسيط مدينة كبيرة محاطة بسور عظيم البنيان، و تكثر بها الجوامع، و الأسواق، و الحمّامات، أنظر: عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661-1663م، تح، سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، مج1، ط1، دار السويدي، أبوظبي، الإمارات، 2006، ص 135.

([3])- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 46.

([4])- مدينة من بلاد الجريد بينها و بين طرابلس ثمانية أيام و بينها و بين البحر ثلاثة أميال، و هي مدينة كبيرة بناها الرومان، تحيط بها الأسوار العالية، و لها أرباض و اسعة، و مزارع كثيرة، و أسواق عامرة، و بساتين ذات خيرات وافرة، أنظر: أبوالفدا: تقويم البلدان، ص 143، و للمزيد أنظر: التجاني: المصدر السابق، ص 87.

([5])- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 46.

([6])- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 250.

([7])- التجاني: المصدر السابق، ص 87.

([8])- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 91.

ولم ينتقل بنوهلال من برقة وطرابلس إلى المغرب الأدنى قاصدين القيروان بجملتهم ،بل أوفدوا إلى القيروان جماعة منهم وعلى رأسها أبرز زعمائهم في تلك المرحلة من الغزو وهو مؤنس بن يحي الرياحي الّذي كان سيّدا في قومه شجاعا عاقلا[1]، وهو مارغّب المعز بن باديس في استدعائه ،والتقرب منه[2] ،واستخلصه لنفسه و أصهر إليه[3] ،كما طلب منه أن يكون عونا له في حربه ضدّ أبناء عمومته لأنّ المعز كان «كارها لإخوانه صنهاجة محبّا للاستبدال بهم ،حاقدا عليهم ،ولم يكن يظهر ذلك لهم»[4] ،واستشاره في اتّخاذ بني عمّه رياح جندا ، وركزا في حربه ،فأشار عليه مؤنس بأن لا يفعل ذلك لعدم جدواه مستعينا بحجته الّتي عرّفه إيّاها ومفادها أنّ القوم قلّما يجتمعون على كلمة ،وأنّهم لا ينقادون إلى الطاعة[5] ،وأضاف ناصحا بقوله: «إنّهم قوم لا طاقة لك بهم» ،فأجابه المعز «هم دون ذلك»[6] ،وبقي يلحّ عليه في ذلك إلى أن قال له المعز: «إنّما تريد انفرادك، حسدا منك لقومك»[7]. وعلى الرغم من هذا الردّ القاسي على نصيحة مؤنس إلاّ أنّ هذا الأخير أصرّ على نصحه. ولعلّ ذاك ما دفع ابن عذاري لوصف مؤنس بأنّه شجاع عاقل ،لأنّه لم يبخل في النصيحة رغم أنّ المعز أغلظ في القول له.

عندها عزم مؤنس على الخروج إلى قومه «بعدما قدّم العذر، و أشهد بعض رجال السلطان ثمّ رحل متوجّها نحوهم»[8] فنادى في القوم وجمعهم ،ووعدهم، وعرّفهم كرم السلطان والإحسان لهم[9] ،ثمّ سار بقوم نحو القيروان وكانوا قوما «لم يعهدوا نعمة و لا طالعوا حاضرة»[10] ،حتّى وصلوا إلى أوّل قرية «تنادوا هذه القيروان وانتهبوها من حينها»[11] ،وعاثوا في البلاد ،وأظهروا

(1)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 288.
(2)- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 66.
(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 20.
(4)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 288.
(5)- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 47.
(6)- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 118.
(7)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 289.
(8)- المصدر نفسه، ج1، الصفحة نفسها.
(9)- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 47.
(10)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 289.
(11)- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 47.

في الأرض الفساد[1]. ولمّا بلغت هذه الأنباء الخطيرة إلى القيروان أدرك المعز حينها خطورة الأمر وحقيقته ،وعظم عليه ذلك ،فلجأ إلى اتّهام مؤنس بن يحي بأنّ ما حدث من تدبيره ،وقال: «إنّما فعل مؤنس هذا ليصحّح قوله ويظهر نصحه»[2] ،ولم يكتف بقوله بل أمر المعز بن باديس بأولاد مؤنس وختم على داره حتىّ يعلم ما يكون من أمره[3] ،فلمّا بلغ مؤنس ما فعل بأهله وولده اشتدّت نكايته ،وعظم بلاؤه وقال كما يورده ابن عذاري: «قدّمت النصيحة فحاق الأمر بي ونسبت الخطيئة إليّ» ،ويضيف فاشتدّت نكايته ،وعظم بلاؤه ،وشمّر للحرب والنهب ،فأخرج إليهم المعز بعض الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا ،وأعلموهم أنّ السلطان قد دفع إليهم عيالهم، «وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بالرجوع إلى الطاعة ،وأرسلوا شيوخا منهم بذلك ،ثمّ بعد ذلك نكثوا على السلطان ،واستولوا على الفساد بكل جهة ومكان»[4].

ومن المؤكد أنّ المعز بن باديس قد أخطأ في تقديره للخطر الهلالي على بلاده رغم صدق النصيحة الّتي قدّمها له شيخ الهلالية مؤنس بن يحي ،ولم يكن يدرك أنّهم سيجتاحون بلاده اجتياحا ،وأدرك سذاجته في إلحاحه على مؤنس ولكن بعد فوات الأوان ،وربّما استهان بقوة الأعراب لأنّه اغترّ بجيشه الّذي استطاع إخضاع زناتة المتمرّدين ،كما أغرّته كثرة العبيد الّذين اشتراهم و أحاط بهم نفسه ،وجعلهم عدّة جيشه ،ولكن الأمور ما كانت لتسير حسبما كان المعز يتوقّعه فقد رام الأعراب الوصول إلى القيروان ،فقال لهم مؤنس بن يحي حسبما يورده كل من ابن الأثير و النويري: «ليس هذا عندي برأي و هذا يحتاج إلى تدبير، فقالوا: وكيف تحبّ أن نصنع؟ قال: ائتوني ببساط، فأتوه به ،فبسطه وقال لهم: من يدخل إلى وسط هذا البساط من غير أن يمشي عليه؟ قالوا: كيف يقدر أحد على ذلك؟ قال: أنا ،قالوا: فأرنا كيف تقدر على ذلك ،فطوى البساط وأتى إلى طرفه ففتح منه مقدار ذراع ووقف عليه ،ثمّ فتح شيئا آخر ودخل إليه وقال: هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب ،املكوها شيئا فشيئا حتىّ لا يبقى عليكم إلاّ القيروان فأتوها فإنّكم تملكونها»[5] ،فقالوا له «إنّك لشيخنا وأميرنا وأنت المقدّم علينا ،ولسنا نقطع أمرا دونك»[6].

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 21.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 289.

([3])- عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 63.

([4])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 289.

([5])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 118.

([6])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 296، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 253.

ومن خلال هذا النص يبدو أنّ مؤنس بن يحي من خلال ما أشار به على أصحابه أنّه يريد الاستيلاء على كل المناطق المحيطة بالقيروان، و نهبها و تخريبها لإضعاف القيروان وحتّ لا تبقى إلاّ هي عندها يسهل الاستيلاء عليها.

ثمّ قدم أمراء العرب[1] إلى المعز بن باديس فأنزلهم ،وأحسن إليهم ،ولكنّهم لّما خرجوا من عنده «لم يجاوزوه بما فعل معهم بل شنّوا الغارات على البلاد، و قطعوا على الرفاق ،وأفسدوا الزروع ،وحاصروا المدن ،فضاقت وساءت أحوالهم ،وانقطعت أسفارهم ،وحلّ بإفريقية من البلاء ما لم يترل بها قط»[2] ،حيث كانوا يقومون بغارات يتخلّلها تقهقر إلى قواعد انطلاقهم وفي ذلك الوقت كانوا يخرّبون المناطق المنبسطة ،ويتحاشون المدن وينهبون ويبتزّون الأموال.

و في ظلّ ما بين أيدينا من نصوص تاريخية يصعب علينا تحديد تلك المناطق الّتي كانت ميدانا لتلك الغارات، بيد أنّ الّذي لا مرية فيه أنّ معظم المغيرين لم يتجاوزوا منطقة قابس[3].

وممّا تجدر الإشارة إليه حول هذه الأعمال التخريبية الّتي تقوم بها القبائل العربية الهلالية في حق مدن المغرب الأدنى قبل الوصول إلى القيروان تبدوأعمالا تخريبية تهدف إلى إضعاف الحضارة القيروانية بشكل منظّم و مقصود. كما اقترح عليهم مؤنس بن يحي بأن يأخذوا ما يحيط بالقيروان شيئا فشيئا حتّ لا تبقى إلاّ القيروان فيسهل منالها، كما أنّ هذه الأعمال التخريبية تتعدّى تلك التعليلات الّتي أوردها بعض النصوص التاريخية حول الوقائع الّتي جرت بين المعز بن باديس ومؤنس بن يحي والّتي أفضت إلى سوء العلاقة بينهما ،مّا جعل مؤنس بن يحي يزداد غيضا ،ويشتّد نكاية و بلاء على المعز ودولته ،لأنّ ذلك لا يبرّر ذلك الخراب الّذي ألحقوه بالمدن في طريقهم نحو مدينة القيروان وإنّما تبدو جزءا من المهمة الكبرى الّتي كلّفهم به بلاط القاهرة المتعلّقة بتدمير الدولة الزيرية في بلاد المغرب[4] ،ولاشكّ أنّ ذلك لا يتمّ لهم إلاّ إذا خرّبوا مدينة القيروان حاضرة المغرب في ذلك الأوان ،وهو ما كشفوا عنه حينما أقدموا على تخريب أولى القرى الّتي دخلوها اعتقادا منهم أنّها مدينة القيروان.

([1])- و هم مطرف بن كسلان، و فرح بن أبي حسان، و زياد بن الدونية، و فارس بن كثير، و فارس بن معروف، و هم أمراء رياح و سادهم، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 119.

([2])- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 48، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 119.

([3])- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 255.

([4])- عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي...،ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1426هـ-2005م، ص 46.

ب- هزيمة حيدران و تخريب مدينة القيروان:

لم يكتسح بنوهلال المغرب الأدنى بتمامه وكماله لأنّهم لم يجاوزوا حدود مدينة قابس من جهة القيروان ،أين اشتّدت غاراتهم و إفسادهم[1] ،وأمام خطورة هذه الأوضاع لم يكن أمام المعز بن باديس سوى اتّخاذ قرار مواجهة الأعراب عسكريا ،ولكن ذلك يتطلّب منه إعداد العدّة لذلك لاستجماع جيش قوي لإيقاف ذلك التيار الجارف[2] كما وصفه صاحب الورقات ،ولذلك يذكر ابن خلدون أنّ المعز «بعث بالصريخ إلى ابن عمّه صاحب القلعة القائد بن حماد بن بلكين فكتب إليه بكتيبة من ألف فارس سرّحهم إليه»[3] ،وكذلك طلب العون من زناتة «فوصل إليه المستنصر بن خزرون المغراوي في ألف فارس من قومه»[4] ،وأخذ المعز يستنجد بالقبائل الزناتية وغيرها إضافة إلى جيشه وعبيده ،وبقية من عرب الفتح، حتّ حشد جيشا قوامه ثلاثين ألف رجل[5] ،وفي المقابل كان عدد العرب الهلالية ثلاثة آلاف فارس[6].

و حول تفاصيل هذا الصدام الأوّل بين المعز بن باديس والعرب الهلالية نجد كل من ابن الأثير والنويري ينفردان بتفصيل وقائعه ،حيث يذكران أنّه باقتراب العرب من عساكر صنهاجة فلمّا رأتهم والعبيد معه هالهم و عظم عليهم، فقال لهم مؤنس: «ما هذا يوم فرار، فقالوا: أين نطعن هؤلاء، و قد لبسوا الكازغندات[7] والمغافر[8]؟، قال: في أعينهم، فسمي ذلك اليوم يوم العين ،والتقوا و حمي القتال»[9].

---

(1)- أحمد ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان، ج1، تح، لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية و الأخبار، (د. ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1396هـ-1976م، ص 174.

(2)- حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، القسم الأوّل، ص 448.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 20.

(4)- حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 603.

(5)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 296، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 21، عبد القادر المشرفي الجزائري: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت و لاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق و تقديم، محمد بن عبد الكريم، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 24.

(6)- التجاني: المصدر السابق، ص 20.

(7)- هي أردية محشوة من القطن أوالحرير يتذرع بها في الحرب.

(8)- هي زرد ينسج من الذروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(9)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 296، النوير: المصدر السابق، ج24، ص 119.

ولعبت الخيانة دورها فقد انظمّ عرب الفتح من جيش المعز إلى جانب العرب الهلالية للعصبية القديمة[1] حسبما يذكره ابن خلدون[2]، و فرّ الزناتيون، و اتّفقت صنهاجة على الهزيمة «وتركوا المعز مع العبيد حتىّ يرى فعلهم ،ويقتل أكثرهم ،وبعد ذلك يرجعون إلى العرب»[3] ورغم ذلك ثبت المعز مع العبيد الّذين كثر القتل فيهم ،وحاولت صنهاجة إدراك الموقف ولكن بعد فوات الأوان فقتل منهم أمّة عظيمة ،وفرّوا من ميدان القتال ،وانهزم المعز شرّ هزيمة ودخل القيروان[4] مخذولا مهزوما. وقد قيل في هذه الواقعة من الشعر ما أورده أحد الشعراء بقوله:

لقد زار وهنا من أمـــم خيال	وأيدي المطايا بالزميل عجال[5]
وإنّ باديـــس لأفضل مالك	لعمري و لكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفا منهم قد هزمتهم	ثلاثـــة آلاف و ذاك ضلال[6].

وكان عدد القتلى جرّاء هذه المعركة 3300[7] ،وكانت هزيمة عظيمة على المعز. أمّا بالنسبة للعرب الهلالية فهي انتصار يضمّ إلى ما حقّقته من انتصارات ،وسيطرة على البلاد وتخريب لعمرانها ،وزادتهم تأكيدا على هوان أمر المعز ،وضعف جيشه ،وتفرّق وحدته ،وعدم اجتماع كلمة القبائل المغربية بين صنهاجة و زناتة ،وحتىّ بين المعز وعصبته صنهاجة ،نتيجة استبدالهم بعصبة العبيد الّذين استكثرهم حوله.

وكانت هزيمة وقعة حيدران سنة 443هـــ/1052م ضربة قاسمة لدولة بني زيري ،حيث فقد المعز بن باديس معظم قواته خاصة عصبته من العبيد ،واعتصم بالقيروان.

(1)- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 21.

(2)- يحتاج ما أورده ابن خلدون بخصوص انضمام عرب الفتح إلى جيش العرب الهلالية إلى نظر، فلا يمكن أن يبقى عرب الفتح يمثّلون خلال القرن الخامس الهجري مجموعة عرقية متميزة عن بقية سكّان المغرب، و منه لا يعقل أن يعمد أولئك السكّان الحضريون أن يرتموا في أحضان العرب الهلالية البدو الرحل، و يتحدّون معهم ضدّ المعز، و لا ندري من أين استقى ابن خلدون هذه الأخبار، و الّتي ربّما سعى من و رائها إلى تدعيم نظريته الخلدونية المتمثلة في العصبية القبلية، و الّتي لا تنطبق على كل فصول المعركة، فإذا كان انضمام عرب الفتح للعرب الهلالية عصبية قبلية فكيف نفسّر خيانة زناتة و صنهاجة للمعز فما مصير العصبية القبيلة هنا؟

(3)- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 119.

(4)- ابن أبي دينار: المرجع السابق، ص 84، حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 604.

(5)- الأبيات من البحر الطويل.

(6)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 21، رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص 50.

(7)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 21، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 258.

إنّ هذه المعركة الّتي عرفت بيوم العين حسب ابن الأثير والنويري تكون هي أولى الهزائم الّتي مني بها المعز في هذه الحرب ضدّ العرب الهلالية ،ولكن ابن عذاري يرى غير ذلك، فعلى حدّ تعبيره فإنّ أوّل المعارك الّتي خاضها المعز في سنة 443هـ/1052م ضدّ العرب الهلالية هي معركة عيد الأضحى ،الّتي وصفها بالداهية العظمى ،والمصيبة الكبرى ،وهي معركة جبل حيدران[1] والّتي هزم فيها المعز وجميع صنهاجة شرّ هزيمة ،وكان جيشه بلغ حينها ثمانين ألف رجل[2] ،في حين أنّ هذه المعركة حسب ابن الأثير والنويري هي المعركة الثانية بعد وقعة يوم العين والّتي كانت في عيد النحر من نفس السنة أين جمع المعز سبعا وعشرين فارسا «وهجم على العرب وهم في صلاة العيد فقطعت العرب الصلاة ،وركبوا خيولهم فانهزمت صنهاجة ،وقتل منهم خلقا كثيرا»[3]، لكنّه أعاد جمع جيشه من جديد ،وخرج في صنهاجة وزناتة لحرب العرب يريد مباغتتها في بيوتها ،غير أنّه ما إن أشرف على بيوتها حتّ ركبت العرب خيولها وكانوا سبعة آلاف فالتقوا واقتتلوا ،وانهزم المعز بن باديس رغم ثباته فيمن كان حوله ،ثمّ عاد إلى المنصورية[4].

و على الرغم من ذلك الاختلاف في تحديد أولى تلك المعارك ،والّذي قد يُعزى إلى مصادر اقتباسها فهناك من اقتبس من ابن شرف[5] ،وهناك من اقتبس من أبي الصلت[6] وكلاهما مؤرّخان للدولة الصنهاجية ،فإنّ هناك اتّفاقا حول ما أعقب تلك الهزائم الّتي مني بها المعز بن باديس ،وما أقدمت عليه العرب الهلالية من تخريب وإفساد ونهب تفنّن المؤرّخون في سرد تفاصيله.

فابن عذاري يذكر بأنّ العرب دخلت عسكر المعز فحازوه بما فيه من ذهب وفضة ومتاع،وفرّ الناس إلى جبل حيدران ،وافترقوا فيه، و أهل القيروان لا علم لهم بذلك، بل إنّهم

([1])- اختلف المؤرّخون في تحديد موقع حيدران، فابن خلدون يذكر أنّه يقع بنواحي قابس، في حين يرى ابن الأثير أنّه على ثلاث مراحل من القيروان،أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص21، و للمزيد أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص296.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 289-290.

([3])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 297، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 120.

([4])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 297، رابح بونار: المرجع السابق، ص 197.

([5])- هومحمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني ثمّ الأندلسي، الشاعر الشهير الّذي كان يتنافس مع ابن رشيق، توفي سنة 460هـ/1068م، أنظر: إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين في أسماء المؤلفين و آثار المصنفين، مج2، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1955، ص 72، و للمزيد أنظر: علي أبوالحسن القابسي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلمين و المتعلمين، تحقيق و تعليق، أحمد خالد، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، 1986، تونس، ص 13.

([6])- عاش ستين سنة، عشرون منها في إشبيلية، و عشرون قضاها في مصر، و العشرون الأخيرة في المهدية ،وقد عاش محترما تحت ملوك بني زيري المتأخرين، حتّ وفاته سنة 546هـ/1151م، أنظر: رابح بونار: المرجع السابق، ص 280.

كانوا تحت توقّع وتشوّف ،ثمّ «وصل العرب إلى نواحي القيروان ،وجعل كل من سبق إلى قرية يسمّي نفسه لهم ،ويؤمّنهم ويعطيهم قلنسوته أو رقعة يكتبها لهم علامة ليعلم غيره أنّه قد سبقه»[1]، ولا شكّ أنّ هذا الأمر قد أحدث هلعا واضطّرابا عظيما في القيروان الّتي بات أهاليها يترقّبون ما هو نازل بهم لا يدخل إليها داخل ولا يخرج منها خارج وخيل العرب تسرح حول المدينة من كلّ جهة ومكان ،والناس يرونهم عيانا[2].

ثمّ إنّ العرب قد رجعوا في الأمان الّذي أعطوه إلى أهل البوادي فعمدوا إلى تخريبها وانتهابها جميعا ،فاضطرّ أهلها إلى الانتقال إلى القيروان. وحتّ المعز فإنّنا نجده هو الآخر عندما رأى ما حلّ بالبوادي والنواحي من تخريب ونهب يصدر أمرا بانتهاب الزروع المحيطة بالقيروان وصبرة فهرع النّاس لانتهابها ،وحسبوها من أرزاقهم إلاّ أنّ ذلك أدّى إلى فساد الغلات والمحاصيل وهلاكها[3]. ولا ندري ما قصد المعز من وراء ذلك الأمر بالانتهاب الّذي أفضى إلى فساد الزرع ،فربّما كان سعيا منه لقطع الطريق أمام العرب نحو القيروان وذلك بنهب ما يحيط بها حتّ لا تجد الأعراب ما تنهب فتستقرّ في نواحيها وبواديها ،أو ربّما سعيا منه لأن يؤمّن النّاس أقواتهم بنهب الزروع قبل أن تصلها أيادي النهب من العرب ،وهو سلوك ينمّ عن انعدام السبل أمام المعز لوقف هذا الزحف الهلالي نحو مدينة القيروان.

وما كان هذا الإجراء ليؤتي أكله ويوقف تهديد العرب الّذين ظهرت خيلهم في 17 ذي الحجة سنة 443هـ/19 أفريل 1052م على ثلاثة أميال من القيروان ،وبات الناس على خوف عظيم، فأمر المعز بن باديس بأن ينقل عامّة أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان مع إخلاء كل حوانيت صبرة ،ثمّ أمر بإعمار صبرة بالصنهاجيين وغيرهم من العساكر الّذين بالقيروان ،وينزلوا في حوانيتها وأسواقها ،فعظم الخطب حينها واشتّد الكرب ،وفوق ذلك فإنّ هذا الإجراء الّذي اتّخذه المعز هو الآخر قد أضرّ بالعمارة كما أضرّ سابقه بالزرع ،وهو ما يسوقه ابن عذاري بقوله: «ومدّ العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها ،واقتلعوها وخرّبت العمارة العظيمة في ساعة واحدة»[4].

(1)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 290-291، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 259.

(2)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 291.

(3)- المصدر نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

(4)- المصدر نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

وهكذا فقد ساهم المعز بن باديس في تخريب العمارة من حيث لا يدري، فكان الخوف والهلع من غارات العرب الهلالية في منطقة القيروان وأرباضها[1] قد أدّى إلى تخريب العمارة بالمنطقة و ذلك قصد تجنيب البلاد أعمال التخريب على يد قبائل بني هلال، و لكنّ ذلك لك يزد عن كونه خراب يضاف إلى ما يقترفه بنو هلال في حق عمران تلك البلاد بعيثهم فسادا[2] أو تخريبا في نواحي القيروان.

وتستمرّ وقائع الحرب بين المعز بن باديس والعرب الهلالية ،حيث كانت وقعة المصلى حسب ابن الأثير والنويري وابن خلدون[3]، و هي على ما يبدو نفسها وقعة باب تونس –أحد أبواب القيروان[4]- عند ابن عذاري، حيث ذكروها جميعا بعد موقعة حيدران ،وتبدو رواية ابن عذاري أوفى من روايات غيره و جاءت كما يلي: «وذلك أنّ العرب دفعت إلى هذا الباب فخرج إليهم العامّة ،منهم بسلاح ومنهم بيده عصا لا يدفع بها أضعف الكلاب ،فحملت عليهم فرسان العرب و تمكّنت منهم سيوفهم و رماحهم، فتساقطوا على وجوههم و جنوبهم، و لم يبق إلاّ من حصّنه أجله ،و لم يتركوا على حيّ ولا ميّت خرقة تواريه ،وخرج أهل القتلى عند انصراف العرب فرفعوا قتلاهم، فقامت النوائح والنوادب بكل جهة ... و جرح من الناس خلق كثير... فكان هذا يوم مصائب و أنكاد و نوائب»[5].

وأمام هذه الهزائم المتوالية والانتكاسات العسكرية المتعاقبة، والنهب والسلب ،والإسراف في القتل والتخريب المتواصل لم يجد المعز بن باديس خيارا غير اللجوء إلى رفع الحرب وإقرار السلم حتىّ يجنّب بلاده أسباب النهب والخراب ،فركن للصلح مع العرب في مطلع سنة 444هـ/1052م ،وأباح للعرب دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع و شراء ظنّا منه أنّهم يرجعون إلى

(1)- الأرباض جمع ربض بفتح الباء أو سكونها، و هو ما حول المدينة، يطلقه المغاربة و الأندلسيون على الناحية القريبة من أسوار المدينة، و المشتملة في الغالب على دور الطبقة العاملة و الفقيرة، و زرائب الماشية و الخشب و ما شبهها، أنظر تعليق المحقّق من كتاب: محمد بن القاسم الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح، عبد الوهاب بن منصور، ط2، (د.د.ن)، الرباط، المغرب، 1403هـ-1983م، ص 43.

(2)- سعيد دحماني: تاريخ الجزائر في القرون الوسطى من كتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1432هـ-2011م، ص 103.

(3)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص297، النويري: المصدر السابق، ج24، ص120، ابن خلدون: العبر،ج6، ص21.

(4)- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 199.

(5)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 292.

بلادهم[1] ،غير أنّ ذلك لم يغن عنه شيئا ،حيث لّما دخلوا المدينة استطال عليهم العامّة وأهانوهم وشتموهم ،فقتلت العرب منهم خلقا كثيرا[2].

و في الوقت الّذي كانت العرب منشغلة بالإغارة بنواحي القيروان حاول المعز عبثا أن يستغلّ ذلك الهدوء النسبي في بناء سور[3] القيروان –في نفس السنة- وكذلك سور زويلة[4] لعلّه يكون ناجعا في صدّ هجمات الأعراب بعدما فشلت جيوش صنهاجة وزناتة عن صدّها.

و في سنة 446هـ/1054م أحاطت العرب بالقيروان ،وأحكموا حصارها ،وضيّقوا عليها تضييقا شديدا حتّ هلكت الضواحي والقرى ،وملك مؤنس بن يحي مدينة باجة وأطاعه أهلها ،فأشار المعز بن باديس على الرعيّة بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم[5].

عندئذ شرعت العرب «في هدم الحصون والقصور ،وقلع الثمار ،وتعمية العيون ، وخراب الأنهار» ،واقتسموا براريها وأفسدوا حواضرها[6].

وهكذا كانت بلاد المغرب الأدنى تضيع من يد المعز وهو محاصر في القيروان لا يقوى على وقف نهب وتخريب بني هلال لها ،فعمد إلى مصاهرتهم بثلاث من بناته لثلاثة من شيوخ العرب وبفضل أصهاره استطاع الانتقال إلى المهدية سنة 449هـ/1057م ،أين استقبله ابنه تميم[7].

وبانتقال المعز بن باديس عن القيروان سنة 449هـ/1057م فسح المجال أمام العرب الهلالية لدخول القيروان ،وأي دخول كان، فقد تفنّنوا في أساليب التخريب ،والنهب والإفساد ،كما يصف ذلك المؤرّخون، فابن أبي دينار يذكر أنّه في «رمضان سنة تسع وأربعين وأربعمائة نهبت

---

(1)- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 84.

(2)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 297، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 120.

(3)- سور المدينة: هو المعيار الحضاري للمدينة الإسلامية الّذي يبنى بسمك محدّد، و ارتفاع معلوم ليتّفق مع نوعية السلاح وأساليب الدفاع و الهجوم، و هو يبعد عن الأحياء السكنية بمسافة معلومة حفاظا على حرمة السكّان، و إبعادا لهم ممّا قد يصيبهم من أيّ خطر في الحروب، أنظر: عبد العزيز لعرج: «العمران الإسلامي و عمارته السكنية: قيم دينية و دلالات اجتماعية»، مجلة حولية المؤرّخ، العدد 03-04، إتحاد المؤرّخين الجزائريين، الجزائر، 2003، ص 82.

(4)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 293.

(5)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 297.

(6)- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 84 ،النويري: المصدر السابق، ج24، ص 120.

(7)- حسن حسني عبد الوهاب: بساط العقيق في حضارة القيروان و شاعرها ابن رشيق، تقديم، محمد العروسي المطوي، ط2، مكتبة المنار، تونس، 1970، ص 71.

العرب القيروان وكان ذلك سبب خرابها»[1]. أما ابن خلدون فيقول: «وجاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه واكتسحوا المكاسب ،وخرّبوا المباني ،وعاثوا في محاسنها ،وطمسوا من الحسن والرونق معالمها واستصفوا ما كان لآل بلكين... وشملوا بالعيث والنهب سائر حريمها... فعظمت الرزية ،وانتشر الداء وأعضل الخطب»[2]. ويضيف المقريزي «فدخل العرب القيروان واستباحوا وخرّبوا مبانيه... فخرّبت افريقية بأسرها»[3]، واحتلّت القيروان ودمّرت سنة 449هـ/ 1057م[4] ،ويعزّز ذلك حسين مؤنس بقوله: «دخل الهلاليون القيروان وخرّبوها تماما كما خرّبوا قبل ذلك ما مرّوا به من مدن طرابلس و إفريقية وجعلوها حطاما ،وقتلوا من أهلها من قدروا عليه وتفرّق الباقون فعمّ الخراب البلاد»[5].

ويورد الدباغ نصّا حول حيثيات التخريب الهلالي لمدينة القيروان الّذين وصل بهم الأمر حتّ نزول الآبار وهدمها فيذكر: «ما جرى على القيروان ما جرى من نهب العرب لها وسبي حريمها ودخولها بالسيف ،ولم يبق بها دار إلاّ دخلت حتّ نزلت آبارها ،وهدم ما اتّهم أنّ فيه خبئا منها ،وبقيت خالية لا أنيس بها وأهلها قد ذهلت عقولهم ،وزهقت نفوسهم وفرّ الخليل عن خليله ،واشتغل كل بنفسه ،ولم يبق بالقيروان غير رجل واحد حمّال يعرف بعبّود طلع صومعة جامعها وأقام بها مدة خلائها»[6].

ج- العوامل المساعدة على تخريب مدينة القيروان:

من خلال النصوص التاريخية الّتي أوردناها بخصوص المعارك والحروب الّتي دارت بين المعز بن باديس والعرب الهلالية ،والّتي كان النصر في كلّ مرة حليف العرب الّذين لم يتورّعوا عن الاستيلاء على المدن ونهبها وتخريبها ،وزهق الأرواح دون هوادة ،وتشديد الحصار على مدينة القيروان الّتي فضّلوا أن تكون آخر المدن الّتي ينهبونها ويخرّبونها بعدما يتمّوا نهب وتخريب المدن

(1)- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 85.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 22.

(3)- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 66.

(4)- محمد الهادي الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب، محمد الشاوش و محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص 50.

(5)- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، ص 171.

(6)- الدباغ: المصدر السابق، مج1، ص 47.

والضواحي حول القيروان[1] ،وهو ماحصل حقيقة فبعدما سيطروا على المدن والضواحي وخرّبوها ،واشتّد إفسادهم بالحرث والنسل والعمران ،وفرّ المعز يائسا من كلّ أمل في صدّ هجمات العرب ،وردّهم عمّا يصبون إليه ،وتحصّن بمدينة المهدية[2]، عندئذ أصبحت مدينة القيروان بلا رقيب ولا حماية ،فدخلتها جيوش العرب وخرّبت عمرانها ،ولم تنفع الأسوار الّتي بناها المعز لحماية المدينة[3] ،وتأمين أهلها ،وصدّ الغارات العربية عليها[4]. وهو مايدفعنا للوقوف على جملة من العوامل الّتي كانت سببا مساعدا للعرب الهلالية في تخريب مدينة القيروان ،وغيرها من المدن الّتي خرّبت بالمغرب الأدنى:

1- لقد كان للأخطاء الّتي وقع فيها المعز بن باديس في سياسته تجاه الدخول العربي الهلالي دور لا يستهان به في تهيئة الظروف المناسبة لتخريب مدن المغرب الأدنى وعلى رأسها مدينة القيروان بداية من إعلانه القطيعة مع شيعة بلاط القاهرة في ظرف كانت دولته تعرف أوضاعا مضطّربة ،حيث انقسمت الأسرة الصنهاجية إلى قسمين ،اضافة إلى صراعه مع قبائل زناتة ،وهو ما أضعف دولته ،وبذلك عجز عن صد القوة الهلالية التي وجدت أمامها جيشا ضعيفا مفكّكا.

ثمّ أتبع المعز ذلك بسوء تقديره لهذه القوة العربية الهلالية الّتي حاول عبثا أن يستعين بأحد بطونها على بني عمومته الكاره لهم ،والعدو التقليدي زناتة ،غير أنّ ذلك أفضى إلى دخوله في حرب مع العرب جلبت لبلاده أصنافا عدّة من الخراب والنهب ،ورغم استغاثته ببني عمومته ،والقبائل الزناتية الّذين عزم قبلها على التحالف مع العرب لحربهم ،فاجتمعوا إليه وحدث تحالف صنهاجي زناتي لحرب العرب وصدّهم إلاّ أنّ ذلك التحالف سرعان ما أنهار و هزم المعز واشتّد البلاء وزادت أعمال التخريب والنهب[5].

إضافة إلى سياسة المعز بن باديس تجاه جيشه وأتباعه حينما أظهر نفوره من جنوده الصنهاجين وآثر العبيد عليهم ،وهو ما دفعهم لخيانته في معركة حيدران ،أين تركوه مع العبيد الّذين أثخنت فيهم العرب الهلالية[6].

([1])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 296.

([2])- التجاني: المصدر السابق، ص 329.

([3])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 293.

([4])- عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 584.

([5])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص21 ،النويري: المصدر السابق، ج24، ص 120.

([6])- رابح بونار: المرجع السابق، ص 198 ،حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص 97.

وأخيرا نجد المعز يفرّ من القيروان خفية مستعينا بأصهاره من العرب إلى المهدية[1] فاسحا المجال لأيادي النهب والتخريب داخل مدينة القيروان من طرف عرب بني هلال ،وذلك عندما انعدمت أمامه كل السبل في إبعاد خطر العرب عن بلاده.

ومن الجدير التذكير أنّ المعز بن باديس في الوقت الّذي كان يرى مملكته تنهار شيئا فشيئا عاد إلى حضيرة الخلافة الشيعية ودخل في طاعتهم سنة 446هـ/54-1055م ،إلاّ أنّ تغيير موقف المعز لم يثر حوله كثير من اللغط ذلك أنّ أهل المغرب الأدنى المهدّدين في أنفسهم وممتلكاتهم لم يكن لديهم متّسع من الوقت للاهتمام بالأمور السياسية[2] ،ولعلّ المعز يرجو من وراء رجوعه إلى الولاء هذا إمكانية تفادي الكارثة الّتي حلّت بمملكته ،والّتي عجز عن إيقافها ،بأن تكون بعض الأوامر والتوصيات من طرف رجال بلاط القاهرة إلى العرب الهلالية الّذين سلّموا إليهم أمر المغرب[3] ،مع العلم أنّ بني هلال يعترفون ولو اسميا بالشيعة في القاهرة[4] ،وذلك بأنّ يخفّفوا وطأهم على بلاد المغرب والكّف عن النهب[5] والتخريب ،ولما لا الرجوع من حيث أتوا. غير أنّ ذلك كان من قبيل الوهم ،إذ لم يأبه له الشيعة في بلاط القاهرة ،و م يتوقّف العرب عن النهب والتخريب في مختلف نواحي المغرب الأدنى.

وبما أنّ المعز فقد الأمل مطلقا في إمكانية اتّخاذ بلاط القاهرة أيّ إجراء في صالحه ما دامت العرب دخلت القيروان وخرّبته ،كما خرّبت باقي مدن المغرب الأدنى[6]، نجد الخليفة المستنصر العبيدي يتلقّى هذه الأنباء بفرح وسرور لا مثيل لهما ،فقد أرسل رسالة إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن جاء فيها: «وإنّه خلّف ابن باديس اللعين محصورا في منفاه من الأرض محمولا على شفا جرف من الأخذ والقبض، فقد فغر الردى له فمه ،ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه ،وأمير المؤمنين يسأل الله جلت عظمته، معونته على شكر نعمه الّتي هوعن القيام بواجب أقلّها

---

(1)- التجاني: المصدر السابق، ص329، عبد الحميد بوسماحة: رحلة بني هلال و خصائصها التاريخية و الاجتماعية والاقتصادية، ج1، (د.ط)، دار السبيل للنشر و التوزيع، بن عكنون، الجزائر، 2008، ص 168.

(2)- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 268.

(3)- عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 63.

(4)- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 268.

(5)- يذكر أنّ كمية كبيرة من الأشياء المنهوبة، كالأسلحة و الأجهزة و الأدوات الحربية و الخيام، قد وصلت إلى القاهرة، وهو ما يؤكّد متانة العلاقات القائمة بين المغيرين و الخلافة الفاطمية، أنظر: روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 272.

(6)- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 66.

محصور ،ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور ،ويقول الحمد لله الّذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربنّا لغفور شكور ،أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذه العارفة الطارئة أن تنشره على المنابر ،وتذيعه في البوادي والحواضر إن شاء الله تعالى»[1].

2- القوة والشجاعة الكبيرة الّتي تحلّى بها العرب الهلالية في حربهم ضدّ المعز ،وغزوهم لمملكة بني زيري. إضافة إلى مهاراتهم الحربية[2] ،وحنكة شيوخ القبائل العربية على غرار ما أشار به مؤنس بن يحي الرياحي من فكرة الاستيلاء على النواحي المحيطة بالقيروان وعدم الابتدار بها[3] ،حتّى يتمكّنوا من ضواحيها عندها لا تبقى إلا القيروان ،وفعلا تحقّق ما أشار عليهم حتّى لم تبق إلاّ القيروان فدخلوها وخرّبوها[4].

3- كان موقع القيروان سهلا بالنسبة للغزو الهلالي الّذي دخل المدينة بسهولة وخرّبها[5] رغم أنّ المعز قد بنى سورها سنة 444هـ/1052م ،كما يذكر ابن عذاري بقوله: «وفي هذه السنة بنى المعز سور القيروان ،وسور زويلة ،وجعل السور ممّا يلي صبره كالفصيل: حائطان متصلان إلى صبرة ،وبينهما نحو نصف ميل»[6] ،إلاّ أنّه لم يمنع دخول العرب إليها لأنّها في بسيط من الأرض ،غير أنّنا نجد أنّ لويس أرشيبالد يذكر أنّ القيروان وضاحيتها المنصورية كانتا في منأى عن أضرار القبائل العربية الّتي تشنّ الغارات على الضواحي ،وذلك لأنّ القيروان كانت محصّنة بالأسوار المحيطة بها ،إلاّ أنّ ضعف مقاومة الزيريين للعرب الهلالية جعلها تطيل المقام ،وتفسد في الأقاليم الخصبة ،وتلتهم خيراتها. وبانسحاب الزيريين من عاصمتهم ولجوئهم إلى قلعتهم الحصينة مدينة المهدية نهبت العرب المنصورية والقيروان وخرّبت الدور والقصور العظيمة[7]. وهو بذلك

([1])- طارق بن زاوي: المرجع السابق، ص 162.

([2])- رابح بونار: المرجع السابق، ص 198.

([3])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 118.

([4])- عبد الغاني حروز: «الحياة العلمية في قلعة بني حماد (408-461هـ/ 1017-1070م)»، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2010-2011، ص 48.

([5])- روبار برانشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج1، ترجمة، حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص 356.

([6])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 293.

([7])- لويس أرشيبالد: المرجع السابق، ص 364.

يحصر سبب خراب القيروان في ضعف مقاومة الزيريين للعرب ثمّ الفرار للمهدية وترك القيروان خاوية على عروشها للقبائل العربية الهلالية.

2- حصار مدينة المهدية و خراب أرباضها:

أمام فشل المعز بن باديس في درء الخطر الهلالي عن مملكته اضطرّ للانتقال إلى مدينة المهدية المحصّنة ،وعلى الرغم من خروجه إليها خفية إلاّ أنّه لم يسلم من ملاحقة العرب له ،ولو لم كان في خفير من أصهاره العرب لظفروا وقتلوه ،إذ يذكر التجاني في رحلته أنّ المعز خرج من صبرة متوجّها إلى المهدية «في خفارة رجلين من العرب قد كان صاهرهما ببنتيه يعرف أحدهما بالفضل بن أبي علي وهو مرداسي ويعرف الآخر بفارس بن أبي الغيث توجّها إليه فأستخرجاه من صبرة سرا ،وأحسّ باقي الأعراب بخروجه فلحقوه في أثناء الطريق ،فوافقهم فارس بن أبي الغيث في جماعة من قومه وجعل يؤنّبهم على الاستخفاف بخفارته ،فقالوا له: إنّك قد أعظمت التحامل علينا في خفارة مثل: المعز وتركنا له عظيم والفائدة في أخذه كبيرة ،فلا تمنعنا منه. فلم يزل يوافقهم ويراجعهم إلى أن خلّص المعز وصاحبه الفضل بن أبي علي ودخل المهدية»[(1)] ،وغداة رحيله إلى المهدية علم الناس في القيروان بذلك فغادر أهلها المدينة وانتقلوا إلى المهدية[(2)].

وبعدما انتهبت العرب القيروان وخرّبتها عزموا على ملاحقة المعز بن باديس ،فارتحلوا إلى المهدية قطعوا المواصلات عنها ،وضيّقوا عليها بمنع المرافق وإفساد السابلة ،ثمّ دخلوا في حرب مع زناتة سنة 450هـ/1058م[(3)] ،وفي خضمّ ذلك عمّت الفوضى ،والخراب في البلاد[(4)].

وحاولت العرب الهلالية اقتحام مدينة المهدية لكن تميم بن المعز أحبط محاولاتهم. ولاشكّ أنّ للموقع الطبيعي الحصين لهذه المدينة الدور الرئيس في إفشال تلك المحاولات ،فهي مدينة يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ،وبابها من حديد[(5)] يصعب اقتحامه ،وبذلك سلمت هذه المدينة من أعمال التخريب ،إذ اكتفت القبائل الهلالية بنهب وتخريب أرباض المهدية على غرار زويلة ،التي خربت ونهبت بساتينها[(6)].

([1])- التجاني: المصدر السابق، ص 329-330.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 22، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 272.

([3])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 297، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 294.

([4])- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، ص 171.

([5])- البكري: المصدر السابق، مج2، ص 202.

([6])- أنظر: روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 340.

وهكذا عجزت القبائل الهلالية عن اقتحام مدينة المهدية ،كما عجزت في وقت مضى عن دخولها جيوش أبي يزيد مخلد بن كيد النكاري أيام خروجه على الدولة الشيعية وتخريبه لأغلب مدن المغرب الأدنى[1].

وهذا الموقع الحصين لمدينة المهدية يدفعنا للإشارة إلى ما أورده ابن خلدون في أحد فصول مؤلّفه المقدّمة والمتعلّق بالمباني العظيمة ،الّتي يصعب هدمها وتخريبها إذ يقول: «إنّا نجد آثار كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها ،مع أنّ الهدم أسهل من البناء بكثير ،لأنّ الهدم رجوع إلى الأصل الّذي هو العدم ،والبناء على خلاف الأصل فإذا وجدنا بناء تضعف قدرنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدر الّتي أسّسته مفرطة القوة وأنّها ليست أثر دولة واحدة»[2]. ومنه فإنّ البناء القوي يصعب على القوى تخريبه عكس البناء السهل ،وهو ماحصل للقبائل الهلالية الّتي خرّبت القيروان لسهولة البناء ،ووقوعها في بسيط من الأرض ،وافتقارها للأسوار الحصينة، و عجزت عن تخريب المهدية لموقعها الحصين ومتانة الأسوار والأبواب.

وصفوة القول فإنّ هذا الزحف الهلالي قد أضرّ بعمران أغلب مدن المغرب الأدنى خاصة مدينة القيروان ،حيث نهبت الدكاكين ،وهدمت المباني ،وخرّبت المنازل والقصور[3]. وإن كانت مدينة القيروان قد أخذت القسط الأكبر من سياسة التخريب الهلالي على اعتبارها الحاضرة الكبرى في منطقة المغرب الأدنى ،فإنّ فشلها في اقتحام المهدية ،جعلها تعمد إلى نهب وتخريب الضواحي ،كما خرّبوا مدنا أخرى مثل الأربس وباجة[4] و القصبة[5].ولا شكّ أنّ لهذا التخريب انعكاسات على عمران مدن المنطقة ،وعلى مستقبلها في مختلف نواحيه.

3- نتائج التخريب:

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينكر أحد أنّ للخراب الكبير الّذي أحدثه الهلاليون لبلاد المغرب منذ دخول المنطقة عبر بوابتها الشرقية بمدينة برقة ثمّ توغّلهم غربا حتّى القيروان والمهدية ،وما كان له من انعكاسات أثّرت على حضارة المنطقة ،ففيما تتمثّل تلك الانعكاسات يا ترى؟.

([1])- أنظر: مبحث ثورة أبي يزيد و تخريب المدن، من الفصل الثاني من هذه البحث.

([2])- ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص 180.

([3])- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 392.

([4])- صالح بعيزيق: «بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية»، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، 1996،ص 44.

([5])- مدينة عتيقة، بناها الرومان، وسط سهل فسيح تبعد عن تونس بحوالي أربعة و ثلاثين ميلا، مبنية بحجارة ضخمة وقد خرّبها الأعراب، أنظر: الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 67.

أ- الجانب العمراني:

في ظلّ الصراعات والحروب المتواصلة يبقى العمران أحد المظاهر الحضارية المستهدفة نتيجة ما تحدثه القوى المنتصرة من خراب وحرق ودمار لذلك العمران، والقصد من ورائه غالبا إضعاف أوالقضاء على الممالك و الدول المنهزمة ،وطمس إرثها الحضاري ،حتّ تغدو نسيا منسيا ،وهو حال عمران المغرب الأدنى عندما ضعفت مملكة بني زيري أمام الزحف العربي الهلالي ،وتوالت هزائمها أمام قبائل بني هلال ،وما أعقبها من عمليات تخريب مسّت عمران مدن المنطقة.

و في الحقيقة فإنّني أتساءل عن دواعي هذا التخريب الّذي أحدثه بنوهلال لمدن المغرب هل كان ضمن بنود وصية المستنصر العبيدي للقبائل العربية عندما أقطعوها أرض المغرب؟-هذا إذا ما اقتنعنا أنّ ذلك هو السبب الرئيس في هجرتهم إلى المغرب- حيث يذكر ابن خلدون أنّه خاطبهم قائلا: «قد أعطيتكم المغرب و ملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون»[1] ،فهل ذاك أمر باستباحة بلاد المغرب أو بالأحرى مملكة بني زيري بكل ما اشتمل عليه من معنى الاستباحة سواء بالقتل ،أوالنهب ،أوالتخريب والدّمار؟. إنّ هذا الرأي قد يتدّعم إن صحّت الرواية الّتي أوردها النويري ،والّتي تحدّد بشكل دقيق أنّ المستنصر قد أوصاهم بتخريب البلاد دون هوادة ،حينما يذكر قائلا: «ثمّ أحضر أمراءهم و أباح لهم على لسان المستنصر أعمال القيروان ووعدهم بالمدد والعدد و أمرهم بالعيث والإخراب»[2].

ومهما يكن السبب الكامن وراء ذلك التخريب فإنّ عمران المغرب قد تضرّر إلى حدّ ما جرّاء الدخول الهلالي ،الّذي أدّى إلى هدم وتخريب البيوت ،والقصور العظيمة والأسوار والحصون. وشمل ذلك التخريب أغلب مدن المغرب الأدنى كقابس وصبرة والقيروان[3] وتونس ،الّتي ألحقوا أضرارا كبيرة بمنشآتها العمرانية المختلفة -كما أسلفنا- و لم تسلم كذلك من ذلك التخريب إضافة إلى المدن ،عدة قرى وأرباض ،كأرباض القيروان والمهدية.[4]

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 20.

([2])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 117.

([3])- عبد الله أبوعبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، (د.ط)، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت)، ص 49.

([4])- يذكر الحسن الوزان أنّ من بين المدن الّتي خرّبتها العرب الهلالية إلى جانب ما ذكرناه مدينة تيفاش، والّتي تكون قد دمّرت عند قدوم الأعراب إلى المغرب، ثمّ عمّرت من جديد ليستولي عليها أعراب آخرون، و بقيت هذه المدينة في ملك قبيلة هوارة، حتّ خرّبت مرة أخرى على يد ملكها (قائد قبيلة هوارة) سنة 915هـ/1509م، أنظر: الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 63.

وعلى إثر ذلك الدّمار والخراب الّذي حلّ بمدن المغرب الأدنى حمل عليهم الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب حملة شديدة واصفا من خلالها حال المغرب بعد الغزوة الهلالية بقوله: «وفوق ذلك كلّه لا ننسى تلك الكارثة العظيمة المؤلمة زحفة الأعراب من بني هلال وبني سليم في آخر عهد المعز بن باديس سنة 449هـ/1057م[1]، فإنّها كانت القاضية على تمدّن البلاد، إذ زعزعت أركان الحضارة العربية بإفريقية ،وذهبت برونقها اللامع كأمس الدابر وحتّمت على السكّان الجلاء إلى الأصقاع ما بين المشرق والمغرب ،فأصبح بعد انتقالهم أثرا بعد عين»[2].

ولكن لا بّد من الإشارة إلى أنّ المعز بن باديس هو الآخر كان له نصيب في عمليات التخريب الّتي مسّت المنطقة ،حينما أمر كافة الناس بنهب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة ،وكان مصيرها الفساد والتلف ،وكذلك حين أمر عامّة أهل صبرة بالانتقال إلى القيروان وإخلاء الحوانيت كلّها بصبرة ،وأمر جميع من بالقيروان من الصنهاجيين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى صبرة فيتزلون في حوانيتها وأسواقها ،فأقدم العبيد ورجال صنهاجة على اقتلاع خشب الحوانيت وسقائفها ،فخرّبت العمارة كما يذكر ابن عذاري في ساعة واحدة[3].

وحقيقة الأمر أنّ المعز ما قصد تخريب العمارة وإتلاف الزروع ،بل كانت إجراءات طارئة اتّخذت في خضمّ الحرب الدائرة بينه وبين قبائل بني هلال، هذه الأخيرة الّتي أحدثت هلعا كبيرا بالنسبة للمعز ،وكذا في أوساط رعيّته ،فسعى إلى إبعادها عن القيروان بأيّ طريقة كانت ،حتّ ولو على حساب الزرع والعمارة.

ومجمل القول فإنّ الصورة القاتمة الّتي أوردها أغلب المصادر التاريخية على غرار ابن خلدون والّتي أضفت على الهجرة الهلالية طابع الخراب والدّمار لعمران المغرب الأدنى بشكل عام وللقيروان على الخصوص ،والّتي آلت على حدّ تعبيرهم إلى طمس معالم الحضارة بالمنطقة ،تحتاج إلى إعادة النظر ،ودراسة دقيقة تميط اللثام عن حقيقة تلك الهجرة العربية ،ومدى إضرارها بالعمران ،وهو ماسنقف عليه فيما سيأتي من هذا البحث[4].

([1])- هنا يقصد تخريب القيروان الّذي كان في سنة 449هـ/1057م، بعد أن خرج منها المعز إلى المهدية، و ليس بداية الزحف الهلالي السليمي الّذي كانت بدايته سنة 443هـ/1051م نحو المغرب الأدنى.

([2])- حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، القسم الأوّل، ص 349.

([3])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 291.

([4])- في مبحث آراء المؤرّخين حول أثر الهجرة الهلالية، في الفصل الثالث من هذا البحث.

ب- الجانب السياسي:

لقد عرفت منطقة المغرب الأدنى بعد الغزو الهلالي لها وما نجم عنه، انحلالا سياسيا كبيرا لم تعرفه من قبل ،بعدما سيطروا أيضا على المناطق الداخلية الممتدة من قابس إلى القيروان ،واقتصر ملك بني زيري على المهدية وما يليها ،علما أنّ منطقة المغرب الأوسط كانت ترضخ تحت نير حكم بني حماد ،وفي ظلّ ذلك الاضطّراب انقسمت البلاد وقامت ما يعرف بدول الطوائف ،حيث استقلّ في سنة 456هـ/1059م حمو بن ومليل البرغواطي الثائر بمدينة صفاقس ،الّذي استعان وتحالف مع العرب الهلالية من زغبة ورياح و عدي والأثبج ،وزحف إلى المهدية لكنّه فشل في دخولها[1].

وصارت تونس آخرا إلى ولاية الناصر بن علناس صاحب القلعة ،الّذي ولّى عليها عبد الحق بن خراسان ،هذا الأخير الّذي استقلّ بها ،واستقرّت في ملكه و ملك بنيه. كما استقلّ مؤنس بن يحي على قابس ،وصار عاملها المعز بن محمد الصنهاجي إلى ولايته ،واستقلّ حاكم قفصة بها ،بعد أن خرج على سيّده واستعان بالعرب لتوسيع نفوذه مقابل دفع جزية سنوية للعرب[2].

كما نتج عن انحصار ملك الدولة الزيرية في المغرب الأدنى إلى الساحل حينما نازعهم العرب من بني هلال على المناطق الداخلية ،عناية واهتمام ملوك بني زيري بشؤون البحر ،وبناء الأساطيل ،ودور صناعتها ،ولكن ذلك لم يكن كافيا للحفاظ عل مدنها الساحلية ،بحيث استولى النورمان على صقلية سنة 484هـ/1091م[3]. كما تمكّن النصارى النورمان[4] من مهاجمة مدينة المهدية سنة 480هـ/1087م فنهبوا سكّانها وأحرقوهم بالنار وهدموا أسوارها. و لم تتوقّف غارات النورمان على المهدية حتّى سقطت في أيديهم سنة 543هـ/1148م[5].

---

(1)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 299 ،عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 587.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 217 ،عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 587.

(3)- رابح بونار: المرجع السابق، ص 202.

(4)- مجموعة من الفايكينغ، استقرّوا بداية بفرنسا ثمّ انتقلوا إلى انجلترا و جنوب إيطاليا و صقلية، و مع القرن 09م عمدوا إلى الغزو و الإغارة على سواحل البلاد الفرنسية، و مع مطلع القرن 10م كانوا قد أتمّوا سيطرتهم على الأراضي الفرنسية المعروفة اليوم بنورمانديا، و أصبح النورمانديون نصارى، و في عام 1066م غزوا انجلترا، فاتسع نفوذهم، و لم تتوقف توسّعاتهم عند ذلك الحد، بل سعوا إلى السيطرة على مناطق أخرى، حتّى تمكّنوا بقيادة روجار الثاني من الاستيلاء على صقلية و طرد المسلمين منها، أنظر: الموسوعة العربية العالمية، ج25، ط1، مؤسسة أعمال للنشر و التوزيع، الرياض، 1996، ص 473.

(5)- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 95، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 313.

وعليه فقد اعتبر الكثير من الباحثين أنّ استيلاء بني هلال على مدينة القيروان ،وانتقال المعز منها بمثابة بداية النهاية لهذه المملكة ،وبداية الانحلال والتفكك و التلاشي ،بل إنّها انتهت تقريبا رغم استمرارها ومحاولتها تكوين قوة بحرية للتعويض عن الهزيمة في البر. غير أنّ تضافر نصارى الشمال مع عرب بني هلال على غزو المغرب الأدنى قد قضى على الدولة الصنهاجية[1].

ولكن إذا كان هذا ما آلت إليه المنطقة سياسيا ،فهل نلقي كامل المسؤولية على عاتق العرب الهلالية؟. حقيقة إنّنا لا ننكر أنّ لبني هلال النصيب الأكبر فيما حدث من تخريب وفوضى واضطّراب ،وانحلال سياسي ،غير أنّ هناك جملة من العوامل ساهمت هي الأخرى في ذلك التفكك والانحلال ،ذلك أنّ الهجرة الهلالية إلى المنطقة جاءت في فترة كان فيها الوضع السياسي لمملكة بني زيري يعاني من أزمة سياسية حادة، تتمثّل في:

- انقسام دولة صنهاجة إلى دولتين الزيرية في المغرب الأدنى والحمادية في الأوسط[2] ،مع استمرار الصراع بين الدولتين[3].
- فقدان الأمن وانتشار الفوضى والاضطرابات في الكثير من القرى و الأرياف في ظلّ استمرار الصراع بين صنهاجة و زناتة.

ج- الجانب الاقتصادي و الاجتماعي:

شهدت منطقة المغرب الأدنى عقب الغزو الهلالي لها اضطّرابا اقتصاديا ملحوظا نتيجة الخراب الّذي ألحقه الهلاليون بالعمران ،حيث خرّبت مدن عديدة ،وتضرّرت منشآتها العمرانية ،كما طال ذلك التخريب أيضا المحاصيل الزراعية المتنوعة[4] ،وهو ما أثّر سلبا على النشاط الاقتصادي والتجاري للمنطقة[5] ،حيث تحوّلت تلك الأراضي الزراعية الّتي تعدّ أساس اقتصاد

---

(1)- الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص 107، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص292، عبد الكريم غلاب: المرجع السابق، ج2، ص 46 و ما بعدها.

(2)- حول أهمّ بطون صنهاجة بالمغرب الأوسط، أنظر: الملحق رقم: 22.

(3)- من بين فصول ذلك الصراع ما حدث في سنة 458هـ/ 1066م حيث سيّر تميم بن المعز جيشا إلى تونس بعدما أصبحت في يد بني خراسان الموالين للحماديين، و كان بها أحمد بن خراسان الّذي خالفه، و لّما علم أحمد بن خراسان بخروج جيش تميم إليه خرج إلى الناصر بن علناس صاحب القلعة و ترك المدينة فدخلها جيش تميم، و أقدموا على تخريب الدور، ثمّ أطاعه بنوخراسان و صالحوه، ثمّ بنوا سور القيروان، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 376.

(4)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8،ص297، ابن خلدون: العبر، ج6،ص211، النويري: المصدر السابق،ج24، ص120.

(5)- الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص 108.

المدينة إلى مناطق رعوية ،ولاشكّ أن ذلك سيؤثّر سلبا على تلك العلاقة المنفعية بين المدينة وظهيرها الريف حيث يصبح هذا الأخير لا يمدّ المدينة بالمحاصيل الزراعية الّتي تشكّل مادة ضرورية لساكني المدينة ،بل أكثر من ذلك يصبح الريف هو الّذي يتقاسم مع المدينة محاصيلها الّتي لا تلبّي احتياجات ساكني المدينة والريف في آن واحد.

كما أنّ خضوع مناطق واسعة من المغرب الأدنى للسلطة الهلالية أدّى إلى انتشار الفوضى لأنّ (إستراتيجية) الهلاليين تقوم على سياسة السيطرة على القرى والأرياف ثمّ اتّخاذها كمناطق وقواعد للهجوم ،وتضييق الحصار على المدينة ،وهو مايفضي إلى السيطرة على المسالك الّتي تزوّد المدينة بمختلف الاحتياجات ،إضافة إلى أنّ تلك المناطق تحوّلت بشكل تدريجي إلى مناطق رعوية تستفيد منها بالدرجة الأولى القبائل الهلالية(1) ،وذلك بعدما كانت مناطق ذات اقتصاد مستقرّ يقوم أساسا على الزراعة الكثيفة المسقية باستخدام مختلف الإمكانات والموارد الّتي تحوزها السلطة المركزية آنذاك.

أمّا بخصوص أوضاع المدن في الداخل فلم تكن بالحسنة بل شلّ اقتصاد أغلب مدن المغرب الأدنى بشكل عام ،واقتصاد منطقة القيروان بشكل خاص جرّاء تضرّر التجارة الداخلية والصناعات التقليدية ،وغيرها من النشاطات والخدمات المتنوعة ،بعدما حطّم الهلاليون معامل الصناعة التقليدية ،ودكاكين البيع، وفرار أصحاب الحرف اليدوية من المدن إلى مناطق آمنة(2).

وعلى الرغم من أنّ وضع المدن الساحلية كان مختلفا عما هو عليه حال المدن الداخلية لأنّها سلمت من التخريب الهلالي كمدينة المهدية ،إلاّ أنّ اقتصادها هي الأخرى قد تضرّر ،نتيجة انحصارها ،وتضييق المنافذ عليها من طرف الهلاليين ،وهو ما أجبرها على التفاوض مع العرب الهلالية حتّى تضمن استمرار شروط الحياة ،إذ قدّمت ضريبة باهضة أثقلت كاهلها ،وتأثّر اقتصادها بالوضع السائد في الأراضي الزراعية(3). كما تعرّضت كذلك قطعان المواشي للنهب ،والأراضي الزراعية وغابات الزيتون للإتلاف ،ودور الزراعة للتدمير ،ولم يكن في وسع المدينة

(1)-ابن خلدون: العبر، ج6، ص 211 ،عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 172.

(2)- الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص 108.

(3)- جورج مارسيه: المرجع السابق، ص 224.

استعادة حيويتها ،ونشاطها الاقتصادي المعهود ،في ظلّ غياب الأسباب المحفزة على ذلك وعلى رأسها الأمن ،ووفرة المسالك الآمنة ،وعدالة الإتاوات الّتي تفرض من طرف العرب الهلالية[1].

ويضاف إلى ما سبق أنّ ذلك الوضع السائد كتقلّص المحاصيل الزراعية قد ساهم في ارتفاع الأسعار بشكل محسوس خاصة في المدن ،فأدّى إلى انتشار الفقر في أوساط المجتمع الزيري. وليس ذلك فحسب بل ظهرت المجاعات أيضا ،وعلى الرغم من سعي السلطة الزيرية إلى خلق توازن بين المجال الريفي والمجال الحضري إلاّ أنّ ذلك لم يجد نفعا أمام الهجرة الجماعية أحيانا للمزارعين الّذين تركوا أراضيهم الخصبة وفضّلوا اللجوء إلى داخل المدن المحصّنة ،أو بالقرب منها ،احتماء من الهجمات الهلالية الّتي قد تستهدفهم[2].

ولا يفوتني أن أشير إلى أنّ هذا الوضع الاقتصادي المتأزم نتيجة الأضرار الّتي أحدثتها العزوة الهلالية بعمران المنطقة ،وإتلافها للمزروعات ونهبها ،وتضييقها على المدن وانحصارها قد زاد من حدّته تلك الحروب الزيرية الحمادية ،الّتي غاب في ظلّها الأمن وسادت الاضطرابات ،وخاف النّاس على أنفسهم وعلى تجارتهم ،فقلّصوا من نشاطاتهم الزراعية وحركتهم التجارية ،الّتي تذرّ على المدن أرباحا كثيرة والّتي تفضي إلى الرخاء الاقتصادي الّذي ينعكس بشكل إيجابي على المجتمع بشكل عام.

د- الجانب الثقافي:

بعدما كانت مدينة القيروان دار ملك المسلمين بالمغرب الأدنى ،وحاضرتهم الأولى ،ودار العلم ،ومقصد العلماء غدت بعد التخريب الهلالي مدينة خاوية على عروشها ،تصول وتجول فيها خيل العرب الهلالية فيها ،خاصة بعدما تركها السلطان الزيري المعز بن باديس ،وانتقل إلى المهدية ،ثم لحقه أهاليها [3].

و يبدو لنا جليا من خلال هذا أنّ أهل القيروان قد هجروها بعدما سادت الفوضى والاضطرابات ،وفقد الأمن جرّاء ذلك التخريب[4]. ولا ريب أنّ من بين أولئك المهاجرين صفوة المجتمع ونخبته من علماء وفقهاء ،الّذين كانت وجهتهم إلى مدن متفرقة من أرض الإسلام ،إذ

(1)- مبارك بوطارن: تطوّر العمران الإسلامي، ص 286.
(2)- المرجع نفسه، ص 287-288.
(3)- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 255.
(4)- محمد الزهري: المصدر السابق، ص 112.

منهم من قصد بلاد المشرق كأرض مصر[1] ،ومنهم من انتقل إلى صقلية[2] ،وهناك من هاجر إلى قلعة بني حماد حاضر المغرب الأوسط آنذاك[3] ،ومنهم من حطّ الرحال بمدينة فاس حاضرة المغرب الأقصى ،وكذا منهم من اجتاز العدوة إلى بلاد الأندلس[4]. فتفرّق بذلك أهل القيروان عنها ،وفي المقابل فإنّ هذه المدينة منذ ذلك التخريب الهلالي لم تعد مقصدا للعلماء ولا محطّ رحالهم ،نتيجة انتشار الفوضى والاضطرابات.

و في ظلّ ذلك يمكن القول أنّ مدينة القيروان بعد خرابها ،وهجرة النخب العلمية ،وحتّ السياسية عنها فقدت إشراقها السياسي والثقافي ،وكان ذلك أكبر استفادة ديموغرافية وثقافية حظيت بها مدن المغرب الأوسط كمدينة القلعة و بجاية بعدما انتقل إليهما أهل القيروان ونخبها ،فعمرت كل من مدينة القلعة ثمّ فيما بعد بجاية بعدما آمّتها نخب القيروان وغيرها من المدن الّتي خُرّبت بالمغرب الأدنى ،هذا و يضاف إليه أنّ ضعف الدولة الزيرية فتح المجال لبني حماد للتوسّع على حسابها ،بل واعتصم أهل لمغرب الأدنى في أغلب مدنه بالحماديين ،وأدخلوا أنفسهم وبلادهم في طاعتهم خاصة بعدما تكالب النصارى على مدنهم.

وقبل أن نختم نتائج ذلك التخريب الهلالي لمدن المغرب الأدنى يجدر بنا الوقوف على ما أورده بعض الرحّالة ،وحتّ المؤرّخين حول مصير هذه المدن بعد ذلك التخريب على غرار مدينة القيروان ،وهل تمّ إعمارها فيما بعد أم بقيت خرابا إلى وقت زارها أولئك الرحّالة ،أو نقلوا أوصافهم عمّن زارها.

في الوقت الّذي يذكر الرحّالة ابن حوقل المتوفى سنة 380هـ/990م أنّ مدينة القيروان «كانت أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجرا وأموالا وأحسنها منازلا وأسواقا»[5] ،وهو بذلك يعطينا صورة عن هذه الحاضرة ولكن قبل تعرّضها للخراب بحكم الفترة الّتي عاش فيها ،والّتي سبقت الغزوة الهلالية للمغرب ،فإنّ البكري المتوفى سنة 487هـ/1097م ،وهو معاصر للأحداث الّتي عرفتها منطقة المغرب غير أنّه يكتفي بذكر ما حلّ بالقيروان من خراب حينما يذكر التطوّر

([1])- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 255.

([2])- لويس أرشيبالد: المرجع السابق، ص 364.

([3])- البكري: المسالك و الممالك، مج2، ص 226.

([4])-عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 255 ،لويس أرشيبالد: المرجع السابق، ص 364.

([5])- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 96.

الحضاري الّذي شهدته قلعة بني حماد ،والّذي كان على حدّ قوله بعد خراب القيروان ،وانتقال أهل إفريقية إليها[1].

على أنّ نصّه هذا فيه تأكيد لما تعرّضت له مدينة القيروان من خراب ،وغدت خالية من السكّان ،وهي الحالة الّتي بقيت عليها مدينة القيروان خلال تأليفه لمصنفه المسالك والممالك. فكيف أصبحت بعد تلك الفترة يا ترى؟.

مع مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي يفيدنا أحد الجغرافيين المغاربة وهو الإدريسي المتوفى سنة 548هـ/1154م بمعلومات هامة حول حال بعض مدن المغرب الأدنى في فترة حياته ،فبخصوص مدينة القيروان نجده يذكر أنّ هذه المدينة كانت أمّ الأمصار ،وقاعدة الأقطار ،وأعظم مدن المغرب ،حتّ تسلّطت «عليها العرب وتوالت الجوائح عليها ،حتّ لم يبق منها إلاّ أطلال دراسة ،وآثار طامسة ،وهي الآن في وقتنا هذا على جزء منها سور تراب ،وولاّة أمورها العرب ،وهم يقبضون ما يتوفّر من جباياهّا ،وبها أقوام قليلون تجارتهم يسيرة». أمّا عن مدينة صبرة فيضيف قائلا: «والقيروان كانت مدينتين إحداهما القيروان والثانية صبرة ،وصبرة كانت دار الملك وكان فيها أيام عمارتها ثلاث مائة حمّام... وصبرة الآن في وقتنا هذا خراب ليس بها ساكن». أمّا مدينة رقادة فقد وصفها في زمانه بقوله: «قصور رقادة الشاهقة الذرى ،الحسنة البناء ،الكثيرة البساتين والثمار ،وبها كانت الأغالب تربع في أيام دولتها وزمان بهجتها ،وهي الآن خراب لا ينتظر جبرها ،ولا يعود خيرها»[2].

من خلال النصوص الّتي أوردها الإدريسي تتجلّى أمامنا صورة عن مصير مدن المغرب الأدنى بعد الخراب الّذي طال عمرانها ،وأدّى إلى أفول نجم حواضر كانت تنعم في كنف الازدهار ،فغدت خرابا خالية من السكّان، فاسحة المجال لبروز حواضر أخرى تستقطب نخبها وأهاليها ،وهو ما يؤكّده لنا الجغرافي ابن سعيد المغربي المتوفى سنة 685هـ/1286م بقوله عن مدينة القيروان: «وهي الآن تابعة لتونس»[3]، وفي ذلك اشارة إلى أنّ مدينة تونس أصبحت حاضرة

([1])- البكري: المسالك و الممالك، مج2، ص 226.

([2])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 284.

([3])- ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 144.

المغرب الأدنى بعد سقوط القيروان، و أصبحت محطّ الرحال من الشرق والغرب، «وملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البر في سلك»(1).

أمّا التجاني المتوفى في أواخر القرن 07 هـ/13م، فإنّه يتحدّث في رحلته عن أحد أرباض مدينة المهدية وهي مدينة زويلة فيذكر: «وقد كان المعز بن باديس جعل عليها سورا عند دخول العرب أرضه سنة أربع وأربعين و أربعمائة ،وقد خرّبت هـذه المدينة الآن، فلم يبق لها أثر»(2) ،وهو حينها يؤكّد لنا أنّ هذه المدينة قد زال أثرها مع نهاية القرن 07 هـ/13م ،كما هوشأن كل من مدينة القيروان وصبرة ورقادة حسبما أقرّه الإدريسي(3).

ونبقى مع الفترة الخاصة بالقرن 07هـ/13م ليقدّم لنا أحد الرحّالة المتوفى بعد التجاني قبل نهاية القرن السابع الهجري ،وهو محمد العبدري(4) نصوصا هامة حول مصير مدينة القيروان وحالها في زمان هذا الرحّالة ليثري بذلك ما أورده أسلافه حينما يصف دخوله إليها بقوله: «ثمّ وصلنا إلى مدينة القيروان فدخلتها مجدا في البحث غير وان. فلم أر إلاّ رسوما محتها يد الزمان وآثارا يقال عنها كان وكان. والأحياء من أهلها جفاة الطبع. ما لهم في رقة الحضارة باع. ولا في معنى من يعاني الإنسانية انطباع. خفّت نفس العلم بينهم فلم يبق به ومق. وكسدت سوق المعارف بينهم فياسخنة عين من رمق»(5).

إنّ وضع مدينة القيروان كما أورده هذا الرحّالة في زمانه الّذي يبعد بمدة تزيد عن القرنين من الزمن مذ كان خراب هذه المدينة يوحي بأنّها لم يبق لها أي أثر ،نتيجة الخراب في بادئ الأمر من طرف الهلاليين ،وهجرة ساكنيها ،ومع مضي السنين أتى عليها خراب الزمان ،وغابت المعارف في ظلّ الهجران، حتّى أثّر ذلك في طبع من بقي فيها من السكّان، حينما غابت الحضارة

---

(1)- العبدري: المصدر السابق، ص 35.

(2)- التجاني: المصدر السابق، ص 324.

(3)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 284.

(4)- هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود الرحّالة المغربي،ذوالعلم الواسع و الإطّلاع الكبير، تلّقى تعليمه في مراكش، وسجّل ملاحظاته، و كانت رحلته لأداء فريضة الحج و طلب العلم و التجارة، توفي مع نهاية القرن 07 هـ/13م، أنظر: عواطف محمد نواب: الرحلات المغربية و الأندلسية، (د.ط)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية ،1417 هـ-1996م، ص117-118.

(5)- العبدري: المصدر السابق، ص 57-58.

القيروانية وطويت في جوانب النسيان. وما بقي من آثار مدينة القيروان كما يذكر هذا الرحّالة قائلا: «و لم أر بالقيروان ما يؤرّخ ولا ما يتّهمهم بذكره سوى جامعها ومقبرتها»[1].

وهناك إشارة تفرّد بها الجغرافي محمد الزهري المتوفى في القرن السادس الهجري (12م) تفيد بأنّ مدينة القيروان بعد خرابها ،وتفرّق أهلها عنها إلى البلدان، بقيت مدة من الزمن على ذلك الخراب ،ثمّ تمّ إعمارها في عهد دولة الموحدين[2] ،ويذكر ذلك بقوله: «وبقيت القيروان خرابا دهرا ووثبت الروم على كثير من مدن ساحل إفريقية، فتملّكوها ،واستمرّ ذلك بها إلى مدة عبد المؤمن بن علي ،فارتحل إليها و أجلى العرب منها ،وطرد الروم منها ،فعمّرت»[3].

ثم إن ما أورده محمد الزهري بشأن إعمار هذه المدينة في فترة الدولة الموحدية مع منتصف القرن السادس الهجري (12م) قد فنّدته أوصاف بعض الجغرافيين لحال مدينة القيروان في النصف الثاني من القرن الهجري (13 م) على غرار ما أورده كل من التجاني والعبدري[4] كما مرّ بنا.

وعليه فقد يكون الجغرافي محمد الزهري عندما ذكر خبر إعادة إعمار مدينة القيروان في عهد دولة الموحدين يقصد من ورائه عموم منطقة المغرب الأدنى وليس مدينة القيروان فحسب ،وذلك لأنّه بعد التخريب الّذي عرفته مدن المنطقة وما أعقبه من هجرة ساكنيها أدّى إلى ضعف دولة بني زيري، -وقد سبق ذكره- وانحصر ملكها في مدن الساحل. وأمّا الباقي فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناتة وصنهاجة[5]، ثمّ اشتّد خطر النورمان على مدن الساحل ،وبدخول الموحدين منطقة المغرب الأدنى تمّ طرد الروم منها[6] وإجلاء العرب عنها ،فاستعادت بعض المدن حيويتها ونشاطها الاقتصادي والعمراني ،وتكون القيروان إحدى هذه المدن ،ولو أنّ نشاط هذه

([1])- العبدري: المصدر السابق، ص 58.

([2])- حول تاريخ هذه الدولة، أنظر: لسان الدين ابن الخطيب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، صححه، البشير الفورتي، ط1، مطبعة التقدم الإسلامية لصاحبها البشير الفورتي، تونس (د.ت)، و للمزيد أنظر: *SAIDI Omar: le Maghreb l'unification sous les almohades (histoire générale de l'Afrique du XIIe au XVIe siècle), directeur de volume, D.T. Nian, UESCO, N& A, 1985, p 35-45.*

([3])- محمد الزهري: المصدر السابق، ص 112.

([4])- التجاني: المصدر السابق، ص 324، العبدري: المصدر السابق، ص 57- 58.

([5])- حسين مؤنس: تاريخ المغرب و الأندلس، ص 171.

([6])- مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، اعتنى بإصدارها، إلافي بروقنصال، (د.ط)، المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، الرباط، 1941، ص 17-18، عبد الله محمد اللولوي الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح، محمد ماضور، (د.ط)، المكتبة العتيقة، تونس، 2002، ص 11-12.

المدينة كان بشكل خافت حيث سرعان ما اختفى ،وعادت إلى ما كانت عليه من خراب في سابق عهدها ،في ظلّ ازدهار حواضر أخرى ورثت حضارتها ،كشأن مدينة تونس.

و ممّا يزيد ما ذكرناه تأكيدا ما أورده أحد المؤرّخين الّذين أرّخوا لتاريخ دولة الموحدين وهو المؤرّخ عبد الواحد المراكشي الّذي بقيت مدينة القيروان على حدّ تعبيره خرابا إلى زمانه منذ عمّها الخراب على يد الأعراب[1]. فيقول: «فاستولى الخراب عليها[2] إلى وقتنا هذا واستوطنها الأعراب... وآثار هذه المدن باقية إلى اليوم». ويضيف «فانتهبتها الأعراب وخرّبتها فهي كذلك خراب إلى اليوم فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية» ،ولّما غاب دور مدينة القيروان بعد خرابها يضيف هذا المؤرّخ قائلا «ولّما خرّبت مدينة القيروان... صارت مدينة تونس حاضرة إفريقية»[3].

وصفوة القول فإنّ الخراب الّذي أحدثه الهلاليون في مدن المغرب الأدنى، خاصة مدينة القيروان ،وما تبعه من فوضى واضطّراب في الأحوال ،وإضعاف لملك الزيريين في تلك المنطقة حتىّ و إن لم يكن السبب الوحيد فيما آلت إليه أوضاع المغرب الأدنى، فإنّه يمكننا اعتباره السبب الرئيس في ذلك.

ثانيا: مدن المغرب الأوسط:

لقد مرّ بنا أنّ بني هلال تغلّبوا على عساكر بني زيري في موقعة حيدران ،وعقب ذلك امتدّت أيديهم إلى إفساد المزارع والحقول، واقتلاع الأشجار ،وتخريب الدور ،فحاول المعز بكلّ ما أوتي من قوة صدّ غاراتهم وتقدّمهم نحو مدينة القيروان ،وبفشل كل تلك المحاولات اضطرّ للانتقال إلى مدينة المهدية ،والتحصّن فيها، فاسحا المجال للعرب الهلالية لتعيث فسادا ،وتخريبا في القيروان[4] ، ثمّ تبعوا المعز بن باديس نحو المهدية وعجزوا عن اقتحامها.

([1])- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص 206، محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 50.

([2])- يرى ابن خلدون أنّ العرب الموغلون في البداوة هم الّذين يسرع الخراب إلى مدنهم، لأنّهم جبلوا على حياة القفر، والبداوة، فلوسكنوا المدن فسيحولونها إلى بادية، أنظر: ابن خلدون: المقدمة، ص 290، و للمزيد أنظر: عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، ص 223.

([3])- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 250- 255.

([4])- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس عصر المرابطين و الموحدين، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980، ص 308.

ولم تتوقّف مسيرة العرب الهلالية عند ذاك الحد وتستقرّ بجموعها في منطقة المغرب الأدنى بل واصلوا سيرهم نحو المغرب الأوسط[1] فاصطدموا بدولة بني حماد ،فقام بنوحماد عندئذ بشنّ حرب شديدة عليهم كما يورده ابن خلدون ،غير أنّ هذا الأخير لا يمدّنا بتفاصيل تلك الحروب الدائرة بين بني حماد والهلاليين ،في الوقت الّذي يزوّدنا بأخبار هامة حول الحرب الّتي دارت وقائعها بين الهلاليين وزناتة ،حينما أوعز بنوحماد إلى زناتة بمدافعة العرب الهلالية[2]. كما أنّ زناتة المغرب الأوسط أقدمت على تلك الحرب مخافة أن يحلّ بها ما حلّ بإخوانهم في المغرب الأدنى ،الذين طردوا من أراضيهم. وكانت نتيجة هذه الحرب هي انتصار بني هلال على زناتة ،حيث أزاحوهم عن منطقة الزاب وما يليه إلى المغرب الأدنى[3] ،فانتقلت زناتة إلى المناطق الجنوبية الصحراوية واستوطن الهلاليون منطقة الزاب. فما كان من بني حماد إلاّ أن عقدوا اتّفاقا مع بني هلال يقضي باحتفاظهم بالمدن وترك الأرياف لبني هلال[4].

وهكذا بسط الهلاليون أيديهم على أرياف المغرب الأوسط دون أن يقدموا على أعمال نهب وإفساد وتخريب شبيه بما أحدثوه أيام سيطرتهم على أحواز القيروان وأرباضها. وليس ذلك فحسب بل إنّنا نجد أنّ الأمير الحمادي بلكين بن محمد[5] (447-454هـ/ 1055-1062م) يستعين بالقبائل الهلالية في حربه ضدّ زناتة سنة 450هـ/ 1058م ،وكان النصر حليفه[6].

وهنا اعتقد أنّ هذا الأمير الحمادي قد نجح فيما فشل فيه ابن عمّه المعز بن باديس في الاستعانة بالعرب الهلالية ،حيث استفاد الأوّل من خدماتهم و أعانوه على القبائل البدوية الزناتية ،بينما جرّ الثاني على نفسه وعلى بلاده أعمال التخريب و لإفساد بعدما طلب معونتهم على أبناء

---

(1)- حول الإنتشار الهلالي السليمي في المغرب الأوسط على عهد بني حماد، أنظر: الملحق رقم: 23.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27 ،رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص 54.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27، رشيد بورويبة، وآخرون: الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 207.

(4)- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 27، رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص55.

(5)- هو بلكين بن محمد بن حماد رابع أمراء الدولة الحمادية، عرف عنه أنّه كان شجاعا مقداما، و كذا سفاكا للدماء، فقد قتل محسن بن القائد في ربيع الثاني من سنة 447هـ/1055م، و اعتلى على إثرها عرش دولة الحماديين، ثمّ استهلّ عهده بقتل وزير سلفه محسن بن القائد، كما قام بعدة غزوات و حروب، إذ أخضع الزناتيين، و الثائرين من أهل بسكرة سنة 450هـ/1058م، وسار في حملة إلى المغرب الأقصى، و عند عودته من فاس، قتله الناصر بن علناس في موضع تسالة سنة 454هـ/1062م، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 229، و للمزيد أنظر: إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 146.

(6)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27، رشيد بورويبة، و آخرون: الجزائر في التاريخ 3، ص 207.

عمومته وعلى القبائل الزناتية. وهذا يدلّ على حنكة الأمير الحمادي في استمالة القبائل الهلالية بل والاستعانة بها. لكن ما يمكن طرحه من أسئلة هو: هل استمرّ هذا التحالف الحمادي الهلالي قائما في عهد خلفاء بلكين بن محمد؟ و هل سلمت مدن المغرب الأوسط من التخريب الهلالي أم كانت هي الأخرى عرضة لذلك الخراب؟ وإن كان حدث تخريب ،فأيّ المدن خرّبت وما أسباب ونتائج ذلك التخريب؟

إنّنا و قبل أن نجيب على كل ما طرحناه من أسئلة، نجيب مقتصرين فقط على أنّ مدن المغرب الأوسط قد تعرّض بعضها هي الأخرى لعمليات تخريب ،كما تعرّضت بواديها للنهب والإفساد[1] ،ومن هذه المدن قلعة بني حماد ،المسيلة وطبنة ،بالاضافة إلى مدينة وارجلان حسب ما يورده بعض المؤرّخين.

1- موقعة سبيبة[2] و خراب مدينة القلعة:

لقد توارث أبناء العمومة من أسرة صنهاجة الضغائن والأحقاد منذ فسدت العلاقة بين حماد وباديس ،ودخلت الدولتين في صراع حربي دائم[3] حتّ دخول العرب الهلالية المغرب الأدنى وبسط نفوذها على أغلب مناطقه ،عندها تسابق أبناء العمومة إلى اتّخاذ هذه القبائل أحلافا ونصيرا لكلّ منهما على خصمه ،بعدما غدت القبائل الهلالية أداة طيّعة إلى حدّ ما خصوصا إذا ما أغراها طرفا الصراع بالغنائم والأسلاب ،وإقطاعها الأراضي.

وإذا كانت موقعة حيدران ضربة قاسمة لظهر الدولة الزيرية[4] على اعتبار تداعياتها ونتائجها يبدوا أنّ الحماديين لم يأخذوا من ذلك درسا يتّعظون به ،بل أقدموا على التحالف مع الهلاليين لضرب خصومهم من بني زيري ،فكانت موقعة سبيبة الّتي تحمّلت نتائجها هذه المرّة دولة بني حماد ،وكان للهلاليين دور كبير فيها. فما أسبابها ونتائجها يا ترى؟.

([1])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص161، ابن خلدون: العبر، ج6، ص27، حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 622، *HAMET Ismaël: Histoire du Maghreb cours professé a l'institut des hautes études marocaines, éditions Ernest le roux, Paris, 1923, p 38.*

([2])- هي مدينة قديمة البناء تقع على الطريق بين القيروان و تبسة، تسكنها قبائل من البربر، و تمتاز هذه المدينة بكثرة الأنهار، والعيون، و الأشجار ،والحمّامات وحواليها جبال كثيرة يسكنها من العرب قوم يعرفون ببني الكسلان، و حولهم قبائل بربرية مثل هوارة و مرنيسة، أنظر: البكري: المسالك و الممالك، مج 2، ص 330، و للمزيد أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 161.

([3])- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 86.

([4])- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 44.

أ- الأسباب:

من خلال بحثي عن أسباب موقعة سبيبة وقفت على رأيين للمؤرّخين بخصوص تحديد السبب الرئيس فيها و هما:

- الرأي الأوّل[1]: يذهب إلى كون السبب هو تدخّل الناصر بن علناس في شؤون البلاد الزيرية بواسطة العرب الهلالية في كلّ من القيروان وتونس خاصة بعد انقسام الهلاليين فيما بينهم واشتداد الحرب بين قبيلتي الأثبج ورياح[2]. و هوما يحدّده ابن خلدون بشكل أكثر وضوحا حينما يذكر أن قبيلة الأثبج طلبت من الناصر بن علناس المساعدة على حرب رياح وزغبة فأجابها إلى ذلك. ويفصّل ذلك أكثر حينما يقول: «فلمّا استقرّ لهم الغلب وضعت الحرب أوزارها وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم وصاروا إلى التفريق بينهم ،وظاهروا الأثبج على رياح وزغبة ،وحشد الناصر بن علناس صاحب القلعة لمظاهرتهم ،وجمع زناتة»[3].

- أما الرأي الثاني: فتصدّره ابن الأثير و من بعده النويري[4]، و يقضي بأنّ السبب يرجع إلى ذلك الصراع القديم بين حماد بن بلكين وابن أخيه باديس[5] اللذان كانا يتنافسان على الانفراد بحكم صنهاجة ،وكل منهما كان يرى أحقيّته في ذلك ،واستمرّ الصراع حتّى آلت الأمور إلى الناصر بن علناس من خلفاء حماد ،و إلى تميم بن المعز من أبناء باديس ،وعند ذلك الحين كان ميزان القوة السياسية يميل لصالح الناصر بن علناس الحمادي بعد الّذي استقرّت عليه أوضاع دولة الزيريين ؛حيث خرّبت أغلب مدنهم إثر الزحف الهلالي إليها[6] ،ولجوء الكثير من أهاليها إلى دولة

([1])- يمثل هذا الرأي المؤرّخ ابن خلدون، أنظر:ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27، رشيد بوروبية: الدولة الحمادية، ص 61-62.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27، رشيد بوروبية، و آخرون: الجزائر في العهد الإسلامي 3، ص 209.

([4])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 372، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 122.

([5])- يذكر النويري أنّه في ظلّ الصراع الزيري الحمادي أيام باديس و حماد، حيث بعد ما رفض حماد الطاعة و الامتثال إلى أمر باديس بالتنازل عن تيجس و قسنطينة و القصر الإفريقي، سيّر باديس أخاه كرامت إلى حرب حماد، فسار كرامت إلى قلعة بني حماد فهدم قصورها و مساكنها، جزاء لما فعله حماد و أخوه في البلاد، دون أن يسفك دما و لا نهب مالا، فاتّصل ذلك بإبراهيم، فأقبل يهدم كل قصر كان لأخيه حماد خارج القلعة مخافة أن يسبقه إليه كرامت، ثمّ هرب، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 108.

([6])- الطاهر بونابي:«الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس و السابع الهجريين الثاني عشر و الثالث عشر الميلاديين»، أطروحة ماجستير ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر،1419-1420هـ/1999-2000م،ص63.

بني حماد للتحصّن بمناطقها الوعرة، على غرار مدينة القلعة. ولا ريب أنّ ذلك قد ساهم في ازدهار هذه المدينة ومن ورائها دولة بني حماد(1). كما أن بعض مدن المغرب الأدنى دانت بالولاء للحماديين كالقيروان وتونس وصفاقس ،وهذا ما أشعر الناصر بالقوة وبأحقيّته في ضّم ما تبقّى من بلاد المغرب الأدنى الزيرية خاصة معقل هذه الدولة وحصنها المنيع مدينة المهدية.

فيذكر ابن الأثير أنّ تميما بن المعز قد وصل إلى مسامعه أنّ الناصر بن علناس يذمّه في مجلسه ،بل وأكثر من ذلك عازم على المسير إلى المهدية وأنّه تحالف مع «بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية»(2).

وعليه و من خلال الرأيين السابقين فإنّي أميل إلى ترجيح رواية ابن الأثير حول تفاصيل سبب موقعة سبيبة(3) ،وذلك لأنّ الناصر بن علناس ما كان ليضيّع الفرصة السانحة لتوسيع مملكته على حساب دولة أبناء عمومته، في ظلّ الأوضاع الّتي تعرفها هذه الأخيرة، خصوصا و أنّ جزءا من مملكتهم يدين بالولاء للناصر الحمادي الّذي لم تبق أمامه سوى المهدية الّتي يتحصّن بها تميم بن المعز ،وبدخولها يكون قد وسّع حدود دولته ،بل وحقّق الوحدة الزيرية الصنهاجية الّتي يصبوا إليها ،وهو مايستدعي منه التحالف مع القبائل الهلالية وحشد كل من صنهاجة وزناتة لذلك. أمّا أن يحشد الناصر كل ذلك لنصرة الأثبج على زغبة ورياح فحسب فهذا ما يستبعد لأنّ طموحات الناصر تتعدّى ذلك بكثير. و لو سلّمنا عرضا بأنّ ما أورده ابن خلدون هو الصواب ،فإنّي أقول عندها أنّ الناصر قد وجد ذريعته للتوسّع على حساب الدولة الزيرية في طلب الأثبج مظاهرته لها ضدّ رياح وزغبة ،وليس لأجل النصرة فحسب.

ب- موقعة سبيبة 457هـ/1065م:

ما إن أدرك تميم بن المعز ما يدور في بلاط حكم دولة بني حماد بشأن الهجوم على دولته وحصار مدينته المهدية ،وأمر التحالفات مع الهلاليين وزناتة ،حتّ أسرع في طلب أمراء بني رياح كما يذكر ابن الأثير، فلمّا حضروا إليه قال لهم: «أنتم تعلمون أنّ المهدية حصن منيع أكثرها في البحر ولا يقاتل منه في البرّ غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلا وإنّما جمع الناصر العساكر

(1)- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 46.

(2)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 372، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 122، إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 164، رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص 62.

(3)- يوردها ابن الأثير بلفظ سبتة و هو خطأ، و الصواب هو سبيبة، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 373.

إليكم. فقالوا له: الّذي تقوله حق ونحبّ منك المعونة»[1] ،فأمدّهم عندها بالمال والسلاح[2] فانقلبوا إلى قومهم ،وتحالفوا واتّفقوا على ضرب الناصر ،ولم يكتفوا بذلك حيث أرسلوا إلى بني هلال حلفاء الناصر، و قبحوا لهم مساعدته[3] ،فأجابوهم أيضا إلى ذلك مقابل ثلث الغنيمة[4].

ومن جهة أخرى اتّفق تميم مع زعيم زناتة حليف[5] الناصر بن علناس على ثلث الغنيمة مقابل الانهزام حينما يلتحم القتال في قلب المعركة[6].

وهكذا بدأ كل طرف يحشد قواته فكان جيش الناصر مكونا من القوات النظامية والعبيد وصنهاجة وزناتة والقبائل العربية المتحالفة معه من الأثبج و عدي[7] ،بينما ضمّ معسكر تميم قبائل بني هلال كزغبة ورياح و سليم[8] ،وصنهاجة ،وخرج الناصر بن علناس في قواته إلى تميم في سنة 457هـ/1065م والتقى الجمعان بموضع سبيبة ،وسارت الأمور حسب الاتّفاق والتحالفات المبرمة ،وانهزم الناصر هزيمة نكراء ،وفي ذلك يقول ابن عذاري: «وفي سنة 457هـ كسر عسكر الناصر بن حماد ... وقتل من أصحابه خلق كثير ،ونهبت أمواله ومضاربه»[9].

وعن أسباب هزيمة الناصر بن علناس يورد ابن عذاري أنّ أهمّ أسبابها «ما أبرمه تميم في أمره»[10] ،وهي إشارة إلى تحالف تميم بن المعز مع القبائل الهلالية ومع زناتة ضدّ الناصر.

---

(1)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 372، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 123.

(2)- أمر لهم بعشرة آلاف دينار، لكل أمير منهم ألف دينار، و ألف درع، و ألف رمح، و ألف سيف هندي، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 123، و للمزيد أنظر: إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 165.

(3)- أرسلوا شيخين منهم سرا إلى بني هلال أحلاف الناصر، و قالوا لهم: «كيف و قعتم في هذا الأمر و أردتم إتلاف ملككم؟ هذا الناصر قد سمعتم غدر جده حماد لباديس، و غدر بنيه بعضهم بعضا، و قد اتّفق مع زناتة، فإذا وطئ بلدنا بصنهاجة و زناتة قاصدا تميم بن المعز، و تميم في حصن منيع بالمهدية لا يقدر عليه، فعندها يملك بلاد إفريقية و يخرجنا و إياكم عنها، فقال لهم مشايخ بني هلال: و الله لقد صدقتم، فإذا التقينا فإنا ننهزم و نرجع عليهم، فإذا ملكنا رقابهم كان لنا من الغنيمة الثلث ولكم الثلثان، فقال الشيخان: رضينا»، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج 8، ص 373.

(4)- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 123.

(5)- هو المعز بن زيري بن عطية الزناتي، أمير مدينة فاس بالمغرب الأقصى، و قد أخضعه الحماديون إلى طاعتهم، في عهد الأمير الحمادي بلكين بن محمد سنة 545هـ/1062م، أنظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص 27.

(6)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

(7)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 299.

(8)- عبد الحميد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص 454.

(9)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 299.

(10)- المصدر نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ دور زناتة في هذه الموقعة وردت في شأنه روايتان مختلفتان إحداهما لابن خلدون ،والّتي تشير إلى أنّ زناتة غدرت بالناصر ،وكانت السبب الرئيس في هزيمته ،حيث جرّوا «عليه وعلى قومه بدسيسة ابن المعز ابن زيري بن عطية وإغراء تميم بن المعز»[1]. وحسب هذه الرواية فإنّ المعز بن زيري بن عطية كان في صفوف الجيش الحمادي إلى جانب الناصر وتمكّن تميم بن المعز من استمالته.

أمّا الرواية الثانية فهي الّتي أوردها كل من ابن الأثير ثمّ النويري[2] ،والّتي مفادها أنّ المعز بن زيري بن عطية كان في صفوف الجيش الزيري ،وقد أرسل هذا الأخير: «إلى من مع الناصر من زناتة بنحو ذلك فوعدوه أن ينهزموا».

و في ظلّ ذلك التضارب سعى الباحث رشيد بورويبة إلى إماطة اللثام عن ذلك الاختلاف حينما رجّح أن تكون رواية ابن خلدون هي الأقرب إلى الحقيقة من رواية ابن الأثير والنويري وحجته في ذلك أنّ المعز بن زيري بن عطية كان أميرا على مدينة فاس ،وكان قد أخضعه الأمير الحمادي بلكين بن محمد عندما فتح فاس. وعليه يحتمل أن يكون في صفوف الجيش الحمادي إلى جانب الناصر ثمّ خان بعد الاتصال به من طرف تميم بن المعز ،وكان غرضه من الخيانة انهزام عساكر الحماديين أمام الهلاليين ،لأنه بقتل الكثير من أتباعهم يضعف جيش بني حماد ،وعندئذ لا يمكنهم السيطرة على المغرب الأقصى ،ويبدو هذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب.

وعليه يمكن القول أن نتيجة هذه المعركة قد حسمت قبل وقوعها حينما أدركت العرب الفتن بين الناصر وتميم ،وطموح الناصر في توسيع مملكته على حساب ملك تميم. كما لعبت القبائل الزناتية دورها هي الأخرى في الإيقاع بينهما ،وكانت الأطراف المشاركة في تلك المؤامرة يسعى كل منها لضرب القوة الباقية في المغرب الأوسط والأدنى ،والّتي يزداد نفوذها وقوتها شيئا فشيئا ،ومنفعتهم تقتضي ضعف الدولة الحمادية إذا ما انهزم الناصر في حربه ضدّ تميم ،فسعوا إلى ذلك وكانت الهزيمة على الناصر كما خُطط له.

ج- تخريب القلعة:

لقد كان لموقعة سبيبة الّتي انهزم فيها الناصر بن علناس نتائج خطيرة بالنظر إلى ما حلّ بجيشه ،وما أعقبه من أضرار بعمران المدن من طرف قبائل بني هلال.

---

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

(2)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8 ،ص 373، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 123.

فقد خلفت خسائر بشرية كبيرة قدّرها بعض المؤرّخين على غرار ابن الأثير والنويري اللذان ذكرا أنّ «جملة من قتل في هذه الوقعة من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرون ألفا»[1]. أمّا ابن عذاري فلا يحدّد رقما لعدد القتلى وإنّما يكتفي بذكر «وقتل من أصحابه خلق كثير»[2].

وبالنظر إلى عدد القتلى كما جاء في الروايات التاريخية إن صحّت فهو عدد كبير ينمّ على أنّ جيش الناصر قضي عليه قضاء مبرما بحيث كسر عسكر الناصر بن حماد ،و لم يسلم هذا الأخير إلاّ في عشرة من فرسانه.

كما أنّه إثر الهزيمة نهبت العرب الهلالية معسكر الناصر بما احتوى من مال ،وسلاح ودواب ،وتقاسموا تلك الغنائم و الأسلاب[3]. ويلفت انتباهنا ابن الأثير إلى أمر هام بخصوص تلك القبائل الهلالية الّتي شاركت في موقعة سبيبة ،وتحالفت ضدّ الناصر حينما يشير إلى أنّها كانت في حالة فقر ،وقلّة الدواب ،وضيق الحال[4].

وهي إشارة واضحة إلى كون تلك القبائل ما كان يهمّها أمر التحالف مع تميم ضدّ الناصر بقدر ما كانت تسعى وراء اكتساب الغنائم والأسلاب والأراضي لتوسيع حالها، والاستقرار فيها.

وعلى الرغم من أنّ القبائل الهلالية قد نالت مبتغاها من وراء التحالف مع تميم بن المعز ضدّ الناصر بن علناس حسب الاتّفاق ،وهو ثلث الغنيمة ،وكذا كسر شوكة الناصر وقد حصل إلاّ أنّها ما اكتفت بذلك بل أعقبته بملاحقته إثر هزيمته ،وفراره إلى قسنطينة ثمّ القلعة[5].

وإذا كان كل من ابن الأثير و ابن عذاري و النويري قد اقتصروا نتائج وقعة سبيبة فيما حلّ بجيشه من قتل و بمعسكره من نهب[6] ،فإنّ ابن خلدون قد أمدّنا بأخبار هامة عن مصير عمران

([1])- ابن الأثير المصدر السابق، مج8، ص 373، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 123.

([2])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 299.

([3])- يذكر النويري أنّ تميما بن المعز إثر هزيمة ابن عمه الناصر و ما حلّ بمعسكره، حزن لذلك حزنا شديدا، و لم يقبل الألوية والطبول، و خيم الناصر الّتي أهدتها العرب الهلالية إليه، و أجابهم إجابة تجنّب من ورائها إيثارهم بقوله: «ما فعلت هذا انتقاصا بكم، و إنّما المانع منه أنّني لا أرضى أخذ سلب ابن عمي»، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 123-124، و ربّما يكون تميم بن المعز عندها قد ندم على ما أقدم عليه، و أدرك أنه أخطأ عندما تحالف مع قبائل بني هلال، لأنّه لم يقدّر خطورة الموقف، كما أيقن أيضا أنّ قوة القبائل الهلالية الّتي تزداد شيئا فشيئا، بسيطرتها على المناطق و الأراضي، و ما تقوم به من سلب ونهب، و هو الموقف الّذي لا طاقة له به، بل و يصعب كسر شوكتها إذا ما انقلبت عليه.

([4])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 373 ،ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 299.

([5])- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 167، رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص 65.

([6])- ابن الأثير:المصدر السابق،مج8،ص373،ابن عذاري:المصدر السابق،ج1،ص299،النويري:المصدر السابق،ج24، ص123.

المدن ،وما حلّ بمدينة القلعة بعد ملاحقة العرب الهلالية للناصر إثر هزيمته، فيقول: «...ونجا[1] إلى قسنطينة[2] ورياح في أتباعه ،ثمّ لحق بالقلعة فنازلوها وخرّبوا جنباتها وأحبطوا عروشها»[3].

وهكذا فقد امتدّت يد التخريب الهلالي لعمران المدن بالمغرب الأوسط ،وافتتحوا عهدهم في ذلك بتخريب جنبات القلعة الحمادية ،وإحباط عروشها ،والعيث فسادا بضواحيها بعد موقعة سبيبة ،والّتي تشبه إلى حدّ كبير ما حلّ بالمعز بن باديس ومدينته القيروان من خراب إثر انهزامه في موقعة حيدران ،لكن ما حلّ بمدينة القلعة من خراب كان أقلّ حدّة من تخريب القيروان.

كما أنّ ابن خلدون صاحب المقدّمة[4] ذكر أنّ التخريب مسّ جنبات القلعة وضواحيها فقط ما يعني أنّ عرب رياح عجزت عن اقتحام ،ودخول هذه القلعة الحصينة الواقعة في سند جبل سامي العلو ،صعب الارتقاء ،والمحاطة بالأسوار ،على العكس من مدينة القيروان الّتي دخلتها العرب الهلالية وخرّبتها[5].

وعليه يكون الموقع الطبيعي الحصين لمدينة القلعة هو ما جنّبها ما حلّ بمدينة القيروان من خراب كشأن مدينة المهدية ،الّتي عجزت القبائل الهلالية عن اقتحامها أيضا ،في حين اقتصر التخريب على جنبات القلعة وضواحيها[6] ،كما حصل بالنسبة للمهدية بنواحيها وأرباضها.

د- التخريب الثاني للقلعة:

بعد هزيمة الحماديين في موقعة سبيبة سنة 457هـ/1065م وتعرّض مدينة القلعة للتخريب الهلالي أصبحت أغلب مناطق المغرب الأوسط مجالا مطلقا لسلطان القبائل الهلالية لا ينازعهم فيها منازع ،فأقدموا عندها على تخريب المزارع ،والقرى ،وقطع السابلة ،ونشر الخراب[7].

---

(1)- يقصد الناصر بن علناس.

(2)- هكذا ورد في نص ابن خلدون، و الصواب هو قسنطينة.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27، حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 622.

(4)- اهتمّ ابن خلدون كثيرا بالعمران و طبائعه، حتّى أنّه أفرد له مصنفا خاصا به، و هو كتاب المقدمة من تاريخ ابن خلدون، و هو ما جعل محمد سليمان الطيب يعدّ هذا المؤرّخ أحد مفاخر الحضارة العربية الإسلامية، أنظر: محمد سليمان الطيب: موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية و تاريخية ،مج1، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة ، 1418هـ-1997م،ص426.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

(6)- غير أنّ عبد الحليم عويس يذكر أنّ العرب الهلالية دخلوا القلعة ينهبون و يخربون و يدمّرون مظاهرها الحضارية، فأصبحت القلعة مكشوفة للمغيرين، أنظر: عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 98.

(7)- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 206.

فكانت تلك الهزة الأولى الّتي تعرّضت لها قلعة بني حماد في ظلّ الانتشار الهلالي بتلك المنطقة في عهد الناصر بن علناس. و لم أقف على أيّ نص تاريخي يذكر أنّ مدينة القلعة تعرّضت لعمليات تخريبية في عهد خلفاء الناصر رغم أنّهم انتقلوا إلى عاصمتهم الجديدة مدينة بجاية الساحلية ،الّتي بناها الناصر بعد تخريب القلعة(1) ،وازدياد النشاط الهلالي التخريبي في تلك المنطقة ،حتّى تولّى الأمير الحمادي الثامن العزيز بن المنصور(2)(500-515هـ/ 1106-1121م) أمور الدولة الحمادية ،والّذي في عهده تعرّضت القلعة لهجوم هلالي، كان من نتائجه تخريب مدينة القلعة(3).

وعلى الرغم من أنّ ابن خلدون يذكر أنّ عهد العزيز بن المنصور كانت أغلب أيامه هدنة وأمنا بعد تلك الإجراءات الّتي اتّخذها لإعادة السلام ،ونبذ الصراع بين صنهاجة وزناتة من جهة ،وبين صنهاجة في حدّ ذاتها من جهة أخرى ،فإنّ مدينة القلعة هاجمتها القبائل الهلالية مستغلّة استقرار العزيز بن المنصور في مدينة بجاية(4).

و في ظلّ غياب سبب مباشر تذكره المصادر التاريخية لغزوالعرب الهلالية مدينة القلعة في عهد العزيز ،فإنّ ابن خلدون يذكر أنّه في عهد العزيز «كبس العرب في أيامه القلعة و هم غارون ،فاكتسحوا جميع ما وجوده بظواهرها ،وعظم عيثهم ،وقاتلتهم الحامية، فغلبوهم وأخرجوهم من البلد ،ثمّ ارتحل العرب»(5).

ومنه فقد استغلّت العرب الهلالية قلّة الحامية الّتي تركها العزيز بن المنصور في القلعة مستفيدة من تفوّق عددها فأجبرت الحامية على الخروج فاسحة المجال لها لتعيث فسادا فيها مخلّفة أضرارا سيئة على عمرانها فخرّبوه(6) ،وخرّبوا كل ما وجدوه بظواهرها.

---

(1) -*MARÇAIS Georges: Algérie Médiévale monuments et paysages historiques, arts et métier graphiques, Paris, p 41, LUDWIG Salvadore Von Habsburg- Toskana : Bougie perle l'Afrique do nord, traduit de l'allemand par, Ahcéne Abdelfettah, CNRPAH, Alger, 2005, p 35, GSELL. S – MARÇAIS.G - CYVER : Histoire d'Algérie, Paris, 1929, p 124-125.*

(2)- هو العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس ثامن أمراء دولة بني حماد، تولّى شؤونها سنة 500هـ/1106م، ساد في أيامه الأمن و الهدوء، حيث سعى لمصالحة زناتة، لاستعادة الأمن و السلام في بلاده، بيد أنّ هذا لم يمنعه من القيام بعمليات عسكرية توسّعية على حساب الدولة الزيرية ،توفي سنة 515هـ/1121م، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص234.

(3)- مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 250، عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 371.

(4)-ابن خلدون: العبر، ج6، ص 234 ،عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 150.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 234-235.

(6)- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 98.

وما إن بلغ ذلك النبأ مسامع العزيز بن المنصور حتىّ بعث بابنه يحي وقائده علي بن حمدون من بجاية في جيش لتدارك الموقف وإنقاذ القلعة من عبث وتخريب بني هلال بعدما عجزت الحامية الحمادية عن مجابهتهم[1] ،وبوصول الجيش الحمادي إلى القلعة كانت العرب قد خرّبت ،فاكتفى يحي بن العزيز بتسكين الأحوال وتأمين العرب ،وعاد إلى بجاية[2].

وإنّي استغرب لماذا لم يقم الجيش الحمادي الّذي قطع المسافة من بجاية إلى القلعة جرّاء هجوم العرب على حامية القلعة ،واكتساح المدينة وتخريبها بأيّ عمل حربي ضدّ بني هلال؟ واكتفى بتهدئة الأحوال ،ولم يعمد إلى تأديبها. وأنّي أعتقد أنّ ذلك مردّه إلى ضعف الجيش الحمادي أمام القبائل الهلالية ،الّتي أصبحت السلطة الحمادية تسعى لاسترضائها لتجنّب خطرها وإفسادها. وإلاّ كيف يعود جيشها إلى بجاية بعد تأمين العرب الغازية للقلعة ،وهم لا يأمنون أن تعاود هجومها على القلعة مرة أخرى، خصوصا و أنّ الروايات التاريخية لا تورد أيّ خبر يفيد أنّ الجيش الحمادي قد عزّز حاميته في القلعة واستكثر من عددها لصدّ أيّ هجوم هلالي محتمل عليها كما حدث في سابقتها.

ولو رجعنا إلى نص ابن خلدون فإنّا لا نجده يورد تاريخا محدّدا لاكتساح القبائل الهلالية مدينة القلعة مقتصرا على ذكر أنّ الحادثة كانت في عهد العزيز بن المنصور[3] ،وعنه نقل أغلب الباحثين المحدثين تفاصيل تلك الحادثة دون ذكر تاريخ حدوثها[4] سوى ما أقرّه ابن خلدون. وعلى الرغم من ذلك فإنّنا نجد المؤرّخ الهادي روجي إدريس المهتمّ بتاريخ الدولة الصنهاجية يذكر أنّ العزيز بن المنصور قام سنة 514هـ/1120-1121م بحصار مدينة تونس ،ويعلّق هذا المؤرّخ على ذلك الحصار بقوله: «أنّه كان من الأولى على العزيز أن يستثمر جهوده لمقاومة الهلاليين الّذين اجتاحوا منطقة القلعة وعاثوا فيها فسادا»[5].

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 235، إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 206.

(2)- عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 371.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 234.

(4)- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 206، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 150، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 382، مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 250.

(5)- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 382.

ونفهم من كلام روجي إدريس أنّ حادثة تخريب القلعة واكتساحها من طرف بني هلال كان في تلك السنة المذكورة آنفا. أويحتمل أن يكون في الفترة الّتي سبقتها بسنة أوسنتين[1] ،وهو ما يؤكّده المؤرّخ الجزائري عبد الرحمن الجيلالي الّذي يجعل من سنة 512هـ/1118م تاريخا لإغارة العرب الهلالية بحلفائها على القلعة الحمادية فاكتسحوا المدينة وأهلكوها[2].

ومجمل القول فإنّ مدينة القلعة على الرغم من وقوعها في موضع وعر وحصين فإنّها تعرّضت للتخريب من طرف الهلاليين أيام الناصر ،ومع استمرار نشاطهم التخريبي ،والعيث فسادا بضواحيها ،انتقل عنها أمراء بني حماد إلى بجاية ،وهو مازاد في أطماع الهلاليين في اكتساحها ،وإضعافها في عهد العزيز بن المنصور الّذي تعرّضت في عهده للتخريب للمرة الثانية بعدما تعرّضت للخراب الأوّل في عهد جده الناصر.

2- خراب مدينتي طبنة و المسيلة:

لقد مرّ بنا أنّ التطوّر الحضاري الّذي عرفته مدينة طبنة ،والمكانة المهمة الّتي حظيت بها في عهد دولة بني الأغلب قد تراجعت مع نهاية القرن الثالث الهجري (10 م) ومطلع القرن الرابع الهجري (10م) [3] ،وكان ذلك التراجع مردّه أساسا إلى ذلك الحصار الّذي ضربه عليها أبو عبد الله الشيعي ،والّذي استسلمت أمامه تفاديا للانتقام ،وعلى الرغم من ذلك قام جيش أبي عبد الله بإسقاط أبراج السور ،ثمّ تعرّض سور المدينة للتهديم[4] ،ليزداد ذلك التراجع أكثر في عهد الدولة الشيعية[5] حينما تضرّرت كثيرا طيلة ذلك الصراع الشيعي الزناتي كون هذه المدينة كانت منطقة عبور لجيوش الدولة الشيعية في حملاتها على مدن المغرب الأوسط لإخضاع المتمرّدين ،وإحكام السيطرة على الإقليم[6].

---

(1)- و يستبعد أن يكون بعد سنة 514هـ/1121م، لأنّ العزيز بن المنصور توفي في السنة نفسها.

(2)- عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 371.

(3)- أنظر: فتح طبنة في الفصل التمهيدي من هذا البحث.

(4)- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 107.

(5)- يصوّر الرحّالة ابن حوقل ذلك الوضع المتردّي لمدينة طبنة في تلك الفترة بقوله: «وكانت عظيمة كثيرة البساتين و الزروع و القطن والحنطة و الشعير...وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة و كانت وافرة، الماشية من البقر و الغنم و سائر الكراع و النعم فحدث بينهم البغي و الحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض و أتى على نعمهم فصاروا بعد السعة و الدعة إلى الضيق و الذلة والصغار و الشتات و القلّة مشردين في البلاد مطرحين في كل جبل و واد»، أنظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص 85.

(6)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 364-365.

ومع بناء مدينة المسيلة اختفى دور مدينة طبنة كحاضرة إقليم الزاب لصالح المدينة الجديدة المسيلة ،غير أنّ الدور الحضاري لهذه المدينة الأخيرة ما كان ليستمرّ هو الآخر في ظلّ الاضطرابات الّتي عرفتها في عهد دولة الفاطميين[1]، ليزداد في التراجع إن لم نقل يختفي بعد بناء حماد بن بلكين مدينة القلعة ،وعمل على تعميرها[2].

وبدخول العرب الهلالية أرض المغرب الأوسط بسطوا نفوذهم على منطقة الزاب وضواحيها في عهد الأمير الحمادي بلكين بن محمد ،بعدما طردوا زناتة إلى الصحراء ،وحينما فشلت في مدافعتهم ،ومنعهم من دخول المنطقة ،بإيعاز من الأمير الحمادي[3] ،وإثر انهزام زناتة حافظ الحماديون على المدن ،وتركوا الأرياف لبني هلال[4].

أ- الأسباب:

باستقرار القبائل الهلالية في منطقة الزاب و ضواحيها لم تشر المصادر التاريخية إلى أنّها قامت بأعمال نهب وتخريب للزروع والمدن والقرى في أوّل عهدها ،حتّ عهد الناصر بن علناس ،وما كان من أمره في موقعة سبيبة –كما مرّ بنا- حينها شرعت العرب الهلالية في النهب والتخريب ،وافتتحت عهدها في ذلك بتخريب جنبات مدينة القلعة وظواهرها[5]، بعد ملاحقتها للناصر ،وحصارها إيّاه في قلعته إثر الهزيمة[6] ،ولم تقتصر أعمال التخريب على مدينة القلعة ،بل امتدّت إلى عمران كل من مدينتي طبنة والمسيلة[7].

ب- التخريب:

إنّ النص التاريخي الّذي بين أيدينا و الّذي يبيّن تفاصيل ذلك التخريب هو ما أورده المؤرّخ ابن خلدون حينما يقول: «...وعاجوا على ما هنالك من الأمصار ثمّ طبنة والمسيلة فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها ،وعطفوا على المنازل والقرى و الضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من

(1)- عبد الحميد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص 168 ،عيسى بن الذيب، و آخرون: المرجع السابق، ص 87.

(2)- محمد سويسي: أنماط العمران البشري بإفريقية و جزيرة المغرب حتّ العهد الحفصي، (د.ط)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2001، ص 15.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27، إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 146.

(4)- رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص 55.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

(6)- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 131.

(7)- حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 622.

بلاد الجن وأوحش من جوف العير وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد ،وهجّروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاّة أعمالها في الأمصار وملكوا عليهم الضواحي يتحيفون جوانبها ،يقعدون لهم بالمراصد ،ويأخذون لهم الإتاوة على التصرّف في أوطانهم»[1].

ومنه فإنّ مدينتي طبنة و المسيلة و في ظلّ تراجع دورهما الحضاري، فقد أقدمت بنوهلال على تخريب عمرانهما ،والعيث فسادا في ضواحيهما ،فأضحت المدينتان في أسوأ حال بعد خراب عمرانهما ،وهجرة سكّانهما. ولكن هل حقيقة كان ذلك التخريب بالصورة والحدّة الّتي أوردها المؤرّخ ابن خلدون؟.

بالنظر إلى النص التاريخي الّذي نقله إلينا ابن خلدون حول ما حلّ بمدينة طبنة والمسيلة من خراب إثر الزحف الهلالي إلى تلك المنطقة، نجد أنفسنا أمام كارثة عظيمة دمّرت عمران تلك المدن ،وتركتها قاعا صفصفا ،بل و لم يسلم من ذلك الدمار حسبما يورده هذا المؤرخ كل من: المدن والأمصار ،والقرى والضياع ،والمنازل والأشجار ،وحتّ المياه فقد غوّروها[2] ،فأصبحت تلك المنطقة آثارا خالية ،لا حياة فيها ،ولا آثار لوجود حضارة إنسانية عمرّت في ذلك المكان ،فعمّ البلاء وكثر الفساد في جميع الأرجاء[3].

إنّ هذا الخبر التاريخي على الرغم ممّا اكتساه من أهمية تاريخية حيث أمدّنا بتفاصيل التخريب الهلالي لمدينتي طبنة والمسيلة ،غير أنّه لا يخلو من المبالغة في وصف ذلك التخريب ،الّذي يكون بذلك الشكل وبتلك الحدّة ،إذ ذكر ابن خلدون على سبيل المثال أنّ هناك مدنا خرّبت إلى جانب كل من مدينتي طبنة والمسيلة حينما قال: «والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصافا»[4] غير أنّه لم يذكر أسماء تلك المدن الّتي خرّبت. و هو مايجعلنا نتساءل عن سبب ذلك إذا كان حقيقة أنّ هناك مدنا أخرى خرّبتها العرب الهلالية فلما لا يذكر أسماءها؟. وهو ما يدفعني للاعتقاد أنّ ابن خلدون لجأ إلى أسلوب التعميم ،حتّ يضفي على ذلك التخريب الهلالي طابع الكارثية والبشاعة والإسراف.

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

([2])- المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

([3])- حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 623.

([4])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

وصفوة القول فإنّي و إن كنت لا أنكر ما أحدثته العرب الهلالية من خراب لمدينتي طبنة والمسيلة وضواحيها بعد موقعة سبيبة ،فلا أستبعد مبالغة ابن خلدون في وصفه لذلك التخريب ،ذلك أنّ هذا الوصف يوحي بأنّه لم يبق لتلك المدن أثر بعد عين ،وزالت بشكل نهائي آثارها الحضارية. ولإثبات ذلك من عدمه ،سنقف عليه من خلال أوصاف الرحّالة الّذين زاروا هذه المدن بعد ذلك التخريب ،وما وقفوا عليه من أوضاعها ومصيرها، فهل وجدوها عامرة؟ أم لم يقفوا إلاّ على آثار للأوّل؟. وهو ماستنطرّق إليه في المبحث الموالي من هذا البحث.

3- نتائج التخريب:

إنّ النتيجة الكبرى لهزيمة الناصر بن علناس في موقعة سبيبة سنة 457هـ/1065م كانت سيطرة الهلاليين على مدن المغرب الأوسط ،ولكن هذه السيطرة ما كانت لتكتفي بإبادة جيش الناصر بن علناس ،ونهب مضاربه وخزائنه بما تحتويه من أموال وسلاح ،بل انتشروا في البلاد وسيطروا على القرى والأرياف ،وعاثوا فيها فسادا ،فنهبوا الزروع ،وخرّبوا العمران كمدينة طبنة ،المسيلة والقلعة هذه الأخيرة الّتي لم يدخلوها و إنّما خرّبوا جنباتها وأحبطوا عروشها[1]. واستمرّوا على ذلك فترة من الزمن ،فانعكس ذلك بشكل سلبي على مختلف جوانب الحياة سياسية ،اقتصادية ،اجتماعية وكذا الثقافية لتلك المدن الّتي تعرّض عمرانها لذلك الخراب ،ومن ورائها دولة بني حماد صاحبة السلطة على ذلك الإقليم.

أ- السياسية:

إذا كانت مدينة القلعة حاضرة بني حماد قد استفادت سياسيا واقتصاديا وثقافيا من تدهور أوضاع منطقة المغرب الأدنى بعد خراب أغلب مدنه إثر الغزوة الهلالية ،أين اضطرّ الكثير من التجار وأصحاب الأموال ،ورجال العلم والمعرفة للرحيل إلى مدينة القلعة للاحتماء بها ،وطلبا للأمن و الهدوء[2] ،فإنّ هذه الاستفادة الّتي حقّقتها مدينة القلعة بسبب المصائب الّتي حلّت ببني زيري لم يمض عليها أكثر من عقد من الزمن حتّ أصابها ما أصاب مدن المغرب الأدنى من عيث القبائل الهلالية ،الّتي خرّبت كذلك المدن والقرى والضياع والمزارع[3] ،فانتشرت الفوضى

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27 ، حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، العبر، مج1، ص 623.

(2)- محمد بن معمر: «القلعة قاعدة بني حماد الثقافية الأولى»، مجلة حولية المؤرّخ، العدد الأوّل، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أوّل نوفمبر، الأبيار، الجزائر، 2002، ص 107.

(3)- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 49.

وسادت الاضطرابات في ذلك الإقليم ،وتضرّرت المدن ،وضاقت أحوال ساكنيها[1]. عندها بدأت القلعة تفقد مكانتها السياسية على اعتبار أنّها عاصمة الإقليم[2]. ولمّا استفحل أمر الهلاليين و لم يكفّوا عن عيثهم ،وتخريبهم ،وقطعهم السابلة في المدن والضواحي ،لم يجد الناصر بن علناس بدّا من البحث عن بديل لهذه العاصمة ،بإيجاد موضع أكثر حصانة من القلعة ،وفي مكان بعيد عن تأثير العرب الهلالية وأعمالها التخريبية ،بعدما استحال عليه أمر ترويضها كما يرويه صاحب كتاب الاستبصار[3].

فاختار موضع بجاية لبناء مدينته والعاصمة الثانية لدولته ،والّتي تشكّل ملجأ حصينا ضدّ الهلاليين ،فهي بعيدة عن مجال تحرّكاتهم[4] نظرا لوجود حواجز جبلية تفصل هذه المدينة عن المناطق الّتي تصول وتجول فيها خيل العرب الهلالية[5]. وفي ذلك يذكر ابن خلدون محدّدا سبب بناء المدينة قائلا: «...وما كانوا يسمونهم بالقلعة من خطة الخسف وسوء العذاب بوطء ساحاتها والعيث في نواحيها ،وتخطّفوا النّاس من حولها لسهولة طرقها على رواحلهم، وصعوبة المسالك عليهـــا في الطريق إلى بجاية لمكان الأوعار ،فاتّخذ بجاية هذه معقلا ،وصيّرها دارا لملكه ،وجدّد قصورها»[6]. وببناء الناصر لمدينة بجاية انتقل إليها سنة 461هــ/ 1068م ،وجعلها مستقرّا له ،سعى إلى تعميرها ،فشيّد القصور والحمّامات والأبراج. كما بنى دارا لصناعة الأساطيل والمراكب والسفن[7] ،وذلك بعدما نقل السكّان إليها من القلعة بعد تخريبها[8] ،فغدت حينها عاصمة الحماديين خلفا لمدينة القلعة.

و في ظلّ ما يراه بعض المؤرّخين من أنّ تراجع الدور السياسي لمدينة القلعة بعد بناء الناصر بجاية و الانتقال إليها ما هو إلاّ نتيجة حتمية لما آلت إليه أوضاع تلك المنطقة من نهب وتخريب

---

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

(2)- علاوة عمارة: «الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى بين الذاكرة و التاريخ»، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد التاسع، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1429هـــ-2008م، ص 33.

(3)- مجهول: الاستبصار، ص 129.

(4)- أنظر الملحق رقم: 24.

(5)- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 55.

(6)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232.

(7)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 260.

(8)- عبد الحليم عويس:المرجع السابق، ص103، *MARÇAIS Georges: Algérie médiévale, p 41*.

الهلاليين لعمران المدن والقرى والمنازل ،وإتلاف الزروع. فإنّ السؤال الّذي يطرح هو: هل يقتصر سبب بناء الناصر لمدينة بجاية على ما ذكرناه آنفا أم أنّ هناك أسبابا أخرى؟ ،ثمّ هل انتقل الناصر إلى بجاية من القلعة بشكل نهائي وانقطع عنها؟

للإجابة على الشطر الأوّل من السؤال الّذي طرحناه نقول: بأنّه تعدّدت آراء المؤرّخين حول سبب بناء الناصر مدينة بجاية[1] ،ففي الوقت الّذي يرى البعض أنّ السبب هو التخريب الهلالي للقلعة ،نجد من المؤرّخين من يرى غير ذلك على غرار الجغرافي ياقوت الحموي والمؤرّخان المشرقيان ابن الأثير والنويري ،والذين يذكرون أنّ سبب بنائها هو رغبة الناصر بن علناس في إيجاد ميناء بحري حربي لعاصمته القلعة ،وكذلك بهدف مواجهة القوة الزيرية ،والتوسّع على حساب أراضي هذه الأخيرة، واقتحام عاصمتها المهدية ،إذ يذكر الحموي: «...وأشار عليه[2] ببناء بجاية... وأراه المصلحة في ذلك الّتي تحصل له من الصناعة وكيد العدو»[3]. وفي نفس السياق يضيف النويري: «...وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها ،وقد عبرت الآن ببجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء و جميع ما يصلح لبناء مدينة[4]. فاجعلها لك مدينة ،يكون فيها دار ملكك وتقرب من جميع بلاد إفريقية»[5].

وبناء على هذا فلا يمكننا أن نحمّل العرب الهلالية المسؤولية الكاملة في تراجع الدور السياسي لمدينة القلعة بعد التخريب الّذي أحدثته في تلك المنطقة. بل إذا صحّت الروايات

([1])- هناك اختلاف أيضا حول تحديد السنة الّتي كان فيها بداية بناء هذه المدينة بين فريقين أحدهما يرى أنّه كان سنة 457هـ/1064م مباشرة بعد موقعة سبيبة، أمّا الآخر فيذهب إلى اتّخاذ سنة 460هـ/1067م تاريخا لبداية البناء، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 124، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232، و للمزيد أنظر: مقال: علاوة عمارة: «التطوّر العمراني و التجاري لمدينة بجاية في العصر الإسلامي الوسيط»، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 26، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1429هـ-2008م.

([2])- الّذي أشار عليه هو : محمد ابن البعبع رسول تميم بن المعز إلى الناصر بن علناس لعقد الصلح بينهما بعد موقعة سبيبة، للمزيد من التفصيل حول ذلك، أنظر ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 373-374.

([3])- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص 339.

([4])- يرى جورج مارسيه أن بحث الناصر عن موقع ساحلي لمدينته، هو توجيه الأنظار و النشاط نحو تجارة ما وراء البحر ونحو القرصنة كذلك. في حين يرى مفتاح خلفات أن ذلك مردّه إلى ذلك الاختلال في التوازن الديموغرافي بين الداخل والساحل وبين المدينة و الريف إذ اختنقت القلعة بالسكّان، فكان لزاما البحث عن مكان آخر، يبعد عن المجال الجغرافي لبني هلال، أنظر: مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص45، *MARÇAIS George: Algérie médiévale, p 41*.

([5])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 124.

التاريخية الّتي أوردناها فإنّ لأطماع الناصر بن علناس في ملك بني عمومته ،وطموحاته التوسّعية على حسابهم دور كبير في تراجع دور القلعة بعدما بنى بجاية ،واتّخذها عاصمته السياسية.

أمّا بخصوص انتقال الناصر إلى بجاية ،فإنّ ابن خلدون يشير إلى أنّ الناصر بعد انتقاله إليها سنة 461هـ/1068م بقي يتردّد على القلعة ،ولم يغادرها بشكل نهائي حتّى هلك سنة 481هـ/1088م ،فخلفه ابنه المنصور ،والّذي لم ينتقل إلى بجاية حتّى سنة 483هـ/ 1090م[1].

وعليه فما دام الناصر بقي يتردّد على القلعة ولم يغادرها بشكل نهائي حتّى كان عهد ابنه ،الّذي انتقل إليها بصفة نهائية ،فهذه يعني أنّ مدينة القلعة حافظت على مكانتها السياسية كعاصمة ثانية للدولة الحمادية ولو بشكل ثانوي ،وهو ما يفنّد تلك الصورة القاتمة الواردة في بعض المصادر التاريخية بشكل مبالغ فيه حول الخراب الّذي ألحقه الهلاليون بمدن المغرب الأوسط.

و منه فببناء مدينة بجاية والانتقال إليها واتّخاذها العاصمة الأولى أصبح للقلعة دورا ثانويا. بيد أنّه لا يمكن إرجاعه إلى ما تعرّضت له القلعة من تخريب على يد القبائل الهلالية فحسب ،بل إنّ انتقال الأسرة الحاكمة إلى العاصمة الجديدة يعدّ في حدّ ذاته عاملا مهما في تراجع دور القلعة السياسي ،والحضاري. ويضاف إلى ذلك ما تعرّضت له القلعة من تخريب هلالي في فترات لاحقة كما عرضناه سالفا[2] ،وذلك نتيجة انتقال حكّامها منها ،وهجرة أغلب سكّانها ،عندئذ خلى المجال أمام الهلاليين لشنّ غارات تخريبية على مدينة القلعة ،الّتي عجزت الحامية الحمادية عن مدافعتها ،ممّا كان يضطّر الأمراء الحماديين إرسال الجيوش لدفع خطرهم ،ولكن لبعد المسافة بين بجاية والقلعة كانت تصل بعد فوات الأوان ،وبعدما يتعرّض عمران المدينة للتخريب.

ب- الاقتصادية و الاجتماعية:

إنّ الحديث عن الأثر السلبي الّذي أحدثه الهلاليون على البنية الاقتصادية لمدن المغرب الأوسط نتيجة التخريب الّذي ألحقوه بها يدفعنا للاعتقاد أنّ النشاط الاقتصادي لهذه المدن تضرّر بشكل ملحوظ ،بعدما خرّبوا الزروع وأفسدوها ،وسيطروا على الأراضي وتملّكوها ،واستأثروا بالبسائط والسهول[3]،حيث تقلّصت الأراضي الزراعية ،وهو ما أدّى إلى قلّة الإنتاج ،خاصة بعد هجرة السكّان منها في أغلب الأحيان سبب الفوضى والاضطرابات ،حيث تركوا مزارعهم

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232.

(2)- أنظر: مبحث التخريب الثاني للقلعة من هذا الفصل.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص27، ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص373، النويري: المصدر السابق،ج24، ص123.

وحقولهم وبساتينهم ،واحتموا بالمدن الحصينة[1] مثل مدينة القلعة ،ثمّ بجاية عندما اشتّد ضرر العرب الهلالية وانتقل حكام القلعة منها ،وعليه اقتصر نشاط هؤلاء السكّان على زراعة أراضي المدن ،والمناطق المجاورة لها ،والّتي لا تصلها يد التخريب الهلالي.

وعندما قلّ الإنتاج وأصبح لا يفي احتياجات السكّان عمّ الغلاء ،وانتشرت المجاعات والأمراض[2] ،واضطرّت السلطة ،وأصحاب التجارة إلى دفع إتاوات ضخمة لشراء الأمن والهدوء ،حتّ دفعوا لأجل ذلك نصف غلاّتهم ومحاصيلهم الزراعية[3].

كما قلّ الإنتاج الصناعي أيضا ،عندما هاجر الحرفيون والصناع. وكذلك حال التجارة نتيجة انعدام الأمن في الطرقات والمسالك التجارية ،عندها عزلت المدن ،وضعف دورها الّذي تؤدّيه كمراكز تجارية هامة على غرار مدينة القلعة ،الّتي كانت محطّ القوافل التجارية المحمّلة بالبضائع ،والّتي تساهم في ازدهارها الاقتصادي بشكل ملحوظ ،وعند ذلك غيّرت هذه القوافل مسالكها إلى الطرق الّتي يسودها الأمن وتُعنى بالحراسة[4]. وبذلك اختفت قلعة بني حماد كمركز تجاري هام في منطقة المغرب الأوسط[5] بعدما كانت وريثة حضارة القيروان بعد خرابها.

ج- الثقافية:

لم تخل عمليات التخريب الّتي أحدثها الهلاليون في مدن المغرب الأوسط من تأثيرات سلبية على الوضع الثقافي لذلك الإقليم ،فبعد ما كانت هذه المدينة هي المستفيدة من الوضع الّذي آلت إليه القيروان بعد خرابها عندما استقطبت أكثر أهل القيروان ،خاصة منهم رجال العلم ،الّذين أسهموا كثيرا في ازدهار الحياة الثقافية لهذه المدينة[6] حتّ أصبحت كما يذكر ابن خلدون مقصدا للعلماء ،الذين رحلوا إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة ،وكذلك أرباب الصنائع «لنفاق

(1)- عبد الحميد خالدي: الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، (د.ط)، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2007، ص 190-191.

(2)- يذكر ابن عذاري بأنّه: «في سنة 469هـ كانت بإفريقية مجاعة عظيمة و وباء عظيم، مات فيه من الناس خلق كثير»، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 300.

(3)- مبارك بوطارن: تطوّر العمران الإسلامي، ص 287-288.

(4)- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 58.

(5)- عبد الحميد خالدي: المرجع السابق، ص 191.

(6)- روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص 99.

أسواق المعارف والتجارة والصنائع بها»[1]. بيد أنّها ما لبثت أن أصبحت مكانا غير آمن بعد الدخول الهلالي للمنطقة ،وما جرّه من أعمال تخريب ،ونشر للفوضى والاضطرابات[2] ،ممّا اضطرّ أغلب أهاليها وفي مقدمتهم العلماء[3] إلى ترك القلعة والانتقال إلى بجاية. وبذلك بدأت هذه المدينة تفقد إشراقها الثقافي لصالح العاصمة الحمادية الجديدة مدينة بجاية الساحلية.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ مدينة القلعة على الرغم من فقدانها مكانتها السياسية كعاصمة للحماديين بداية من سنة 483هـ/1090م[4] ،إلاّ أنّها ما فقدت مكانتها الثقافية بشكل نهائي ،بل حافظت على جزء كبير من ذلك الرصيد الفكري والحضاري الّذي عرفته هذه الحاضرة. وليس ذلك فحسب فقد شكّلت أحد المصادر الهامة الّتي أمدّت مدينة بجاية برجال العلم والثقافة ،الّذين أسهموا كثيرا في بناء الحياة العلمية لهذه المدينة في الفترات الّتي أعقبت بناءها وإعمارها[5] ،وهو ما أهلّها لأخذ مكانة القلعة العلمية بشكل تدريجي ،خاصة بعدما غدت العاصمة الأولى لدولة بني حماد ،وأصبح لمدينة القلعة الدور الثانوي في المجال السياسي لهذه الدولة[6].

ومنه فإنّ مدينة القلعة لم تفقد أهميّتها الثقافية بشكل مطلق على الرغم من ضغط القبائل الهلالية عليها ،واستبدال الناصر لها بعاصمة جديدة، بل استمرّت الحياة الثقافية بمدينة القلعة ولوبدرجة أقل ممّا سبق ،حيث استمرّ وفود طلبة العلم إليها[7] ،طلبا للعلم والتدريس ،كما أنجبت

---

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 228.

(2)- حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 308.

(3)- من العلماء الّذين ولدوا بالقلعة ثمّ رحلوا إلى بجاية، أبومحمد عبد الكريم القلعي، ابن عبد الملك بن عبد الله بن الطيب الأزدي المعروف بابن يبكي، و محمد بن الحسن القلعي المتوفى سنة 673هـ/1274م، و كذا محمد بن عمر القلعي، أنظر: محمد أبوالقاسم الحفناوي الديسي: تعريف الخلف برجال السلف، القسم الأوّل، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر والتوزيع، بيروت، و المكتبة العتيقة، تونس، 1405هـ-1985م، ص ص 23-369-492.

(4)- مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 49.

(5)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 161.

(6)- حيث أصبحت مدينة بجاية، هي مدينة المغرب الأوسط و عاصمة بني حماد، و باتت مقصد السفن المحمّلة بالبضائع، وكذا القوافل التجارية المحمّلة بالأمتعة والبضائع، وانتقل إليها العلماء والتجار، والصناع والحرفيون، من المغرب والمشرق، فأصبحت الحاضرة الأولى لبني حماد، أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 161، إسماعيل العربي: عواصم بني زيري، ص 57.

(7)- من بين الوافدين للقلعة، الفقيه المالكي أبوعبد الله محمد بن أبي الفرج المازري، المعروف بالذكي، و كذلك أبوالفضل يوسف بن محمد، المعروف بابن النحوي، أنظر: محمد بن معمر: المرجع السابق، ص 107- 108.

القلعة في تلك الفترة خيرة من العلماء[1] ،بحيث تواصل العطاء العلمي والثقافي لهذه المدينة[2] ،حتّ سقطت في يد الموحدين سنة 547هـ/ 1152م[3].

فمدينة القلعة على الرغم من تخريب الهلاليين لجنباتها و التضييق عليها باستمرار، إلاّ أنّها ظلّت قائمة كعاصمة ثانية لدولة بني حماد، كما استمرّ عطاؤها الثقافي طيلة فترة حكم الحماديين[4]، و إن كان ذلك الدور السياسي و الاقتصادي و حتّ الثقافي الّذي لعبته هذه المدينة في أوائل عهد الدولة الحـمادية قد تراجع بعد انتقال عاصمة الحمـاديين السياسية إلى مدينة بجاية، ولكنّه لم يختف حتّ سقطت دولة بني حماد على يد دولة الموحدين[5].

ولورجعنا إلى وصف الرحّالة والجغرافي الإدريسي لهذه المدينة لوجدنا أن القلعة «كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد ،وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم والحنطة تختزن بها... و بها من الفواكه والنعم المنتخبة...ولحومها كثير... فأهلها أبد الدهر شباع و أحوالهم صالحة»[6].

وإن كان هذا النص الّذي أورده الإدريسي يصف حال مدينة القلعة و أهلها بحال حسن ،ممّا يشير إلى عدم تضرّرها من التخريب الهلالي بشكل كبير ،فإنّ فيه إشارة أيضا إلى أنّ دور هذه المدينة تغيّر عمّا كان عليه حينما كانت العاصمة الأولى للدولة الحمادية ،وهو ما يؤكّده بقوله: «ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط ،وعين بلاد بني حماد»[7]. ثمّ يضيف في موضع آخر قائلا: «وأمّا مدينة بجاية في ذاتها ،فإنّها عمرّت بخراب القلعة»[8]. ومنه فقد تراجع الدور السياسي والاقتصادي والثقافي لهذه المدينة حتّ وإن لم يكن بشكل كبير ،ذلك أنّها كانت في

---

(1)- من العلماء الّذين أنجبتهم القلعة بعد النصف الثاني من القرن 05 هـ/11م، علي بن طاهر بن محشوة، المكنى بأبي الحسن، أنظر: محمد بن معمر: المرجع السابق، ص 109.

(2)- حول العلماء الّذين ولدوا بالقلعة، ثمّ انتقلوا إلى بجاية، أنظر: أحمد أبوالعباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح، عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979.

(3)- علاوة عمارة: الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى، ص 33.

(4)- عبيد بوداود: المرجع السابق، ص 27.

(5)- علاوة عمارة: الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى، ص 33.

(6)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 161.

(7)- الإدريسي: المغرب العربي، ص 116.

(8)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 161.

بادئ عهد دولة بني حماد كما يصفها هذا الجغرافي «من أكبر البلاد قطرا ،وأكثرها خلقا ،وأغزرها خيرا ،وأوسعها أموالا ،وأحسنها قصورا ومساكنا وأعمّها فواكها وخصبا»[1].

أمّا مدينة طبنة فعلى الرغم من تراجع دور هذه المدينة بعد بناء مدينة المسيلة أيام دولة الفاطميين ،حيث ورثت هذه المدينة الأخيرة حضارة مدينة طبنة ،إضافة إلى تضرّر هذه المدينة نتيجة ذلك الصراع الفاطمي الزناتي[2] ،ثمّ بدخول العرب الهلالية تلك المنطقة وما صاحبه من أعمال تخريبية للعمران تأثّرت حينها مدينة طبنة من ذلك الخراب[3] ،إلاّ أنّ هذه المدينة ترد في نص أورده الجغرافي الإدريسي لا ينبأ بسوء حال هذه المدينة عقب فترة التخريب ،الّذي ألحقه الهلاليون بمدن تلك المنطقة ،فيذكر الإدريسي أنّها «مدينة حسنة ،كثيرة المياه والبساتين والزروع ،والقطن ،والحنطة ،والشعير... وبها صنائع وتجارات وأموال لأهلها متصرّفة في ضروب من التجارات ،والتمر بها كثير ،وكذلك سائر الفواكه»[4].

و يبدو جليّا من خلال هذا النص أنّ هذه المدينة لم تتأثّر بشكل كبير من التخريب الهلالي لعمرانها ،أو إفسادهم لزروعها ،والتضييق على سبلها ،بل حافظت هذه المدينة على ازدهارها الاقتصادي كما بيّنه الإدريسي خلال القرن 06 هـ- 12م.

وما تجدر الإشارة إليه أيضا أنّ هذه المدينة قد انتعش اقتصادها ،وتحسّنت حال أهلها ،بعد التراجع الّذي عرفته في الفترة الّتي سبقت ذلك أيام دولة الفاطميين ،كما يذكر ابن حوقل بأنّها «كانت وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم فحدث بينهم البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض»[5]. لكن ذلك تغيّر في فترة الإدريسي ،أين استعادت حيويتها ونشاطها الاقتصادي[6]. أمّا دورها السياسي فقد اختفى بشكل نهائي ،فقد كانت حاضرة بني زيري في المغرب الأوسط هي مدينة أشير ،ثمّ مدينة القلعة ،ثمّ في ذلك العهد أصبحت بجاية هي عاصمة بني حماد السياسية ومدينة المغرب الأوسط[7].

([1])- الإدريسي: المغرب العربي، ص 109.
([2])- عيسى بن الذيب، و آخرون: المرجع السابق، ص 87- 88.
([3])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.
([4])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 263.
([5])- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 85.
([6])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 263.
([7])- عيسى بن الذيب، و آخرون: المرجع السابق، ص 94- 95.

ومن خلال حال مدينة طبنة الّتي كانت حاضرة الزاب ثمّ يختفي دورها الاقتصادي في فترة زمنية معينة ،ثمّ تستعيد ذلك النشاط في مرحلة أخرى ،تستوقفنا نقطة مهمة في هذا المجال وهي أنّ هناك مدنا تعرف الازدهار الاقتصادي والسياسي والثقافي ،ثمّ يتراجع ذلك الازدهار نتيجة تعرّض هذه المدن لأعمال تخريب ،أوتكون ميدانا للصراعات والحروب[1] ،أو يتمّ استبدالها ببناء مدينة جديدة ،بعدما تكون المدينة السالفة العاصمة السياسية أوالحاضرة الاقتصادية والثقافية للدولة الحاكمة آنذاك ،عندئذ يختفي دورها مع بروز دور المدينة الجديدة ،الّتي تصبح العاصمة السياسية والاقتصادية لتلك الدولة. على أنّه قد لا تفقد هذه المدن ازدهارها الاقتصادي عكس دورها السياسي ،حيث تحافظ على سيرورة نشاطها الاقتصادي في ظلّ ما تمتلكه من إمكانات اقتصادية تساهم في استمرار ذلك الازدهار ،خاصة إذا ما ساد الأمن ،وانعدمت الفوضى والاضطرابات.

كما نشير أيضا إلى جانب مهم له تأثير كبير على دور المدينة الّذي قد يختفي بشكل نهائي حتّ وإن لم تتعرّض هذه المدينة لتخريب عمرانها وزروعها ألا وهو تغيّر الطرق والمسالك التجارية الّتي تسلكها القوافل مرورا بالمدن ،الّتي تعدّ إحدى المحطات التجارية الهامة الّتي تحطّ بها تلك القوافل ،فتزوّد أسواقها بما تحتاجه من بضاعة ،وتحمل معها بضائع أخرى ،وإذا ما تغيّر ذلك المسلك الّذي يمرّ بتلك المدينة بسبب الاضطرابات وانعدام الأمن ،يؤثّر ذلك سلبا على اقتصاد هذه المدينة ،ويتراجع دورها بشكل تدريجي حتّ تختفي بشكل نهائي[2].

أمّا مدينة المسيلة فتبدو هي الأخرى على الرغم من فقدانها لدورها السياسي الّذي لعبته أيام دولة الفاطميين كمدينة عسكرية ،ومركز إمداد ،ومخزن مؤن لهم ،ثمّ نتيجة الظروف السياسية في ظلّ سلطان الفاطميين عليها ،تأثّرت بشكل مباشر بتلك الثورات والحركات التمرّدية ضدّ السلطة في ذلك الإقليم ،لتفقد هذه المدينة كل وظائفها السياسية بعد فرار جعفر بن علي بن حمدون إلى الأندلس وتركه بلاد المغرب ،فأضحت أشير هي المدينة الجديدة الّتي انتقلت إليها كلّ الوظائف السياسية[3]. إلاّ أنّ هذه المدينة حافظت على نشاطها الاقتصادي بشكل مستمر خلال فترة الدخول الهلالي إلى منطقة المغرب ،وسيطرتهم على بواديه ،وتضييقهم على مسالك المنطقة.

([1])- و ينطبق ذلك أيضا على مدينة المسيلة.

([2])- علاوة عمارة: «الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب»، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، العدد 10، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1430هـ-2009م، ص 25.

([3])- عيسى بن الذيب، و آخرون: المرجع السابق، ص 91.

فنجد الإدريسي يصف هذه المدينة في وقته بأنّها مدينة «عامرة في بسيط من الأرض. ولها مزارع ممتدة أكثر ممّا يحتاج إليه ،ولأهلها سوائم خيل وأغنام وأبقار ،وجنات ،وعيون ،وفواكه وبقول ،ولحوم ،ومزارع قطن وقمح وشعير... وهذه المدينة أيضا عامرة بالناس ،والتجار»[1].

وبخصوص ضرر العرب الهلالية بالحصون والمدن في تلك المنطقة يستعرض الإدريسي ذلك حينما يتطرّق لتلك الحصون الواقعة على الطريق بين بجاية والقلعة فيذكر «ومن تاورت إلى الباب ،وهي جبال يخترق بينها وادي الملح... وإلى هاهنا تصل غارات العرب وضررها ،ومنه إلى السقائف وهو حصن ،ثمّ إلى حصن الناضور ،إلى سوق الخميس ،وبه المترل ،وهذه الأرض كلّها تجولها العرب وتضرّ بأهلها... ومنه إلى سوق الاثنين وبه المترل. وهو قصر حصين والعرب محدقة بأرضه... وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة وربّما أضرّ بعضهم ببعض، غير أنّ أيدي الأجناد فيها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الإضرار ،وموجب ذلك أنّ العرب لها ديّة مقتولها. وليس عليها ديّة فيمن تقتل»[2].

ومن خلال نص الإدريسي بقف على وصف دقيق تتبّع من خلاله هذا الأخير دخول العرب الهلالية مدن المغرب الأوسط ،ومدى إفسادهم لعمران تلك المنطقة وحصونها ،ففي الوقت الّذي نراه يصف دور العرب بالمخرّب لبعض الحصون ،نجده أحيانا أخرى يعطي تبريرات لذلك التخريب والإضرار الهلالي ،و لّذي كان في بعض المناطق بسبب دية للعرب في مقتولها ،ولم تجد فيمن تقتصّ ،فعمدت إلى تخريب العمران بحجّة ذلك القصاص. ويضيف الإدريسي عن إضرار الهلاليين بالمدن فيذكر أنّ مدينة باغاي خالية أسواقها ،وأسواق أرباضها جرّاء إفساد العرب لها[3].

وممّا لا يفوتنا ذكره أيضا أنّ هناك من ربط تراجع دور المدن الداخلية كالقلعة وطبنة والمسيلة بنهاية الطريق التجاري الداخلي الرابط بين القيروان وفاس[4] بسبب انتقال مركز ثقل الحياة بمنطقة المغرب إلى الواجهة الساحلية ،نتاج ما حلّ بذلك الإقليم من فوضى وجفاف ،إضافة إلى تراجع نمط الدولة المركزية لصالح السلطة القبلية بالموازاة مع السياسة الّتي أثقلت سكّان المنطقة

([1])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254.

([2])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 263، مصطفى أبوضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين و بني مرين، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 64.

([3])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 276.

([4])- حول هذا المسلك أنظر: البكري: المسالك و الممالك، مج2، ص 325.

بالضرائب ،ومصادرة أموالهم ،وممارسة أسلوب النهب المنظّم ،وليس التخريب الهلالي وحده من ساهم في ذلك التراجع[1].

ومجمل القول فلا يمكننا أن نحمّل بني هلال المسؤولية الكاملة لوحدهم في تراجع الدور السياسي والاقتصادي والثقافي لتلك المدن ،بل تظافرت عدّة أسباب وكانت وراء ذلك[2] ،وإنّ كان التخريب الهلالي يعدّ السبب الرئيس ،ولكن ليس بالشكل الّذي أورده ابن خلدون ،والّذي يكون بالغ كثيرا في معالجة قضية بني هلال ،كما تحامل عليهم حين حمّلهم لوحدهم مسؤولية خراب المنطقة ،وتراجع اقتصادها ،خاصة إذا قارنّا أقواله بما أورده الرحالة والجغرافيين الّذين زاروا تلك المدن ،وذلك في الفترة الّتي أعقبت الهجرة الهلالية وما نجم عنها ،والّتي أقرّت باستمرار دور هذه المدن ، ولو بشكل أقلّ ممّا عرفته في سابق عهدها ،كما فصّلناه سابقا.

ثالثا: آراء المؤرّخين حول التخريب الهلالي للمدن:

لقد ركّزت الكتابات التاريخية قديما وحديثا على الهجرة الهلالية ودورها في تخريب مدن المغرب الإسلامي في عصره الوسيط ،بيد أنّ أصحاب هذه الكتابات تباينت آراؤهم حول ذلك التخريب ،ففي الوقت الذي تطرّق بعض المؤرّخين إلى الدور الهلالي المخرّب لبعض مدن المغرب وقراه بأسلوب تاريخي يتّسم بالموضوعية ويبتعد عن الذاتية والمبالغة ،نجد في المقابل البعض الآخر منهم يشنّ حملة عدائية ضدّ القبائل الهلالية -إن لم نقل ضدّ العرب بشكل عام- ويتحامل عليهم بوصفهم بأعداء الحضارة ،ومخرّبي ومدمّري عمران مدن المغرب الأوسط والأدنى ،بل وإليهم عزوا أيضا سبب انحطاط الحضارة الإسلامية لبلاد المغرب. و على رأس هؤلاء المؤرّخون المستشرقون. ولكي نقف على حقيقة تلك الآراء نسوق بعضا منها:

1- رأي ابن خلدون:

في ظلّ غياب المصادر التاريخية المعاصرة لهجرة بني هلال وبني سليم إلى بلاد المغرب باستثناء الكتابة التاريخية الصادرة عن البلاط الزيري في المهدية[3] ،والّتي ربطت إلى حدّ كبير تراجع الحضارة العمرانية لمدينة القيروان ومن ورائها حضارة المغرب الأدنى بالهجرة الهلالية ،الّتي ضخّمت

(1)- علاوة عمارة: الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، ص 25.

(2)- سبق و أن ذكرنا هذه الأسباب في هذا الفصل من الدراسة.

(3)- و هما المؤرّخان ابن شرف القيرواني، و ابن أبي الصلت و على روايتهما اعتمد أغلب المؤرّخين الّذين أرّخوا للهجرة الهلالية إلى أرض المغرب.

آثارها التخريبية ،نجد أحد المؤرّخين المعرب ينساق وراء ذلك الطرح حينما يعزي إلى العرب الهلالية ذلك الأثر المدمّر ،والمخرّب للعمران ،من خلال ما أورده من نصوص في مواضع عدّة من مؤلّفاته. ففي كتابه المقدّمة ،يتطرّق هذا المؤرّخ إلى الزحف الهلالي نحو المغرب قائلا: «وإفريقية والمغرب لّما جاز إليها بنوهلال وبنوسليم منذ أوّل المائة الخامسة وتمرّسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كلّه عمرانا شهد بذلك آثار العمران من المعالم و تماثيل البناء وشواهد القرى والمدن»[1].

ابن خلدون لا يكتفي بإلصاق تهمة التخريب المدمّر للمدن والقرى المغربية ،وإلقائه كامل المسؤولية على عاتق العرب الهلالية بخصوص ما حلّ بعمران ذلك الإقليم الّذي كان كثير العمران ، لكن العرب «أزعجوا ساكنيها ،وعطفوا على المنازل والقرى و الضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير»[2]. بل يتمادى كثيرا في تفصيل ما أنزلته العرب الهلالية من خراب للمدن حينما يربطه بسلوكهم وطبعهم المنافي للحضارة والعمران ،على حدّ قوله ،وأنّهم ما دخلوا موطنا إلاّ أسرع إليه الخراب والدّمار.

ويعلّل هذا المؤرّخ ما ذهب إليه بأنّ هؤلاء العرب أمة وحشية استحكمت أسباب التوحش وعوائده ،فصار فيهم طبعا ،جبلوا على ذلك ،فأضحوا لا ينقادون لحكم ،ولا تسوسهم سياسة ،ولا ينطاعون لقوة ،فغلب عليهم سلوك الترحال والتغلّب على الأوطان ،وذلك حال مناقض لأسباب الحضارة ،وتطوّر العمران ،وهم بطبعهم ذاك لا يولون حرمة للعمران ،ولا يفقهون غايته ،وعندها «فالحجر مثلا إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخرّبونها عليه ويعدّونه لذلك ،والخشب أيضا إنّما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخرّبون السقف عليه ،لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الّذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم»[3].

وعليه فقد أفاض ابن خلدون في الحديث عن العرب واتّهامهم باتّهامات لا تمت بأيّ صلة لهم. وذاك ما جعله يبتعد عن الموضوعية التاريخية ،ويقع في فخ المبالغة في سرد أخبار تفتقر إلى السند التاريخي ،والشواهد التاريخية الّتي تقوّيها. وبذلك فأقوال ابن خلدون تحتاج إلى الدراسة

([1])- ابن خلدون: المقدمة، ص 121.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

([3])- ابن خلدون: المقدمة، ص 120.

والتمحيص[1]. فهذا المؤرّخ المتوفى سنة 808هـ/ 1405م ممّا لاشكّ فيه أنّه كتب مؤلّفاته في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (14م) ،في حين أنّ الهجرة الهلالية إلى أرض المغرب كانت سنة 442هـ/ 1050م ،وبالتالي فالمدة الزمنية الّتي تفصل بين الحادثين تزيد عن ثلاثة قرون ،فابن خلدون لم يكن من شواهد تلك الأحداث ولا من المعاصرين لها ،وهو ما يجعل أخباره تبقى حبيسة الدليل التاريخي القاطع.

كما أنّه من غير المعقول أن تظلّ آثار ذلك التخريب مدة ثلاث قرون منذ دخول الهلاليين مدينة القيروان ،وكذا مدن المغرب الأوسط بعدها باقية على حالها لتكون دليلا ماديا اعتمد عليه ابن خلدون فيما ذهب إليه من بشاعة ذلك التخريب ،بعدما شاهده بنفسه ،ووقف على تلك الآثار التدميرية ،هذا ناهيك عن أنّه لا يذكر المصادر الّتي اعتمدها واستقى منها معلوماته.

إنّ هذا يدفعنا للاعتقاد أنّ هذا المؤرّخ وقع تحت تأثيرات سياسية[2] جعلته يتحامل على العرب ،وينعتهم بتلك النعوت ،ويربط تراجع أو اندثار عدد من مدن المغرب كالقيروان، القلعة والمسيلة بالهجرة الهلالية وحدها ،وأنّها هي من تتحمّل المسؤولية الكاملة عن ذلك الخراب.

و في الحقيقة فإنّه و بالنظر إلى ما وقفنا عليه من حال المدن المغربية في الفترات الّتي أعقبت أعمال التخريب المنسوب للعرب الهلالية ،والّتي وصفها الجغرافيون على غرار الإدريسي بحال لا

([1])- تطرّق الكثير من الباحثين إلى دراسة موضوع الهجرة الهلالية و آثارها الإيجابية و السلبية على بلاد المغرب، و منهم من تلقّف ما أورده ابن خلدون، و سار على نهجه في إبراز الدور السلبي لهؤلاء العرب، و تحميلهم المسؤولية الكاملة بخصوص خراب مدن المنطقة، كما أنّ هناك من المؤرّخين من تصدى لآراء ابن خلدون بالنقد، و التمحيص و العمل على إبراز الدور الإيجابي لهؤلاء العرب، أنظر: عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 238 و ما بعدها، مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 185- 186، و للمزيد أنظر: حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، مج1، ص 628 و ما بعدها، و للمزيد أكثر أنظر: جورج مارسيه: المرجع السابق، ص 233- 234.

([2])- يذكر أحد الدارسين المحدثين أنّ ابن خلدون انتقل إلى الديار المصرية سنة 784هـ/1382م، و ذلك في عهد السلطان الظاهر برقوق، و تمّ تعيينه قاضي القضاة، و كذلك في ديوان الإنشاء، كما تولّى منصب المالكية بالأزهر، و غيرها من المناصب في الدولة المملوكية، و قد شهد العصر المملوكي حركة مقاومة شديدة أبداها العرب في الصعيد في وجه دولة المماليك، بحجة أنّهم أحق بالملك من المماليك، فاشتّدت العداوة بين المماليك و العرب، و استمرت المعارك الدامية بينهم، و عليه و في ظلّ ذلك الصراع العربي المملوكي، قد يكون السلطان المملوكي استمال ابن خلدون، خاصة و أنّه يتولّى منصب قاض في دولته، وأثرّت فيه الوظائف الهامة الّتي تقلدها، فترجم ذلك العداء المملوكي للعرب الهلالية بأعداء الحضارة، و مخربي العمران، و هو خاضع في ذلك لتأثيرات سياسية، دفعته إلى قول ما قال، فحايد الصواب حينها، عندما تناول تاريخ بني هلال على أرض المغرب، أنظر: عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 247-249.

ينبأ عن عمران لم يبق منه إلاّ أثره ،ولكن كانت تلك المدن تعرف استمرار نشاطها ولو بشكل خافت(1) ،وذلك ما يفنّد ما أورده ابن خلدون بشأن ذلك الخراب وبتلك الصورة.

ثمّ إنّ هناك ما يثير الانتباه حول رأي ابن خلدون وهو أنّ هذا الأخير وقع في التناقض حينما سعى إلى التنظير للقضية الهلالية بالاعتماد على الرواية الخبرية عند معالجته لتلك الهجرة ،انطلاقا من مبدأ أنّ العرب «إذ تغلّبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب»(2) ،وبعد ما ساق ما نجم عن تلك الهجرة من خراب للعمران ،نجده في معرض حديثه عن قبائل بني هلال في موضع آخر من كتابه العبر يمدّنا بأخبار تصوّر الدور البنّاء للإنسان الهلالي ،وأنّ العائلة الهلالية استطاعت أن تؤسس ملكا على غرار الأسر المحلية الحاكمة ،بل وينتقل هذا المؤرّخ إلى مرحلة أخرى عندما يُعزي دمار مدن مغربية محلية إلى ملوك الدول المغربية المحلية(3) ،كمدينة نقاوس(4) على يد المعز بن باديس، أوالقلعة الحمادية على يد الموحدين(5) ،وكان ابن خلدون فيما مضى قد ربط نهاية هذه المدن بالخراب الهلالي كما بيّنه(6). ومنه فإنّ النصوص الّتي أوردها ابن خلدون حول الدور الهلالي المخرّب للعمران لا تخلو من المبالغة والتناقض ،ناهيك عن أنّها تفتقر إلى الدلائل المادية الّتي ترقى بها إلى مصاف الدراسات الموضوعية لقضية الهجرة الهلالية وآثارها السلبية على المدن المغربية.

2- الكتابات العربية الحديثة بين الوصف و الدفاع:

تعدّدت الكتابات التاريخية العربية الّتي طرقت موضوع الهجرة الهلالية ،وتأثيرها على عمران مدن المغرب الإسلامي ،إلاّ أنّ هذه الكتابات طبعها الأسلوب الوصفي على حساب العمل القائم على أساس التحليل الموضوعي ،والنقد العلمي البنّاء لتلك الأحداث ،مع بيان مراحلها ،والأهداف الرئيسة من وراء تلك الهجرة وصولا إلى النتائج الّتي خلّفتها على ذلك الإرث الحضاري لبلاد المغرب ،ومن أبرز أصحاب تلك الكتابات نذكر:

---

(1)- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254.

(2)- ابن خلدون: المقدمة، ص 120.

(3)- علاوة عمارة: الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، ص 24.

(4)- تقع هذه المدينة على مرحلتين من مدينة طبنة، و يصفها الجغرافيون أنّها مدينة صغيرة، تمتاز بكثرة الأنهار والبساتين وأكثر فواكهها الجوز، أنظر: البكري: المسالك و الممالك، مج2، ص 227- 228 ،الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 264.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 229- 236.

(6)- ابن خلدون: المقدمة، ص 121.

يعد مبارك الميلي أحد المؤرّخين الجزائريين الّذين أولوا اهتماما ملحوظا بتاريخ الجزائر في عصره الوسيط ،وتسليط الضوء على تلك الأحداث التاريخية المتعلّقة بالهجرة الهلالية ،وما كان لها من أثر على مدنه ،مبارك الميلي وإن كان لا ينكر أنّ هزيمة الناصر في موقعة سبيبة قد اتبعها الهلاليون بأعمال تخريب لمدينة القلعة ،وبعض مدن منطقة الزاب[1] ،وكذا انتشار الفوضى والاضطرابات ،وانعدام الأمن في ضواحيها[2] ،إلاّ أنّه يقلّل من حدّة تلك الأضرار الناجمة عن ذلك التخريب ،فهو يعتقد أنّ تلك الأضرار لا يمكن بأيّ حال من الأحوال مقارنتها بالخراب الّذي حلّ بمدن المغرب الأدنى ،والسبب في رأيه ،أنّ المغرب الأوسط لم يكن هو المقصود من الحملة الهلالية ،كما أنّ مدّة الصراعات به لم تدم فترة طويلة. إضافة إلى أنّ طبيعة منطقة المغرب الأوسط تختلف عن طبيعة منطقة المغرب الأدنى ،ذلك أنّ المنطقة الأولى كثيرة المعاقل المنيعة والجبال الحصينة ،والمجال الّذي اشتّدت فيه نار الحروب كان في المناطق الجنوبية ،والّتي كانت عبارة عن صحاري خالية من العمارة ،خاصة بعد ما تراجع عمران مدينة تيهرت في ظلّ الصراعات الّتي عرفتها ،أمّا المنطقة الثانية فهي في بسيط من الأرض على غرار مدينة القيروان ،باجة وزويلة ،وهو ماجعلها ميدانا لتلك الحروب ،فتضرّر عمرانها[3].

مبارك الميلي و قبل أن يبدأ حملته في الدفاع عن العرب الهلالية و أثرها على العمران وقع في التناقض من حيث لا يدري ،ففي الوقت الّذي حاول نفي ما نسب للهلاليين من تخريب لعمران المغرب الأوسط ،من خلال ما يفهم من كلامه ،نجده يُعزي ذلك بداية إلى طبيعة المنطقة الوعرة والّتي استعصت على الهلاليين نظرا لحصانتها ،في حين أنّ سهولة منطقة المغرب الأدنى سهّلت عليهم تخريب مدنها ،فأصابها من الضرّر أكثر ما أصاب مدن المغرب الأوسط ،وهو بذلك لم ينف عنها السلوك التخريبي بقدر ما عزاه إلى عجزها عن اقتحام حصانة مدن ذلك الإقليم ،وأنّه لم يكن مقصدها فيما هاجرت إليه[4].

وبخصوص من يتحمّل مسؤولية الخراب الّذي حلّ بمدن المغرب الأوسط والأدنى يذهب مبارك الميلي إلى أنّ السياسة الصنهاجية غير السديدة قد كلّفت حكّامها عواقب ذلك ،فهم لم

([1])- كمدينة طبنة، و المسيلة و باغاية.

([2])- مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 149.

([3])- أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 293 ،مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 186.

([4])- مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 186.

يحسنوا التصرّف مع أولئك العرب المهاجرين ،ومنه فهم من يتحمّل القسط الأكبر من مسؤولية ذلك الخراب ،فالصراع والتنافس بين أبناء الأسرة الواحدة[1] ،ولجوئهم إلى التحالف مع العرب الهلالية ضدّ بعضهم بعضا ،وما نتج عن ذلك من حروب ،كان لها وقع سيء على عمران المدن ،حيث بانتصار العرب في تلك الحروب تغلّبوا على الأوطان ،وسيطروا على طرق التجارة ،وضيّقوا على السكّان ،وخرّبوا المدن[2].

ثمّ ينتقل هذا المؤرّخ إلى مرحلة أخرى سعيا منه لإبراز الدور الإيجابي لهجرة العرب الهلالية إلى أرض المغرب ،والّذي لم يقتصر على أعمال التخريب ،بل تعدّاه إلى أنهم أسهموا بشكل ملحوظ في ازدهار المجال الاقتصادي بعدما استعانت بهم الدول القائمة آنذاك[3] في جباية الأموال والخراج وتجنيد الجنود لإخضاع الثائرين ،ومقاومة الأخطار الأجنبية[4].

ولكي يبرر هذا المؤرّخ ما أقدم عليه العرب من تحالف مع أبناء الأسرة الصنهاجية – المنقسمة على نفسها- ضدّ بعضهم البعض عزاه إلى إدراكهم أنّ استمرار ملكهم ،ودوام بعضهم مرهون بضعف تلك الدول ،وذاك ما شجّعهم على إثارة المشاكل والفتن[5] ،وتدبير الثورات والانقسام على الدول المتصارعة ،وذلك على حدّ قوله ليس طمعا في الملك ولا رغبة في الفوضى بل لحفظ استقرارهم وحياتهم البدوية[6].

من بين المؤرّخين الّذين اقتفوا أثر ابن خلدون حول موضوع الهجرة الهلالية المؤرّخ عثمان الكعاك في مصنفه موجز تاريخ الجزائر العام ،هذا المؤرّخ لم يدّخر أيّ جهد في شنّ حملة شديدة اللهجة تجاه العرب الهلالية ،وكانت أقواله غير سديدة فيما ذهب إليه حينما شبه هجرتهم بهجوم كاسح شبيه بهجوم قبائل الوندال على أوروبا الّذي دمّرها ،فيذكر بأنّه: «أصابت الجزائر مصائب جمّة في القرن الخامس والسادس بسبب هجوم الأعراب عليها وإفسادهم للحرث والنسل وحرقهم

([1])- هو الصراع بين بني زيري و بني حماد، من أجل السيطرة و التوسّع على حساب بعضهما.

([2])- مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 188.

([3])- و هما الدولة الحمادية و الزيرية.

([4])- مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 191.

([5])- مثل ما حدث في موقعة سبيبة بين الناصر الحمادي و تميم الزيري، و ما كان للعرب من دور في تلك الموقعة.

([6])- مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 191.

للمنازل والقرى والمدن وانتهابهم للمزارع والجنّات والبساتين والعمائر ،وكان هجومهم لا يبعد في شكله وقالبه عن هجوم الونداليين في القرن الرابع قبل المسيح»[1].

إنّ هذا المؤرّخ و هو يسرد تفاصيل ذلك الخراب تكون مدن المغرب الأدنى عندما دخلتها العرب في بادئ أمرهم قد أصيبت بضربة قاسمة لعمرانها ،وبخسارة لا تعدّ ولا تقاس لحواضرها «فدخلوا إفريقية وشرعوا ينهبون ويتخطّفون السابلة ويحرقون الحقول والمزارع ،ويدمّرون المداشر والقرى[2] ويخرّبون المدن والحواضر»[3].

عثمان الكعاك لم يزن بميزانين أعمال التخريب الّتي أنزلها بنوهلال بمدن المغرب الأوسط والأدنى ،كما فعل سابقه مبارك الميلي ،بل وضعها في كفة واحدة ،حيث عمّ الخراب تلك المدن وأصابت الأضرار كليهما ،و لم تكن عواقب موقعة حيدران لتختلف عن تبعات هزيمة الناصر في موقعة سبيبة ،أين فتحت أبواب المدن على مصراعيها لأيدي التخريب الهلالي حيث «إنساب الأعراب على الزاب والجزائر من كل صوب وحدب يحرقون ويدمّرون ويخرّبون»[4].

ويختم هذا المؤرّخ فصله عن عرب بني هلال، باعتباره لهجومهم فتحا اجتماعيا وجنسيا أدّى في الأخير إلى تلقيح البربر العرب في مجال العلم والأدب ،وكان من الأسباب المساعدة على تأييد الإسلام والعربية[5].

من المؤرّخين الّذين تصدّوا لأيّ إدّعاء مغرض تجاه العرب الهلالية فيما نسب إليها من بشاعة تخريب لمدن المغرب، صاحب موسوعة المغرب ،عبد الفتاح الغنيمي ،هذا الأخير خصّص جزءا من كتابه للردّ على الأقوال الّتي نسبت إلى العرب ذلك الطبع الهدّام ،والمخرّب للعمران ،وعلى رأسهم ابن خلدون ،إذ وصفه بالمتحامل على العرب فيما عزاه إليهم من خراب ودمار خاصة وأنّه قرنه بطبعهم وسلوكهم ،بل وحتّ بجنسهم ،والأكثر من ذلك ،أنّه قدّم مادة على طبق استغلّتها مجموعة من المؤرّخين المستشرقين في رمى العرب الهلالية وحتّ العرب جميعا والإسلام بتدمير الحضارة ،وتخريب العمران ،في ثوب صليبي مليء بالحقد على العرب والإسلام[6].

([1])- الكعاك: المرجع السابق، ص 193.

([2])- أنظر أيضا: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27.

([3])- الكعاك: المرجع السابق، ص 195.

([4])- المرجع نفسه، ص 196.

([5])- المرجع نفسه ص 185.

([6])- عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، ص 240.

عبد الفتاح الغنيمي بالرغم من أنّه لا ينكر أنّ هناك أعمال تخريب للمدن من طرف العرب الهلالية ،إلاّ أنّه يرى بأنّ أضرارها تعدّ أضرارا عادية ،بل أقل بكثير ممّا يحدثه جيش في الحروب ،كما أنّها أضرار تنتج من أثر تلك المعارك الحربية الّتي دارت بين الفريقين ،ولم تنتج عن روح تدميرية تخريبية. وأمّا سبب تراجع دور مدينة القيروان ،فيعزو هذا المؤرّخ ذلك إلى انتقال المعز منها إلى المهدية وإخلائها من الأهالي ،ونقل كل المراكز السياسية[1] منها إلى العاصمة الجديدة بالمهدية ،وبذلك فقدت القيروان دورها الحضاري كمركز وقطب سياسي وثقافي ،حيث يقلّ الاتصال بها والتنقل إليها ،وأصبحت وجهتهم إلى مركز القيادة الجديد ،وهذا ينفي حسبه عن العرب الهلالية افتراء تخريب القيروان ،وعلى نفس المنوال تناول تراجع دور القلعة ،معلّلا إيّاه بما عرفته هذه المدينة من ضيق ،ولم تتّسع لتكون عاصمة لدولة كبرى كدولة بني حماد في عهد الناصر ،فقرّر هذا الأخير الانتقال منها إلى بجاية واتّخاذها عاصمة سياسية للبلاد[2].

وأمّا من نُسب إليهم كما يذكر هذا المؤرّخ من تخريب للمدن وهدم للحصون ،ومختلف المنشآت والمعالم الحضارية فإنّه يحتكم للجغرافي الإدريسي[3] في نفي ذلك عنهم ،لأنّ هذا الجغرافي ذكر أنّ أولئك العرب كانوا يعيشون في تآلف مع سكّان المدن ،إضافة إلى أنّه وصف عدّة مدن بأنّها كانت عامرة بالسكّان ،وتجارتها مزدهرة ،ويشترك أهلها مع العرب في الحرث والزراعة[4].

عبد الفتاح الغنيمي لم يكتف بموقفه المدافع عن العرب الهلالية و نفي سلوك التخريب عنها ،بل أفاض أيضا في سرد كل ما له علاقة بدورهم الإيجابي كفضلهم في تعريب بلاد المغرب ،وبذر معالم الحضارة العربية الإسلامية ،وإشاعة العمران بها[5].

إنّ هذا المؤرّخ و إن أصاب في بعض ما ذهب إليه بخصوص بعض المبالغين في وصف التخريب الهلالي لمدن المغرب ،إلاّ أنّه هو الآخر بالغ في نفيه بشكل يجعل من تلك الهجرة قد أسهمت في بناء حضارة المغرب أكثر ممّا أضرّت بعمرانه ،فعندما نجده يحصر سبب تراجع دور القيروان في انتقال المعز منها واستقراره في المهدية ،فإنّه يغفل عن السبب الّذي اضطّره إلى ذلك.

([1])- كقيادة الجيش، و الشرطة و البريد و الجباية و الوزارة و ديوان الكتاب وغيرها من المؤسسات الإدارية و الثقافية.

([2])- عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 252- 253.

([3])- أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254-255.

([4])- عبد الفتاح الغنيمي: المرجع السابق، مج2، ص 255.

([5])- المرجع نفسه ، ص 243.

ألم ينتقل المعز إلى المهدية مرغما ،بعدما عاثت العرب فسادا حول القيروان ،وضيّقت عليها[1]؟ ،ثمّ تبعته إلى المهدية أين استعصى عليها دخولها. أمّا مدينة القلعة الّتي ضاقت بالسكّان و لم تتّسع لهم ،فلما لم يتساءل عن سبب كثرة ساكنيها؟ ، أم أنّه لم يقف على ما أوردته النصوص التاريخية حول انتقال أغلب أهالي القيروان بعد خرابها إلى القلعة للتحصّن بها ،وهروبا من إفساد العرب الهلالية بالمنطقة[2]؟ ،ثمّ لماذا لم ينتقل أهالي القيروان إلى مدينة المهدية فحسب؟ لأنّها عاصمة دولتهم ،ومقر سلطتها ،وفضّلوا الانتقال إلى المغرب الأوسط ،ذلك الإقليم الّذي ما زال في منأى عمّا حلّ ببلادهم من تخريب.

مع نهاية السبعينيات و بداية الثمانينيات اهتمّت مجموعة من الباحثين بانجاز دراسات حول الدولة الحمادية المعاصرة للهجرة الهلالية ،وأوّل هؤلاء[3] الباحث المصري عبد الحليم عويس ،هذا الأخير ركزّ في دراسته على إبراز النتائج السياسية لهذه الهجرة ،وأثرها على الحكم السياسي لدولة بني حماد وعلى عمران إقليم تلك الدولة.

هذه الدراسة و إن كان صاحبها قد أشاد بالدور الإيجابي للعنصر العربي في منطقة المغرب في إطار الوصف المدافع عن العروبة الممزوجة بالإسلام على غرار ما ذهب إليه مبارك الميلي[4] الّذي يبدو وأنّه استقى معلوماته عن هذا الأخير ،إلاّ أنّه لم يستثن بعضا من جوانبها السلبية عندما يؤكّد أنّ الحماديين نجوا من السقوط عقب الزحف الهلالي ،ولم يحدث لبلادهم زحف تدميري شامل كما حدث للزيريين. ثمّ يضيف أنّ تبعات موقعة سبيبة يتحمّلها الناصر بن علناس ،والّتي كانت على حدّ قوله أكبر الأخطاء الّتي وقع فيها[5].

مع نهاية القرن العشرين حاول أحد الباحثين التونسيين إنهاء ذلك التردّد حول دور الهجرة الهلالية في تخريب مدن المغرب من خلال دراسته لمدينة بجاية في العهد الحفصي في جانبها الاقتصادي والاجتماعي ،أين عبّر من خلالها عن موقفه تجاه هجرة بني هلال وآثارها على المدن

([1])- مجهول: الاستبصار، ص 128، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 294.

([2])- علي ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ط1، دار الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1399هـ-1979م، ص 614، ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 372، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 121.

([3])- و منهم أيضا: إسماعيل العربي في كتابه، دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية، و رشيد بورويبة في مؤلفه، الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها.

([4])- في مصنفه، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج2.

([5])- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 178.

المغربية ،حيث اعتبر أنّ هزيمة الحماديين في موقعة سبيبة كانت بداية لانتصار حياة البداوة والترحال لتحلّ محلّ الاستقرار والتمدّن في المغرب الأوسط ،مثله أيضا في المغرب الأدنى ،وهو ما أدّى إلى حدوث تغيّرات في البنية الاجتماعية لبلاد المغرب ،وكذلك «اختلال التوازن بين المدنية والظعن وبين الساحل والداخل. وأصبحت السواحل تستقطب المدن لاسيما العواصم فتغيّرت الجغرافية العمرانية»[1] ،وتحوّل الاقتصاد المغربي من زراعي إلى رعوي[2] ،خاصة بعدما اضطّربت المسالك التجارية ،وتدهورت الصناعة ،وفشلت السلطة الحمادية في مراقبة المناطق التابعة لها[3].

و في جانب آخر حول ما خلّفته الهجرة الهلالية إضافة إلى إضعاف الاقتصاد المغربي يرى بعيزيق أنّ بروز بجاية لا يرتبط أساسا بما عرفته القلعة وضواحيها من خراب أدّى إلى تدهور القلعة، بقدر ما هو مرتبط بشكل كبير بذلك «التغيّر البنيوي للمجتمع الداخلي» ،والّذي أهمّ مظاهره تدهور أحوال القلعة[4].

3- آراء المستشرقين:

خلال الفترة الحديثة أولت الكثير من الدراسات الاستشراقية عناية بالغة بتاريخ المغرب الإسلامي من خلال ما خلّفه بعض المستشرقين من مادة تاريخية متعلّقة بحقبة زمنية هامة في تاريخ المغرب الوسيط ،حينما عرف هجرة عربية إلى أرضه شكّلت نقطة اتّفاق بين أغلب تيارات الاستشراق بأنّها تمثّل أحد الأسباب الّتي أسهمت في تلك التحوّلات الكبرى الّتي عرفتها حضارة المغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري (11م) ،والّتي أدّت إلى انحطاط حضارته في القرون الّتي أعقبتها ،ومن أولئك المستشرقين المهتمين بالقضية الهلالية نذكر منهم ما يلي:

من المستشرقين الفرنسيين المهتمّين بكتابة تاريخ المغرب المؤرّخ جورج مارسيه ،الّذي طرق موضوع الهجرة الهلالية[5] ،فبعدما ساق هذا المؤرّخ تفاصيل الحرب الّتي دارت بين العرب وملوك الدولة الحمادية والزيرية في طابع وصفي طغى على دراسته ،ما يلبث هذا المؤرّخ حتىّ نجده يصدر

---

(1)- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 49.

(2)- علاوة عمارة: «الهجرة الهلالية و إشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي»، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، العدد 04، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1425هـ-2004م، ص 61.

(3)- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 50.

(4)- أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254- 255.

(5)- و ذلك في مصنفه المترجم إلى العربية، بلاد المغرب و علاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، و كذا جملة من المصنفات باللغة الفرنسية الّتي اعتمدنا على بعض منها في بحثنا.

أحكاما قاسية على العرب الهلالية ،عندما يصف آثارها بشكل مبالغ فيه ،ويتّهمها بتخريب حضارة المغرب حينما يقول: «ولقد ظهرت في هذا المجال الكارثة العربية أكثر وحشية والصورة المعهودة للخراب نتيجة هجوم الجراد ببلاد المغرب».

ويضيف هذا المؤرّخ أنّ حجم هذه الكارثة كان أكبر في القسم الشرقي من المغرب (المغرب الأدنى) [1] ،حيث كانت القيروان أكثر مدنه تأثرا من تلك الأحداث فكان مصيرها الخراب والانهيار ،وعن من يتحمّل مسؤولية ذلك الخراب يضيف مارسيه قائلا: «نحن نقدّر مدى هذه الكارثة الهلالية ونتساءل كيف لم يتبيّنها أسياد هذه البلاد الّذين كانوا ضحية لها»[2]. وهو بذلك يلقي اللوم عليهم من جهة لكن القسط الأكبر يتحمّله الأعراب[3].

ويختم مارسيه أقواله بأنّ هذا التخريب الهلالي أدخل بلاد المغرب في نمط البداوة بعدما سلبت أراضي سكّانه ،ثمّ تلاها طور جديد تميّز بالانحطاط والسقوط[4].

صاحب الدراسة الّتي تعدّ من أهمّ مراجع العهد الحفصي[5] المؤرّخ روبار برانشفيك اهتمّ هو الآخر في دراسته بالهجرة الهلالية ،مستعملا مصطلح الكارثة الهلالية للتعبير عن رأيّه فيما يخصّ دورها في التأثير على مدن المغرب ،الّتي لم ينلها من تلك الهجرة سوى الخراب والدّمار ،فيقول: «إنّ ما ينبغي توضيحه هو مظهر التخريب الّذي يعتبر أبرز وأصدق مظهر من مظاهر نشاط العرب»[6] ،وكانت بدايته بمدينة القيروان الّتي «بدأت تحسّ منذ ذلك التاريخ بالانحطاط والإهمال ،عندما انقضّ عليها أعراب بني هلال ،رغم أشغال التحصين الّتي أنجزها متأخرا المعز بن باديس

([1])- و هو ما استنتجه هذا المؤرّخ من خلال دراسته حسبما يذكر بنفسه، بأنّه لاحظ في بداية أمر هذه الهجرة «أنّ هذا الغزوالّذي ظهر من الوهلة الأولى كإعصار مخرب لم يشمل إلا إفريقية»، أنظر: جورج مارسيه: المرجع السابق، ص 233.

([2])- جورج مارسيه: المرجع السابق، ص 234.

([3])- و هو بذلك يخالف غيره ممن ذهب إلى أن القسط الأكبر من المسؤولية يتحمّله حكام الدول القائمة آنذاك، أنظر: مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 186، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 178.

([4])- جورج مارسيه: المرجع السابق، ص 238.

([5])- تحت عنوان: تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م.

([6])- و لا يختلف هذا الرأي عن ما أورده ألفرد بل، الّذي نسب إليهم كل أعمال النهب و التخريب، فهم بدو ومخرّبون، ينشرون الخراب في طريقهم، فقد دمّروا حضارة بني زيري، و ما لبثوا أن انهارت أمامهم دولة بني حماد، فلم يؤسس بنوهلال خلال القرن 05هـــ/11م شيئا بل خرّبوا و دمّروا، بل و يضيف هذا المؤرّخ أنّ «الغازي العربي في القرن الحادي عشر الميلادي كان عامل خراب اقتصادي و سياسي في المغرب»، أنظر: ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتّ اليوم، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ص 212- 213.

،وقاموا فيها بأعمال النهب بلا شفقة ولا رحمة سنة 1057م ،فقد نهبت الدكاكين وهدمت المباني العمومية وخرّبت المنازل ،ولم يسلم أيّ شيء ممّا تركه الأمراء الصنهاجيون في قصورهم من جشع أولئك الشريرين»[1]. ونلاحظ أنّ هذا المؤرّخ يستعمل مصطلحات أدبية بعيدة عن أسلوب التاريخ للتعبير عن رأيه بشدة حول ما أصاب المدن جرّاء الهجرة الهلالية.

ولم تسلم مدن المغرب الأوسط هي الأخرى ممّا حلّ بسابقتها من خراب ،ممّا اضطرّ حكّامها البحث عن مكان آمن ،فاختاروا بجاية الّتي كانت حصنهم[2] الّذي لجأوا إليه ،فتراجعوا بذلك نحو الساحل حسب برانشفيك كنتيجة من نتائج «الزوبعة الهلالية»[3].

يضيف هذا المؤرّخ بأنّ التخريب الهلالي للمدن المغربية لم يتوقّف ،بل استمرّ حتّى مجيء الموحدين الّذين سيطروا على الأعراب[4] ،فكفّوا حينها عن أعمالهم التخريبية ،وشعر عندئذ سكّان المغرب بالحرية نتيجة السيطرة الهلالية عليهم قبل ذلك[5].

مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين أنجز المؤرّخ الفرنسي الهادي روجي إدريس دراسة حول تاريخ الدولة الصنهاجية ،واشتهر هذا الأخير بتأكيده وتعميمه لفكرة الكارثة الهلالية من خلال الجزم بأنّ وصول الهلاليين للمغرب يعدّ بشكل أساسي ضربة قاضية لحضارة المغرب ،نتيجة تخريب بني هلال عمران المنطقة وزروعها ،واغتصاب أراضيها ،وطرد ساكنيها[6].

هذا المؤرّخ و إن كان لا يختلف كثيرا عن ما ذهب إليه أستاذه برانشفيك[7] ،فقد حصر نتائج هذه الغزوة أو الزحفة كما يصطلح عليها في تخريب المدن المغربية ،وحلول كارثة سياسية واقتصادية لم يسبق لها مثيل بعدما «أسلم أهل إفريقية إلى جحافل الأعراب الرحل»[8] ،الّذين أفسدوا في ذلك الإقليم ،فكان ذلك إعلانا صريحا عن نهاية العصر الذهبي لبلاد المغرب.

([1])- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 392.

([2])- حول حصانة موقع بجاية أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 128-129، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 260.

([3])- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 410.

([4])- وقد غفل برانشفيك عن تخريب الموحدين لمدينة القلعة ،والّذي سنتطرّق إليه في المبحث الأخير من هذا الفصل.

([5])- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 393.

([6])- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 307-309.

([7])- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 393.

([8])- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 245.

ولكن و في المقابل فإنّ بعض المستشرقين تصدّوا لآراء بعض المتعصّبين والمبالغين في سرد تفاصيل ذلك الخراب الهلالي للمدن المغربية ،حينما سعوا إلى تفنيد أغلب ما قيل حول النتائج الكارثية للهجرة الهلالية ،وعلى رأسهم إيف لاكوست ،الّذي بيّن أنّ بني هلال لم يظهروا بمظهر التخريب إلاّ في مرحلتهم الأولى من زحفهم على المغرب ،كما أنّ مصطلح الغزو للدلالة على تحرّكاتهم غير صحيح ،وحتّى لا نجانب الصواب ،فإنّ أدقّ مصطلح هو «التهجير» ،ويضيف لاكوست أنّ انتشارهم لا يمثّل بحقّ أهمّ حدث في تاريخ المغرب خلال القرن 5هـ/11م[1].

وصفوة القول فإنّه و مهما اختلفت آراء المؤرّخين حول حدّة الخراب الّذي ألحقه الهلاليون بمدن المغرب ،فإنّ القول المنصف أنّ ذلك الخراب والدّمار لا يتحمّل وزره هؤلاء العرب وحدهم ،وإنّما يتقاسمه في ذلك معهم حكام الدولة الزيرية والحمادية على حدّ السواء ،لأنّهم لم يحسنوا التصرّف مع ذلك الموقف بل لجأوا هم أنفسهم في بعض الأحيان إلى إصدار الأوامر لجنودهم بالنهب والتخريب ،كما فعل المعز حينما أمر كافة الناس بانتهاب الزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة ،وكذلك أمره جميع أهل صبرة بالانتقال إلى القيروان ونقل العساكر إليها أين خرّبوها ،وأتمّ ذلك بانتقاله من القيروان إلى المهدية تاركا تلك المدينة دون جيش يحميها ،فدخلتها العرب وخرّبتها. كما أنّ ملوك الدولتين الزيرية والحمادية انشغلوا بالصراع فيما بينهم ،دون اللجوء إلى الوحدة لصدّ الهجوم الهلالي ،بل وتحالفوا مع تلك القبائل العربية ضدّ بعضهم البعض.

كما أنّ بلاد المغرب كانت تعيش فوضى سياسية واجتماعية وتدهور اقتصادي قبل دخول بني هلال إلى المغرب نتيجة الثورات[2] والفتن الّتي أسلفنا ذكرها ،ولوكانت الدولة قائمة آنذاك بشكل متماسك ما كان ليسهل التغلّب عليها من طرف القبائل العربية المهاجمة لها ،إذ كيف لجيش من ثلاثة آلاف فارس أن يهزم ثلاثين ألفا؟.

ونختم ما قلناه ،بما أورده عبد الواحد المراكشي الّذي يقول: «أنّ أولئك العرب لم يبدأوا خراب إفريقية وإنّما أكملوه، فقد كانت البلاد تتخرّب شيئا فشيئا من سنوات طويلة نتيجة للإهمال وسوء الإدارة من أواخر أيام الأغالبة...وهو عصر حروب وفتن...فلمّا جاء بنوهلال لم

([1]) *-LACOSTE. Y: Ibn Khaldoun, imprimerie Gouin, Paris, 1966, p 87-95.*

([2])- كالصراع بين بني حماد وبني زيري ،الذي أفضى إلى بعض أعمال التخريب كمدينة باجة الّتي أقدم حماد بن بلكين إثر صراعه مع باديس بن المنصور على إحراق زروعها و مساكنها سنة 406هـ/1015م، ثمّ بعدها مدينة المحمدية الّتي خرّبت قصورها و دورها من طرف جيش باديس في نفس تلك السنة ، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 111.

يهتمّوا بما وجدوه من بقايا العمران في مدن مثل القيروان وباجة لأنّهم كانوا أهل خيام. وقد أدّى إهمال بقايا مدن إفريقية والمغرب الأوسط إلى إتمام خراب هذه الأقاليم في أيامهم ،فصارت بعد دخولهم فعلا بلادا مخربة في حاجة إلى من يعيد إليها عمرانها ورونقها»[1].

II- التخريب الحمادي:

بعدما أصبح الحماديون ملوك المغرب الأوسط إثر انقسام البيت الزيري كانت السياسة الحمادية على رأي ملوكها تقتضي التوسّع على حساب أراضي جيرانهم وأبناء عمومتهم ،فاشتّد الصراع بينهم من جهة ،ومن جهة أخرى استمرّت القلاقل والاضطرابات الّتي تثيرها القبائل الزناتية عندما تستولي على بعض مدن المغرب الأوسط ،وإعلان التمرّد في بعضها الآخر ،وفي مقابل ذلك كانت الدولة الحمادية حريصة على حماية حدودها في الجهة الغربية لوقف المدّ التوسّعي الّذي تسلكه دولة المرابطين نحو الجهة الشرقية في قليل من الأحيان ،فكانت علاقة الدولتين تتميّز بتذبذب يتراوح بين الود أحيانا والحرب أحيانا أخرى. ولم تخل كل تلك الصراعات على تعدّدها من أثر سيء على مدن الإقليم ،نتيجة ما يلحقها من إفساد وتخريب ،ومن بين المدن الّتي كانت عرضة للتخريب الحمادي ،أو ما كان بسبب صراعها نستعرضه فيما يلي:

1- خراب مدينة أشير:

أ- التخريب الأوّل للمدينة:

عرف مسار التطوّر التاريخي الّذي لعبته مدينة أشير تراجعا بعد تأسيس حماد مدينة القلعة سنة 398هـ/1007م ،لكن ذلك لم يمنعها من احتلال مكانة العاصمة الثانية للدولة الحمادية في بداية عهدها ،حيث كان حماد يتردّد بينها وبين القلعة ،خاصة وأنّ موقعها الطبيعي الحصين يشكّل حاجزا يحميها من الخطر الزناتي ،كما كانت ملجأ حماد في حروبه ضدّ زناتة وحلفائهم. غير أنّ هذه المدينة على الرغم من حصانتها فقد تعرّضت لعدّة هزّات ،كانت إحداها سنة 446هـ/1054م ،أين تعرّضت المدينة للتخريب. فما أسباب ذلك؟ وما هي نتائجه؟.

- **الأسباب:**

إنّ الأخبار التاريخية الّتي أوردها المؤرّخون بخصوص تخريب أشير لا تمدّنا بمعلومات مفصّلة لذلك الحدث التاريخي ،فيما يتعلّق بأسباب ذلك التخريب ،وانعكاسات ذلك على عمران المدينة

---

(1)- عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين و الموحدين، تح، حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1997، ص 110.

،فالجغرافي البكري القريب زمنيا من تلك الأحداث اكتفى بذكر أنّ هذه المدينة «خرّبها يوسف بن حماد بن زيري واستباح أموالها وفضح حرمها ،وذلك بعد أربعين وأربعمائة»[1]. وهذا النص مع أهمّيّته التاريخية يفتقر إلى تفاصيل أكثر بخصوص الأسباب الّتي دفعت يوسف بن حماد إلى تخريب المدينة ،وتحديد تاريخ ذلك بشكل دقيق.

ابن عذاري هو الآخر يمدّنا بمعلومات مقتضبة حول تخريب أشير ،فهو يقتفي أثر البكري ،ويبدو أنّه أخذ عليه[2]. غير أنّ النصوص التاريخية الّتي جاء بها كل من ابن خلدون ،ابن الأثير والنويري[3] كانت أكثر تفصيلا، فقد تطرّقت إلى ذلك الصراع بين الأمير الحمادي محسن 446-447هـ/1054-1055م وعمّه يوسف بن حماد ،فيذكر ابن الأثير أنّه في سنة 445هـ/1054م توفي القائد بن حماد[4] وأوصى إلى ولده محسن بالإحسان إلى عمومته ،غير أنّ محسنا ما إن تقلّد أمور الدولة حتّى خالف وصية والده وعزم على عزل أعمامه جميعا ،فاشتّد الصراع بينه وبينهم خاصة عمّه يوسف بن حماد[5].

- **تخريب المدينة:**

لّما علم يوسف بن حماد بما عزم عليه ابن أخيه محسن سارع إلى مخالفته ،وجمع جموعا كثيرة وأعدّ العدّة لحربه[6] ،وبنى قلعة في جبل منيع وسمّاها الطيارة[7] ،وفي المقابل وبوصول نبأ مخالفة يوسف إلى محسن ،خرج إليه هذا الأخير بجيش وفي الطريق إليه قتل أربعة من عمومته[8] ،فازداد نفور يوسف من ابن أخيه ،واشتّد بلاؤه عليه ،ولم يلبّ دعوته حينما استدعاه[9]. وعندئذ زحف يوسف بن حماد من قلعته الطيارة وخرّب مدينة أشير واستباحها[10]. وهنا نتساءل عن السبب

([1])- البكري: المسالك و الممالك، مج2، ص 241.

([2])- أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 216.

([3])- ابن خلدون: العبر، ج6،ص229، ابن الأثير: المصدر السابق، مج8،ص317، النويري: المصدر السابق،ج24، ص117.

([4])- هو القائد بن حماد بن بلكين، الأمير الحمادي الثاني، تولّى حكم دولة بني حماد سنة 419هـ/1028م، دخل في صراع مع المعز بن باديس، توفي سنة 446هـ/1054م، فخلفه ابنه محسن، أنظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 229.

([5])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 317 ،النويري: المصدر السابق، ج24، ص 117.

([6])- رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص 52.

([7])- يعتقد إسماعيل العربي أنّ موقعها غير بعيد عن مدينة مليانة، أنظر: إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 142.

([8])- و هم: مديني و مناد و تميم و ونغلان (وريغلان)، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 117.

([9])- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 317، روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 286.

([10])- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1،ص 216 ،إسماعيل العربي: المدن المغربية،ص 157.

الّذي دعاه إلى تخريب أشير؟ رغم أنّ محسنا لم يكن بهذه المدينة ،كما أنّها لم تكن عاصمة دولته ومقر حكمها. في حين قد يكون السبب سلوك انتقامي من ابن أخيه محسن الّذي قتل إخوانه ،وعزله و إيّاهم عن مناصبهم ،فلم يجد لطريق الانتقام غير سلوك سبيل التخريب لمدينة أشير.

ولإخضاع يوسف بن حماد قام محسن باستدعاء ابن عمّه بلكين بن محمد للقيام بتلك المهمة[1]. وحول هذه الحادثة يورد المؤرّخون روايتين مختلفتين ،فابن خلدون يشير إلى أنّ محسنا بعث بلكين بن محمد[2] في طلب يوسف وأصحبه برجلين من العرب[3] أمرهما بقتله في الطريق ،إلاّ أنّهما أخبراه بالمكيدة[4] ،وتعاهدا معه على قتل محسن ،وتمكّن بلكين من قتله بعدما أدركوه في القلعة الّتي فرّ إليها يريد النجاة[5].

أمّا الرواية الثانية الّتي ساقها ابن الأثير ومن ورائه النويري فإنّها تفيد بأنّ محسنا كتب إلى بلكين بن محمد يستدعيه ،وعندما سار إليه هذا الأخير وقرب من الوصول إليه أرسل محسن رجالا من العرب ،وأوكل إليهم مهمّة قتله فخرجوا إليه ،غير أنّهم عدلوا عن ذلك لما كان من إحسان بلكين إليهم ،فأعلموه بما أمرهم به محسن فارتاب لذلك ،فأشاروا عليه بقتله (أيّ قتل محسن) مع تقديم المعونة له في ذلك ،فسار إليه بلكين ،وفرّ محسن لّما علم بذلك لكن مصيره كان القتل على يد بلكين في القلعة الّتي لجأ إليها متحصّنا سنة 447هـ/1055م[6].

ومن خلال الروايتين السابقتين يتبيّن أنّ مقصد محسن من استدعاء بلكين ليس القضاء على ثورة يوسف وإنّما تصفيته هو في حدّ ذاته ،في إطار سياسته الرامية إلى تصفية أعمامه وبني عمومته ،وأفضت تلك السياسة إلى هلاكه على يد ابن عمّه بلكين بن محمد.

نتائج التخريب:

كان تخريب عمران مدينة أشير قد أثرّ سلبيا على دور المدينة ،بحيث انتقل منها أهلها ،كما تراجع عمرانها ،وكذا دورها السياسي كعاصمة ثانية للدولة الحمادية آنذاك. وكان الصراع داخل

---

(1)- رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ص 52، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 118.

(2)- كان عاملا على أفريون أو أكربون، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 317.

(3)- و هما: خليفة بن مقن وعطية الشريف، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 117.

(4)- يذكر الجيلالي أنّه هو من تفطّن للمكيدة حسبما يفهم من نصه و ليس هما من أخبراه، أنظر: عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 362.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 229.

(6)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 317، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 117.

الأسرة الحمادية هو السبب الرئيس في تخريب هذه المدينة الّتي كانت في وقت قريب مدينة حصينة ليس في تلك الأقطار أحسن منها[1].

إلاّ أنّ هذه المدينة رجع إليها أهلها بعد سنة 455هـ/1063م ،فعمرت من جديد بالسكّان[2] ،ولكن تطوّرها العمراني ما كان ليستمرّ كما كان عليه الحال في العهد الّذي سبق ،خاصة مع الأحداث الّتي عرفتها دولة بني حماد بعد انهزام الناصر بن علناس في موقعة سبيبة أمام العرب الهلالية ،وانتشارها في منطقة المغرب الأوسط ،وما أحدثته من فوضى وتخريب للمدن ،ساهم هو الآخر في تراجع عمران مدينة أشير ،إضافة إلى تراجع دورها السياسي والاقتصادي وكذا الثقافي.

ب- التخريب الثاني للمدينة:

لم يمض على التخريب الّذي عرفته أشير في ظلّ الصراع داخل الأسرة الحمادية أقل من نصف قرن من الزمن حتىّ تعرّضت لهزة أخرى أفضت إلى تخريب المدينة ،غير أنّ ذلك التخريب كان من طرف دولة المرابطين ،في إطار صراعها مع بني حماد من أجل السيطرة والتوسّع. فما أسباب ذلك التخريب؟ وإلى ما أفضى؟.

- **الأسباب:**

ما إن أدرك الحماديون طموح دولة المرابطين[3] في التوسّع نحو المغرب الأوسط حتىّ سارعوا إلى حماية حدودهم الغربية وحراستها ،وهذا ما جعل يوسف بن تاشفين[4] يتراجع عن مطامعه

---

(1)- مجهول: الاستبصار، ص 170، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254.

(2)- البكري: المسالك و الممالك، مج2، ص 241، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 89.

(3)- تنتمي هذه الدولة إلى قبائل صنهاجة الّتي كانت تستقر بأعماق الصحراء بأرض موريطانيا الحالية، و كان أمير صنهاجة يومئذ يحي بن إبراهيم، الّذي يرجع إليه أمر مسوفة و جدالة و لمتونة، و بعد عودته من الحج سنة 428هـ/1029م اصطحب معه عبد الله بن ياسين، الّذي كان عالما فأخذ ينشر في القوم تعاليم الدين الصحيح، و ذلك في رباط، فعرف القوم بالمرابطين، فاجتمع الناس حوله، و كوّن جيشا أمّر عليه يحي بن عمر، و دخلوا المغرب كمصلحين، و سرعان ما تكوّنت دولة المرابطين على يد يوسف بن تاشفين قائد جيوشها، أنظر: النويري: المصدر السابق، ج24، ص 139، و للمزيد أنظر: محمد الطمار: تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 41.

(4)- هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورفيت بن وارتقطين الحيمري من قبيلة لمتونة الصنهاجية، ولد سنة 400هـ/1009م، وبعد وفاة عبد الله بن ياسين انتقلت رئاسة الدولة المرابطية إليه بعد ما تنازل له الأمير أبوبكر بن عمر عن الإمارة سنة 454هـ/1062م، حتىّ وفاته سنة 500هـ/1106م، أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج7، ص 112-118.

التوسّعية في بداية الأمر ،والميل إلى السلم والمهادنة[1]. بيد أن استيلاء المرابطين على تلمسان سنة 472هـ/1079م[2] ،وتنصيب محمد بن يغمر[3] عليها من طرف يوسف بن تاشفين ،وانكفأ هذا الأخير راجعا إلى مراكش[4] ،عندئذ عمد محمد بن يغمر إلى شنّ غارات انطلاقا من ثغره تلمسان على أراضي الحماديين بمساعدة بني ومانو[5] الزناتيين[6] ،وعلى رأسهم ماخوخ. وبذلك تفرّغ المنصور الحمادي لدحر المرابطين ،فسار بجيشه إلى ماخوخ سنة 476هـ-1083م ،ودمّر حصونه كما يورده ابن خلدون قائلا: «فزحف إليه المنصور وأخرب ثغوره وحصون ماخوخ وضيّق عليه»[7] ،وفي نفس الوقت ضيّقت جيوش بجاية الخناق على محمد بن يغمر فاضطرّ أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لعقد الصلح مع الحماديين[8].

غير أنّ الأحوال لم تهدأ ،فما لبث أن عاد المرابطون إلى أعمال الغزو لبلاد بني حماد ،فأرسل المنصور ابنه عبد الله إليهم ،الّذي زحف على بني ومانو وأثخن فيهم ،وقفل راجعا إلى مملكة أبيه[9]. بيد أنّ تلك الحملة لم تقض على تلك الاضطرابات بشكل نهائي ،فوجّه المنصور حملة أخرى لإخضاع ماخوخ كان مصيرها الفشل والهزيمة ،فعادت فلولها إلى بجاية عاصمة بني حماد[10]. ولم يجد الأمير الحمادي المنصور من سبيل للانتقام من خصمه سوى اللجوء إلى قتل

---

(1)- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 180.

(2)- محمد الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 42.

(3)- ورد هذا الاسم بعدّة صيغ منها: تينغمر، يعمر، يغمر، وتينمار، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 233، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 144، محمد الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 43.

(4)- مدينة بناها يوسف بن تاشفين، و أدار أسوارها، و أكمل تشييدها و أسوارها ابنه علي سنة 526هـ/1132م، و يصفها صاحب الاستبصار بأنّها حاضرة بلاد المغرب في وقته، و هي مدينة عظيمة في بسيط من الأرض، و تمتاز بكثرة البساتين و المياه والآبار و الزروع و الجنّات، أنظر: مجهول: الاستبصار، ص 208-209، و للمزيد أنظر: محمد شقير: تطوّر الدولة في المغرب (إشكالية التكوّن و التمركز و الهيمنة) من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن العشرين، (د.ط)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 193.

(5)- هم: قوم من قبيلة زناتة ،وكان ماخوخ رئيسهم في ذلك العهد، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 233.

(6)- لطيفة بن عميرة: «تلمسان من نشأتها إلى قيام بني عبد الواد»، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 06، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1413هـ-1992م، ص 68.

(7)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 233.

(8)- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 202.

(9)- محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظلّ صنهاجة، ص 122.

(10)- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 202.

زوجته بنت ماخوخ ،وهو مازاد من ثائرة هذا الأخير ،حين لجأ إلى محمد بن يغمر في تلمسان واتّحد معه ،وأجلبا على مدينة جزائر بني مزغنة ،وتمّ حصارها لفترة لم تزد عن يومين[1]. وبهلاك محمد بن يغمر صاحب تلمسان[2] ولّى عليها يوسف بن تاشفين ،تاشفين بن يغمر[3].

- **تخريب المدينة:**

مع استمرار الصراع بين الحماديين و المرابطين كان أوّل عمل أقدم عليه تاشفين بن يغمر في ولايته هو غزو مدينة أشير، الّتي تمكّن من افتتاحها ،و لم يكتف بذلك الفتح ودخول المدينة وإنّما خرّبها حسبما يوضّحه ابن خلدون ،ويذكر في ذلك عبد الرحمن الجيلالي بأنّ المرابطين دخلوا المدينة «فدمّروها تدميرا» ،وبقيت على ذلك الحال لردح من الزمن[4]. ومع ذلك لم ترد في الروايات التاريخية الّتي بين أيدينا أية إشارة إلى مظاهر ذلك التخريب الّذي أحدثه حاكم تلمسان بمدينة أشير.

وأمّا عن السنة الّتي تمّ فيها تخريب المدينة فإنّ ابن خلدون لا يحدّد تاريخا لذلك التخريب ،غير أنّنا نعتقد أنّ ذلك كان في سنة 495هـ/1101م ،إذا ما رجعنا إلى ما أورده صاحب أعمال الأعلام من أن المنصور قام برد فعل ضدّ المرابطين الّذين خرّبوا المدينة وذلك في سنة 496هـ/1102م ،واستغرق ذلك سنة وعدّة أشهر بعد ذلك[5].

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 233 ،مليكة حميدي: المرأة المغربية في عهد المرابطين 448-541هـ/1056-1146م دراسة تاريخية، (د.ط) ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، الأبيار، الجزائر، 2011، ص 148.

([2])- يذكر رشيد بورويبة أنّ من بين أهمّ الأعمال الّتي قام بها المرابطون بعد إستيلائهم على تلمسان هو بناء قلعة للتحصّن بها، إضافة إلى القصر القديم، و كذا المسجد الأعظم، أنظر: *BOUROUIBA Rachid: L'art religieux musulman en Alger, Société national d'édition et de diffusion, Alger, 1983, p 103-105.*

([3])-علي الصلابي: صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (فقه التمكين عند دولة المرابطين)، ج4، (د.ط)، دار البيارق للنشر، عمان، الأردن، 1998، ص 192، *MERCIER Ernest: L'Afrique septentrionale (bérbérie)- Depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830), Tome2, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1868 , p55-56.*

([4])-ابن خلدون: العبر، ج7، ص 75 ،عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 369.

([5])- و هو ما ذهب إليه أيضا عبد الحليم عويس حينما رجّح أن يكون الخلاف الأخير بين المرابطين و الحماديين على عهد المنصور في النصف الثاني من سنة 495هـ/1101م، مستندا هو الآخر إلى ما أورده ابن الخطيب بخصوص رد فعل المنصور الّذي كان سنة 496هـ/1102م، و استغرق سنة و عدة أشهر بعد ذلك، في الوقت الّذي نجد الجيلالي يذكر أنّ تدمير مدينة أشير كان سنة 495هـ/1101م، دون أن يذكر من أين استقى خبره، أنظر: عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 144، و للمزيد أنظر: عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 369.

وعن رد الفعل الّذي قام به المنصور بعد اقتحام المرابطين أشير و تخريبها يذكر ابن خلدون أنّ المنصور نهض إلى تلمسان في جيش عظيم حشد فيه صنهاجة و من العرب الأثبج و رياح وزغبة ومن لحق بهم من زناتة فكان قوامه على نحو عشرين ألفا[1] ،وسار به لكسر شوكة المرابطين ،ولم يشفع خروج صاحب تلمسان تاشفين بن يغمر من المدينة وتركها من أن يحلّ بأهلها بطش جنود المنصور بعد دخولها ،أين عاثوا فسادا بها ،وعظمت المحنة بأهلها. ثمّ انكفأ المنصور راجعا إلى عاصمة بني حماد[2].

و في هذا تجدر الإشارة إلى أنّ ابن خلدون ذكر أنّ خروج المنصور في حملته هذه كان في سنة 476هـ/1083م[3] ،ونحن نعلم كما يقرّ هو بنفسه أنّ المنصور تولّى أمر بني حماد سنة 481هـ/1088م[4] ،وبذلك يكون ابن خلدون اختلط عليه الأمر ،كما وقع في التناقض من حيث لا يدري. ثمّ نجد هذا المؤرّخ يورد نفس الرواية في موضع آخر من كتابه غير أنّه هذه المرة يذكر أنّ خروجه كان في سنة 486هـ/1093م[5] ،وأمام هذا الخلط والتضارب في أقوال ابن خلدون ،فالرّاجح أنّ تاريخ تلك الحملة هو سنة 496هـ/1102م كما أقرّه ابن الخطيب ومن حذا حذوه من المؤرّخين المحدثين[6].

- **النتائج:**

لقد كان لتلك الصراعات و الحروب الّتي عرفتها المنطقة الحمادية نتيجة الغارات الّتي شنّها المرابطون عليها آثار سلبية على عمرانها لما ينتج عنها من أعمال نهب وتخريب لمدنها ،ومدينة أشير أحد هذه المدن الّتي طالها الخراب على يد الحماديين ،وكذا المرابطين ،فتضرّر حينها عمران هذه المدينة ،واستمرّت على ذلك الخراب لفترة من الزمن ،وقلّ الاهتمام بعمرانها لانشغال ولاّة أمورها بالدفاع عنها، وحماية حدودها ،وتأمين أهاليها وممتلكاتهم ،وحفظ الأمن في ضواحيها ،والمسالك والطرق المؤدية إليها. وفي الفترة الّتي عرفت فيها العلاقات بين الحماديين والمرابطين هدوءا نسبيا

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 234.

(2)- محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ص 123.

(3)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 234.

(4)- أنظر: إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 199، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 139.

(5)- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 75.

(6)- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 144، عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ص 370، محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظلّ صنهاجة، ص 123، مختار حساني: المرجع السابق، ج1، ص 106.

بعد الصلح الّذي تمّ عقب دخول المنصور الحمادي تلمسان ،عرفت مدينة أشير مرحلة جديدة قام فيها الحماديون بإعادة بناء المدينة وتشييدها[1].

ورغم هذا فإنّ هذه العوامل لم تمنع من أن تكون المدينة حسبما يصفها الإدريسي فيما بعد من أنّها «حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف يجلب إليه كل لطيفة ويباع به كل طريفة»[2]. ولعلّ نص الإدريسي فيه إشارة إلى أنّ المدينة بقيت تحافظ على مكانتها كحصن دفاعي هام رغم تعرّضها لأعمال التخريب الّتي طالتها في ظلّ انشغال دولة بني حماد بالصراع المتعدّد الجبهات[3] ضدّ المرابطين وبني عمومتهم من بني زيري. إضافة إلى أنّ الحماديين عانوا من محنة ثالثة أثّرت هي الأخرى على مدن الحماديين ،والمتمثّلة في هجوم النورمانديين الّذي تخطّى حدود دولة بني زيري ،ووصل منطقة بني حماد[4].

ونعود إلى مدينة أشير فنقول أنّ موقع هذه المدينة الحصين كان عاملا هاما ساعد على استمرار دور هذه المدينة الحضاري كون هذه المدينة مثلما يصفها صاحب الاستبصار تقع «بين جبال شامخة محيطة بها»[5].

وصفوة القول فإنّ مظاهر الاستقرار الّتي عرفتها منطقة المغرب الأوسط كانت أحد العوامل الّتي ساعدت على تطوّر مدينة أشير ،واستفادت المدينة من اهتمام بني زيري ،ثمّ بني حماد في تعميرها ،وتشييد مبانيها ،غير أنّ فقدان ذلك الاستقرار ،واشتّداد الحرب والصراع بين بني حماد

([1])- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 89، عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 369.

([2])- الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254.

([3])- تعرّضت مدينة أشير أيضا إلى غارات الهلاليين عليها، إلاّ أنّ الروايات التاريخية الّتي بين أيدينا لا تورد أي خبر بخصوص تعرّض هذه المدينة للتخريب الهلالي بشكل مباشر، باستثناء ما أوردوه بخصوص إفساد و تخريب الهلاليين للمدن بالمغرب الأوسط ،فقد تكون مدينة أشير إحداها غير أنّنا نفتقر إلى النص التاريخي الصريح بشأن ذلك ، أنظر: ابن خلدون: العبر: ج6، ص27.

([4])- لقد قام النورمانديون في إطار هجوماتهم على بلاد المغرب بأعمال تخريبية ففي الوقت الّذي تعرّضت كل من مدينتي المهدية و زويلة لعمليات تخريب من طرفهم، حيث قامت عساكرهم بنهب و تخريب و إحراق مدينة زويلة و مساكنا سنة 481هـ/1081م ،و لم تقتصر أعمال التخريب النورماندي على مدن المغرب الأدنى بل طالت كذلك مدن المغرب الأوسط في فترة سابقة، حيث قام الجنويز بحملة على مدينة بونة سنة 425هـ/ 1034م ودمّروا مرفأ المدينة و تركوها خرابا، ثمّ قام النورمان سنة 537هـ/1142م بهجوم على مدينة جيجل بقيادة أمير البحر جرجس الأنطاكي، فانتهبوها و بالغوا في خرابها وإحراق دورها، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 455، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 126-136 ،وحول مدن المغرب الأوسط، أنظر: عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص359-374.

([5])- مجهول: الاستبصار، ص 170.

أنفسهم ،وبينهم وبين المرابطين ،ساهم إلى حدّ كبير في تراجع دور المدينة ،بعدما تعرّضت لأعمال تخريب من أصحاب المدينة[1] ،ومن الطامعين في التوسّع على حسابها. فكان هذا التراجع الثاني بعدما انتهى مركز الدور الأوّل الّذي كانت تحتلّه أشير بقيام مدينة القلعة ،فازداد دور المدينة في التلاشي بشكل تدريجي حتّ اختفى اسم هذه المدينة[2] مع نهاية دولة الحماديين[3].

2- خراب مدينة وارجلان و قرية وغلان (وعلان):

لم تهدأ أحوال الدولة الحمادية في عهد الناصر بن علناس، فإلى جانب ما تثيره القبائل الهلالية من اضطّرابات في المناطق الّتي انتشرت فيها ،كانت القبائل الزناتية هي الأخرى بنشاطها الفعّال في ذلك الإقليم أحد مصادر الاضطرابات والفتن الّتي أقلقت دولة بني حماد ،بفضل زعمائها الطامعين مثل المنتصر بن خزرون الزناتي ،الّذي رفع لواء النضال ضدّ الحماديين ،بيد أنّ الناصر لم يأل جهدا —على امتداد حكمه- في تتبّع زناتة بالقتل والأسر كلمّا أبدت هذه القبائل أيّ عمل عدائي ضدّه ،و لم تخل طريقة جيوش الناصر في تأديب زناتة الثائرين من ارتكاب أعمال تخريب في حقّ المدن التابعة لدولته ،والّتي كانت مجالا لنشاط هؤلاء الزناتيين ،كما هو الحال بالنسبة لقرية وغلان ،وحتّ ربّما مدينة وارجلان. فما أسباب تخريب تلك القرية؟ ،وهل امتدّت أعمال التخريب إلى مدينة وارجلان؟ ،وما تأثير تلك الاضطرابات على دور مدينة وارجلان؟

- **الأسباب:**

كان المنتصر بن خزرون الزناتي قد خرج على رأس قوة من زناتة وبني عدي من العرب حتّ نزل المسيلة ففتحها ،ثمّ هجم على أشير واحتلّها ،فخرج الناصر لإخضاعه ،وأجلاه إلى الصحراء. ولّما رجع عنه الناصر ،عاد إلى أعمال الغزو والتخريب ،فلم يجد الناصر بدّا من مصالحته[4] ، ولو بشكل مؤقت ،وإقطاعه ضواحي الزاب وريغة[5] ،مزمعا الغدر به ،إذ أوعز إلى

([1])- أنظر: التخريب الأوّل لمدينة أشير من طرف بني حماد، من هذا الفصل.

([2])- إلاّ ما بقي من آثار للمدينة، توجد في مواضع لمنطقة الّتيطري الّتي تشرف على المناطق المستوية لجنوب مدينة الجزائر، والّتي تحتوي على ثلاثة أماكن أثرية و هي: مزنه بنت السلطان و يشير و بنية، و هذه المناطق الثلاث على الرغم من اختلافها في المظهر الخارجي إلاّ أنّها تحمل نفس الصفات، أنظر: الطاهر طويل: المرجع السابق، ص269-272.

([3])- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 89.

([4])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231 ،محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظلّ صنهاجة، ص 114.

([5])- هي قرية ذات أرض متّسعة، و تمتاز حسبما يصفها الإدريسي بكثرة الحرث، و أشجار الفواكه و البساتين، والمياه الغزيرة، و العيون الكثيرة، و حتّ الأسواق العامرة، أنظر: الإدريسي: المغرب العربي، ص 107.

عروس بن سندي رئيس بسكرة بقتله ،فتمكّن هذا الأخير من ذلك ،بعدما دبّر له مكيدة ،وأرسل برأسه إلى الناصر. وأخذا بالثأر طلب الزناتيون المساعدة من الأثبج الهلاليين ،وثاروا ضدّ الناصر ،فما كان منه إلاّ أن أرسل حملة قادها ابنه المنصور إليهم[1].

أ- وغلان:

عن تفاصيل هذه الحملة الحمادية يذكر ابن خلدون[2] بأنّ أهل الزاب بعثوا إلى الناصر بأنّ «عمر و مغراوة ظاهروا الأثبج من العرب على بلادهم ،فبعث ابنه المنصور في العساكر ونزل وغلان بلد المنتصر بن خزرون[3] وهدمها».

ونلاحظ من خلال هذا النص أنّ هذه الحملة الحمادية على معاقل زناتة في بلد وغلان ،ما أدّبت أهالي هذا البلد بقدر ما أفضت إلى تهديم عمرانه ،فلم نقف على إشارة فيه إلى أيّ صدام بين الجيش الحمادي والعناصر الثائرة ،ولا حتّ إقدام جيش المنصور على البطش بالأهالي وسلب ممتلكاتهم ،كما كان يفعل في أغلب حملاته. فهل فرّ أهالي البلد وتركوا معاقلهم –قاصدين صحراء وارجلان- لتعيث فيها جيوش الناصر فسادا وتهدم عمرها؟ أم أنّهم جنحوا للسلم ،وفضّلوا عدم المقاومة فاكتفى حينها المنصور بأعمال التخريب تأديبا لهم على إعلان الثورة؟.

غير أنّنا نجد إشارة أوردها إحدى الدراسات الحديثة حول تاريخ وارجلان تذكر بخصوص هذه الحملة الحمادية ،أنّ المنصور في طريقه لتأديب القبائل الزناتية خرّب القرى ،وقتل بعض سكّانها على مساندهم للثورة ،وقطع نخيلها ،وغوّر آبارها ،لكن دون أن يذكر صاحبها المصادر الّتي استقى منها مادته الخبرية[4].

ب- وارجلان:

بعدما هدمت جيوش الناصر الحمادي بلد وغلان على يد قائد جيشه المنصور ،يضيف ابن خلدون أنّه أرسل جيشه إلى مدينة وارجلان ،فولّى عليها وعاد جيشه محمّلا بالغنائم[5].

([1])- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 174 ،عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 136.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

([3])- هو المنتصر أو المستنصر الزناتي ابن خزرون، زعيم قبيلة زناتة، خاض عدة ثورات ضدّ الناصر بن علناس، انتهت آخرها بعقد الصلح بينهما ، قتل على يد عروس بن سندي حاكم بسكرة ، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

([4])- إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 44.

([5])- ابن خلدون: العبر، ج6،ص231، إسماعيل العربي: دولة بني حماد،ص175، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص136.

ولم تتوقّف حملات الناصر لإخضاع زناتة في إقليم وارجلان على هذه الحملة ،بل إنّ الناصر ما إن بلغه عن بني توجين[1] أنّهم ظاهروا بني عدي ،وأخذوا يقطعون الطرق ،ويعيثون فسادا فيها ،حتّ أرسل إليهم جشيه بقيادة ابنه المنصور ،الّذي تمكّن من القبض على أميرهم مناد بن عبد الله وأخيه زيري وعمّهما الأغلب وحمامة ،الّذين كان مصيرهم جميعا القتل على مخالفتهم[2].

وعلى الرغم من أنّ ابن خلدون أشار إلى عدّة حملات حمادية على مدينة وارجلان وضواحيها ،إلاّ أنّه لم يذكر لنا شيئا من تفاصيلها ،فقد اكتفى هذا المؤرّخ بذكر نتيجة الحملة الأولى ،المتمثّلة في عودة قائد الحملة المنصور مظفرا ومحمّلا بالغنائم والسلب ،دون التطرّق لتفاصيل المعارك الّتي خاضها هذا الجيش والخسائر الّتي خلّفها سواء البشرية أو على حساب العمران ،وكذلك الشأن فيما تعلّق بالحملة الثانية على بني توجين. هذا في الوقت الّذي نجد بعض المؤرّخين المحدثين يشيرون إلى أنّ مدينة وارجلان وبعضا من حصونها كانوا عرضة للتخريب من طرف الجيش الحمادي في حملاته على المدينة وضواحيها[3].

واعتمادا على ما أورده هؤلاء الباحثون بخصوص التخريب الحمادي لوارجلان تكون المدينة تعرّضت لأوّل عملية تخريبية سنة 440هـ/1048م عندما خرّب الجيش الحمادي قلعة درجين أحد القلاع التابعة لمدينة وارجلان ،غير أنّ ما يلفت الانتباه حول ما أوردوه أنّهم نسبوا هذا التخريب للناصر بن علناس ،لكنّهم غفلوا عن أنّه تولّى أمور بني حماد بداية من سنة 454هـ/1062م. وهو ما يجعل أصحاب هذا الرأي يجانبون الصواب فيما عزوه للناصر من تخريب لقلعة درجين في تلك السنة ،كونه بعيد زمنيا عن تاريخ ذلك التخريب ،إذّا ما صحّ أنّ القلعة تعرّضت للتخريب في تلك السنة ،وإن كان قد حدث فإنّه في عهد الأمير الحمادي الثاني القائد بن حماد 419-446هـ/1028-1054م ،وكان من نتائجه نزوح سكّان قلعة درجين الإباضيين إلى وارجلان[4]. ويبدو أنّ المصدر الّذي اعتمدوه في نقل هذا الخبر هو كتاب السير

([1])- هم قبائل من زناتة يتمركزون بضواحي وارجلان، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

([2])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231 ، إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 175.

([3])- عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 364، مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 48، إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 44، عمر سليمان بوعصبانة: المرجع السابق، ص 88.

([4])- الياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 44، عمر سليمان بوعصبانة: المرجع السابق، ص 88.

لصاحبه الوسياني. غير أنّ هذا الأخير لم يعطينا التفاصيل الكافية لذلك ،فقد تطرّق إلى ما حلّ بقلعة درجين في معرض حديثه عن سيرة أحد شيوخ الإباضية في تلك الفترة[1] ،حيث بدخوله قلعة درجين خالفه «عسكر صنهاجة إلى القلعة فكسروها ،وذلك سنة أربعين وأربعمائة من التاريخ»[2].

فهذا النص على أهمّيته فإنّه جاء مقتضبا ،لم يذكر أسباب تلك الحملة ،ولا قائدها والنتائج الّتي ترتبت عن ذلك التخريب لهذه القلعة. ممّا يجعل الغموض يبقى يكتنف هذه الحادثة في العديد من جوانبها ،خاصة ما تعلّق بعمرانها جرّاء ذلك التخريب.

كما أنّه و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الباحث مسعود مزهودي أشار إلى حملة حمادية قادها المنصور بن علناس إلى إقليم وارجلان وأفضت إلى تخريب عمارة المدينة. بيد أنّه لا يحدّد المنطقة الّتي تعرّضت لذلك التخريب ،فهل كانت المدينة في حدّ ذاتها؟ أم أنّه يقصد قلعة درجين؟. وإذا وقفنا على التاريخ الّذي يحدّده هذا الباحث كزمن لذلك التخريب ،وهو سنة 442هـ/1050م[3] ،نميل إلى أنّه يقصد تخريب قلعة درجين ،لقرب الفترة الزمنية بين التاريخ الّذي حدّده وبين تاريخ تخريب تلك القلعة ،حسبما أورده أبو الربيع الوسياني[4]-كما أسلفنا ذكره- ،غير أنّني ومن خلال ما بين يدي من مصادر لم أقف على أيّ حملة قادها الجيش الحمادي على وارجلان في ذلك التاريخ ،وكان من نتائجها تخريب المنطقة، سوى ما ذكرناه آنفا عن قلعة درجين.

إضافة إلى أنّ هذا الباحث عزى ذلك التخريب إلى المنصور الحمادي 481-498هـ/1088-1104م[5] ،والّذي يستبعد أن يكون هو من قاد الحملة على وارجلان في سنة 442هـ/1050م ،كما فصلناه سابقا بخصوص من عزاه للناصر بن علناس. وعليه يكون هذا الباحث مجانبا للصواب فيما ذهب إليه ،سواء فيما تعلّق بتحديد السنة أو بمن قاد الحملة في ذلك

([1])- و هو أبوالخطاب عبد السلام بن منظور بن أبي وزجون، الّذي قدم إلى قلعة درجين، غير أنّ تخريبها من طرف الجيش الصنهاجي، جعله، ينتقل منها سنة 440هـ-1048م إلى منطقة أسوف، أنظر: أبو الربيع الوسياني: سير مشايخ المغرب، تح، إسماعيل العربي، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1985، ص 24-26.

([2])- أبو الربيع الوسياني: المصدر السابق، ص 26.

([3])- مسعود زهودي: المرجع السابق، ص 48.

([4])- أبو الربيع الوسياني: المصدر السابق، ص 26.

([5])- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 48.

التاريخ. على أنّ الراجح أنّ المنطقة الّتي خُرِّبت هي قلعة درجين سنة 440هـ/1048م. أمّا بخصوص قائد الحملة الحمادية وأسبابها فيبقى ذلك رهين الدليل التاريخي الثابت.

أمّا بخصوص الحملة الّتي قادها المنصور الحمادي في ولاية أبيه الناصر على وارجلان كما أورده ابن خلدون الّذي لم يشر إلى تخريب جيش الناصر للمدينة[1] ،فإنّ المؤرّخ الجزائري عبد الرحمن الجيلالي يؤكّد أنّ أهمّ نتيجة لهذه الحملة هي تخريب مدينة وارجلان[2] ،إذ يذكر هذا المؤرّخ قائلا: «وحمل الحماديون يومئذ على إمارة زناتة ،فقضوا عليها ،وقتلوا رؤساءها واحتّلوا مدينة بني وارجلان –ورقلة- فحطّموها»[3]. أمّا الباحث مسعود مزهودي ،فيفيدنا عن هذه الحملة بأنّ أهل وارجلان عجزوا عن مقاومة الحملة الحمادية نظرا لانقسامهم ،وعدم اتّفاقهم على الدفاع عن مدينتهم ،الّتي سلبتها جيوش بني حماد ،وأنّ ذلك أثّر على المدينة ،وزاد من حالة الاضطرّاب الّذي تعرفه وارجلان خلال تلك الفترة ،نتيجة توافد عناصر كثيرة من السكّان على المدينة خاصة الزناتية. غير أنّ هذا الباحث لا يشير إلى تعرّض المدينة لعمل تخريبي من طرف الجيش الحمادي.

صاحب دراسة النشاط الاقتصادي و الحياة الفكرية لمدينة وارجلان[4]، يضيف إلى سابقيه أنّ الحملة الحمادية التأديبية للعناصر الزناتية في وارجلان أقدمت في طريقها على تخريب القرى[5] وقتل ساكنيها وقطع نخيلها ،وتغوير مياهها[6].

وما يستوقفنا أيضا بخصوص حملة بني حماد على وارجلان، هو تاريخ سير هذه الحملة ،ففي الوقت الّذي يسكت ابن خلدون عن ذكر تاريخ سيرها ،مكتفيا بعرض هذا الحدث ،وغيره من

([1])- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

([2])- كذلك يذكر إلياس حاج عيسى أنّ مدينة وارجلان تعرّضت للتخريب سبب هذه الحملة الحمادية عليها، أنظر: إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 44.

([3])- عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 364.

([4])- إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 44.

([5])- مثل قرية وغلان الّتي خرّبها جيش المنصور، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

([6])- يبدو أنّ هذا الباحث استقى معلوماته من دراسة المستشرقة مادلين بريغول (*BRIGOL Madleine*)، في كتابها بلد وارجلان (*Le pays de Ouargla*)، أنظر: إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 44.

الحملات الحمادية لإخضاع الزناتيين بشكل متسلسل ،نجد مبارك الميلي يرجّح أنّ تكون في سنة 460هـ/1068م ،أمّا عبد الرحمن الجيلالي فيجزم بأنّها كانت في تلك السنة[1].

وممّا لا شكّ فيه أنّ أغلب المؤرّخين المحدثين الّذين تطرّقوا لتلك الحملة اعتمدوا على النصوص الّتي أوردها ابن خلدون ،وإن كان هذا الأخير لم يذكر تواريخها ،فإنّه أعقب ذكرها بالتطرّق إلى اختطاط الناصر بن علناس لمدينة بجاية في الجبل الّذي افتتحه في سنة 460هـ/1068م[2] ،وهو ما يوحي أنّ الأحداث الّتي ساقها سبقت ذلك التاريخ ،أوكانت في نفس تلك السنة (460هـ/1068م) [3].

ثمّ إنّ ابن عذاري أشار إلى أنّ الناصر بن علناس قام سنة 460هـ/1068م بمعية الأثبج من العرب بحصار مدينة الأربس ،وأحكم حصارها حتىّ افتتحها ،وقتل عاملها وأمّن أهلها ،وفي نفس السنة المذكورة واصل زحفه حتىّ وصل القيروان ودخلها[4] ،وما أورده ابن عذاري يقوّي من جهة الاعتماد على سنة 460هـ/1068م تاريخا لسير الحملات إلى وارجلان[5] ،ذلك أنّنا نجد أنّ أغلبها قادها المنصور الحمادي نيابة عن أبيه ،الّذي ربّما يكون منشغلا بإخضاع المدن الزيرية لسيطرته ،ومن جهة أخرى يضعف القول بذلك فلا يعقل أن يترك الناصر أمر زناتة الثائرة عليه وما تثيره من فتن واضطرّابات في إقليم دولته ،وينشغل بطموحاته التوسّعية على حساب بني عمومته. وهذا ناهيك عن أنّ ابن عذاري يضيف إلى ذلك بأنّ الناصر لم يرجع من القيروان إلى قلعته حتىّ انقضت تلك السنة ودخلت سنة 461هـ/1069م ،وهذا يتعارض مع ما ذهب إليه ابن خلدون بشأن افتتاح جبل بجاية سنة 460هـ/1068م[6] ،من طرف الناصر بن علناس.

وبالإضافة إلى ما ذكرنا نجد الباحثة المستشرقة مادلين بريغول تذهب إلى أنّ هذه الحملة كانت في سنة 468هـ/1076م ،معتبرة إيّاها أوّل حملة من شمال المغرب تصل وارجلان[7] ،فهي وعلى الرغم من أنّها تنفرد بذكر ذلك التاريخ لهذه الحملة ،والّذي يفتقر إلى الدليل التاريخي

(1)- عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 364 ،مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 253.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

(3)- و ذلك لأنّ ابن خلدون كان يسوق أخباره بشكل متسلسل مع مراعاة عامل الزمن في ذلك.

(4)- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 299.

(5)- سواء الحملة على وارجلان، أوالحملة الثانية على بني توجين.

(6)-ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 300 ،ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

(7)- إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص 44.

القاطع ،فإنّها جانبت الصواب في القول بأنّ تلك الحملة تعدّ الأولى الّتي تصل من الشمال إلى وارجلان ،فقد غابت عنها الحملة الّتي أرسلها أبوعبيد الله المهدي ودخلت مدينة وارجلان إثر ملاحقة الرستميين الفارين إليها بعد سقوط تيهرت في يد الدولة الفاطمية[1] .وعليه فالقول الأقرب للصواب هو اعتماد سنة 460هـ/1068م تاريخا لتخريب الجيش الحمادي قرية وغلان ودخول وارجلان ونهب أموالها وسبي حريمها أو حتّ تخريبها ،وذلك بناء على ما أسلفنا ذكره.

ج- النتائج:

في ظلّ غياب النصوص التاريخية القريبة زمنيا من تلك الأحداث، و الّتي يمكن الاعتماد عليها للوصول إلى حقيقة تخريب وارجلان من عدمه، يمكننا القول أنّ تلك الحملات الّتي قام بها الجيش الحمادي لإخضاع زناتة وقادتها المتمرّدين على سلطته ،لا شكّ أثّرت على مدينة وارجلان وكذا القرى والحصون والقلاع المجاورة لها ،بعدما عمّتها الفوضى والاضطرابات ،حيث كثرت الصراعات والحروب ،وانعدم الاستقرار ،وما نتج عن ذلك من تخريب لبعض القرى والحصون ،الّتي اضطرّ ساكنوها إلى الهجرة يرومون الأماكن الآمنة والبعيدة عن موطن الاضطرّاب.

وما زاد أوضاع وارجلان سوءا هو تدفّق أعداد هائلة من العناصر الزناتية إلى المدينة الّتي اتّخذوها ملجأ يفرّون إليه ،بسبب ما يحلّ بقراهم ومعاقلهم من حروب ،وما تفضي إليه من خراب[2]. وبذلك اكتظّت المدينة ،خاصة في ظلّ كثرة عوامل الاضطّراب والحروب ،إذا لا تقتصر على الصراع الحمادي الزناتي ،بل يضاف إلى ذلك نشاط الحركة الفاعلة للقبائل الهلالية[3] في منطقة المغرب الأوسط ،الّتي طردت سكّان زناتة من مواطن استقرارهم إلى منطقة وارجلان[4]

---

(1)- أنظر: مبحث خراب وارجلان من طرف الفاطميين، في الفصل الثاني من هذا البحث.

(2)- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 54.

(3)- هناك من المؤرّخين من يذهب إلى حدّ القول أنّ القبائل الهلالية وصلت حتّى مدينة وارجلان و خرّبت عمرانها، إذ يذكر علي يحي معمر عن التخريب الهلالي قائلا: «... يقتلون و يخرّبون و يغنمون، و قد نالت وارجلان نصيبها منهم و ممّن سار بسيرتهم و أصابتها فتن و حروب و تخريب، و إن كانت في أغلب الأوقات تقف للمعتدين بالمرصاد ...ما جعلها تعيش طيلة هذا العهد على استعداد دائم لترد عدوان المعتدين»، أنظر: علي يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة، ص384، إلاّ أنّ هذا القول مجانب للصواب و يفتقر إلى الدليل التاريخي، بل و فيه نوع من التحامل على القبائل الهلالية الّتي لم تصل إلى وارجلان إلاّ بعد مدة من دخولها أرض المغرب، غير أنّها ساهمت آنذاك في مضاعفة مشاكل المدينة كما سبق و إن ذكرنا، أنظر: مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 54.

(4)- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 70.

،وهذا ما ضاعف من مشاكلها وازدادت أمور المدينة تعقيدا[1] حتّ غدت بؤرة للتوتر لما تبديه العناصر الزناتية من رغبة جامحة في الثورة والتمرّد ،فيقوم الجيش الحمادي عندئذ بحملات لإخضاعها ،وما يلحق المدن من خراب ،وهذا لا يمنع من أن تكون مدينة وارجلان ،ومنطقة بني توجين قد تعرّضتا للتخريب على غرار ما حلّ بقلعة درجين ،وقرية وغلان ،رغم افتقارنا إلى ما يؤكّد ذلك في ظلّ غياب المادة الخبرية الّتي تبقى ملاذ الباحثين والدارسين المهتمين بهذا الجانب من تاريخ المدن.

وصفوة القول فإنّ مدينة وارجلان تراجع دورها ،فعلى الرغم من أنّها حافظت على مكانتها التجارية التي كانت تحتلها ؛كونها كانت المركز الّذي تخرج منه أغلب المسالك والطرق التجارية نحو مختلف الاتّجاهات[2] ،إلاّ أنّ ما نشير إليه أنّ هذه المدينة تأثّرت كباقي مدن المغرب الأوسط بالاضطرابات السائدة وقتئذ ،وعلى رأس ذلك تلك التحالفات المبرمة بين العناصر الزناتية والبطون الهلالية ،فكانت تلك الاضطرابات عاملا رئيسا في إحداث تغيّرات جديدة طرأت على مدن المنطقة ،وساهمت بشكل كبير في إعادة رسم وتوجيه خطوط ومسالك تجارة العبور في منطقة المغرب الأوسط ،حيث اتّجهت نحو المدن الساحلية ،وأدّت إلى انتعاشها لما تمتاز به من البعد عن مناطق الاضطّراب ،ولما تحوز عليه من عناصر المناعة والحصانة الطبيعية.

3- خراب مدينة سدراتة:

بسقوط تيهرت اتّخذ الإمام الرستمي يعقوب بن أفلح من سدراتة معقلا وحصنا اهتدى إليه هو وفلول الإباضية الذين نجوا من بطش الجيش الفاطمي[3]. وقد عرفت هذه المدينة على أيديهم حضارة مزدهرة ،حيث أصبحت مدينة عامرة بالسكّان، زاهرة بالعمران[4] ،بعدما شيّدت

([1])- مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 54.

([2])- علي أبوالحسن المغربي: المرجع السابق، ص 126.

([3]) -*BEKRI Chikh: Le Royaume Rostemide le premier état Algérienne, ENAG, Alger, 2005, p 175, CHALLEAT Camille: «Le urbanisation de la vallée du Mzab (Algérie) les transformations des palmerais, l'exemple de Ghardaia», étude urbaine, université Lumière Lyon II, département de géographie, 1993-1994, p 11.*

([4])- ساعدها على ذلك وقوعها على المسالك التجارية الصحراوية، حتّ أضحت قطب الرحى لأغلب المسالك الصحراوية، ونقطة وصول القوافل التجارية القادمة من بلاد السودان، أنظر: عمر لقمان بوعصبانة: معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ورقلة من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراتة، ط1، نشر جمعية الوفاق المعصومة للإعلام وارجلان، ورقلة 1429هـ-2008م، و للمزيد أنظر: *LETHIELLEUX Jean: Op. Cit, p 80*

القصور البديعة ،والمنازل الرفيعة ،وأقيمت المزارع والبساتين الواسعة ،فاستبحرت في العمارة ،وامتازت بضخامة منشآتها ،ودامت على ذلك فترة من الزمن ،حتّ أعقب ذلك الازدهار والاستقرار مرحلة سمتها الخراب والدّمار على مرحلتين ،كانت أولاهما بعد منتصف القرن 05هـ/11م على يد الجيش الحمادي. أمّا الثانية فكان تدميرا كبيرا للمدينة مع نهاية الربع الأوّل من القرن 07 هـ/13 م(1).

أ- الأسباب:

على الرغم من الازدهار الحضاري الذّي عرفته مدينة سدراتة ،والمكانة الاقتصادية الّتي حظيت بها ،خاصة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (10 و11 م) (2). إلاّ أنّ النصوص التاريخية الّتي طرقت تاريخ هذه المدينة قد أغفلت مرحلة هامة من تاريخها تتعلّق بحادثة تخريبها على يد الجيوش الحمادية بقيادة المنصور الحمادي ،وخاصة أسباب هذه الحادثة الّتي كان من نتائجها ذلك التخريب.

وإن كنّا قد وقفنا على ما أورده بعض المؤرّخين(3) بشأن تلك الحادثة ،حيث عزوا تخريب مدينة سدراتة إلى المنصور بن الناصر الحمادي سنة 468هـ/1075-1076م ،أوسنة 470هـ/1077م(4) ،إلاّ أنّنا وجدنا أنّهم تحاشوا التطرّق لأسباب ذلك التخريب. وعلى الرغم من أنّ مردّه

(1)- ديني سبيلي و جمعية القصر للثقافة: «تاريخ ورقلة دراسة حول تسلسل الأحداث التاريخية»، دفاتر ورقلة، رقم 02، المركز الثقافي للوثائق الصحراوية، ورقلة، 2010، ص 05 ،

(2) -*BOUROUIBA Rachid: Cites disparus Tahert-Sedrata- Achir – Kalaâ des Beni Hammad, «Art et culture», Ministère de l'information, Alger, p 49.*

(3)- محمد بلغراد: الحركة الإباضية في تاهرت و سدراتة، ص 49، مختار حساني: المرجع السابق، ج2، ص 177، يوسف بن سعيد الحاج بكير: تاريخ بني ميزاب، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، ص 26-27.

(4)- اختلف المؤرّخون حول تاريخ تخريب المنصور الحمادي مدينة سدراتة، فهناك من حدّده بسنة 467هـ/ 1075م، أنظر: يوسف الحاج بكير: المرجع السابق، ص 26-27، و هناك من ذكر أنّ تاريخ تخريبها كان سنة 468هـ/75-1076م ،أنظر: محمد بلغراد: الحركة الإباضية في تاهرت و سدراتة، ص 49، و للمزيد أنظر: إلياس حاج عيسى: المرجع السابق، ص44، أمّا أغلبهم فقد رجّح سنة 470 هـ/1077م، تاريخا لتخريب سدراتة، انظر: مختار حساني: المرجع السابق، ج2، ص177، *BOUROUIBA Rachid: Cites disparues, p 51,* و يبدو أنّ هذا الاختلاف يرجع إلى اعتمادهم على نتائج الحفريات الّتي قام بها بعض الباحثين المهتمين بتاريخ مدينة سدراتة خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، و الّذين توصّلوا إلى أنّ المدينة تعرّضت للتخريب لكنّهم اختلفوا في تحديد السنة الّتي تمّ فيها ذلك التخريب، و أبرز هؤلاء الباحثين والأثريين نذكر: لارجو، طاري ،بلانشي ،فوشي ومارغريت فان برشم ،أنظر: رشيد بورويبة: الفن الرستمي بتاهرت و سدراتة، ص 189.

إلى شحّ المادة الخبرية ،فأنّ ذلك ترك فراغا كبيرا بخصوص مرحلة هامة من تاريخ هذه المدينة تتعلّق بأحد أسباب تراجع دور المدينة وسقوطها.

ب- تخريب المدينة:

في ظلّ سكوت المؤرّخين عن أسباب الحملة الّتي قادها المنصور الحمادي سواء في سنة 468هـ/75-1076م ،أو في سنة 470هـ/1077م إلى مدينة سدراتة وخرّب على إثرها المدينة. يمكننا الاعتقاد أنّ خروج المنصور في حملته هذه كان في فترة حكم أبيه الناصر على اعتبار أنّ تاريخها كان في فترة حكم هذا الأخير. كما أن تلك الحملة قد تدخل ضمن سلسلة حملات الناصر ،الّتي شنّها على المدن الجنوبية لإخضاع المتمرّدين ،وتأديب الثائرين ضدّ السلطة الحمادية،فبعدما أقدم على هدم قرية وغلان ،ثمّ استباحت جيوشه مدينة وارجلان ،قام المنصور الحمادي كذلك بتخريب مدينة سدراتة ،في التاريخ الّذي أسلفنا ذكره ،سواء بتوجيه حملة من القلعة نحو سدراتة ،أو ربّما يكون تخريب مدينة سدراتة قد تمّ في نفس الحملة الّتي خرج فيها الجيش الحمادي بقيادة المنصور إلى بني واركلا ،أين قتل وسبى[1] ،ثمّ سار إلى سدراتة فخرّبها لنفس الأسباب الّتي دعته للخروج إلى أهالي وارجلان ،خاصة وأنّ المدينتان قريبتان من بعضهما البعض ،فسدراتة لا تبعد عن مدينة وارجلان إلاّ بمسافة لا تزيد عن أربعة عشر كيلومترا . غير أنّ قولنا هذا يبقى حبيس الدليل التاريخي القاطع.

وعليه يذكر الباحث رشيد بورويبة أنّ مدينة سدراتة تمّ تدميرها[2] سنة 470هـ/ 1077م من طرف حاكم قلعة بني حماد ،حينما يعتمد على الرواية الثانية الّتي تشير إلى أنّ المدينة نالها أوّل عمل تخريبي على يد السلطة الحمادية ،عكس ما ذهب إليه بعض المؤرّخين ممّن نفوا ذلك. وحسب هؤلاء فإنّ التخريب الّذي لحق المدينة كان في القرن السابع الهجري (13م) على يد يحي بن إسحاق الميورقي[3].

ج- نتائج التخريب:

على الرغم من أن مدينة سدراتة قد أصابها تخريب من طرف المنصور الحمادي الذي دمّر جزءا من عمرانها –هذا إن صحّت الرواية القائلة بذلك- ممّا اضطرّ بعض ساكنيها إلى الهجرة

(1)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

(2)- مسّ التخريب بعض مظاهر عمرانها و لم تدمّر بالكامل، أنظر: يوسف الحاج بكير: المرجع السابق، ص 26-27.

(3) - *BOUROUIBA Rachid: Cites disparues, p 50-51.*

،خاصة إلى وارجلان ،إلاّ أنّ هذه المدينة لم تسقط بل استمرّت في تأدية دورها كحاضرة للإباضيين وعاصمة لهم[1].

غير أنّ ما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه المدينة تعرّضت لعملية تخريبية ثانية دمّرت عمران هذه المدينة ،إثر الدمار الّذي جرّته ثورة ابن غانية إلى تلك النواحي على يد يحي بن إسحاق الميورقي[2] ،الذي خرّب كثيرا من البلاد[3]. ويصف لنا ابن خلدون ذلك الخراب الذي ألحقه بسدراتة بقوله: «خرّب عمرانها ،واجتثّ شجرها ،وغوّر مياهها ،ويشهد بذلك آثار العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر»[4].

وبخراب سدراتة[5] هجرها أهلها[6] إلى وارجلان و وادي ميزاب[7] و في هذا المكان الأخير قاموا بإنشاء قراهم هناك وعمدوا إلى تعميرها ،وتركوا سدراتة للخراب ،فأصبحت على سعتها وامتداد رقعتها ،ورسوخ حضارتها خرابا ،لم يبق منها إلاّ بعض الجدران ،وأسّس البنايات وسواقي

([1])- مختار حساني: المرجع السابق، ج 2، ص 177 ،يوسف الحاج بكير: المرجع السابق، ص 26.

([2])- هو يحي بن إسحاق الميورقي المرابطي المعروف بابن غانية، من قبيلة مسوفة، قام بثورة ضدّ الموحدين، تعرّض العمران خلالها للنهب و التخريب ،وقد شارك معه العرب الهلالية، و كانت من بين المدن الّتي خرّبها وارجلان و سدراتة، انظر: ابن خلدون: العبر، ج7، ص 64، و للمزيد أنظر: محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ-1986م، ص 19-20.

([3])- حمو النوري: دور الميزابين في تاريخ الجزائر قديما و حديثا، مج1، (د.ط)، دار البعث، قسنطينة، (د.ت)، ص 109.

([4])- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 64.

([5])- اختلف المؤرّخون أيضا في تحديد سنة التخريب من طرف إسحاق الميورقي، ففي الوقت الّذي حدّده البعض بسنة 626هـ/1229م، انظر: يوسف الحاج بكير: المرجع السابق، ص27، حمو النوري: المرجع السابق، ص108، كان البعض الآخر يرى أنّه كان في فترة متأخرة عن ذلك بحيث حدّدوها بسنة 673هـ/1274م، أنظر: *BOUROUIBA Rachid: Cites disparues, p 50*، و مختار حساني: المرجع السابق، ج2، ص177.

([6])- غير أنّ هذه الهجرة -حسب بعض المؤرّخين – لم تكن بسبب الخراب فحسب، بل هناك عوامل أخرى تضاف إلى ذلك ساهمت فيها، كالعوامل الطبيعية و البشرية المتمثّلة أساسا في مضايقة أهل وارجلان لهم، لأنّهم يعتبرونهم منافسا لهم، إضافة إلى توالي الجفاف على المنطقة، و كثرة العواصف الرملية على المدينة، أنظر: يوسف الحاج بكير: المرجع السابق، ص 26، و للمزيد أنظر: حمو النوري: المرجع السابق، ج1، ص 109.

([7])- يحتمل أن تكون التسمية مشتقة من الميزاب، و الّذي أصل تسميته هو مصاب، و إذا صحّ ذلك فهو من زناتة، و وادي ميزاب عبارة عن سهل يابس تكسوه الرمال، تحدّه من جانبيه جبال صخرية، أين شيّدت مدن ميزاب، و هي: العطف، غرداية، بني يزقن، مليكة، القرارة، و بريان، أنظر: عبد الرحمن حجازي: تطوّر الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي،ط1، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان،1421هـ-2007م،ص59،وللمزيد أنظر:مسعود مزهودي:المرجع السابق، ص58.

الأجنة[1]. أمّا من الآثار الّتي بقيت إلى فترة متأخرة من الزمان ،فنجد مسجد ومقبرة الشيخ صالح جنون بن يمريان ،وآثار أخرى في غاية الإتقان ،وفيها من النقوش الفنية البديعة ،استرعت اهتمام الباحثين[2] ،الذين شرعوا في الكشف عنها بعدما غطّتها الرمال ،فبيّنت حفرياتهم آثارهم العظيمة[3] كالبيوت والقصور واللوحات والأواني وغيرها.

وبذلك انتهى عهد مدينة سدراتة بعد فترة من الأخذ والعطاء والتطوّر والنماء، وحكم على المدينة بالسقوط والفناء ،بعد ما حلّ بها من دمار وخراب لأغلب ما شُيّد من بناء.

III- خراب القلعة على يد الموحدين:

إنّ العمليات التخريبية الّتي تعرّضت لها بعض مدن المغرب الأوسط لم تقتصر على ما نُسب إلى القبائل العربية الهلالية ،أوالجيوش الحمادية في إطار حملاتها لإخضاع الثائرين من زناتة ،فقد كان لدخول الموحدين إلى أرض المغرب الأوسط هو الأخر نصيب في ما حلّ بمدينة القلعة من خراب بعدما افتتحوا بجاية سنة 547هـ/1152م ،ثمّ ساروا إليها وخرّبوها. فما هي الظروف الّتي تمّ فيها ذلك التخريب؟ ،وما انعكاسات ذلك على المدينة ،وعلى دولتها؟

أ- الظروف:

بعدما سيطر عبد المؤمن بن علي[4] على المغرب الأقصى و قضى على دولة المرابطين في كل من المغرب والأندلس ،وجّه أنظاره حينها إلى الجهة الشرقية لبسط سيطرته على كل من المغرب الأوسط والأدنى ،خاصة وأنّه كان على علم بما تتخبّط فيه تلك المنطقة من مشاكل[5] ،وما

---

(1)- ابن خلدون: العبر، ج7، ص 64.

(2)- و نعني بهم علماء الآثار، و على رأسهم: لارجو، طاري، بلانشي، فوشي، و خاصة مارغريت فان برشم، أنظر: رشيد بورويبة: الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة، ص189، و للمزيد أنظر:محمد بلغراد: الحركة الإباضية في تاهرت و سدراتة،ص47.

(3)- مفدي زكريا: أضواء على وادي ميزاب ماضيه و حاضره، دراسة و تحقيق، إبراهيم بحاز، ط1، منشورات ألفا قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر، 2010، ص 73.

(4)- هو عبد المؤمن بن علي بن علوين خليفة المهدي مؤسس دولة الموحدين ،الّتي استطاعت توحيد بلاد المغرب تحت حكمها، وقد كانت خلافته بين 524هـ/1130م و557هـ/1163م ،أنظر: الإيلاني: المصدر السابق، ص 212 ،وللمزيد أنظر: محمود السيد: تاريخ دولتي المرابطين و الموحدين، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999، ص49.

(5)- كالخلافات بين الأمراء و الصراع بينهم، و عيث القبائل العربية الهلالية في المنطقة، و تخريبها للمدن، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 235، و للمزيد أنظر: علي محمد الصلابي: دولة الموحدين، (د.ط)، ج5، دار البيارق للنشر، عمان، الأردن، 1998، ص 116.

أصابها من ضعف[1] ،حتّ أضحت عاجزة عن الحفاظ على ممتلكاتها[2] ،ودفع الخطر المحدق بها من كلّ جانب لاسيّما من النورمان[3] ،الّذين أخذت مدن المغرب تتوالى بالسقوط في أيديهم خاصة بالمغرب الأدنى ،وعلى رأسها مدينة المهدية سنة 543هـ/1148م[4]. أمّا في المغرب الأوسط فإنّ أمراء بني حماد في آخر عهدهم قد تركوا السلطة الفعلية في أيادي بني هلال ،ولجأوا إلى الساحل[5]. وفي ظلّ هذه الظروف أعدّ عبد المؤمن جيشا كبيرا لفتح المغرب الأوسط ،ودخول بجاية.

ولقد تطرّق الكثير من المؤرّخين إلى سرد تفاصيل هذه الحملة الّتي قادها عبد المؤمن لفتح بجاية ،على غرار ابن عذاري الذي يذكر أنّه استشار خاصته ووزراءه «وأظهر لهم ما في طيّ نفسه من ذلك فاشتغل باحتشاد قبائل الموحدين»[6]. يضيف إلى ذلك أحد المؤرّخين الّذين عاصروا دولة الموحدين ؛وهو أبوبكر بن علي المكنى بالبيدق بأنّ عبد المؤمن بعدما خرج إلى سلا[7] أمر «بالعساكر أن تجيء إلى سلا وبايعوه فيها ،وأقلع منها إلى بجاية»[8]. ورواية البيدق جاءت مقتضبة بخصوص هذه الحملة ،ذلك أنّه لا يذكر تفاصيل سيرها كما أوردته أغلب المصادر الّتي

(1)- عبد الواحد مراكشي: وثائق المرابطين و الموحدين، ص 109.

(2)- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 427.

(3)- عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 202.

(4)- عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين و الموحدين، ص 109.

(5)- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ج2، ص 155.

(6)- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، -قسم الموحدين-، تح، محمد الكتاني، و آخرون، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب و دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ-1985م،ص 45.

(7)- سلا (*Salé*) مدينة أزليّة تقع على ساحل المحيط الأطلسي، و قد كانت فيما مضى قرية صغيرة، يعود بناؤها إلى حوالي 1500ق.م، ملكها القرطاجيون، ثمّ احتلّها من بعدهم الرومان، ثمّ الوندال فالبيزنطيون، حتّ فتحها عقبة بن نافع سنة 62هـ/682م، غير أنّ أهلها ما لبثوا إن ارتدّوا عقب استشهاده، ثمّ أسلموا على يد القائد موسى بن نصير سنة 90 هـ/709م، ثمّ فتحها إدريس الأوّل سنة 172هـ/789م، و استمرت في أيدي خلفائه، حتّ أخذها منهم موسى بن أبي العافية المكناسي سنة 317هـ/929م، فصارت عاصمة ملك بني يفرن، حتّ دخلها المرابطون، ثمّ من بعدهم أصبحت في يد الموحدين، أنظر: عبد المنعم حمدي محمد حسين: مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1993، ص 03-05.

(8)- أبوبكر بن علي الصنهاجي البيدق: كتاب أخبار المهدي ابن تومرت، تحقيق و تقديم، عبد الحميد حاجيات، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 105.

عنيت بذلك ،إذ يذكر ابن عذاري أنّ خروجه هذا كان في سنة 546هـ[1]/1151م «مظهرا للنّاس غزو الروم بجزيرة الأندلس ،فلمّا وصل إلى سلا ،أقام بها شهرين يردّد الرأي في نفسه ،ثمّ توصّل منها إلى سبتة[2] ،مظهرا للناس الإجازة إلى الأندلس ،ثمّ رحل منها راجعا مظهرا الانصراف إلى مراكش ،وأشاع الذكر بذلك للناس ،ومقصده في نفسه ونفس خاصته بجاية»[3]. وكإجراء احتياطي قام عبد المؤمن كما يذكر البيدق بمخاطبة عامله على تلمسان يأمره بقطع «الأسفار من الطرق» ،ومنع المسافرين من التصرّف والتحرّك إلى المغرب الأوسط والأدنى برا أو بحرا وجعل أمناء على الطرق لئلا يسلكها أحد[4].

ومنه فقد أحاط الخليفة الموحدي حملته هذه على بجاية بكامل استعداداتها بكثير من السريّة ،احتياطا منه لضمان نجاحها وتحقيق الأهداف المرجوة من روائها ،وهو افتتاح بجاية وإدخال منطقة المغرب الأوسط تحت سيطرة الحكم الموحدي ،بعدما أيقن الخليفة عبد المؤمن أنّ وحدة بلاده لا تكتمل إلاّ إذا توحّدت بلاد المغرب من شرقه إلى غربه تحت راية دولة الموحدين.

وبذلك تحرّك جيش الموحدين قاصدا بجاية، حيث «خرج من سبتة في صفر سنة سبع وأربعين ،فلم يشعر أهل بجاية[5] إلاّ وهو في أعمالها»[6] ،حتّ وصل بجاية[7] ،فحاصرها ،وضيّق

([1])- يذهب عبد الواحد المراكشي إلى أنّ عبد المؤمن حاصر بجاية سنة 540هـ/1145م، و هو ينفرد بذكر هذا التاريخ الّذي يحدّد من خلاله سنة فتح بجاية من طرف الموحدين، و لا شكّ أنّه مجانب للصواب فيما ذهب إليه، أنظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 152.

([2])- هي مدينة من مدن المغرب الأقصى تقع على ساحل البحر الرومي، يحيط بها البحر من جهتي الشمال والشرق، وهي مدينة كبيرة عامرة بالسكّان، محاطة بسور من صخر محكم البناء، بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله، ويسكنها كل من العرب والبربر، ويصفها البكري بأنّها مدينة كثيرة الحمّامات، والبساتين، أنظر: البكري: المسالك والممالك، مج2، ص285- 286.

([3])- ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص 45- 46.

([4])- البيدق: المصدر السابق، ص 106.

([5])- تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنّ أبا عبد الله بن ميمون المعروف بابن الأندلسي كان بينه و بين عبد المؤمن بن علي عهد واتّفاق، و بذلك سهّل له مهمة دخول بجاية، حيث فتح له بابها ، أنظر: ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 193.

([6])- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 166.

([7])- و كان قبل ذلك قد وصل إلى جزائر بني مزغنة في نفس السنة، فخرج منها عاملها و فرّ إلى بجاية و أخبر يحي بن العزيز بأمر حملة الموحدين، أنظر: عبد الواحد دنون، و آخرون: تاريخ المغرب العربي، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004، ص 348، و للمزيد أنظر: عبد الأحد السبتي و حليمة فرحات: المدينة في العصر الوسيط (قضايا و وثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 73، و للمزيد أكثر أنظر: صالح بن قربة: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، (د.ط)، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 49.

عليها ،فهرب يحي بن العزيز -لّما أدرك أن لا طاقة له في الدفاع عنها- متجّها إلى بونة ،ثّم استقرّ بقسطينة ،فدخلت جيوش عبد المؤمن المدينة وملكتها(1).

ب- تخريب القلعة:

لم يجد عبد المؤمن بن علي صعوبة في دخول مدينة بجاية عاصمة الحماديين الأولى ،فقد تقاعس الأمير الحمادي يحي بن العزيز(2) عن أمر الدفاع عن المدينة ،مفضّلا الفرار ،حتّ استقرّ به المقام في قسنطينة ،عندئذ أخذت الرعيّة على عاتقها مسؤولية الدفاع عن المدينة ومحاربة الموحدين ،فأخذت صنهاجة تحشد القبائل لذلك سواء من صنهاجة أو كتامة وحتّ من لواتة(3) ،فاجتمع إليها خلق كثير ،واستعدّوا لقتال الموحدين بعدما عيّنوا عليهم أبا قبيصة(4) ،وعند ذاك أرسل إليهم عبد المؤمن جيشا عظيما. وحسب ابن الأثير فقد التقى الجيشان «في عرض الجبل شرقي بجاية»(5) ،وكانت الغلبة لجيش الموحدين ،حيث ألحقوا هزيمة نكراء بصنهاجة وقائدها أبا قبيصة ،إذ «قتل أكثر من معه ،ونهبت أموالهم ،وسبيت نساؤهم وذراريهم»(6).

و لم يكتف الجيش الموحدي بهذا الانتصار الّذي حقّقه، بل قصد مدينة القلعة عاصمة بني حماد الثانية ،وما إن بلغها حتّ فرّ أهاليها إلى رؤوس الجبال ،فاقتحم الجيش المدينة عنوة ،وخرّبها ،وأضرم النيران في مساكنها(7).

كما قتل جميع رجال الحامية الّتي كانت تحرسها ،وأسرف في قتل الأهالي ،وأسر الكثير منهم ،وليس ذلك فحسب ،بل غنم جميع ما فيها من أموال ،وذخائر ،وغير ذلك(8).

---

(1)- البيدق: المصدر السابق، ص107، ابن الأثير: المصدر السابق، مج9، ص372، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص193.

(2)- هو آخر أمراء بني حماد، يحي بن العزيز بن المنصور بن الناصر ،تولّى أمر بني حماد بعد وفاة أبيه العزيز سنة 515هـ/1121م، ،وبسقوط دولتة في يد الموحدين ،سار مع عبد المؤمن إلى مراكش، حتّ مات سنة 588هـ/1192م، أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج9، ص 372، وللمزيد أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص 235-236.

(3)- النويري: المصدر السابق، ج24، ص 167 ،عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 40.

(4)- ورد أيضا باسم أبا قصبة، كما جاء به ابن الأثير: المصدر السابق، مج9، ص 373، و باسم أبي قفصة، أنظر: عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص41.

(5)- ابن الأثير: المصدر السابق، مج9، ص 373 ،النويري: المصدر السابق، ج24، ص 167.

(6)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 28، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 167.

(7)- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص196، روجي إدريس: المرجع السابق، ص431، عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص41، صالح بن قربة: عبد المؤمن بن علي، ص50.

(8)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 236، النويري: المصدر السابق، ج24، ص 167.

وهكذا وتحت غطاء الفتح الموحدي لبلاد المغرب الأوسط ،وفتح الطريق إلى المغرب الأدنى وصدّ غارات النورمان على مدنه تتعرّض مدينة القلعة إلى أعمال تخريب ،حينما استباح الجيش الموحدي المدينة ،وخرّبها وأحرق منازلها ،وحطّم أغلب قصورها ،الّتي لم يسلم إلاّ القليل منها[1].

ج- النتائج:

في ظلّ التراجع الّذي يعرفه دور مدينة القلعة نتيجة الأعمال التخريبية المتكرّرة الّتي ألحقتها بها قبائل بني هلال ،وكذلك إثر انتقال أمراء بني حماد إلى بجاية ،واتّخاذها العاصمة الأولى لدولتهم ،مثّلت سنة 547 هـ/1152م حدثا هاما في تاريخ دولة بني حماد ،وكذا مدينة القلعة ،هذه الأخيرة الّتي تعرّضت لعملية تخريبية على يد الجيش الموحدي وكان لذلك أثر بالغ على عمران المدينة ،وعلى دورها الّذي كانت تلعبه باعتبارها العاصمة الثانية لدولة بني حماد. وهو ما نوضّحه فيما يلي:

- إنّ أهمّ نتيجة يمكن تسجيلها إثر دخول الموحدين بجاية، و من بعدها تخريب القلعة ،هو القضاء على الدولة الحمادية ،وسقوطها سنة 547 هـ/1152م بعدما عمّرت ما يقارب القرن والنصف من الزمن. وكان آخر أمرائها يحي بن العزيز [2]. وبسقوط هذه الدولة لم تمض أكثر من ثماني سنوات حتّ دخل عبد المؤمن بن علي المغرب الأدنى سنة 555هـ/1160م[3] واستعاد المهدية[4] من النورمان ،وبذلك انتهى عهد الحكم الصنهاجي (الزيري)

(1)- علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الإسلامي، ص 90.

(2)- ابن خلدون: العبر، ج6، ص 236.

(3)- حيث قاد عبد المؤمن حملة إلى المغرب الأدنى سنة 554هـ/1159م و وصل تونس و دخلها، ثمّ اتّجه إلى المهدية وحاصرها، حتّ دخلها في يوم عاشوراء من محرم سنة 555هـ/21 جانفي 1160م، و ذلك بعدما عقد صلحا مع النصارى الذين طلبوا الخروج بأمان إلى بلادهم، فقبل ذلك منهم و فتحت المدينة، أنظر: ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص 62، وللمزيد أنظر: حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، ص 174، و للمزيد أكثر أنظر: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص 209- 210.

(4)- لم يسترجع عبد المؤمن هذه المدينة إلاّ بعد حصار شديد و لم يستطع اقتحامها و إنّما طلب أهلها الأمان و الخروج من المدينة و تركها، و هنا نشير إلى نقطة مهمة بخصوص حصانة هذه المدينة، الّتي رغم تعرّضها للحصار لعدة مرّات إلاّ أنّ القوة المحاصرة لها لم تتمكّن من اقتحامها، فقد حاصرها أبويزيد مخلد بن كيداد لمدّة من الزمن و تعسّر عليه دخولها و اقتحامها، كما عجزت العرب الهلالية عن دخولها، بعدما تتبّعت المعز بن باديس الّذي فرّ إليها حينما دخلت العرب الهلالية القيروان و عاثت فسادا فيها، ثمّ نجد عبد المؤمن بن علي الموحدي هو الآخر يعجز عن دخولها و اقتحامها، نظرا لموقعها الحصين، حتّ استسلم أهلها، و قد تعجّب عبد المؤمن من موقعها هذا و هاله أمر حصانتها، و هو ما عبّر عنه بقوله للحسن بن علي بن يحي بن تميم، لّما رأى المهدية و أعجبته: «ما الّذي أخرج هذا المعقل من يدك»، أنظر: الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 55.

لبلاد المغرب الأوسط والأدنى ،واستطاع عبد المؤمن أن يوحّد بلاد المغرب تحت راية دولة الموحدين.

- مع بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري (12م) أصبحت القلعة الحمادية تابعة لوالي بجاية الموحدي ،وفقدت الدور الّذي كانت تلعبه كعاصمة ثانية في أيام دولة بني حماد ،فبعدما كانت مدينة يتردّد عليها أمراء بني حماد من حين لآخر ،فقدت المدينة وظيفتها السياسية ،بعد التخريب الّذي لحقها ،وسقوط الدولة الحمادية ،وانتقال السلطة السياسية على تلك المنطقة إلى دولة الموحدين ،الّتي اتّخذت من مدينة مراكش عاصمة لها ،واكتفى، عبد المؤمن بن علي بتعيين ابنه عبد الله على منطقة المغرب الأوسط[1] ،وهذا الأخير بدوره اكتفى بترك حامية للدفاع عن مدينة القلعة وحراستها[2].
- رغم السياسة التدميرية الّتي انتهجها الموحدون تجاه مدينة القلعة، و الّتي أدّت إلى تخريبها وتحطيمها شبه الكلي ،إلاّ أنّ عبد المؤمن لم يعمد بعد سيطرته على منطقة المغرب الأوسط إلى إعادة بناء المدينة والاهتمام بعمرانها ،وبذلك فقدت هذه المدينة نسيجها العمراني ،وتلاشى عمرانها خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجري (12م) [3].
- هجرة أهالي القلعة و على رأسهم رجال العلم و أهل التجارة الّذين قصدوا على وجه الخصوص مدينة بجاية ،وهو ما يتجلّى من خلال العدد المعتبر من العلماء الّذين ولدوا بالقلعة ،ودرسوا بها ،ثمّ انتقلوا إلى بجاية ،واستقرّوا بها[4].

ومنه يمكن اعتبار تخريب الموحدين للقلعة سببا مباشرا في وضع حدّ لعهد المدينة الحضاري ويكفينا دليلا على ما أصاب القلعة من إهمال وتراجع دورها بعد الخراب الّذي عرفته ،أن نسوق هذه الأبيات الّتي أوردها التجاني في رحلته ،وهي لشاعر الأسرة الحمادية ،أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي (ت 628هـ/1230م) ،الّتي يرثي فيها حال القلعة قائلا:

إنّ العروسين[5] لا رسم و لا طلل   فأنظر ترى إلاّ السهل والجبل[6]

([1])- عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين و الموحدين، ص 109.

([2])- علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الإسلامي، ص 90.

([3])- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 322.

([4])- علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الإسلامي، ص 93- 94.

([5])- العروسين قصر بناه الناصر الحمادي في مدينة القلعة، أنظر: التجاني: المصدر السابق، ص 115.

([6])- الأبيات من البحر البسيط.

وقصر بلارة[1] أودى الزمـــان به فأين ما شاء منها السادة الأوّل[2]

وهكذا كانت نهاية الحاضرة الحمادية الأولى، ثمّ عاصمتهم الثانية بعد بجاية ،والّتي آلت إلى التراجع والإندثار الحضاري ،حتّى نعى خرابها الشعراء ،وهجرها العلماء ،وورثت حضارتها مدينة بجاية الساحلية.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ مدينة القلعة على الرغم من فقدانها لنسيجها العمراني بشكل كبير إلاّ أنّ المدينة حافظت على سيرورة الحياة البشرية بالمدينة لفترة زمنية بعد ذلك التخريب قاربت أربعة قرون ،كما أنّها واصلت تأدية دورها الثقافي ،من خلال استمرار مختلف الأنشطة الثقافية في المدينة الّتي تؤدّي دورها كالمؤسسات الدينية والعلمية[3].

وعلى هذا يمكن القول أنّ هذه الحاضرة الحمادية على الرغم من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي والفكري الّذي عرفته أيام قوة دولة بني حماد إلاّ أنّ ذلك تراجع بشكل كبير ،نتيجة الهزّات الّتي عصفت بعمران المدينة ،عندما تعرّضت للتخريب من طرف القبائل الهلالية ،ثمّ بعد ذلك على يد الجيوش الموحدية ،فكان ذلك بداية النهاية لما عرفته مدينة القلعة من تطوّر و نماء و ،ازدهار و عطاء.

(1)- هي ابنة تميم بن المعز تزوجها الناصر بن علناس و بنى لها قصرا عرف باسمها، أنظر: ابن عذاري: البيان، ج1، ص 300.

(2)- التجاني: المصدر السابق، ص 116.

(3)- علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الإسلامي، ص 90.

الخاتمة

الخاتمة:

من خلال بحثنا هذا حاولنا الإحاطة بجميع جوانب الأحداث التاريخية الّتي عرفتها مدن المغرب الأوسط والأدنى ،والّتي أدّت إلى تخريب هذه المدن ،أو تخريب جوانب من عمرانها ،وذلك من حيث الوقوف على أسباب ذلك الخراب، و ما آلت إليه المدن بعد ذلك التخريب ،مع تحديد الكيانات السياسية القائمة آنذاك ،والّتي كانت وراء ذلك التخريب ،أو تعرّضت المدن للتخريب في ظلّ سيطرتها على إقليمها، سواء من طرف القوى المعارضة لحكم إحدى الكيانات السياسية ،أو في ظلّ الصراع القائم بينها من أجل السيطرة والتوسّع. إضافة إلى الخراب الناتج عن تلك الموجات الوافدة إلى أرض المغرب من عرب بني هلال ،وإسهامها بشكل أو بآخر في تخريب عمران المدن ببلاد المغرب.

و عليه وبعد إطّلاعنا على ما تيسّر من المصادر التاريخية الّتي أشارت إلى عمليات التخريب الّتي مسّت عمران المدن خلال فترة الدراسة خلصنا إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

1. إنّ السياسة الّتي انتهجتها الدولة الفاطمية بعد قيامها على أرض المغرب والرامية إلى إحكام سيطرتها على ذلك الإقليم ،وقمع الثائرين ضدّ سلطانها ،لم تخل من عمليات تخريب لمدن المغرب خاصة في جزئه الأوسط ،فقد لجأت هذه الدولة في أغلب حملاتها على مدينة تيهرت لإخضاع هذه الأخيرة لسيطرتها، و تأديب المتمرّدين ،وكبح جماح الطامعين في السيطرة عليها من طرف العناصر الزناتية ،إلى سلوك سياسة تخريبية لعمارة هذه المدينة ،كأسلوب قمعي وردعي ،وهو ما ينمّ حقيقة عن فشل هذه الدولة في إخضاع منطقة المغرب –خصوصا الأوسط- لسلطانها دون اللجوء إلى القوة و التخريب.
2. كانت مدينة تيهرت حاضرة بني رستم، أوّل المدن الّتي استهلّ الفاطميون عهدهم بتخريبها ،وذلك بهدف إخضاعها لسيطرتهم ،ومنذ ذاك الحين لم تهدأ أوضاع هذه المدينة وإنّما سادت الاضطرابات وكثرت الفتن ،والتمرّدات ،عندئذ لم يتوان الفاطميون عن تخريب عمرانها إثر أغلب الحملات الّتي شنّوها على المدينة لتأديب أولئك الثائرين، بيد أنّ ما يلفت الانتباه أنّ دولة الفاطميين لم تول أية عناية تذكر بعمران تيهرت ،سواء بتشييد المباني أو بإصلاح ما خرّبته ،أو الاهتمام بتحصين المدينة حتّى يصعب اقتحامها من طرف المغيرين. وبالنظر إلى سياسة هذه الدولة نعتقد أنّها ما كانت تسعى للاستقرار بأرض المغرب بشكل نهائي بقدر ما كانت تتّخذ أرضه محطة لتجميع الأموال ،وإعداد الجيوش ،لما هو قادم في مقبل الأيام ،وذلك

من أجل إقامة خلافة شيعية بأرض المشرق، لاسترداد -في اعتقادها- ملكها المسلوب من طرف خلفاء بني أمية ،وكذا بنو العباس ،ولهذا وجدنا هذه الدولة في الوقت الّذي أهملت أمر العناية بالعمارة في المدن الّتي دخلتها أو بالأحرى الّتي خرّبتها ،تركّز جلّ اهتمامها للسيطرة على المراكز والطرق الحساسة للتجارة ،وتجارة العبور إلى أرض السودان. لأنّه بسيطرتها على تلك المسالك تتحكّم في تجارة الذهب، الّتي تذرّ على خزائنها أرباحا طائلة ،تدّخرها لتحقيق الأهداف الّتي تصبوا إليها ،وهو ما حدث فعلا بعد منتصف القرن 04 هـ/10م، حينما نقلت هذه الدولة ملكها إلى أرض مصر محمّلة بالأموال الّتي جمعتها ببلاد المغرب. وعليه أثبت الواقع أنّ الفاطميين استغلّوا مدن المغرب لأجل الاستنزاف المالي ورصد الثروات وفرض أنواع من الضرائب و الجبايات على أهالي المنطقة، وخرّبوا المدن الّتي تمرّد أهلها ضدّهم، أمّا ما شيّدوه من مدن فكان لأجل تلك الأهداف ،وكان حال أغلب هذه المدن ينتهي بانتهاء الغرض الّذي شيّدت من أجله.

3. أثناء فترة الحكم الفاطمي لبلاد المغرب كانت أغلب المدن الّتي خرّبها الفاطميون هي مدن المغرب الأوسط، على غرار مدينة تيهرت ،هذه الأخيرة الّتي تعرّضت لعمليات تخريبية متكرّرة إثر حملاتهم على المدينة. في حين كان الخراب الّذي مسّ مدن المغرب الأدنى سببه ثورة أبي يزيد النكاري ضدّ هذه الدولة ؛حيث خلّفت هذه الثورة آثارا سيئة على عمران المنطقة ،نتيجة السلوك التخريبي الّذي انتهجه جيش هذا الثائر سواء بأمره أو من غير علمه ،تجاه المدن الّتي مرّ بها في طريقه نحو القيروان والمهدية. وقد أحسن هذا الثائر بفضل حنكته السياسية تجنيد قبائل زناتة في جيشه ،كما استمال أهل السنّة المالكية إلى صفّه. واستطاع أيضا تجنيد الإباضية الوهابية في صفوف جيشه مستغلا عداءهم للفاطميين ،الّذين قضوا على حضارة بني رستم في تيهرت وطاردوا فلول الإباضية الفارّين إلى صحراء وارجلان ،بل وتمكّن هذا الثائر من كسب دعم قويّ من أمويّي الأندلس الطامعين أيضا في السيطرة على مسالك ،وطرق الذهب ،الّتي تسعى الدولة الفاطمية للاستئثار بها دون منازع. وعليه يمكن اعتبار ثورة أبي يزيد من أعظم الكوارث الّتي أصابت حضارة المغرب الوسيط، حيث أضرّت بموارد الدولة الّتي عانت من الإفلاس، جرّاء التخريب الّذي ألحقته بمدن المغرب. و هو ما جعل الكثير من الباحثين يعتبر هذه الثورة بما جلبته من خراب لعمران المدن السبب الرئيس في الأزمات الاقتصادية والسياسية الّتي عرفتها المنطقة آنذاك ،حتّ قيل عن هذا الثائر فيما يرويه أبو زكرياء في سيره

أنّه عثر على حجر مكتوب عليه «ثلاثة مفسدون في البلاد شدّاد بن عاد ،وفرعون ذي الأوتاد، و مخلد بن كيداد».

4. إنّ الخراب الّذي تعرّضت له مدن المغرب الأوسط و الأدنى كانت أسبابه في الغالب كثرة الصراعات و الانتفاضات و التمرّدات، الّتي أثارها عمال المدن في بعض الأحيان ،أو في ظلّ الصراع القبلي في أحيان أخرى، كما هو حال القبائل الزناتية في تيهرت ضدّ الفاطميين ،وفي عهد خلفائهم من بني زيري، و كذا في وارجلان ضدّ السلطة الحمادية ،وعليه كانت تلك الصراعات سببا مباشرا في خراب المدن وتراجع دورها.

5. كانت المدن الكبرى في الكثير من الأحيان أكثر عرضة للتخريب، عكس المدن الصغرى الّتي كان أغلبها في منأى عن ذلك ؛لأنّ الأولى (المدن الكبرى) كانت بعضها عواصما سياسية ،أو مذهبية، أو اقتصادية، أو قلاعا حصينة تحتمي فيها السلطة الحاكمة ،وهو ما جعل القوى المخرّبة تستهدف تلك المدن على اختلاف أسباب ذلك التخريب ،سواء في ظلّ الصراع أو الغزو ومحاولة الإخضاع. إلاّ أنّ ما تجدر الإشارة إليه أنّ التخريب الّذي يعقب عمليات الحصار أو المقاومة الشديدة في وجه جيوش تلك القوى ربّما له ما يبرّره كالانتقام على ما بدا من مقاومة ،في حين أنّ التخريب الّذي يلحق المدن الّتي تستسلم ،وتذعن بالطاعة والولاء ،ولا تبدي أي مقاومة ،فلا نجد ما يبرّره، سوى كونه كارثة تحلّ بالعمران ،فتهدم جوانبه ،وتسهم في أفول نجم تلك المدينة ،بعدما ازدهر عمرانها ،أيام البناء والتشييد ،في ظلّ قوة الكيان السياسي الّذي يسيطر على مجالها.

6. كان لعامل الحصانة و المناعة الطبيعية لبعض مدن المغرب الأوسط و الأدنى دور كبير في تجنيب هذه المدن عمليات تخريب عمرانها من طرف القوى الزاحفة عليها ،على غرار مدينة المهدية الّتي كانت حصنا حصينا صعب على أبي يزيد اقتحامه و تخريبه ،كما كانت المدينة في مأمن من أعمال التخريب الّتي ألحقتها قبائل بني هلال بمدن المنطقة ،وفي مقابل ذلك كانت أرباض هذه المدن عرضة لذلك التخريب أثناء عمليات الحصار الّتي تضرب على تلك المدن و تفشل في اقتحامها.

7. لم تكتف دولة بني زيري بوراثة عرش دولة الفاطميين بعد رحيلهم عن أرض المغرب ،بل ورثت أيضا سياستهم التخريبية للمدن ،ففي الوقت الّذي تعرّض عمران مدينة تيهرت لأعمال تخريب من طرف الجيوش الفاطمية ،ما لبثت المدينة أن تعرّض عمرانها للتخريب مرة أخرى

،لكن على يد جيوش الدولة الزيرية ،وريثة عرش الفاطميين بعد رحيلهم إلى مصر ،وذلك إثر حملة بلكين بن زيري عليها.

8. انتهج الخلفاء الفاطميون سياسة مميّزة تجاه القبائل المغربية (كتامة و صنهاجة) ،حيث حرصوا على عدم تصادم مصالح هذه القبائل؛ إذا أوكلوا لكلّ منها مهام منفصلة عن الأخرى ،وقد ساعد ذلك مع مرور الزمن على نمو مكانة صنهاجة، الّتي ذاع صيتها ،واقترن بانتصاراتها العسكرية، و هو ما جعل الفاطميين يوسّعون سلطانها، و يباركون مسعاها ،في حين تضاءل دور كتامة. وبرحيل الفاطميين عن المغرب واستخلافهم لبني زيري على أرضه ،فما إن شعروا بأنّ هذا الوريث أبدى نواياه في التنكّر لولائهم ،حتّى سارعوا للاستنجاد بالحليف التقليدي (كتامة) لقضّ مضجع ملك الزيريين ،وتشجيع الثورة عليهم ،وذلك بإحياء وشائج الروابط الشيعية الّتي بذروها في موطن كتامة ،فأرسلوا داعية لإيقاظها و استغلالها في إعلان الثورة ضدّ الزيريين بذلك الإقليم ،وهو ما جعل المنصور الزيري لا يدّخر جهدا في تخريب عمران إقليم كتامة لإخماد نار الثورة والانتقام من الفاطميين.

9. ساهمت أعمال التخريب الّتي مسّت عمران مدن المغرب الأوسط الأدنى في توجيه حركية السكّان ضمن مجال ذلك الإقليم ،وذلك بفضل هجرة الأهالي الّذين يرومون الأمن ،ويفرّون من مواطن الفوضى و الاضطراب، حيث شهدنا هجرة تعدّدت وجهتها بين منطقة وأخرى واختلفت من زمن لآخر ،ففي الوقت الّذي فرّ أهالي بعض المدن إلى مدن أخرى ،مثل ما حدث إثر تخريب القيروان ،وعندئذ انتقل ساكنوها إلى مدن أخرى على رأسها مدينة القلعة ،وفي أحيان أخرى لجأ سكّان البوادي إلى التحصّن داخل أسوار المدن ،كشأن ضواحي القيروان حينما عاثت فيها قبائل بني هلال فسادا. كما هاجر سكّان بعض المدن إلى البوادي فرارا من بطش الجيوش الغازية ودخولها تلك المدن وتخريب عمرانها كحال مدينة تيهرت بعدما دخلتها جيوش الفاطميين. وكذا مدينة القلعة إثر دخولها من طرف جيش الموحدين وتخريب عمرانهما ،وقد تخلّل تلك الهجرة حركة العلماء من مدينة لأخرى بحثا عن فضاء آمن ،فكان لحركتهم هذه دور كبير في إنعاش الحياة الثقافية للمدن الّتي حطّوا رحالهم بها ،واتّخذوها مستقرّا ،وفي المقابل تراجع دورها الثقافي حينما أصابها الخراب ،وهجرها العلماء.

10. استفادت بعض المدن ممّا حلّ بغيرها من خراب و ما نتج عنه من هجرة لساكنيها، إذ تبوّأت قلعة بني حماد مكانة هامة ،بعد خراب القيروان ،حتّى أصبحت تضاهي العواصم الثقافية

بالمغرب و المشرق آنذاك، كما عدّت مركزا علميا و قطبا حضاريا هاما، خاصة بعدما قصدها العلماء الّذين تركوا مدينة القيروان ،وحطّوا الرحال بمدينة القلعة ،فتعدّدت بذلك المراكز والمؤسسات العلمية ،الّتي أفرزت إنتاجا علميا غزيرا في شتّ الميادين. كما أنّ مدينة بجاية هي الأخرى عرفت انتعاشا حضاريا كبيرا بعد تدهور أوضاع القلعة ،وهجرة أغلب علمائها إلى مدينة بجاية العاصمة الثانية ،إثر عيث القبائل العربية فسادا في ضواحي القلعة.

11. كان لعامل الخراب الّذي عرفته مدن المغرب إسهام كبير في إعادة رسم و تشكيل الخارطة الجغرافية و السكّانية لمدن المنطقة؛ ففي الوقت الّذي نتج عن سقوط دولة بني الأغلب الاهتمام بحواضر رقادة و القيروان من طرف الفاطميين ،نتج عن سقوط تيهرت حاضرة بني رستم في أيديهم و إقدامهم على تخريب عمرانها ،قيام مدن جديدة في الصحراء كمدينة سدراتة ،وإن كان تخريب بني هلال لمدينة القيروان قد أجبر ملوك بني زيري للانتقال إلى مدينتهم المهدية لحصانتها ،فإنّ حصارهم لمدينة القلعة وتخريب جنباتها ،والتضييق عليها أرغم أمراء بني حماد على تخطيط مدينة جديدة على ساحل البحر ،واتّخاذها مقرا لإيواء ملكهم والابتعاد عن مجال نشاطها.

12. كان الصراع بين البدو و الحضر من بين العوامل الّتي غذّت تلك الصراعات السياسية الّتي عرفتها المنطقة في تلك الفترة ،والّتي اتّسمت بكثرة الحروب والثورات ،بسبب رفض الخضوع ،أو الامتناع عن أداء بعض الواجبات الّتي تفرضها الكيانات السياسية الحاكمة ،كدفع الضرائب والجبايات ،وقد مثّله الصراع بين صنهاجة ،وكذا كتامة ضدّ القبائل الزناتية خاصة في العهد الفاطمي ،ثمّ بين صنهاجة وزناتة بعدما دانت أرض المغرب لحكم بني زيري بعد رحيل الفاطميين إلى أرض مصر.

13. تتحمّل صنهاجة نسبة من المسؤولية بخصوص الخراب الّذي أصاب مدن المنطقة ،نتيجة سوء تعاملهم مع العرب ،ومحاولة استغلالهم في خضمّ الصراع بين أبناء العمومة من نفس القبيلة كل منهما ضدّ الآخر.

14. كان لقبيلة زناتة دور كبير في الخراب الّذي لحق بعض مدن المغرب خاصة الأوسط منه ،بسبب ما كانت تثيره من اضطرابات ،وتمرّدات ضدّ أيّ كيان سياسي قائم آنذاك ،إضافة إلى أنّها ربّما كانت ترى في التمدّن ،وسياسته ما ينافي طبيعتها البدوية ويتعارض وسعيها إلى توسيع مجالها الجغرافي.

15. شاركت السلطة الحاكمة في توفير أسباب خراب بعض مدنها، حينما نقلت مقرّات سلطتها إلى مدن أخرى، سواء كانت مدنا مشيّدة أو تمّ استحداثها في أماكن أكثر حصانة ،وفي مقابل ذلك تركت تلك المدن في متناول أيادي التخريب الّتي عاثت فسادا في عمرانها ،وخير مثال على ذلك ما حلّ بمدينة القيروان -بعد انتقال المعز بن باديس منها- من خراب ودمار على يد العرب الهلالية، فأخذ نجم المدينة في الأفول ،بعدما كانت حاضرة عمّرت ردحا من الزمن.

16. اختلفت حدّة الخراب الّذي مسّ مدن المغرب الأوسط و الأدنى بالنظر إلى القوى، المتسببة فيه ،فكان أكثره حدّة ما نسب للفاطميين و القبائل الهلالية، هذه العناصر الّتي قدمت من بلاد المشرق إلى أرض المغرب، فكانت الأولى تروم إقامة خلافة فاطمية على أساس مبادئ المذهب الشيعي الإسماعيلي ،والّتي ساهمت في خراب مدن المغرب بحجّة نشر مذهبها وتوسيع سلطانها لتحقيق أهدافها، أمّا العنصر الثاني فكان زحفا قويّا هزّ بلاد المغرب ،وذلك بإيعاز من الفاطميين أنفسهم، انتقاما من خلفائهم على انسلاخهم من ولائهم لبلاط القاهرة ،فجنى العمران عواقب ذلك الانتقام بما حلّ بمدنه من خراب.

أمّا ما حلّ بالمدن من خراب نسب للقوى السياسية المحلية الحاكمة لبلاد المغرب سواء من بني زيري أومن بني حماد، فلم تكن أضراره لترقى إلى مستوى التخريب السالف الذّكر ،وهو ما يدفع للاعتقاد أنّ العناصر المشرقية قد أضرّت بعمران المدن المغربية، أكثر ممّا أضرّ به حكّام المغرب من بني جلدته أثناء صراعهم فيما بينهم. وهو ما يؤكّد ما قلناه عن الفاطميين الّذين لم يفكّروا في الاستقرار بأرض المغرب ،بقدر ما اعتبروها منطلقا لتحقيق فكرة الخلافة الفاطمية العظمى تكون عاصمتها بأرض المشرق.

17. إنّ الخراب الّذي أصاب المدن لم يبلغ إلى حدّ تدمير تلك المدن بأكملها، و إنّما مسّ جوانبا من عمارتها، كالأسوار و الأبراج ،والدور والمنازل، والقصور والمساجد.

18. على الرغم من أنّ عامل الخراب كان أحد الأسباب الرئيسة في سقوط و أفول نجم أغلب المدن الّتي تعرّضت له، إلاّ أنّه لا يمكن اعتباره السبب الوحيد في ذلك، فمرحلة عدم الاستقرار الّتي عرفتها المنطقة نتيجة كثرة الصراعات والحروب والّتي ساهمت في انتشار الفوضى والاضطرابات. ومنه كانت سببا -يضاف إلى عامل الخراب- ،وأسهمت في ذلك التوجّه الجديد نحو الاهتمام بمنطقة الساحل ،وترك المدن الداخلية ،وذلك ما أسهم بشكل

كبير في تغيّر المسالك والطرق التجارية نحو المناطق الساحلية، الّتي تمتاز بحصانتها ومناعتها الطبيعية ،بينما تدهورت أوضاع المدن الداخلية ،وحتّ الصحراوية الّتي بقيت مجالا خصبا لتلك الصراعات في ظلّ بعدها عن مراكز السلطة الحاكمة.

غير أنّ هذه المراكز الساحلية ما كانت هي الأخرى لتسلم من بعض مظاهر التخريب لبعض المدن، حينما تكالب النصارى النورمان على مدن ساحل المغرب الأوسط والأدنى ،واستفحل نشاط النورمان بالمنطقة ،في الوقت الّذي دبّ الضعف في دولتي بني حماد وبني زيري ،وأخذت المدن الساحلية تتوالى بالسقوط في أيدي النورمان ،حتّ تمكّن عبد المؤمن بن علي الموحدي من بسط نفوذه على ذلك الإقليم ،وصدّ هجومات النورمان عليه.

و في الأخير لا يسعنا إلاّ أن نقول أنّنا بذلنا كل ما في وسعنا لإماطة اللثام عن أحد الظواهر الّتي مسّت عمران المدن ،متمثّلة فيما حلّ بها من خراب ،وما كان له من آثر على مستقبل هذه المدن ،ومصيرها بعد ذلك الخراب، غير أنّ هذا المجال من البحث لا يزال الغموض يكتنف بعض جوانبه ،والّتي تبقى رهينة المادة الخبرية من منبع معاصر لتلك الأحداث ،والّتي يعوزنا الوقوف عليها في ظلّ شحّ ما بين أيدينا من نصوص. ولكن تبقى ملاذ بحثنا وتقصّينا ،حتّ نثري هذا الموضوع ،ونزيل الغموض عن الجوانب التي ما تزال تحت منطقة الظل ،وهذا البحث ما هو إلاّ خطوة أولى للكشف عن ذلك ،نرجو أن تتكثّف جهود الباحثين لإثراء هذا المجال من الدراسة بملاحظاتهم وأبحاثهم.

قائمة المصادر و المراجع

أولا: المصادر

1- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

2- **ابن أبي دينار**، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تح، محمد شمام، (د.ط)، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت).

3- **ابن أبي زرع**، علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، (د.ط)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

4- **ابن الأبار**، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (595-658هـ/1999-1260م): كتاب الحلة السيراء، ج1، حققه ، حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985.

5- **ابن الأثير**، أبو الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630هـ/ 1232م): الكامل في التاريخ، راجعه و صححه، محمد يوسف الدقاق، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2003م.

6- **ابن الأثير**، عز الدين الجزري (ت 654هـ/1256م): اللباب في تهذيب الأنساب، ج3، (د.ط)، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).

7- **ابن الأزرق**: بدائع السلك في طبائع الملك، ج2، تح، محمد بن عبد الكريم، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ت).

8- **ابن الجوزي**، جمال الدين أبو الفرج: صفة الصفوة، ج2، تح، محمود فاخوري، أخرج أحاديثه، محمد رواس، ط2، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، 1390هـ-1970م.

9- **ابن الخطيب**، لسان الدين (ت 776هـ/1374م): كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تح، إ. ليـڤـي بروڤنسال، ط2، دار المكشوف، بيروت، لبنان، 1956.

10- **ابن الخطيب**، لسان الدين: الإحاطة بأخبار غرناطة، مج1، تح، محمد عبد الله غنان، ط2، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1393هـ-1973م.

11- **ابن الخطيب**، لسان الدين: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، صححه، البشير الفورتي، ط1، مطبعة التقدم الإسلامية لصاحبها البشير الفورتي، تونس، (د.ت).

12- **ابن الرامي**، أبو الله محمد بن إبراهيم اللخمي: الإعلان بأحكام البنيان، تح، فريد بن سليمان، تقديم، عبد العزيز الدولاتي، (د.ط)، مركز النشر الجامعي، (د.ب.ن)، 1999.

13- **ابن الصغير**، (عاش خلال القرن 03 هـ/09م): أخبار الأئمة الرستميين، تح، محمد ناصر و إبراهيم بحاز، (د.ط)، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986.

14- **ابن العربي**، أبو بكر المالكي (ت 543هـ/1148م): العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي –صلى الله عليه و سلم-، أخرج أحاديثه، محمود مهدي الاستانبولي، تح، محب الدين الخطيب، ط6، منشورات مكتبة السنة لنشر العلم، القاهرة، 1412هـ-1992م.

15- **ابن العماد**، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي (1089هـ/1678-1679م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح، عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأناؤوط، (د.ط)، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، (د.ت).

16- **ابن الفقيه**، أبو بكر بن محمد الهمداني (كان حيًّا في نهاية القرن 03 هـ/10م): مختصر كتاب البلدان، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1967.

17- **ابن بسام**، أبو الحسن علي الشنتريني (ت 542هـ/1147م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ط1، دار الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1399هـ-1979م.

18- **ابن بطوطة**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، ج2، ط1، المطبعة الخيرية، 1322هـ-1903م.

19- **ابن تيمية**، تقي الدين أحمد الحراني (ت 728هـ/1329م): مجموعة الفتاوى، ج35، أخرج أحاديثه، عامر الجزار و أنور الباز، (د.ط)، دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع، المنصورة، 1426هـ-2005م.

20- **ابن ثغري بردي**، جمال الدين أبو المحاس (ت 874هـ-1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1351هـ-1932م.

21- **ابن حجر**، العسقلاني أحمد بن علي بن محمد (ت 852هـ/1448م): نزهة الألباب في الألقاب، ج2، تح، عبد العزيز بن محمد السديدي، ط1، مكتبة الرشد للنشر و التوزيع، الرياض، السعودية، 1409هـ-1989م.

22- **ابن حزم**، أبو محمد علي بن أحمد (ت 456هـ/1064م): جمهرة أنساب العرب، راجعه، عبد المنعم خليل إبراهيم، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004.

23- **ابن حزم**، علي بن أحمد: الفصل في الملل و الأهواء و النحل، ج2، تح، محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة، ط2، دار الجيل، بيروت، 1416هـ-1996م.

24- **ابن حماد**، أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي (ت 628هـ/1231-1232م): أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، تح، عبد الحليم عويس و التهامي نقرة، (د.ط)، دار الصحوة للنشر و التوزيع، القاهرة، (د.ت).

25- **ابن حوقل**، أبو القاسم النصيبي (ت 380هـ/990م): صورة الأرض، ط2، دار صادر، بيروت، 1938.

26- **ابن حوقل**، أبو القاسم: المسالك و الممالك، (د.ط)، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1872.

27- **ابن حيان**: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تح، عبد الرحمن علي الحجي، (د.ط)، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1965.

28- **ابن خرداذبة**، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الملك (ت حوالي 272هـ/885م): المسالك والممالك، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1967.

29- **ابن خلدون**، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)، المقدمة، (د.ط)، دار ابن الهيثم، القاهرة، 1426هـ-2005م.

30- **ابن خلدون**، عبد الرحمن: العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، (د.ط)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ-2000م.

31- **ابن خلدون**، عبد الرحمن: المقدمة، ج2، حققها و قدم لها، عبد السلام الشدادي، ط1، بيت الفنون و الآداب و العلوم، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

32- **ابن خلكان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، تح، إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1970.

33- **ابن خياط**، الليثي العصفري (ت 240 هـ/854م): تاريخ خليفة بن خياط، تح، أكرم ضياء العمري، ط2، دار طيبة للنشر و التوزيع، الرياض، السعودية، 1405هـ-1985م.

34- **ابن خياط**، أبو عمرو خليفة: كتاب الطبقات، تح، أكرم ضياء العمري، (د.ط)، مطبعة العاني، بغداد، 1387هـ-1967م.

35- **ابن رسته،** أبو علي أحمد بن عمر: كتاب الأعلاق النفيسة، مج7، (د.ط)، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1891.

36- **ابن زبالة**، محمد بن الحسن (ت 199هـ/814م): أخبار المدينة، جمع و دراسة، صلاح عبد العزيز زين سلامة، ط1، مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة، السعودية، 1424هـ-2003م.

37- **ابن سعد**، أحمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت 230هـ/845م): الطبقات الكبرى، ج7، تح، محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـ-1990م.

38- **ابن سعيد** المغربي أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ/1286م): كتاب الجغرافيا، تحقيق و تعليق، إسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1970.

39- **ابن سفيان**، السبوي يعقوب: كتاب المعرفة و التاريخ، ج1، رواية، عبد الله النحوي، تح، أكرم ضياء العمري، ط1، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، السعودية، 1410هـ-1990م.

40- **ابن سلام**، الإباضي: الإسلام و تاريخه من وجهة نظر إباضية، تح، ر. ف. شقارتز و سالم بن يعقوب، ط1، دار إقرأ للنشر و التوزيع و الطباعة، بيروت، 1405هـ-1985م.

41- **ابن طباطبا**، محمد بن علي الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية، تح، ممدوح حسن محمد، (د.ط) مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1999.

42- **ابن عبد الحكم**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ/871م): فتوح مصر والمغرب، ج2، تح، شارلز توري، (د.ط)، الذخائر، القاهرة، (د.ت).

43- **ابن عبد ربه**، شهاب الدين أحمد (ت 328هـ/940م): العقد الفريد، ج2، تقديم، خليل شرف الدين، ط2، منشورات دار و مكتبة الهلال، بيروت، 1990.

44- **ابن عذاري**، أبو عبد الله المراكشي (ت نهاية القرن السابع الهجري، نهاية القرن الثالث عشر الميلادي): البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، ج1، تح، ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983.

45- **ابن عذاري**، أبو عبد الله المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب –قسم الموحدين- تح، محمد الكتاني، و آخرون، ط1، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب و دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ-1985م.

46- **ابن عساكر**، علي بن الحسن بن عبد الله (ت 571هـ/1175م): تاريخ مدينة دمشق، ج1، تح، محب الدين عمر العمروي، (د.ط)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م.

47- **ابن فرحون**، إبراهيم بن نور الدين (ت 799هـ/1396م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح، مأمون الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ-1996م.

48- **ابن قتيبة**، أبو محمد عبد اله بن مسلم (ت 276 هـ/895م): كتاب الإمامة و السياسة، (د.ط)، مطبعة النيل، مصر، 1322هـ-1904م.

49- **ابن قنفذ**، أبو العباس أحمد بن حسن القسنطيني: الوفيات (معجم زمني للصحابة و أعلام المحدثين و الفقهاء و المؤلفين من سنة 11 – 807هـ، تح، عادل نويهض، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ-1983م.

50- **ابن كثير**، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل (ت 774هـ/1372م): البداية و النهاية، تح، عبد الله التركي، ط1، دار هجر للطباعة و النشر و التوزيع و الإعلان، الجيزة، مصر، 1419هـ-1998م.

51- **ابن كثير**، عماد الدين: تفسير القرآن العظيم، تح، مصطفى السيد رشاد، و آخرون، ط1، مؤسسة قرطبة و مؤسسة الفاروق الحديثة للطباعة و النشر، القاهرة، 1421هـ-2000م.

52- **ابن ماجة**: السنن، مج3، شرح، أبي الحسن الحنفي السندي، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1416هـ-1996م.

53- **ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين (ت 711هـ/1312م): لسان العرب المحيط، مج5، قدم له،يوسف خياط، (د.ط)،دار الجيل و دار لسان العرب،بيروت، 1408هـ-1988م.

54- **ابن واضح**، الإخباري أحمد أبي يعقوب بن جعفر (ت 292هـ/905م): تاريخ اليعقوبي، ج3، (د.ط)، المكتبة المرتضوية، النجف، 1358هـ-1930م.

55- **أبو الربيع**، الوسياني: سير مشايخ المغرب، تح، إسماعيل العربي، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1985.

56- **أبو العرب**، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت 333هـ/944م): طبقات علماء إفريقية و تونس، تحقيق و تقديم، علي الشابي و نعيم حسن اليافي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

57- **أبو الفدا**، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت 732هـ/1331م): تقويم البلدان، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان (د.ت).

58- **أبو الفدا**، عماد الدين: المختصر في أخبار البشر، ج2، علّق عليه، محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ-1997م.

59- **أبو زكريا**، يحي بن أبي بكر(ت 471هـ/1078م):سير الأئمة و أخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تح، إسماعيل العربي، (د.ط)، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ-1979م.

60- **إخوان الصفا** و خلان الوفاء: الرسائل: إعداد و تحقيق، عارف تامر، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1415هـ-1995م.

61- **الإدريسي**، الشريف محمد بن عبد الله (ت 548هـ/1154م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1414هـ-1994م.

62- **الإدريسي**، الشريف: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه و نقله إلى الفرنسية، محمد حاج صادق، (د.ط)، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

63- **الأزدي**، أبو الحسن جمال الدين: أخبار الدول المنقطعة، ج1، تح، عصام هزايمة، و آخرون، (د.ط)، دار الكندي للنشر و التوزيع، الأردن، 1999.

64- **الأشعري**، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 342هـ/936م): مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1369هـ-1950م.

65- **الاصطخري**، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت القرن 04 هـ/10م): المسالك و الممالك، تح، محمد جابر الحيني، مراجعة، محمد شفيق غربال، (د.ط)، دار القلم، القاهرة، 1381هـ-1961م.

66- **الأصفهاني**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ/1038م): حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، ج3، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

67- **الأصفهاني**، الراغب أبو القاسم الحسين: المفردات في غريب القرآن، ج1، تح، مركز الدراسات والبحوث بمكتبة مصطفى الباز، (د.ط)، نشر مكتبة مصطفى الباز، (د.ب.ن)، (د.ت).

68- **الأنصاري**، أبو طالب شمس الدين الصوفي الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر و البحر، طبع في مدينة بطربورغ المحروسة في مطبعة الأكاديمية الأمبراطورية، 1381هـ-1965م.

69- **الإيلاني**، عبد الحليم أبو علي صالح: مفاخر البربر، تح، عبد القادر بوباية، ط2، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، الرباط، 2008.

70- **الباجي**، المسعودي أبو عبد الله محمد: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط2، مطبعة بيكا وشركائه، تونس، 1323هـ-1905م.

71- **البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (256هـ/870م): الجامع الصحيح، ج2، شرحه، محب الدين الخطيب، رقم كتبه، محمد عبد الباقي، راجعه، قصي الخطيب، ط2، المطبعة السلفية و مكتبتها، القاهرة، 1403هـ-1983م.

72- **البغدادي**، إسماعيل باشا: هدية العارفين في أسماء المؤلفين و آثار المصنفين، مج2، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1955.

73- **البغدادي**، عبد القاهر: الفرق بين الفرق و بيان الفرقة الناجية منهم...، تح، محمد عثمان الخشت، (د.ط)، مكتبة ابن سينا للنشر و التوزيع و التصدير، القاهرة، (د.ت).

74- **البكري**، أبو عبيد الله بن عبد الله الأندلسي (ت 487هـ/1097م): المسالك و الممالك، مج2، تح، جمال طلبة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2003م.

75- **البكري**، أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).

76- **البلاذري**، أبو العباس أحمد بن يحي (ت 270 هـ/892م): فتوح البلدان، حققه و شرحه، عبد الله أنيس الطباع و عمر أنيس الطباع، (د.ط)، مؤسسة المعارف للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 1407هـ-1987م.

77- **البيدق**، أبو بكر بن علي الصنهاجي: كتاب أخبار المهدي ابن تومرت، تحقيق و تقديم، عبد الحميد حاجيات، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

78- **البيهقي**، أحمد الحسين (ت 458هـ/1066م): السنن الكبرى، ج6، تح، محمد عطا، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2003م.

79- **التجاني**، أبو محمد عبد الله بن محمد: رحلة التجاني، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981.

80- **الترميذي**، محمد بن عيسى (ت 679هـ/1280م): الجامع الكبير، ج6، تح، بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996.

81- **الجوذري**، أبو علي منصور العزيزي: سيرة الأستاذ جوذر، تح، محمد كامل حسين و محمد شعيرة، (د.ط)، دار الفكر العربي، مصر، (د.ت).

82- **الجويني**، أبو المعالي عبد الملك بن عبد ربه (ت 478هـ/1085م): غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق و دراسة، مصطفى حلمي و فؤاد عبد المنعم أحمد، (د.ط)، دار الدعوة للطباعة و النشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، 1979.

83- **الحازمي**، أبو بكر محمد بن موسى بن حازم (ت 584هـ/1188م): عجالة المبتدأ أو فضالة المنتهى في النسب، تح، محمد زينهم و عائشة التهامي، (د.ط)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998.

84- **الحموي**، ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله الرومي (ت 626هـ/1229م): معجم البلدان، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1397هـ-1977م.

85- **الحميري**، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت أواخر القرن 09 هـ/15م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.

86- **الداعي إدريس**، عماد الدين (ت 872هـ/1488م): تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تح، محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985.

87- **الداعي إدريس**، عماد الدين القرشي: عيون الأخبار و فنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار، السبع السادس، تح، مصطفى غالب، ط2، دار الأندلس للطباعة و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984.

88- **الداعي إدريس**: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب (المهدي القائم- المنصور- ثورة أبي يزيد) من كتاب عيون الأخبار و فنون الآثار ج5، تح، فرحات الدشراوي، (د.ط)، مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1981.

89- **الدباغ**، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 696هـ/1296م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مج1، علق عليه، أبو القاسم بن عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1426هـ-2005م.

90- **الدرجيني**، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت حوالي القرن 07 هـ/13 م): كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تح، إبراهيم طلاي، (د.ط)، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، (د.ت).

91- **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1374م): سير أعلام النبلاء، ج16، تح، شعيب الأرناؤوط و أكرم البوشي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ-1984م.

92- **الذهبي**، شمس الدين: الإعلام بوفيات الأعلام، مج1، تح، مصطفى عوض و ربيع عبد الباقي، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1413هـ-1993م.

93- **الذهبي**، شمس الدين: الأمصار ذوات الآثار، تح، عبد القادر الأرناؤوط، تعليق، محمد الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، 1405هـ-1985م.

94- **الذهبي** شمس الدين: العبر في خبر من غبر، ج2، تح، محمد السعيد زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ-1985م.

95- **الذهبي**، شمس الدين: تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، ج5، تح، عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1413هـ-1992م.

96- **الرازي**، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ/1262م): مختار الصحاح، (د.ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ- 1981م.

97- **الرقيق القيرواني**، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (منتصف القرن 05 هـ/11م): تاريخ إفريقية و المغرب، تقديم و تحقيق، محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1414هـ-1994م.

98- **الزبيدي**، محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، ج5، تح، مصطفى حجازي، مراجعة، عبد الستار فراج، (د.ط)، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1389هـ-1969م.

99- **الزركشي**، عبد الله محمد بن إبراهيم اللولوي: تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، تح، محمد ماضور، (د.ط)، المكتبة العتيقة، تونس، 2002.

100-**الزهري**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت ق 06 هـ/12 م): كتاب الجغرافية، تح، محمد حاج صادق، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، (د.ت).

101- **الزياني**، محمد بن يوسف: دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم، المهدي البوعبدلي،(د.ط)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1398هـ-1978م.

102- **السبتي**، محمد بن القاسم الأنصاري: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من الآثار، تح، عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1403هـ-1983م.

103- **السخاوي**، محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين (ت 902 هـ/1497م): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ترجمة، صالح أحمد العلي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ-1986م.

104- **السراج**، محمد بن محمد الأندلسي (ت 1149هـ/1736م): الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج1، القسم الرابع، تقديم، محمد الحبيب الهيلة، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م.

105- **السمعاني**، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد (ت 562هـ/1166م): الأنساب، ج1، صححه، عبد الرحمن اليماني، ط1، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، 1382هـ-1962م.

106- **السويدي**، أبو الغور محمد أمين البغدادي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1409هـ-1989م.

107- **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ/1505م): لب اللباب في تحرير الأنساب، ج1، تح، محمد عبد العزيز و أشرف عبد العزيز، ط1، دار الكتب لعلمية، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م.

108-**السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن: حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، ج1، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي و شركاه، 1387هـ-1967م.

109- **السيوطي**، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، ط1، دار الجيل، بيروت، 1415هـ-1994م.

110- **الشماخي**، أحمد بن سعيد (ت 928هـ/21-1522م): كتاب السير، ج1، تح، أحمد بن سعود السيياني، (د.ط)، وزارة التراث القومي و الثقافة، سلطنة عمان، 1992.

111-**الشهرستاني**، أبو الفتح محمد عبد الكريم (ت 548هـ/1153م): الملل و النحل، تقديم، صدقي العطار، ط1، دار الفكر ، بيروت، لبنان، 1417هـ-1997م.

112- **الضبي**، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (ت 599هـ/1202م): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس...، طبع بمدينة مجريط دوخس، 1882.

113-**الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ/922م): تاريخ الرسل و الملوك، ج5، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971.

114- **العبدري**، محمد البلنسي: الرحلة المغربية، تح، أحمد بن جدو، (د.ط)، نشر كلية الآداب الجزائرية، الجزائر، (د.ت).

115-**العمري**، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ت 749هـ/1342م)، تح، دوروتياكرا ڤولسكي، ط1، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، 1407هـ-1986م.

116-**العياشي**، عبد الله بن محمد (ت 1092هـ/1663م): الرحلة العياشية 1661-1663م، تح، سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، مج1، ط1، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006.

117-**الغبريني**، أبو العباس أحمد بن أحمد (ت 714هـ/1304م): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح، عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979.

118-**الفرسطائي**، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 504هـ/1110م): القسمة و أصول الأراضين كتاب في فقه العمارة الإسلامية، تحقيق و تعليق، بكير بن محمد بلحاج، و محمد صالح ناصر، ط2، جمعية التراث القرارة، غرداية، الجزائر، 1418هـ-1997م.

119- **الفيروز أبادي**، مجد الدين محمد (ت 817هـ/1414م): القاموس المحيط، تقديم، محمد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1422هـ-2001م.

120-**القابسي**، أبو الحسن علي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلمين و المتعلمين، تحقيق و تعليق و ترجمة، أحمد خالد، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.

121-**القاضي النعمان**، أبو حنيفة محمد التميمي المغربي (ت 363هـ/73-974م): كتاب افتتاح الدعوة، (د.ط)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1426هـ-2005م.

122-**القاضي النعمان:** اختلاف أصول المذهب، تح، مصطفى غالب، ط3، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1983.

123-**القاضي النعمان:** كتاب المجالس و المسايرات، تح، الحبيب الفقي، و آخرون، ط1، دار المنتظر، بيروت، لبنان، 1996.

124-**القزويني**، زكرياء بن محمد بن محمود (ت 682 هـ/1283م): آثار البلاد و أخبار العباد، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

125-**القلقشندي**، أبو العباس أحمد بن علي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح، إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، و دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1402هـ-1982م.

126-**القلقشندي**، أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، (د.ط)، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ-1915م.

127-**القلقشندي**، احمد: نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، تح، إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1400هـ-1980م.

128- **المالكي**، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت في القرن 05 هـ/11 م): كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية و زهادهم و نساكهم و سير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم، ج1، تح، بشير البكوش، مراجعة، محمد العروسي المطوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م.

129- **الماوردي**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ/1058م): كتاب الأحكام السلطانية و الولايات الدينية، تح، أحمد مبارك البغدادي، ط1، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ-1989م.

130- **المراكشي**، أبو محمد عبد الواحد بن علي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه، صلاح الدين الهواري، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1426هـ-2006م.

131-**المراكشي**، عبد الواحد: وثائق المرابطين والموحدين، تح، حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1997.

132- **المرجي**، الثقفي: كتاب الحيطان أحكام الطرق و السطوح و الأبواب و مسيل المياه والحيطان، تح، محمد رمضان يوسف، (د.ط)، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1994.

133- **المسعودي**، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 347هـ/958م): كتاب التنبيه و الإشراف، (د.ط)، طبع بمدينة ليدن مطبعة بريل، 1967.

134- **المشرفي**، عبد القادر الجزائري: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق و تقديم، محمد بن عبد الكريم، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د. ت).

135- **المقدسي**، شمس الدين أبو عبيد الله (ت 387هـ/997م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، علّق عليه، محمد أمين الضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيرروت، لبنان، 1424هـ-2004م.

136- **المقريزي**، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت 548هـ/1441م): المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، ج1، تح، محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997م.

137- **المقريزي**، أحمد: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح، محمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ-2001م.

138- **المقريزي**، أحمد: المقفى الكبير (تراجم مغربية و مشرقية من الفترة العبيدية)، تح، محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1407هـ-1987م.

139- **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/1332م): نهاية الإرب في فنون الأدب، تح، عبد المجيد ترحيني، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

140- **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت 284هـ/97-898م): البلدان، تح، محمد أمين ضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

141- **اليماني**، محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي (ت 470هـ/1077م): كشف أسرار الباطنية و أخبار القرامطة و كيفية مذهبهم و بيان اعتقادهم، تح، محمد عثمان الخشت، (د.ط)، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1991.

142- **عياض**، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي (ت 544 هـ/1149م): ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج1، تح، أحمد بكير محمود، (د.ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1387هـ-1967م.

143- **ليون الإفريقي**، الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

144- **مجموعة رسائل موحدية** من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية: اعتنى بإصدارها، إ. لاڤــي بروڤــنصال، (د.ط)، المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، الرباط، 1941.

145- **مجهول** (كاتب مراكشي عاش في القرن 06 هــ/12م): كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق، سعد زغلول عبد الحميد، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق و در النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986.

146- **مجهول** (كتبه عام 372هــ/982م): حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح، يوسف الهادي، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1419هــ-1999م.

147- **مسلم**، أبو الحسن بن الحجاج القشيري الينسابوري (ت 261هــ/875م): الجامع الصحيح، ج4، (د.ط)، طبع في مصر، 1327هــ-1899م.

ثانيا: المراجع:

I. المخطوطات

148- **أطفيش**، أبو إسحاق إبراهيم: مخطوط مختصر العمارات، مكتبة أبي إسحاق أطفيش للتراث، غرداية، الجزائر.

149- **الوارجلاني**، أعزام إبراهيم بن صالح: غصن البان في تاريخ وارجلان، مخطوط عبارة عن كراس مكتوب بخط اليد، مكتبة الشيخ بومعقل عمر بن داود الوارجلاني، ورقلة، الجزائر.

II. الكتب باللغة العربية

150- **إ. ليــڤــي**، بروڤــنصال: الإسلام في المغرب و الأندلس، ترجمة، محمود عبد العزيز سالم و محمد حلمي، مراجعة، لطفي عبد البديع، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1990.

151- **ابن أبي الضياف**، أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان، ج1، تح، لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية و الأخبار، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1396هــ- 1976م.

152- **أبو راشد**، أرشيد يوسف: الحضارة الإسلامية- نظم – علوم – فنون، ط2، مكتبات ونشر العبيكان، الرياض، 1426هـ-2005م.

153- **أبو سعدة**، محمد: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، ط2، (د د ن)، القاهرة، 1998.

154- **أبو ضيف**، مصطفى أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين و بني مرين، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

155- **أبو مصطفى**، كمال السيد: جوانب من الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الدينية و العلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل و فتاوى المعيار المعرب للونشريسي، (د.ط)، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1996.

156- **أرسلان**، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية، ج1، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت).

157- **أرشيبالد**. ر. لويس: القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط 500-1100م، ترجمة، أحمد محمد عيسى، مراجعة و تقديم، محمد شفيق غربال، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).

158- **آزاد** محمد علي، و آخرون: الفكر الاجتماعي الخلدوني، المنهج و المفاهيم و الأزمة المعرفية، (د.ط)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2004.

159- **إسماعيل**، أحمد علي: دراسات في جغرافية المدن، ط4، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1413هـ-1993م.

160- **إسماعيل**، محمد المقدم: المهدي، ط8، الدار العالمية، الإسكندرية، 1424هـ-2004م.

161- **أسماوي**، صالح بن عمر: العزابة و دورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، الحلقة الأولى، ط1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1426هـ-2005م.

162- **السليماني**، أحمد: تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، (د.ط)، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

163- **الأشرف**، الملك السلطان عمر بن يوسف بن رسول: طرف الأصحاب في معرفة الأنساب، تح، ك. و. ستريتين، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1412هـ-1992م.

164- **الأشعت**، خالص: المدينة العربية، (د.ط)، مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، الكويت، 1403هـ-1986م.

165- **أعوشت**، بكير: أضواء إسلامية على المعالم الإباضية...، (د.ط)، الدار العمانية للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، (د.ت).

166- **أعوشت**، بكير بن سعيد: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية دينيا، تاريخيا، اجتماعيا، (د.ط)، المطبعة العربية، غرداية، 1991.

167- **الباروني**، أبو الربيع سليمان: مختصر تاريخ الإباضية، (د.ط)، مكتبة الاستقامة، 1357هـ- 1938م.

168- **الباروني**، سليمان باشا: الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، ج2، تح، أحمد كروم، و آخرون، دار البعث، الجزائر، 2002.

169- **الألباني**، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة و شيء من فقهها و فوائدها، مج1، (د.ط)، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، 1415هـ-1995م.

170- **الألباني**، ناصر الدين: تمام المنة في التعليق على فقه السنة، ط4، دار الراية للنشر و التوزيع، الرياض، 1417هـ- 1996م.

171- **البنا**، السيد محمود: المدن التاريخية خطط ترميمها و صيانتها، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2002.

172- **التهامي**، إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، ط1، دار الرسالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 1422هـ -2002م.

173- **الثعالبي**، عبد العزيز: تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تح، أحمد بن ميلاد، مراجعة، حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1410هـ-1990م.

174- **الجابري**، محمد عابد: العصبية و الدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1994.

175- **الجاسم**، فيصل قزاز: حقيقة الخوارج في الشرع و عبر التاريخ، ط1، غراس للنشر والتوزيع و الدعاية و الإعلان، الكويت، 1426هـ-2005م.

176- **الجنحاني**، الحبيب: القيرواني عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، ط1، الدار التونيسية للنشر، تونس، 1968.

177- **الجنحاني**، الحبيب: دراسات في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.

178- **الجيلالي**، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر العام، (د.ط)، دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

179- **الحاج بكير**، يوسف بن سعيد: تاريخ بني ميزاب، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

180- **الحاجري**، محمد طه: مرحلة التشيع في المغرب العربي و أثرها في الحياة الأدبية، ط1، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، 1403هـ-1973م.

181- **الحريري**، محمد عيسى: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها و علاقتها الخارجية بالمغرب و الأندلس 160-296هـ)، ط3، دار القلم للنشر و التوزيع، الكويت، 1408هـ-1987م.

182- **الخالدي**، أرشيد أحمد: المدن و الآثار الإسلامية في العالم، ط1،دار المعتز للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2009.

183- **الخربوطلي**، علي حسن: أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، (د.ط)، المطبعة الفنية الحديثة، 1972.

184- **الدولاتي**، عبد العزيز، و آخرون: أعلام ومعالم، ط2، الوكالة القومية للتراث و المعهد الوطني للتراث، تونس، 1997.

185- **الديسي**، محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، القسم الأول، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، و المكتبة العتيقة، تونس، 1405هـ-1985م.

186- **الزركلي**، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب والمستشرقين و المستعربين)، ج6، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2006.

187- **السائح**، الحسن: الحضارة الإسلامية في المغرب، ط2، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، 1406هـ-1986م.

188- **السبتي**، عبد الأحد و حليمة فرحات: المدينة في العصر الوسيط (قضايا و وثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.

189- **السعدي**، عبد الرحمن: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، قدم له، عبد الله بن عقيل و محمد الصالح العثيمين، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ-1999م.

190- **السلاوي**، الناصري أحمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، تح، جعفر الناصر و محمد الناصري، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954.

191- **السليماني**، أحمد: تاريخ مدينة الجزائر،(د.ط)،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989.

192- **السنوسي**، السيد علي الخطابي: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، (د.ط)، مطبعة الشباب، مصر، 1349هـ-1930م.

193- **السيد**، عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، (د.ت).

194- **السيد**، محمود: تاريخ دول المغرب العربي (ليبيا- تونس- الجزائر- المغرب- موريتانيا)، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2000.

195- **السيد**، محمود: تاريخ دولتي المرابطين و الموحدين، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999.

196- **الشريف**، محمد الهادي: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب، محمد الشاوش و محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993.

197- **الشكعة**، مصطفى: المغرب و الأندلس آفاق إسلامية و حضارة إنسانية و مباحث أدبية، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، و دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1407هـ-1987م.

198- **الصلابي**،علي محمد: دولة الموحدين،ج5،(د.ط)،دار البيارق للنشر،عمان،الأردن، 1998.

199- **الصلابي**، علي محمد: صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي فقه التمكين عند دولة المرابطين، ج4، (د.ط)، دار البيارق للنشر، عمان، الأردن، 1998.

200- **الطالبي**، محمد: الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909م)، تعريب، المنجي الصيادي، مراجعة،حمادي الساحلي،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م.

201- **الطمار**، محمد بن عمرو: تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

202- **الطمار**، محمد: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.

203- **العبادي**، أحمد مختار: دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، 1997.

204- **العبادي**، أحمد مختار: في تاريخ المغرب و الأندلس، (د.ط)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).

205- **العرباوي**، محمد المختار: في مواجهة النزعة البربرية و أخطارها الإنقسامية، (د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.

206- **العربي**، إسماعيل: المدن المغربية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

207- **العربي**، إسماعيل: دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

208- **العربي**، إسماعيل: دولة بني زيري ملوك غرناطة، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

209- **العربي**، إسماعيل: عواصم بني زيري ملوك أشير- القلعة- بجاية- غرناطة- المهدية، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1404هـ-1984م.

210- **العروي**، عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، ج2، (د.ط)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994.

211- **العروي**، عبد الله: مفهوم التاريخ،ج1، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1997.

212- **العيدروس**، محمد حسن: المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008.

213- **الفقي**، عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ المغرب و الأندلس، (د.ط)، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1990.

214- **الكعاك**، عثمان: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مراجعة و تقديم، أبو القاسم سعد الله، و آخرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003.

215- **المدني**، أحمد توفيق: كتاب الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

216- **المدني**، أحمد توفيق: هذه هي الجزائر، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2001.

217- **المجذوب**، عبد العزيز: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم، علي الشابي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ت).

218- **المطوي**، محمد العروسي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ-1986م.

219- **المعتق**، عواد بن عبد الله: المعتزلة و أصولهم الخمسة و موقف أهل السنة منها، ط2، مكتبة الرشد للنشر و التوزيع، الرياض، السعودية، 1416هـ-1995م.

220- **الميلي**، مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج2، تقديم و تصحيح، محمد الميلي، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت).

221- **النامي**، عمرو خليفة: دراسات عن الإباضية، ترجمة، ميخائيل خوري، مراجعة و تعليق، ماهر جرار و محمد صالح ناصر، و آخرون، ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001.

222- **النوري**، حمو عيسى: دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما و حديثا، مج1، (د.ط)، دار البعث، قسنطينة، (د.ت).

223- **الهادي روجي**، إدريس: الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، ج1، ترجمة، حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

224- **الهنتاني**، نجم الدين: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 05هـ/11م، (د.ط)، منشورات تبرالزمان، تونس، 2004.

225- **أمين**، أحمد: ضحى الإسلام، ج3،ط7،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1351هـ-1933م.

226- **بريينان**، أندري، و آخرون: الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة، اسطنبول رابح ومنصف عاشور، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.

227- **بالباس**، ليوبولد تورس: المدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة، إليو دورودي لابنيا، (د.ط)، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، الرياض، 2003.

228- **بحاز**، إبراهيم: الدولة الرستمية 160-296هـ/777-909م دراسة في الأوضاع الاقتصادية و الحياة الفكرية، ط2، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1994.

229- **برانشفيك**، روبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج1، ترجمة، حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988.

230- **بروكلمان**، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة، نبيه فارس و منير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1968.

231- **بشار**، قويدر: مناهج التاريخ الإسلامي ومدارسه،ط1، دار الوعي، الجزائر، 1413هـ-1993م.

232- **بل**، ألفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987.

233- **بن الحاج**، سليمان داود: ثورة أبي يزيد جهاد لإعلاء كلمة الله، ط1، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، 1402هـ-1981م.

234- **بن الذيب**، عيسى: الحواضر و المراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، (د.ط)، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

235- **بن عميرة**، محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

236- **بن قربة**، صالح، و آخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، (د.ط)، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

237- **بن قربة**، صالح: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

238- **بن قربة**، صالح: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب،(د.ط)، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.

239- **بن موسى،** جميلة: تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي من القرن 09 م إلى 11م، ط1، منشورات بلوتو، جسر قسنطينة، الجزائر، 2011.

240- **بن يوسف،** إبراهيم: إشكالية العمران و المشروع الإسلامي، (د.ط)، مطبعة أبو داود، الحراش، الجزائر، 1992.

241- **بن يوسف،** سليمان داود: مساهمة علماء الإباضية في علم التفسير و الحديث و الفقه والبيان، (د.ط)، مطبعة أبو داود، الجزائر، 1992.

242- **بوتشيش،** إبراهيم القادري: تاريخ الغرب الإسلامي...، ط1، دار الطليعة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1994.

243- **بوحوش،** عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

244- **بورويبة،** رشيد، و آخرون: الجزائر في التاريخ (3) العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني)، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

245- **بورويبة،** رشيد: الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

246- **بوزياني،** الدراجي: القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها، ج1، (د.ط)، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة، القبة، الجزائر، 2007.

247- **بوسماحة،** عبد الحميد: رحلة بني هلال و خصائصها التاريخية و الاجتماعية و الاقتصادية، ج1، (د.ط)، دار السبيل للنشر و التوزيع، بن عكنون، الجزائر، 2008.

248- **بوعزيز** يحي: الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

249- **بوعزيز،** يحي: تلمسان، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

250- **بوعزيز،** يحي: وهران، (د.ط)، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.

251- **بوعصبانة،** عمر لقمان: معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ورقلة من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراتة، ط1، نشر جمعية الوفاق المعصومة للإعلام، ورقلة، 1429هـ-2008م.

252- **بونار**، رابح: المغرب العربي تاريخه و ثقافته، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1986.

253- **بوهليلة**، إدريس ، و آخرون: المغرب و الأندلس دراسات في التاريخ و الأركيولوجية، تقديم، محمد الشريف، ط1، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، تطوان، 1427هـ-2006م.

254- **تامر**، عارف: تاريخ الإسماعيلية من المغرب إلى المشرق، ج2، ط1، رياض الريس للكتب و النشر، لندن، قبرص، 1991.

255- **جار الله**، موسى:الوشيعة في نقد عقائد الشيعة،(د.ط)،مطبعة الكيلاني،باب الخلق، 1982.

256- **جان لوي** ميشون: المؤسسات الدينية، سلسلة مقالات حول المدينة الإسلامية، إشراف، سرجنت.ر.ب، ترجمة، أحمد محمد ثعلب، (د.ط)، اليونسكو، 1983.

257- **جرجي**، زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج4، تعليق، حسين مؤنس، ط6، دار الهلال، القاهرة، 1972.

258- **جعيط**، هشام: الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005.

259- **جعيط**، هشام: تأسيس الغرب الإسلامي القرن الأول و الثاني هـ/السابع و الثامن م، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2004.

260- **جمال الدين**، عبد الله محمد: الدولة الفاطمية (قيامها ببلاد المغرب و انتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن 04 هـ)، (د.ط)، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1411هـ-1991م.

261- **جميل**، عبد القادر أكبر: عمارة الأرض في الإسلام، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1416هـ-1995م.

262- **جودت**، عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (09 -10م)، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

263- **جودت**، عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

264- **جوليان**، شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي و البشير بن سلامة، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، (د.ت).

265-**حاجيات**، عبد الحميد: كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، (د.ط)، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

266- **حجازي**، عبد الرحمن عثمان: تطور الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي، ط1، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ-2007م.

267- **حسن**، إبراهيم حسن و طه أحمد شرف: المعز لدين الله، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964.

268- **حسن**، إبراهيم حسن و طه أحمد شرف: عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1366هـ-1947م.

269- **حسن**، إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سوريا و بلاد العرب، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958.

270- **حسن**، أحمد محمود: قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

271- **حسن حسني**، عبد الوهاب: بساط العقيق في حضارة القيروان و شاعرها ابن رشيق، تقديم، محمد العروسي المطوي، ط2، مكتبة المنار، تونس، 1970.

272- **حسن حسني**، عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، (د.ط)، المطبعة التونسية سوق البلاط، تونس، 1336هـ-1917م.

273- **حسن حسني**، عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الأول، (د.ط)، مكتبة المنار، تونس، 1965.

274- **حسن علي**، حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس عصر المرابطين و الموحدين، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980.

275- **حسن**، محمد: المدينة و البادية في العهد الحفصي، ج1، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس، 1999.

276- **حلاق**، حسان: مدن و شعوب إسلامية، ج1، (د.ط)، دار الراتب الجامعية سوقنير، بيروت، لبنان، 1412هـ-1992م.

277- **حمدان**، جمال: جغرافية المدن، ط2، عالم الكتب عبد الخالق ثروت، القاهرة، 1972.

278- **حمدي**، عبد المنعم حسين: مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1993.

279- **حميدي**، مليكة: المرأة المغربية في عهد المرابطين 448-541هـ/1056-1146م دراسة تاريخية، (د.ط)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2011.

280- **خالد كبير**، علال: صفحات من تاريخ أهل السنة و الجماعة ببغداد (200-500هـ/815-1106م)، (د.ط)، مطبعة هومة، الجزائر، (د.ت).

281- **خالدي**، عبد الحميد: الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، (د.ط)، دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 2007.

282- **خلاصي**، علي: القلاع و الحصون في الجزائر، (د.ط)، مطبعة الديوان، الشراقة، الجزائر، 2008.

283- **خليفات**، عوض: نشأة الحركة الإباضية، ط1، المطابع الذهبية، مسقط، سلطنة عُمان، 1423هـ-2002م.

284- **خليل**، أحمد إبراهيم: المستشرقون و المبشرون في العالم العربي و الإسلامي، (د.ط)، مكتبة الوعي العربي، الفجالة، 1384هـ-1964.

285- **داود**، مايسة محمود: المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة دراسة أثرية و فنية، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991.

286- **دبوز**، محمد علي: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي و شركاه، 1383هـ-1963م.

287- **دحماني**، سعيد: تاريخ الجزائر في القرون الوسطى من كتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون، ط1، منشورات بونة للبحوث و الدراسات، عنابة، الجزائر، 1432هـ-2011م.

288- **دحماني**، سعيد: من هيبون إلى بونة إلى عنابة تاريخ تأسيس قطب حضري، ط1، مؤسسة بونة للبحوث و الدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ-2007م.

289- **دنون،** طه عبد الواحد، و آخرون: تاريخ المغرب العربي، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004.
290- **رضا محمد،** رشيد: السُنَّة و الشِّيعة أو الوهابية و الرافضة، ط2، دار المنار، القاهرة، 1366هـ -1947.
291- **رعد،** محمد سعيد: العمران في مقدمة ابن خلدون، ط1، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، سوريا، 1985.
292- **زغلول،** عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج3، (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ومطبعة أطلس، القاهرة، 1990.
293- **زقزوق،** محمود حمدي: الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1997.
294- **زماني،** أحمد: بحوث حول النظام العسكري في الإسلام، ط1، الدار الإسلامية للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م.
295- **زيادة،** نقولا: الجغرافية و الرحلات عند العرب، (د.ط)، الشركة العالمية للكتاب و دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1987.
296- **زيتون،** محمد محمد: القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار للطباعة والنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، (د.ت).
297- **زيتون،** محمد محمد: المسلمون في المغرب والأندلس، (د.ط)، مكتبة الإسكندرية، مصر، 1411هـ-1990م.
298- **سابق،** سيد: فقه السنة، ج1، ط2، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1419هـ-1998م.
299- **سعدي،** عثمان:عروبة الجزائر عبر التاريخ،ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
300- **سعيدوني،** ناصر الدين: من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين و رحالة و جغرافيين)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.
301- **سويدي،** جمال: الشخصيات البارزة في تاريخ الجزائر القديم من القديم إلى 1830، (د.ط)، منشورات التل، البليدة، الجزائر، 2007.

302- **سويسي**، محمد: أنماط العمران البشري بإفريقية و جزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، (د.ط)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2001.

303- **سيد**، بيسوني: فن العمارة، (د.ط)، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2007.

304- **سيفر**، لخضر: التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي، ج1، (د.ط)، الأمل للدراسات، الجزائر، 2006.

305- **شاكر**، مصطفى: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ج1، (د.ط)، مكتبة الأسد، دمشق، 1997.

306- **شريط**، عبد الله: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

307- **شريط**، عبد الله و محمد كرو أبو القاسم: عصر القيروان، ط1، دار المغرب العربي، تونس، 1973.

308- **شقير**، محمد: تطور الدولة في المغرب إشكالية التكون و التمركز و الهيمنة من القرن الثالث ق.م إلى القرن العشرين، (د.ط)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2002.

309- **شلبي**، أحمد: التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية، ج2، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1966.

310- **شهبي**، عبد العزيز: مساجد أثرية في منطقتي الزاب و وادي ريغ، (د.ط)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، الأبيار، الجزائر، 2011.

311- **صبحي**، أحمس حسن: الدعوة الفاطمية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005.

312- **صريفي**، محمد ياسين: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، ترجمة، سمير إبراهيم، ط1، هجر للطباعة و النشر و التوزيع و الإعلان، الجيزة، مصر، 1408هـ-1988م.

313- **طقوش**، محمد سهيل: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية و مصر و بلاد الشام (297-567هـ/910-1171م)، ط1، دار النفائس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1422هـ-2011م.

314- **طه جمال**، أحمد: مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين (448 هـ/1056م إلى 668هـ/1269م)، (د.ط)، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر، (د.ت).

315- **طويل**، الطاهر: المدينة الإسلامية و تطورها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس، ط1، المتصدر للترقية الثقافية و العلمية والإعلامية، الجزائر، 2011.

316- **عبد الرزاق**، محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ-1985م.

317- **عبره**، موسى عبد الله: الفاطميون و آثارهم المعمارية في إفريقية و مصر و اليمن، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1421هـ-2001م.

318- **عثمان**، حسان: منهج البحث التاريخي، ط8، دار المعارف، القاهرة، 2000.

319- **عثمان**، محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، (د.ط)، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1408هـ-1988م.

320- **عشراتي**، سليمان: الشخصية الجزائرية بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية، ج2، (د.ط)، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، الجزائر، 2002.

321- **علام**، عبد الله علي: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، (د.ط)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

322- **علاوة**، عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الإسلامي، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.

323- **علي الحمد**، عادلة: قيام الدولة الفاطمية في بلاد إفريقية و المغرب، (د.ط)، دار و مطابع المستقبل، الإسكندرية، مصر، 1980.

324- **علي حسن**، إبراهيم: تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963.

325- **عويس**، عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1411هـ-1991م.

326- **غالب**، مصطفى: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ط2، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1965.

327- **غانم**، محمد الصغير: مدن تاريخية مواقع و مدن أثرية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988.

328- **غلاب**، عبد الكريم: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي...، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1426هـ-2005م.

329- **فيلالي**، عبد العزيز و بحاز إبراهيم: مدينة ميلة في العصر الوسيط (دراسة سياسية ثقافية إدارية عمرانية)، (د.ط)، دار البلاد للإتصال و الخدمات، قسنطينة، 1998.

330- **فيلالي**، عبد العزيز: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و المغرب، (د.ط)، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2007.

331- **فيلالي**، عبد العزيز: المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب و الأندلس، (د.ط)، دار المعارف للطباعة و النشر، سوسة، تونس، (د.ت).

332- **قايد**، مولود: البربر عبر التاريخ من الكاهنة إلى العهد التركي، (د.ط)، منشورات ميموني، الجزائر، 2007.

333- **قدور**، إبراهيم عمار: وهران تاريخ و ثقافة، (د.ط)، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 1425هـ-2005م.

334- **كاهن**، كلود: تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية حتى بداية الأمبراطورية العثمانية، ترجمة، بدر الدين القاسم، ط1، دار الحقيقة للطباعة و النشر ، بيروت، 1972.

335- **كربخال**، مرمول: إفريقيا، ج3، ترجمة، محمد حجي، و آخرون، (د.ط)، دار المعرفة للنشر و التوزيع، الرباط، المغرب، 1409هـ-1989م.

336- **كريزويل**، ك.أ .س: العمارة الإسلامية في مصر الأخشيديون و الفاطميون (939-1171م)، مج1، ترجمة، عبد الوهاب علوب، مراجعة، محمد الحداد، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004.

337- **لقبال**، موسى: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.

338- **لقبال**، موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتف القرن الخامس الهجري (11 م)، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979.

339- **لقبال**، موسى: عقبة بن نافع أساس نظام الفهريين و تأصيل مجتمع إسلامي جديد في المغرب العربي، (د.ط)، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2002.

340- **لومبار**، موريس: الإسلام في مجده الأول القرن 02-05 هـ/08-11م، ترجمة و تعليق، إسماعيل العربي، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1979.

341- **لويزا**، برنيري ماريا: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة، عطيات أبو السعود، مراجعة، عبد الغفار مكاوي، (د.ط)، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1997.

342- **ليفتسكي**، تاديوش: المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة، ماهر جرار و ريما جرار، (د.ط)، مؤسسة تاوالت الثقافية، (د.ب.ن)، 2007.

343- **مؤنس**، حسين: تاريخ المغرب و حضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ط1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1412هـ-1992م.

344- **مؤنس**، حسين: فتح العرب للمغرب، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (د.ت).

345- **مؤنس**، حسين: فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)، ط2، الدار السعودية للنشر و التوزيع، السعودية، 1405هـ-1985م.

346- **مؤنس**، حسين: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، (د.ط)، دار الرشاد مكتبة الأسرة، أسوان، مصر، 2004.

347- **ماجد**، عبد المنعم: ظهور الخلافة الفاطمية و سقوطها في مصر، ط4، دار الفكر العربي، القاهرة، 1414هـ-1994م.

348- **مارسيه**، جورج: بلاد المغرب و علاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة، محمود هيكل، مراجعة مصطفى أبو ضيف، (د.ط)، مطبعة الإنتصار، الإسكندرية، مصر، 1999.

349- **متز**، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة، ج1، ترجمة، عبد الهادي أبو ريدة،ط3،مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1377هـ-1957م.

350- **مجاني**، بوبة: أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ط1، دار بهاء الدين للنشر و التوزيع، قسنطينة، الجزائر، 1430هـ-2009م.

351- **مجاني**، بوبة: من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، (د.ط)، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2007.

352- **محمدين**، محمد محمود: التراث الجغرافي الإسلامي، ط3، دار العلوم للطباعة و النشر، الرياض، السعودية، 1419هـ-1999م.

353- **مرمول**، محمد الصالح: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

354- **مزهودي**، مسعود: الإباضية في المغرب الأوسط، (د.ط)، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1417هـ-1996م.

355- **مسعد**، سامية مصطفى: العلاقات بين المغرب و الأندلس في عصر الخلافة الأموية، (د.ط)، عين الدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، الهرم، 2006.

356- **معمر**، علي يحي: الإباضية بين الفرق الإسلامية، (د.ط)، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، (د.ت).

357- **معمر**، علي يحي: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة (الإباضية في الجزائر)، ط1، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة، 1399هـ-1979م.

358- **مفدي**، زكريا: أضواء على وادي ميزاب ماضيه و حاضره، دراسة و تحقيق، إبراهيم بحاز، ط1، منشورات ألفا قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر، 2010.

359- **ممدوح**، حسين شاكر مصطفى: الحروب الصليبية في شمال إفريقية و أثرها الحضاري سنة 668-792هـ/1270-1390م،ط1،دار عمار للنشر،عمان،الأردن،1419هـ-1998م.

360- **ممفورد**، لويس: المدينة على ممر العصور أصلها و تطورها و مستقبلها، ج1، ترجمة وتعليق، إبراهيم نصحي، (د.ط)، مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر، القاهرة-نيويورك، 1964.

361- **ناجي**، عبد الجبار: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، ط1، شركة المطبوعات للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2001.

362- **ناصر**، محمد صالح: دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا، (د.ط)، الدار العمانية للنشر و التوزيع، سلطنة عمان، 1992.

363- **ناصف**، سعيد: المدينة الإسلامية دراسة في نشأة التحضر، (د.ط)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999.

364- **نواب**، عواطف محمد: الرحلات المغربية و الأندلسية، (د.ط)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، 1417هـ-1996م.

365- **نويصر**، حسني محمد: الآثار الإسلامية، (د.ط)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1997.

366- **وافي**، علي عبد الواحد: المدينة الفاضلة للفارابي، (د.ط)، نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).

367- **ولد دادة**، محمد: مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع (دراسة في التاريخ السياسي)، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، و دار الكتاب المصري، القاهرة، 1977.

368- **جودي**، محمد حسين: العمارة العربية الإسلامية، ط1، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 1427هـ-2007م.

III.المعاجم :

369- **المستشرق**، زامباور: معجم الأنساب و الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه، حسن محمود و زكي بك، (د.ط)، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م.

370- **رزق**، عاصم محمد: معجم مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000.

371- **رشدي**، محمد بسام: المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، مج1، إشراف، محمد عدنان سالم ،دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، و دار الفكر، دمشق ، 1416هـ-1995م.

372- **عبد الله**، يسرى عبد الغني: معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثامن عشر الهجري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م.

373- **كحالة**، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة و الحديثة، ج2، ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1418هـ-1997م.

374- **كلوس**، كريزر، و آخرون: معجم العالم الإسلامي، ترجمة، ج. كنورة، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1418هـ-1998م.

375- **مراد**، يحي: معجم أسماء المستشرقين، ط1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م.

376- **جمعية التراث**، معجم أعلام الإباضية من القرن01 هـ-15هـ، قسم المغرب، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر، 1420هـ-1999م.

377- **نويهض**، عادل: معجم أعلام الجزائر ،المكتب التجاري للطباعة والنشر ،بيروت، 1971.

IV.الموسوعات ودوائر المعارف

378- **البستاني**، فؤاد الأفرم: دائرة المعارف قاموس عام لكل فن و مطلب، مج4، (د.ط)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1962.

379- **الحوتي**، سعد أبو سيف: الموسوعة العلمية في أنساب القبائل العربية، ط1، مطبعة أبو العزم، الإسكندرية، مصر، 1422هـ-2002م.

380- **العفيفي**، عبد الحكيم: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ-2000م.

381- **الغنيمي**، عبد الفتاح مقلد: موسوعة المغرب العربي، مج2، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1414هـ-1994م.

382- **الشناوي**، أحمد، و آخرون: دائرة المعارف الإسلامية، مج10، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

383- **الموسوعة العربية العالمية**، ج25، ط1، مؤسسة أعمال للنشر و التوزيع، الرياض، 1996.

384- **بدوي**، عبد الرحمن: موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين و التأليف و الترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1993.

385- **حساني**، مختار: موسوعة تاريخ و ثقافة المدن الجزائرية، (د.ط)، دار الحكمة الجزائرية، الجزائر، 2007.

386- **شاكر**، مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي و رجالها، ج2، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1993.

387- **محمد**، سليمان الطيب: موسوعة القبائل العربية بحوث ميدانية و تاريخية، مج1، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ-1997م.

V.الرسائل الجامعية:

388- **بريكة**، مسعود: «النخبة و السلطة في بجاية الحفصية»، رسالة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1429-1430هـ/2008-2009م.

389- **بعيزيق**، صالح: «بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية»، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، 1996.

390- **بلمداني**، نوال: «المدينة بالمغرب الأوسط من خلال المصادر الأدبية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين»، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة السانية، وهران، 2005-2006.

391- **بن النية**، رضا: «صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80-362هـ/699-973م)»، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1426-1427هـ/ 2005-2006م.

392- **بن حمو**، محمد: «العمران و العمارة من خلال نوازل الونشريسي»، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004-2005.

393- **بن خرباش**، عبد النور: «نظام و منشآت الري في قلعة بني حماد (دراسة أثرية)»، رسالة ماجستير في الآثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009.

394- **بن زاوي**، طارق: «استقلال المعز بن باديس الزيري عن الدولة الفاطمية (406-454هـ/1016-1062م) »، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ/2008-2009م.

395- **بوركبة**، محمد: «الحياة الاجتماعية على عهد الدولة الرستيمة (160-296هـ/777-909م)»، رسالة ماجستير في التاريخ و الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 1420-1421هـ/1999-2000م.

396- **بوطارن**، مبارك: «تطور العمران الإسلامي حواضر المغرب نموذجا»، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005-2006.

397- **بوعصبانة**، عمر سليمان: «معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان (296-626هـ/909-1229م)»، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، المعهد الوطني لأصول الدين، الجزائر، 1412هـ/91-1992م.

398- **بونابي**، الطاهر: «الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس و السابع الهجريين الثاني عشر و الثالث عشر الميلاديين»، أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1419-1420هـ/1999-2000م.

399- **حاج عيسى**، إلياس بن عمر: «مدينة وارجلان دراسة في النشاط الاقتصادي و الحياة الفكرية (في الفترة 04-10هـ/10-16 م)»، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ/ 2008-2009م.

400- **حروز**، عبد الغاني: «الحياة العلمية في قلعة بني حماد (408-461هـ/1017-1070م)»، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2010-2011.

401- **حساني**، مختار: «الصراع بين الأمويين و الفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي»، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، 1977-1978.

402- **خالدي**، عبد الرزاق: «دور الطرق التجارية في إنشاء المدن بالمغرب الأوسط في العهد الوسيط - مدينة وارجلان نموذجا-»، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009.

403- **دنون**، المشهداني علياء هاشم: «فقهاء المالكية دراسة في علاقاتهم العلمية في الأندلس والمغرب حتى منتصف القرن السادس للهجرة الثاني عشر الميلادي»، أطروحة دكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي، كلية التربية، جامعة الموصل، 1423هـ-2003م.

404- **شهبي**، عبد العزيز: «مساجد أثرية في منطقتي الزاب و وادي ريغ»، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد التاريخ و الآثار، جامعة الجزائر، 1984-1985.

405- **عكوش**، عزيزة: «أصول الفتيا للإمام حارث الخشني (المتوفي حوالي سنة 371هـ)»، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، الجزائر، 1422هـ-2001م.

406- **غانية**، البشير: «ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ضد الفاطميين و نتائجها على المغرب (331-336هـ/942-947م)»، رسالة ماجستير في تاريخ المشرق والمغرب الإسلامي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2007-2008.

407- **غرايسة**، عمار: «المدينة الدولة في المغرب الأوسط وارجلان نموذجا (ق4-6هـ)»، رسالة ماجستير في حضارة المغرب الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1428-1429هـ/2007-2008م.

408- **قراوي**، عبد النور: «طبنة و دورها الحضاري من الفتح حتى نهاية القرن 05هـ/11م»، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ/ 2008-2009م.

VI. المجلات و الدوريات

409- **إحسان**، عباس: «مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد»، مجلة الأصالة، العدد 61/60، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1978.

410- **العربي**، إسماعيل: «ماضي المسيلة السياسي والثقافي و الخلاف بين زيري بن مناد و جعفر بن علي أمير المسيلة»، مجلة التاريخ، العدد 06، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1978.

411- **الغضبان**، محمد بن الحبيب: «مدينة القيروان بين نشاط السكة و هاجس الشرعية (من خلال ضرب النفوذ منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الزيرية»، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 65، السنة السابعة عشر، قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية بمركز جمعية الماجد للثقافة و التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة ، 1430هـ-2009م.

412- **المطوع**، يوسف أحمد: «نحاة القيروان»، حوليات كلية الآداب، الحولية السادسة، الرسالة الخامسة و العشرون، جامعة الكويت، الكويت، 1405هـ-1985م.

413- **المنيس**، وليد عبد الله: «جغرافية الحضر»، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشر، الرسالة الخامسة و الستون، جامعة الكويت، الكويت، 1410هـ-1989م.

414- **الناصري**، محمد: «عوامل اختفاء المذهب الإسماعيلي من إفريقية الشمالية»، مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، وزارة عموم الأوقاف، الرباط، المغرب، 1377هـ-1958م.

415- **النامي**، عمرو خليفة: « ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان و نواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري» ، مجلة الأصالة، العدد 43/42، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م.

416- **بحاز**، إبراهيم: «ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي»، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 05، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1408هـ-1988م.

417- **بلخميسي**، مولاي: «مدينة ورقلة في رحلة العياشي»، مجلة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م.

418- **بلغراد**، محمد: «الحركة الإباضية في تاهرت وسدراتة»، مجلة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م.

419- **بن عميرة**، لطيفة: «تلمسان من نشأتها إلى قيام بني عبد الواد»، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 06، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1413هـ-1992م.

420- **بن عميرة**، محمد: «تاريخ الحركة النكارية»، مجلة التاريخ، العدد 21، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986.

421- **بن معمر**، محمد: «القلعة قاعدة بني حماد الثقافية الأولى»، مجلة حوليات المؤرخ، العدد 01، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر، الأبيار، الجزائر، 2002.

422- **بوداود**، عبيد: «مساهمة علماء القلعة في الحياة الفكرية ببجاية خلال القرن السابع الهجري 13م»، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، العدد 10، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1430هـ-2009م.

423- **بورويبة**، رشيد: «الفن الرستمي بتاهرت و سدراتة»، مجلة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م.

424- **بوطارن**، مبارك: «مدينة تلمسان، عوامل نشأتها و مراحل تطورها»، مجلة المبرز، العدد 10، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1998.

425- **بوعزيز**، يحي: «مركز بجاية الحضاري و دوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية و في نهضة ايطاليا جنوب غربا أوروبا»، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران، الجزائر، 1414هـ-1993م.

426- **بومعقل**. س. —د. بيلي- ن. مويشابونقو مع جمعية القصر للثقافة و الإصلاح: «سدارتة»، دفاتر ورقلة، رقم 03، المركز الثقافي للوثائق الصحراوية، ورقلة، 2010.

427- **خلفات**، مفتاح: «علماء زواوة و الإرث الثقافي القلعي»، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، العدد 10، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1430هـ-2009م.

428- **داود**، بن يوسف سليمان: «دولة بني يفرن الإباضية بتلمسان»، مجلة الأصالة، العدد 26، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1395هـ-1975م.

429- **ديني**، سبيلي و جمعية القصر للثقافة: «تاريخ ورقلة دراسة حول تسلسل الأحداث التاريخية»، دفاتر ورقلة، رقم 02، المركز الثقافي للوثائق الصحراوية، ورقلة، 2010.

430- **شهبي**، عبد العزيز: «بسكرة عاصمة الزيبان نشأة المدينة و تطورها»، الملتقى الثاني للبحث الأثري و الدراسات التاريخية، تندوف، 19-24 أفريل، 1996.

431- **علوات**، محمد و بودقة فوزي: «المدينة الحاضرة مفاهيم و آراء»، حوليات مخبر التاريخ والجغرافيا، العدد 04، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2011.

432- **عمارة**، علاوة: «التطور العمراني و التجاري لمدينة بجاية في العصر الإسلامي الوسيط»، مجلة جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، العدد 26، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1429هـ-2008م.

433- **عمارة**، علاوة: «الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى بين الذاكرة و التاريخ»، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، العدد التاسع، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 1429هـ-2008م.

434- **عمارة**، علاوة: «الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب»، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، العدد10، جامعة الأمير عبد القادر للعوم الإسلامية، 1430هـ-2009م.

435- **عمارة**، علاوة: «الهجرة الهلالية و إشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي»، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، العدد 04، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 1425هـ-2004م.

436- **فخار**، إبراهيم: « دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب»، مجلة الأصالة، العدد 42-43، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م.

437- **فخار**، إبراهيم: «بنو برزال المسيلة في البرازيل أو أسطورة كرستوف كولمب»، مجلة الثقافة، العدد20، السنة الرابعة، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر،1974م.

438- **لعرج**، عبد العزيز: «العمران الإسلامي و عمارته السكنية: قيم دينية و دلالات اجتماعية»، مجلة حولية المؤرخ، العدد 03-04، إصدار اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، 2003.

439- **لقبال**، موسى: «طبنة في مجال العلاقة بين زناتة و الفاطميين حتى نهاية عهد المنصور الفاطمي»، حوليات جامعة الجزائر، العدد 06، ج2، مركز الطباعة، جامعة الجزائر، بوزريعة، الجزائر، 1991-1992.

440- **لقبال**، موسى: «طبنة مدينة الزاب و الأوراس في العصور الوسطى»، مجلة الأصالة، العدد 60-61، مطبعة البعث، قسنطينة، أوت، سبتمبر، 1978.

441- **لقبال**، موسى: «عناصر التكامل والوحدة و دور أبناء المغرب الأوسط»، حوليات جامعة الجزائر، العدد 03، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، 1988-1989.

442- **لقبال**، موسى: «قاعدة طبنة و الشرعية الخلاقية في بلاد المغرب الإسلامي»، حوليات جامعة الجزائر، العدد 05، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، 1990-1991.

443- **لقبال**، موسى: «من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى مكتبة المعصومة بتاهرت هل أحرقت أو نقلت عيونها إلى سدارتة في جوار بني وارجلان»، مجلة الأصالة، العدد41، مطبعة البعث، قسنطينة، 1397هـ-1977م.

444- **مجاني**، بوبة: « مدينة قسنطينة في الفترة الإسلامية دراسة اجتماعية»، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 08، منشورات جامعة قسنطينة، 1997.

445- **معزوز**، عبد الحق: « مدينة ميلة الإسلامية بين النصوص التاريخية والآثار المادية»، مجلة دراسات تراثية،العدد02، دار الملكية للطباعة و النشر والتوزيع و الإعلام، الجزائر، 2008.

446- **ڤـومث نوغاليس**، سلفادور: «الرستميون قنطرة صلة بين الجزائر و الأندلس من خلال الإباضية»، مجلة الأصالة، العدد 46/47، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ-1977م.

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية

*447- **AMARA**, Allaoua: «Ibn khaldoun et les berbères», revue de lettres et sciences humaines, N° 07, université Emir Abdelkader des sciences islamiques, Constantine, 1430-2009.*

*448- **BEKRI**, Chikh: Le Royaume Rostemide le premier état Algérienne, ENAG, Alger, 2005.*

*449- **BENCHOHRA**, Mahdi: Oran sagesse et noblesse, Dar El Adib, Oran, Algérie 2007.*

450- ***BOUROUIBA***, *Rachid: Abdelmu'min Flambeau des Almahades, 2ème édition, SND, 1982.*

451- ***BOUROUIBA***, *Rachid: Cites disparus Tahert-Sedrata- Achir – Kalaâ des Beni Hammad, "Art et culture", Ministère de l'information, Alger.*

452- ***BOUROUIBA***, *Rachid: L'architecture militare de l'Algérie médiévale, office des publications universitaires l'Algérie, 1983.*

453- ***BOUROUIBA***, *Rachid: L'art religieux musulman en Alger, Société national d'édition et de diffusion, Alger, 1983.*

454- ***BOUROUIBA***, *Rachid: La Qal'a des Bani Hammad, Alger, 1975.*

455- ***CAMBUZAT***, *Paul-Louis: L'évolution des cité de telle en efrikia du 7ème 11ème siècle, Tome 2, Office des publication universitaires, Alger, 1986.*

456- ***CHALLEAT***, *Camille: «Le urbanisation de la vallée du Mzab (Algérie) les transformations des palmerais, l'exemple de Ghardaia», étude urbaine, université Lumière Lyon II, département de géographie, 1993-1994.*

457- ***CHITOUR***, *Chemseddine: Histoire religieuse de l'Algérie…, ENAG, Alger, 2001.*

458- *Contribution a l'étude de la céramique musulmane : les poteries faïences de la Qal'a des Beni Hammâd (XIème siècle), Constantine, 1913.*

459- ***DIEHL,*** *Charles et MARÇAIS Georges: Histoire du moyen âge, Tome 03, les presses universitaires de France, Paris, 1936.*

460- ***DJAIT***, *Hicham, TALBI Mohamed: Histoire de la Tunisie le moyen âge, société tunisienne de diffusion, Tunisie.*

461- *Encyclopédie de l'Islam : nouvelle édition, tome 01, a-b, Article Achir.*

462- ***FERAUD*** , *L-Charles: Histoire des villes de la province de Constantine, société et archéologique de département de Constantine, 5ème volume de la 02ème série, 1871-1872.*

463- ***FERAUD***, *Laurent – Charles: Histoire de Boujie, rééd Bouchénes, 2001.*

464- ***GAID***, *Mouloud: Histoire de saldae, région depuis l'antiquité jusqu'à 1954, SNED, Alger, 1976.*

465- ***GENERAL*** *de Beylié : La Kalaa des Beni Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du nord au 10ème siècle, Paris, 1909.*

466- ***GOLVIN*** *, L: Le magrib central à l'époque des zirides recherches d'archéologie et d'histoire, Arts et métiers graphiques, Paris.*

467- ***GOLVIN****, Lucien: Essai sur l'architecture religieuse musulmane, Tome 3, Edition Klinksieck, 1974 .*

468- ***GSELL****, S – MARÇAIS. G - CYVER : Histoire d'Algérie, Paris, 1929.*

469- ***HAMET****, Ismaël: Histoire du Maghreb cours professé a l'institut des hautes études marocaines, éditions Ernest le roux, Paris, 1923, p 38.*

470- ***HEYDEN****, M. Vonder: La berbérie orientale sous le dynastie des benoû, L'Aglab, 800-909, Paris, 1927.*

471- ***JULIEN*** *, CH- Andri: Histoire de l'Afrique du nord (Tunisie, Algérie, Maroc), préface Stéphane Gsell, Payot, Paris, 1931.*

472- ***LACOSTE****, Y: Ibn Khaldoun, imprimerie Gouin, Paris, 1966.*

473- ***LAROUI****, Abdallah: L'histoire du Maghreb un essai de synthèse, 2ème édition, centre culturel arabe, Casablanca, 2001.*

474- ***LE TOURNEAU****, Rogger : Les villes musulmanes de l'Afrique du nord, la maison des livres, Alger, 1975.*

475- ***LETHILLEUX*** *, Jean: Ouargla cité saharienne des origines au début du XX, Paul Geuihnet, Paris, 1983.*

476- ***LUDWIG****, Salvadore Von Habsburg- Toskana : Bougie perle l'Afrique do nord, traduit de l'allemand par, Ahcéne Abdelfettah, CNRPAH, Alger, 2005.*

477- ***MARÇAIS****, Georges et Louis Poinssot : objets Kairouanais IXe au XIIIe siècle, Fasc1, Direction des antiquités et arts, Tunis, 1948.*

478- ***MARÇAIS****, Georges: Les villes d'art célèbres Tunis et Kairouan, librairie Renouard, Editeur Tournon, Paris, 1937.*

479- ***MARÇAIS****, Georges: Algérie Médiévale monuments et paysages historiques, arts et métier graphiques, Paris.*

480- ***MARCAIS****, Georges: La conception des villes dans l'Islam, revue d'Alger, numéro 10, Tome 2, Alger, 1945.*

481- ***MARÇAIS****, Georges: Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman, tome 1, l'imprimerie officielle du Gouvernement général de l'Algérie, Alger, 1957.*

482- ***MERCIER**, Ernest: L'Afrique septentrionale (bérbérie)- Depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830), Tome2, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1868.*

483- ***RAVEREAU**, André: Le m'zab, une leçon d'architecture, préface de Hassan Fathy, SNdbad, Paris, 1981.*

484- ***SAIDI**, Omar: Le Maghreb l'unification sous les almohades (histoire générale de l'Afrique du XII^e au XVI^e siècle), directeur de volume, D.T. Nian, UESCO, N& A, 1985.*

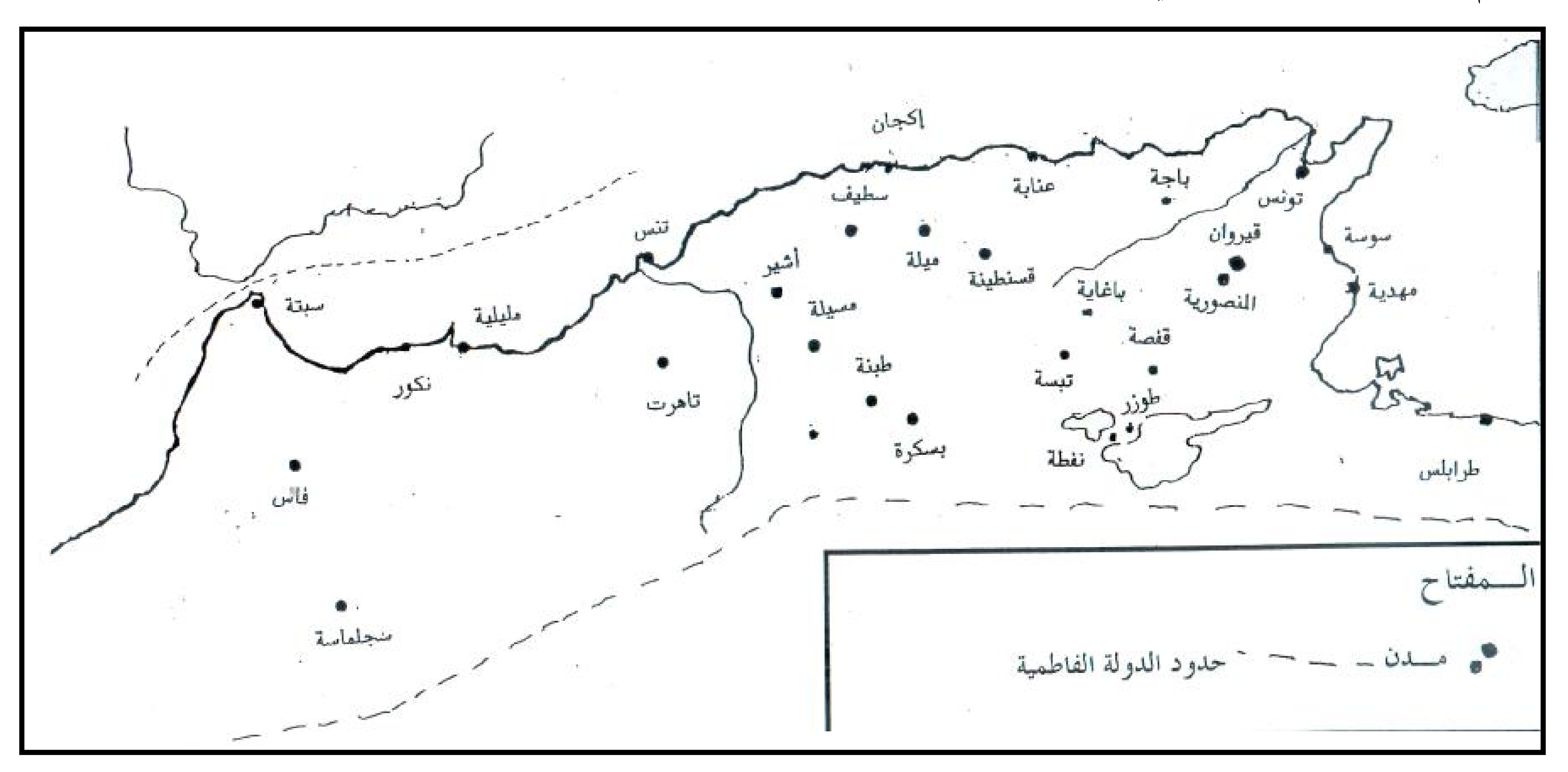
485- ***SOURDEL**, Dominique: Histoire des arabes, cinquième édition, paris, 1994.*

486- ***VALERIEN**, Dominique: «De la Qal'a des Banû Hammâd à Boujie», Revue des lettres et sciences humaines, Université Emir Abdelkader des sciences islamiques, Constantine, Numéro 10, 1430-2009.*

487- ***ZEROUKI**, Brahim: L'imamat de Tahart premier état musulman du Maghreb(144/296 de l'hégire), Tome 1, préface de Claude Cachen et de Charles Pellat, l'Harmattan, Paris, 1987.*

الملاحق

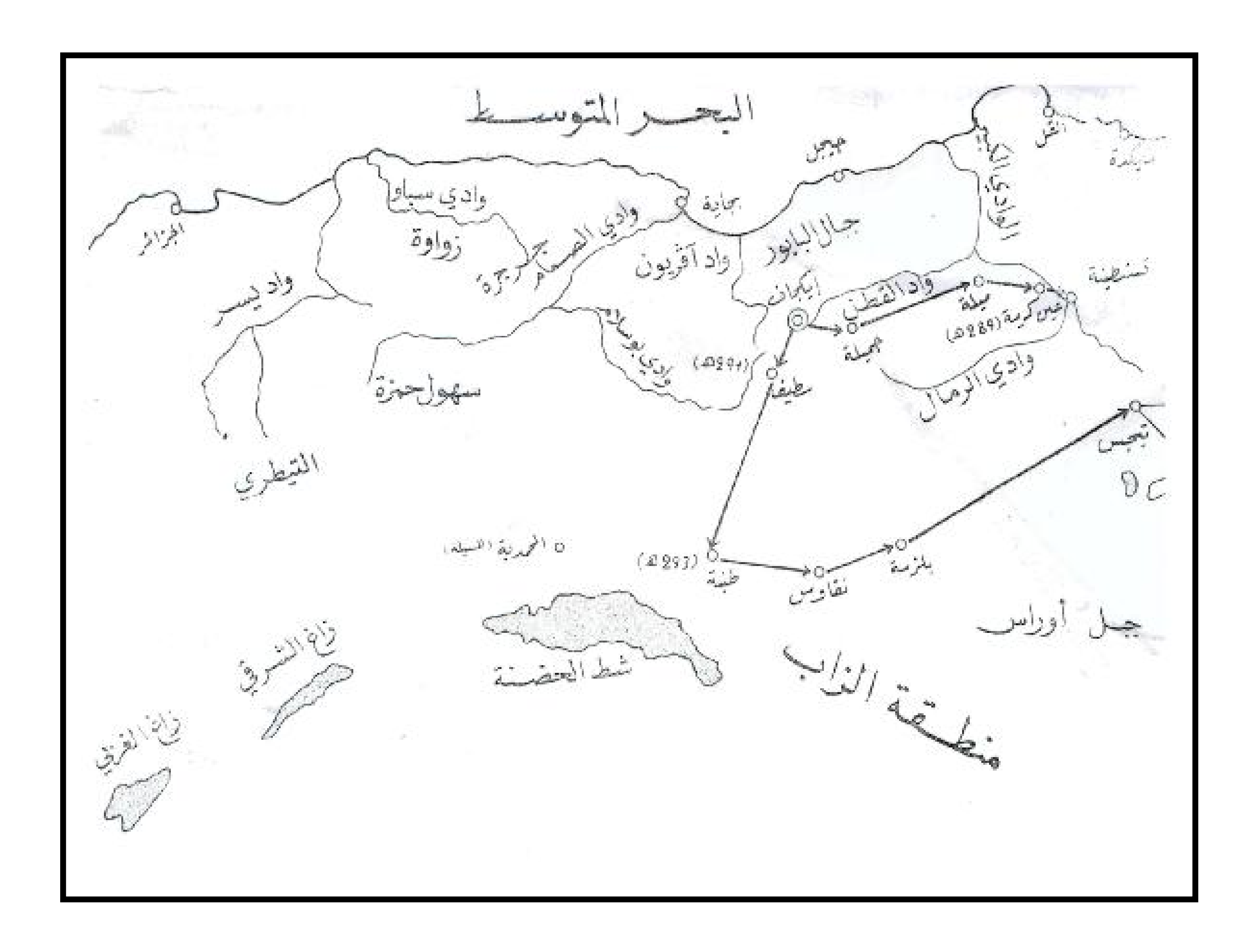
الملحق رقم 01: حدود الدولة الفاطمية في المغرب. [1]



---

(1)- مبارك بوطارن: تطور العمران الإسلامي، ص 267.

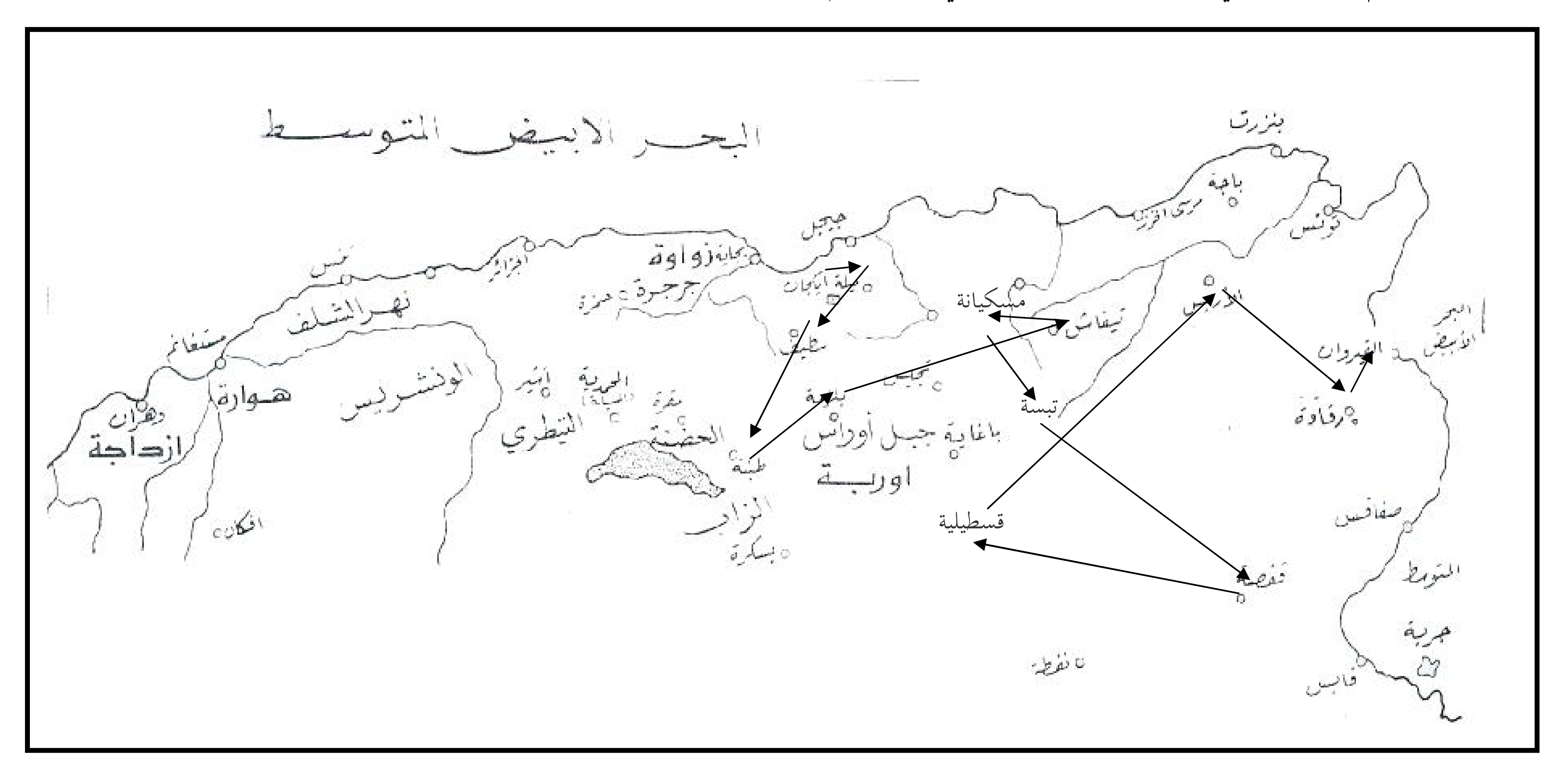
الملحق رقم 02: التوسع الفاطمي من قاعدة إيكجان في إقليم الزاب.(1)



---

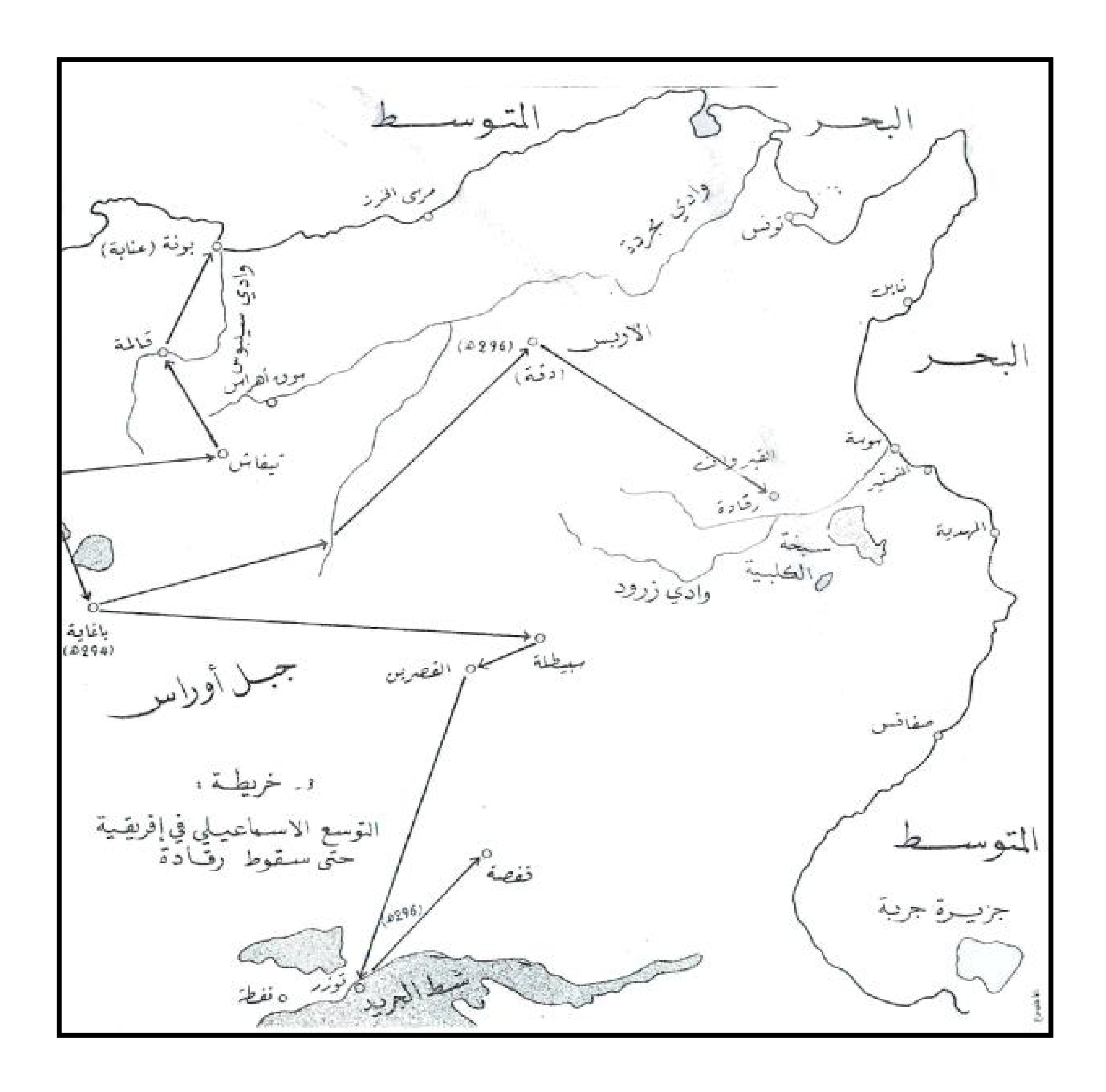
(1)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 689.

الملحق رقم 03: المدن التي افتتحها أبو عبد الله الشّيعي تمهيدًا لقيام الدولة الفاطمية.[1]



([1])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 289.

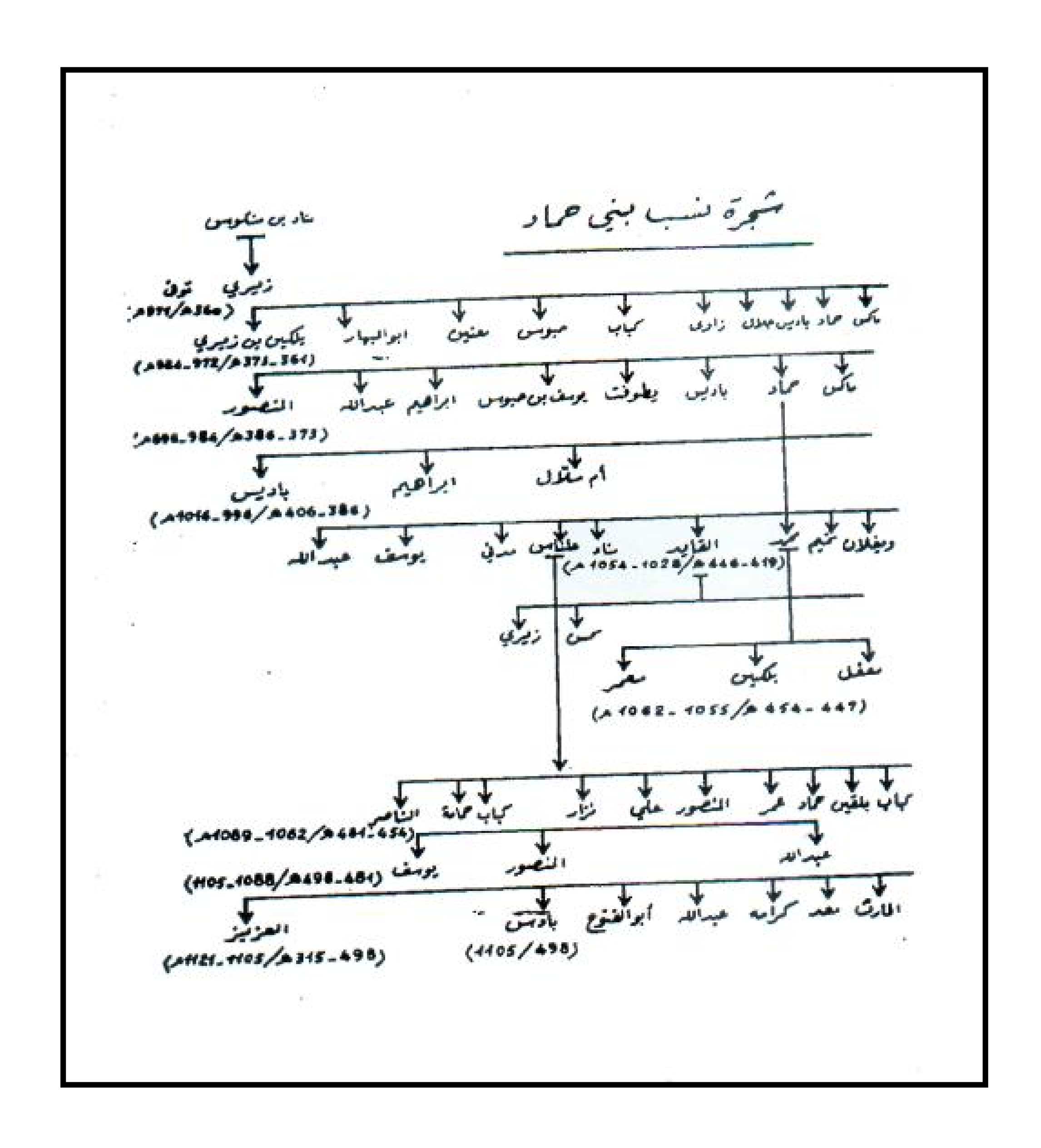
الملحق رقم 04: توسعات أبي عبد الله الشيعي حتى سقوط رقادة. (1)



---

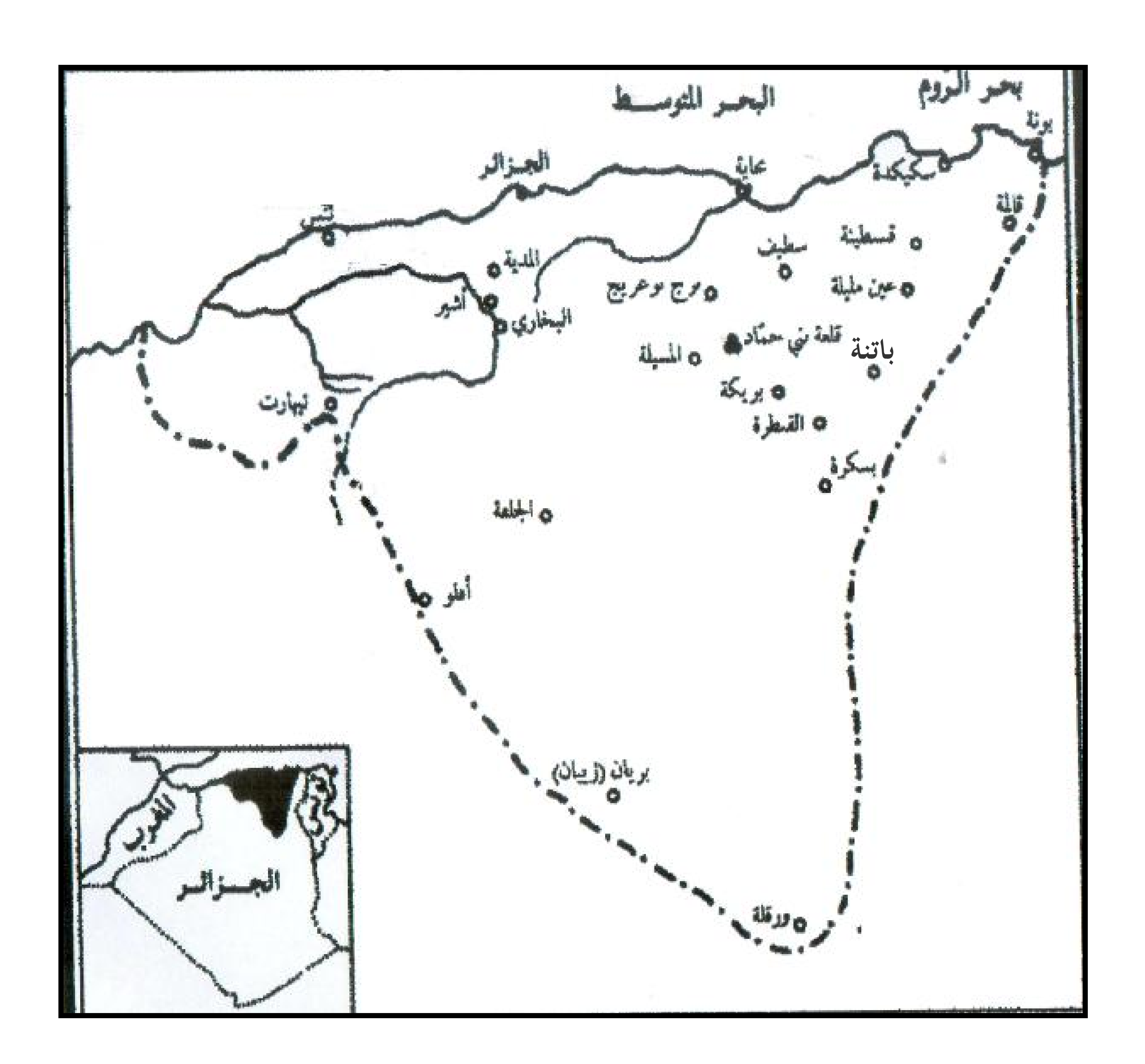
(1)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 688.

الملحق رقم 05: شجرة نسب بني حماد.(1)



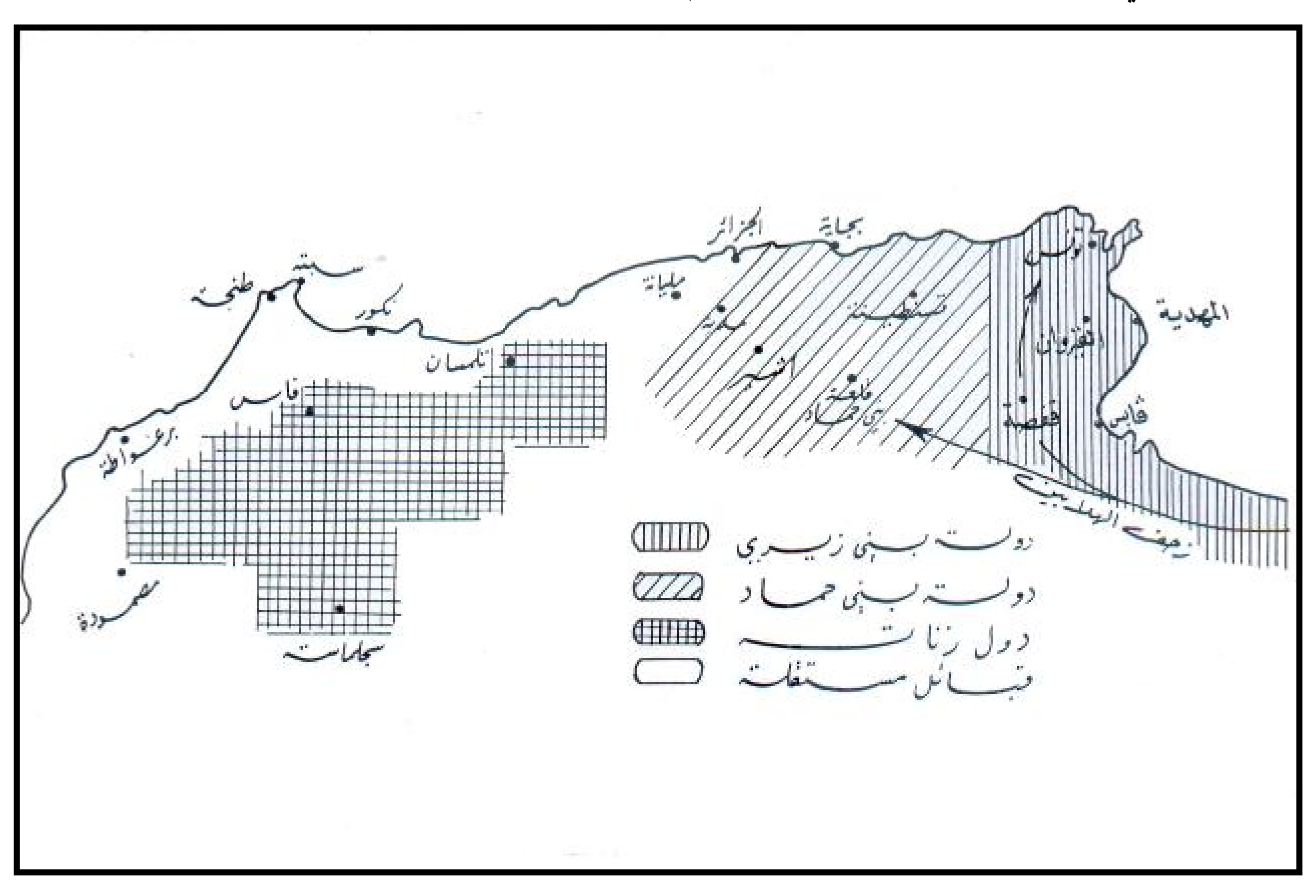
(1)- إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص 271.

الملحق رقم 06: إقليم دولة بني حماد حاليًا.[1]



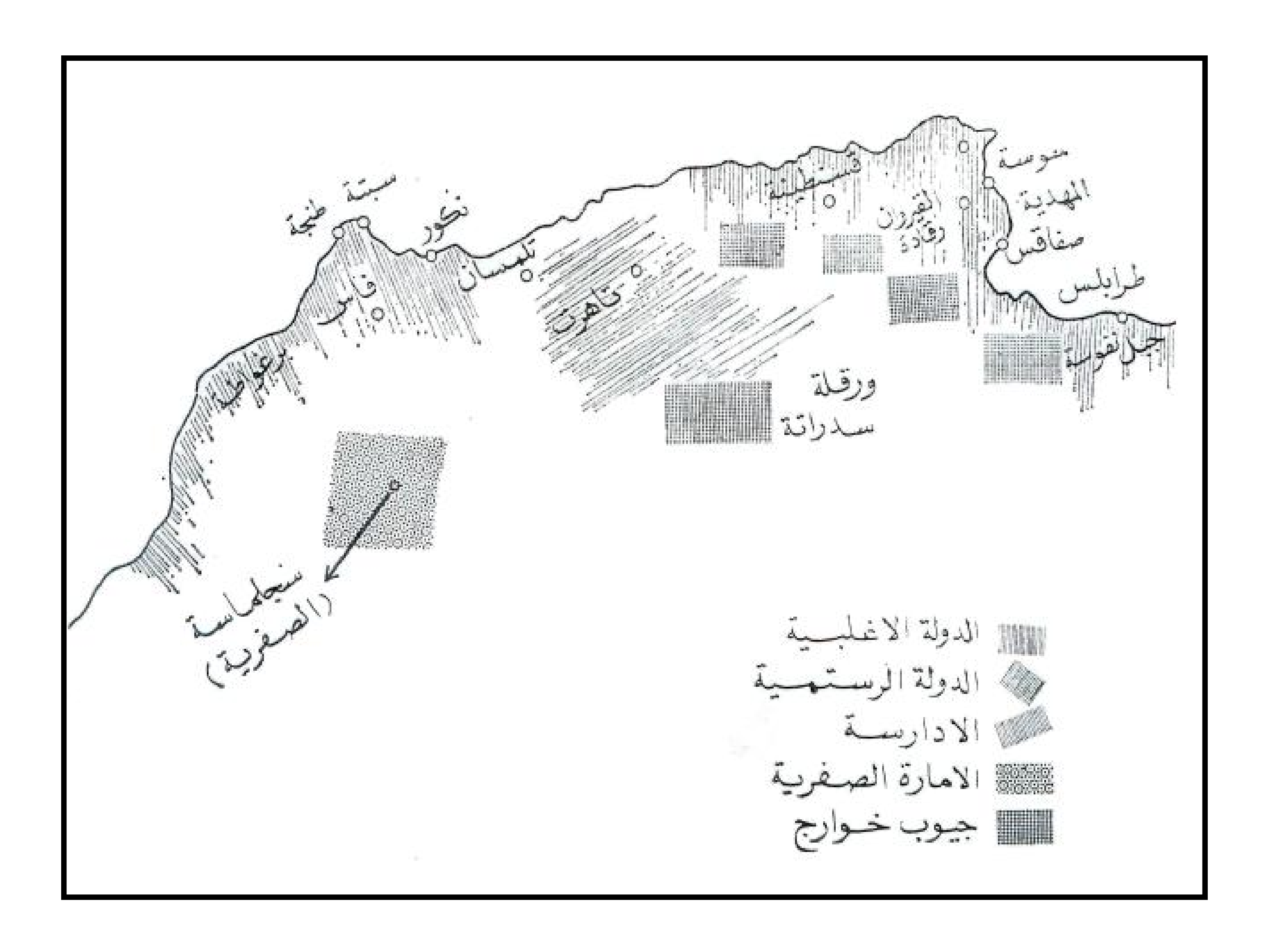
([1])- عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 151.

الملحق رقم 07: المغرب الإسلامي في منتصف القرن 05 هـ / 11 م.[1]



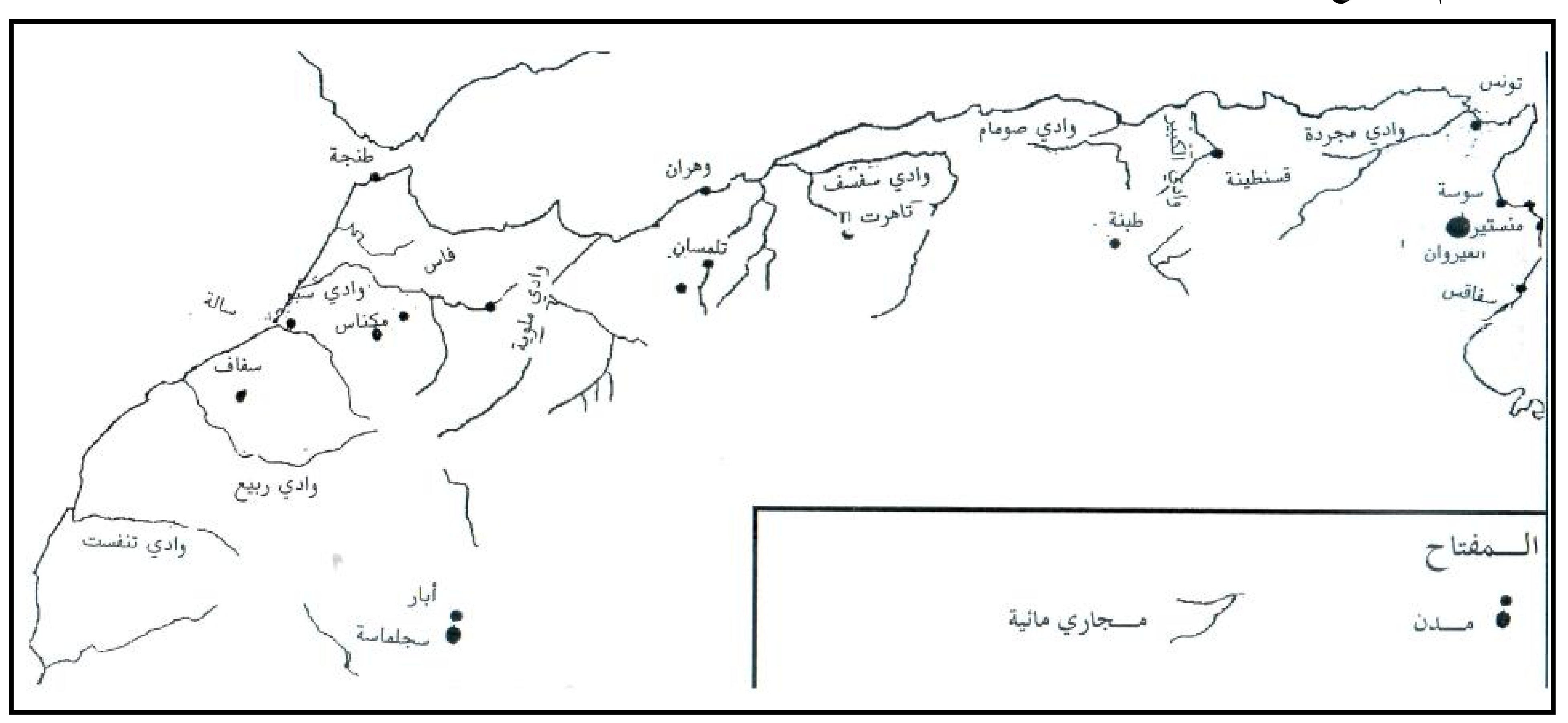
(1)- الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، ص 105.

الملحق رقم 08: حواضر المغرب الإسلامي في القرنين 03 - 04هـ/ 09- 10م. (1)



(1)- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 687.

الملحق رقم 09: موقع مدينة القيروان بالنسبة لمدن المغرب. [1]



([1])- مبارك بوطارن: تطور العمران الإسلامي، ص 250.

الملحق رقم 10: صورة لجبل إيكجان بمنطقة بني عزيز ولاية سطيف. [1]



([1])- صورة التقطت يوم: 2012/06/12.

الملحق رقم 11: صورة لبقايا سور مدينة إيكجان في عهد دولة الفاطميين. [1]



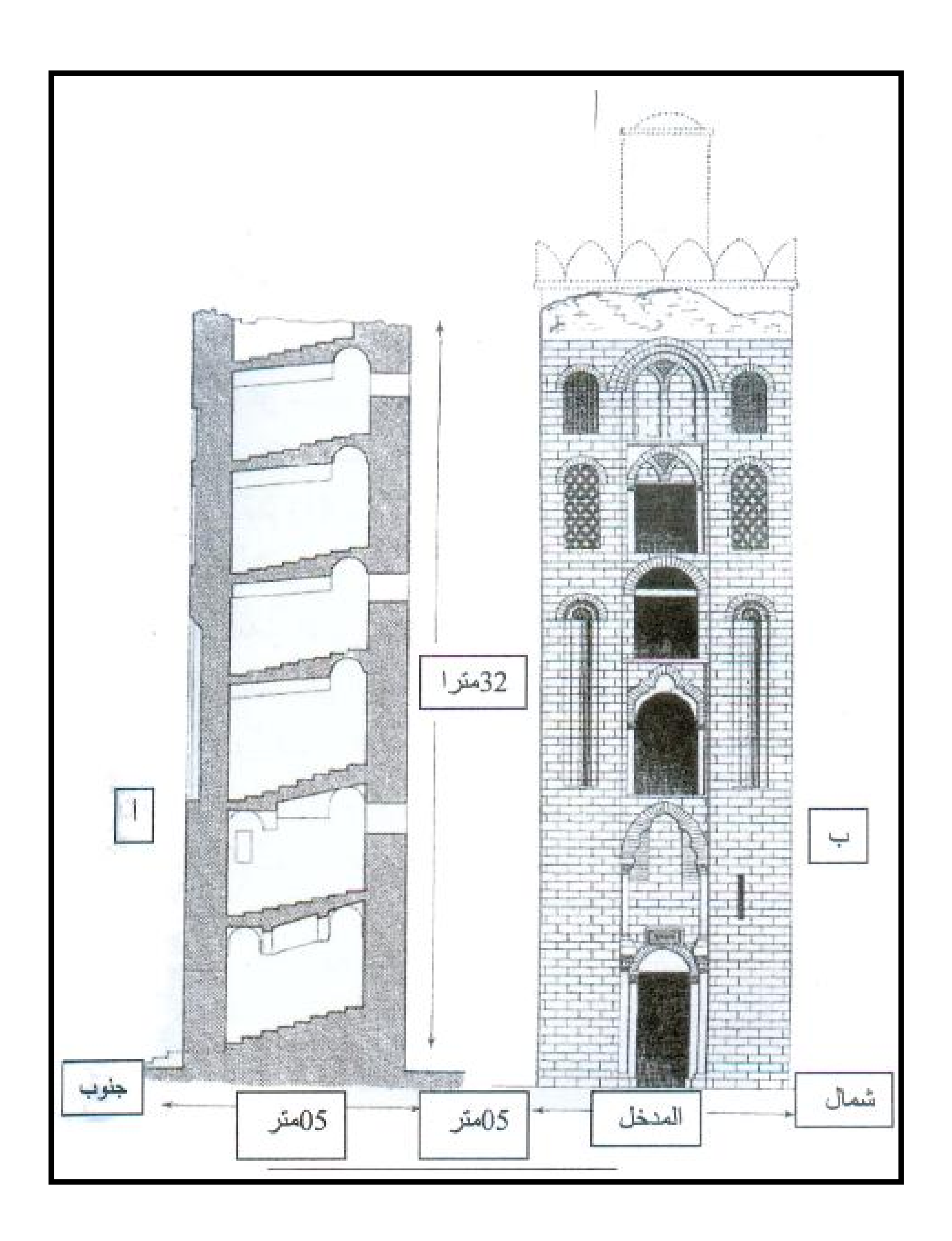
([1])- صورة التقطت يوم: 2012/06/12.

الملحق رقم 12: صورة لجبل المعاضيد الذي بنيت عليه مدينة القلعة. [1]



([1])- صورة التقطت يوم: 2012/06/09.

الملحق رقم 13: مخطط لمنارة جامع القلعة. (1)



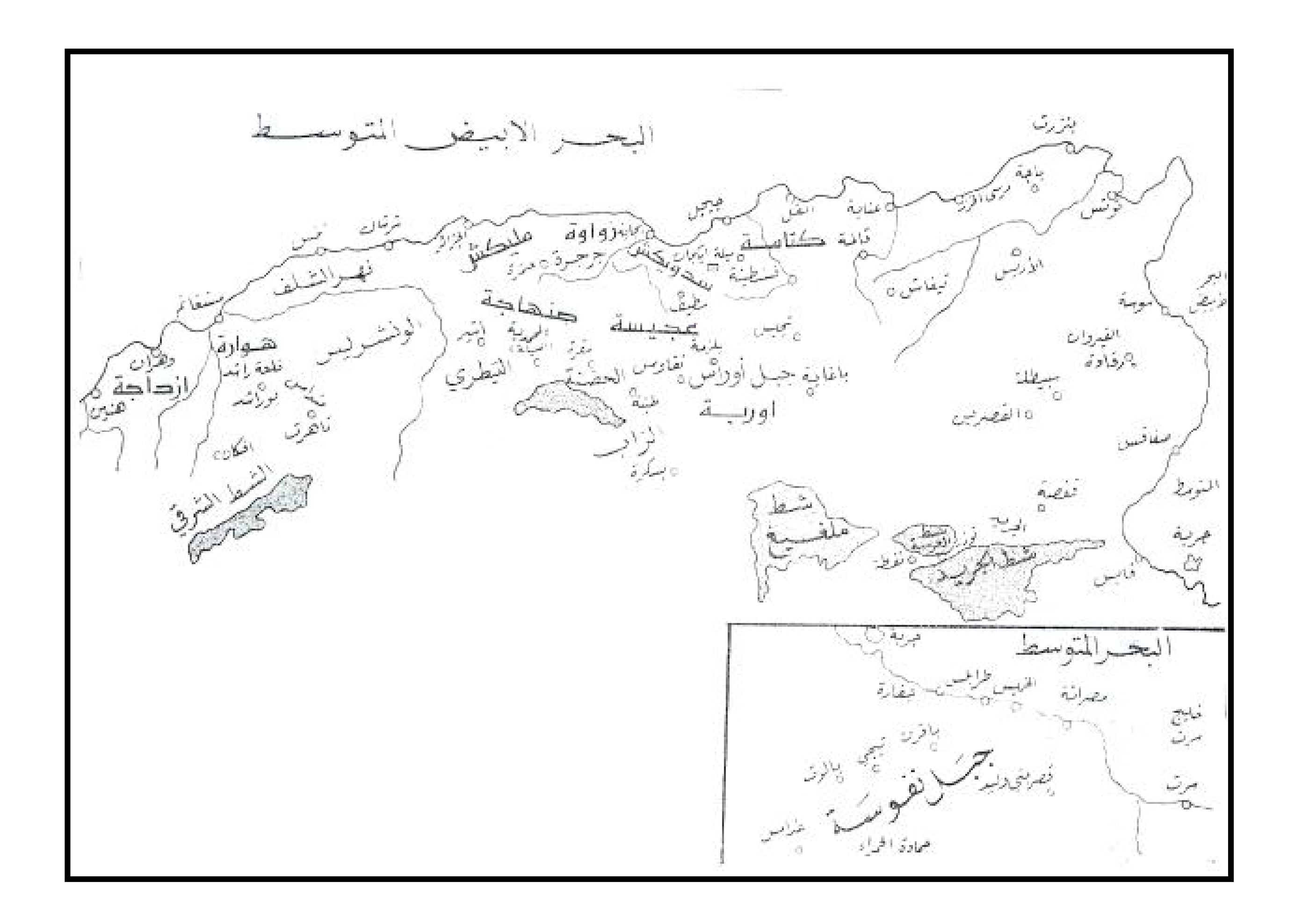
(1) -*Luciene Golvine : Maghrib central à l'époque des Zirides.*

الملحق رقم 14: صورة لمنارة جامع قلعة بني حماد كما تشاهد اليوم. [1]



([1])- صورة التقطت يوم: 2012/06/09.

الملحق رقم 15: أهم قبائل فرع البرانس.[1]



([1])- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 690.

الملحق رقم 16: موضع مسجد الإمام الرستمي يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب بمدينة تيهرت. [1]



([1])- صورة التقطت يوم: 2012/05/30.

الملحق رقم 17: آثار متبقية من قنوات للمياه في عهد الدولة الرستمية بمدينة تيهرت. [1]





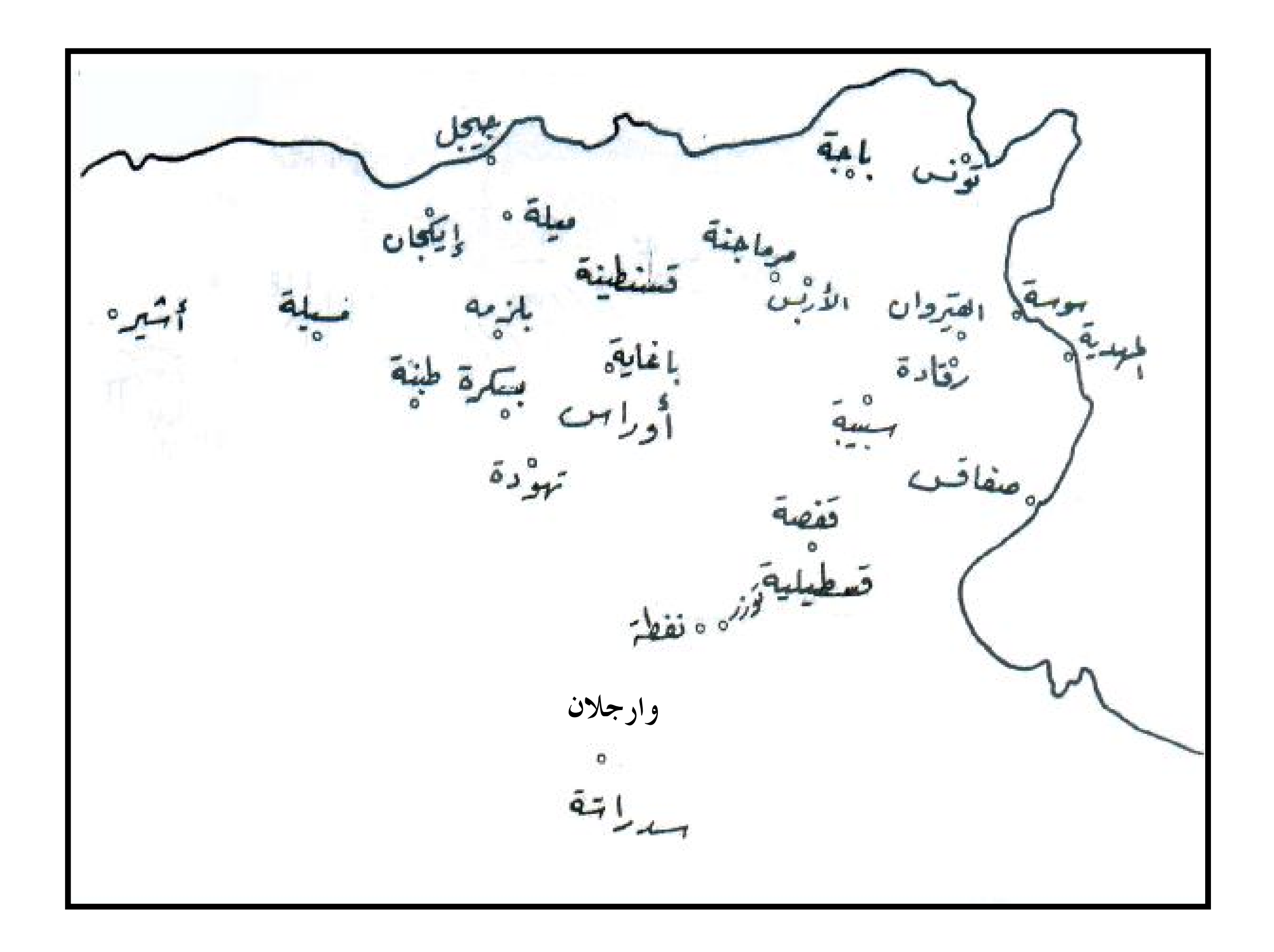
منظـــر من عدة زوايـــا





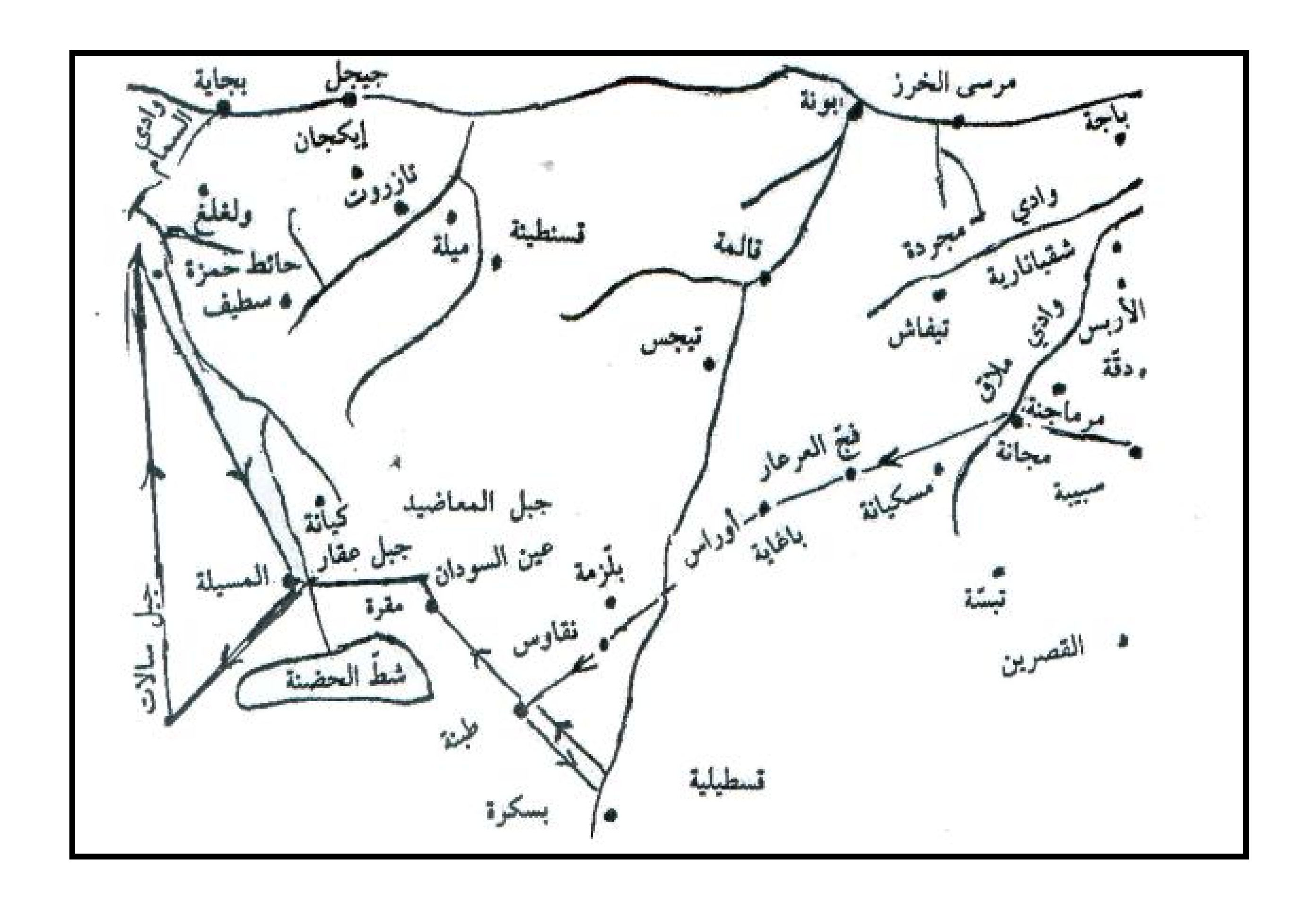
([1])- صورة التقطت يوم: 2012/05/30.

الملحق رقم 18: المناطق التي شملتها أحداث ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.[1]



(1)- محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي (بتصرف).

ملحق رقم 19: مطاردة المنصور لأبي يزيد. (1)



(1)- نقلا عن الداعي إدريس القرشي.

الملحق رقم 20: أعمدة مسجد أبو مهاجر دينار بمدينة ميلة. [1]

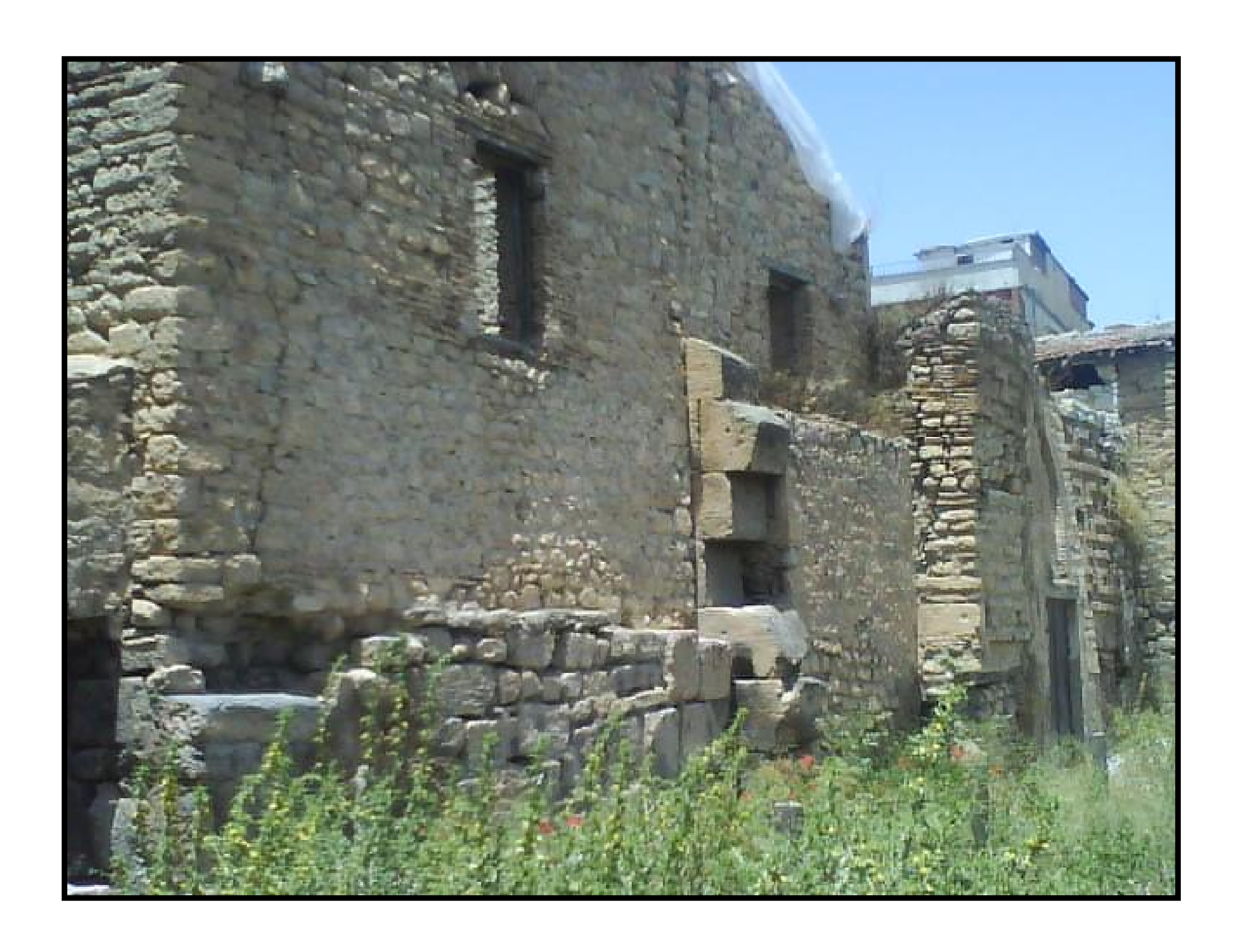


مـــن زاويتين



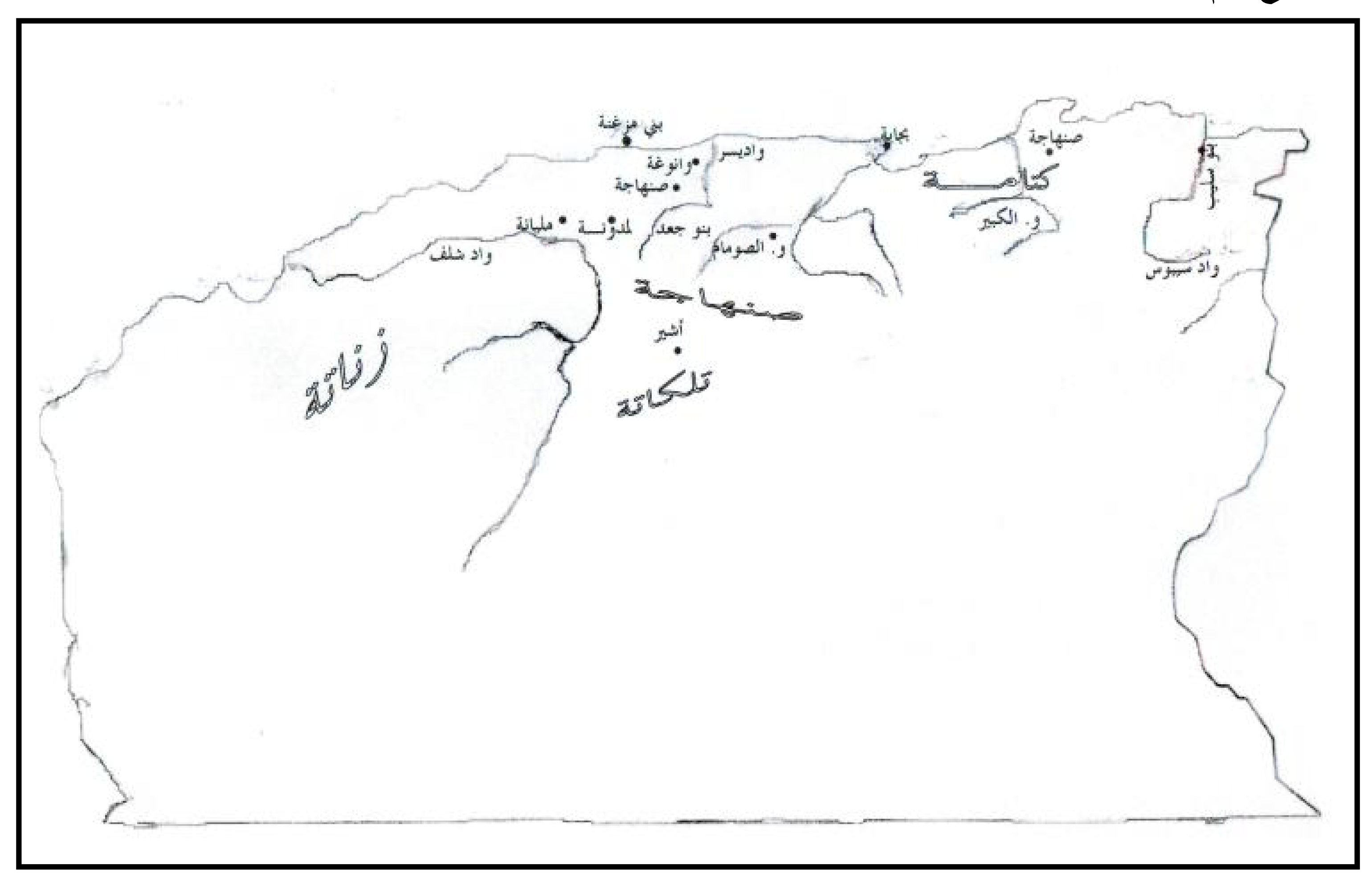
([1])- صورة التقطت يوم: 2012/06/13.

الملحق رقم 21: صورة لأحد الجدران الخارجية لمسجد أبي المهاجر دينار بمدينة ميلة.[1]



([1])- صورة التقطت يوم: 2012/05/30.

الملحق رقم 22: توزيع أهم بطون صنهاجة بالمغرب الأوسط. [1]



[1]- مبارك بوطارن: تطور العمران الإسلامي، ص 250.

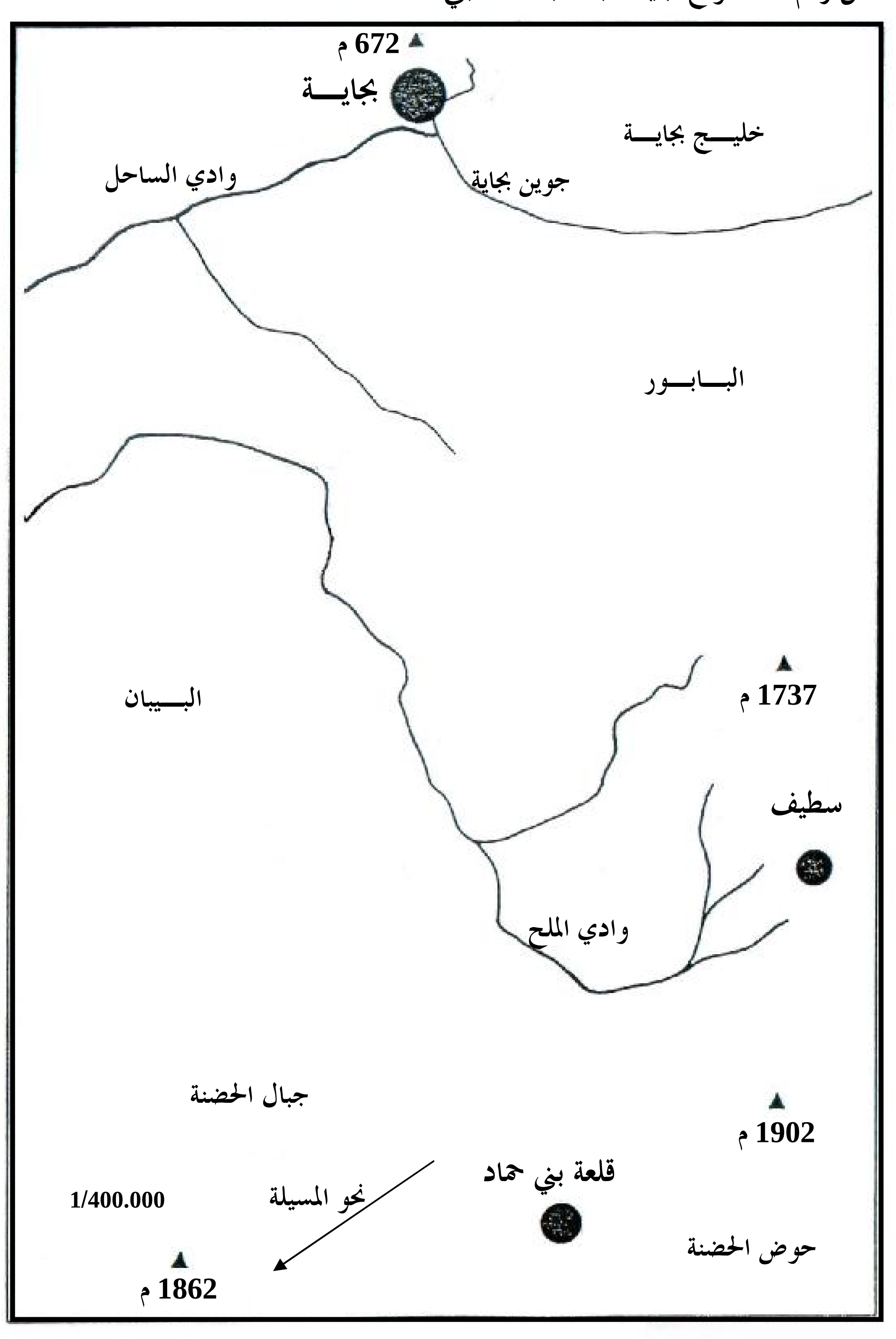
الملحق رقم 23: الانتشار الهلالي السليمي في المغرب الأوسط على عهد بني حماد.[1]



---

(1)- محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظلِّ صنهاجة، ص 135.

الملحق رقم 24: موقع بجايـــة بالنسبة لقلعة بني حماد. [1]



(1)- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص 57.

الفهارس

1. فهرس الآيات القرآنية
2. فهرس الأعلام
3. فهرس الجماعات و الشعوب و القبائل
4. فهرس الأماكن و البلدان
5. فهرس الفرق و المذاهب و الأديان
6. فهرس الملاحق
7. فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	نص الآية	الصفحة
التوبة	109	[illegible]	32
الكهف	19	[illegible]	32
النحل	80	[illegible]	33
هود	100	[illegible]	33
القصص	58	[illegible]	33

فهرس الأعلام

- أ -

- أبا حميد بن دواس: 109، 130.
- أبا قبيصة: 258،259.
- إبراهيم بن أبي الأغلب: 11.
- إبراهيم بن يوسف: 31.
- ابن أبي العافية: 136.
- ابن أبي دينار: 25، 172.
- ابن الأثير: 02، 04، 07، 25، 27، 145، 151، 164، 258.
- ابن الرامي البناء: 42.
- ابن حزم: 24.
- ابن حوشب: 03، 04.
- ابن حوقل: 157، 135، 138، 194، 219.
- ابن خلدون: 08، 09، 11،15، 17، 23، 24، 25، 27، 35، 92، 93، 95، 97، 98، 102، 121، 130، 131، 132، 140، 145، 147، 155، 199، 201، 202، 204، 205، 206، 207، 208، 210، 211، 112، 213، 216، 222، 223، 224، 225، 237، 240، 241، 245، 248، 253، 282، 287، 288، 289.
- ابن عبد الحكم: 58.
- ابن عذاري: 05، 18، 24، 25، 27، 59، 62، 75، 81، 85، 108، 117، 130، 131، 132، 137، 143، 147، 154، 163، 173، 174، 178، 179، 180، 185، 189، 203، 205، 236، 248، 255، 256.
- أبو الفدا: 65.
- أبو الفرج: 17.
- أبو بكر بن علي البيدق: 255.
- أبو زكرياء بن أبي بكر: 73.
- أبو سفيان: 02، 03، 05.
- أبو عبد الله الأحول: 08.
- أبو عبد الله الشيعي: 04، 05 ، 08، 09، 10، 11، 81، 105، 107، 108، 114، 117، 127، 130، 131، 210.
- أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي: 120، 150.
- أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري: 128، 136، 141، 142، 143، 144،145، 147،.
- أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري: 72، 96.
- أبي المهاجر دينار: 67.
- الإدريسي: 68، 71، 77، 78، 80، 84، 90، 97، 171، 219، 220، 221، 222، 225، 230، 243.
- التجاني: 186، 196، 197، 259.
- الحلواني: 02، 03.
- الداعي إدريس: 117، 146، 150، 151، 153،.

- الدباغ: 182.
- الدرجيني: 109، 126، 153.
- الرقيق القيرواني: 69.
- العزيز الفاطمي: 22.
- الفرسطائي: 43، 44.
- القائد بن حماد: 236، 245.
- القائم بأمر الله: 25، 119، 155.
- القاضي النعمان: 02، 03، 04، 05، 06، 07، 09، 13، 63، 143، 149.
- الماوردي: 40.
- المستنصر الفاطمي: 27، 171، 176، 184.
- المعز ابن زيري ابن عطية: 221.
- المعز بن باديس: 15، 120، 121، 189، 190.
- المعز لدين الله الفاطمي: 16، 133، 140.
- المقدسي: 60.
- المقريزي: 06، 140، 145.
- المنصور بن الناصر: 274.
- المنصور بن بلكين: 17، 120.
- الناصر بن علناس: 210، 212، 213، 214، 215، 230، 238، 243، 245، 246، 248.
- النويري: 24، 61، 159، 163، 174، 188، 201، 204، 205، 214، 237.
- الوسياني: 246.
- اليازوري: 26.
- اليسع بن مدرار: 12، 13، 14، 105، 115.
- اليقظان بن أبي اليقظان: 104، 106، 107، 108.

- ب -

- باديس بن المنصور: 17، 19.
- بحاز إبراهيم: 79، 112.
- البكري: 63، 64، 66، 70، 71، 79، 82، 84، 87، 88، 91، 93، 108، 109، 115، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 137، 138، 163، 164، 165، 194، 236.
- بلكين بن زيري: 15، 89، 90، 121.

- ت -

- تميم بن المعز: 20، 181، 186، 201، 203،220 ، 204.

- ج -

- جعفر الصادق: 02، 03.
- جوهر الصقلي: 15، 139،140، 141.

- ح -

- حسَّان بن النعمان: 65.
- حماد بن بلكين: 17، 18، 19، 88، 99.

- خ -

- د -

- دوسرا: 106، 111، 124.

- ر -

- رشيد بورويبة: 204.

- روبار برانشفيك: 232 ،233.
- روجي إدريس: 26، 232.
- روجي لوتورنو: 45.
- ز -
- زكريا بن محمد القزويني: 40، 51.
- زيادة الله: 08، 11.
- زيري بن مناد: 87، 88، 90.
- س -
- سحنون: 42.
- ع -
- عبد الرحمن الجيلالي: 240، 248.
- عبد الفتاح الغنيمي: 03، 235، 240.
- عبد الكريم جودت يوسف: 75، 77.
- عبد الله بن سعد بن أبي سرح: 55.
- عبد المؤمن الموحدي: 254، 255.
- عبد الواحد المراكشي: 172، 178، 234.
- عبيد الله المهدي: 12، 13، 14، 22، 111، 117، 118، 119، 120، 125، 126، 127، 130، 142، 143.
- عثمان الكعاك: 104، 227، 228.
- عقبة بن نافع القهري: 58، 59، 60 ،61، 62، 63.
- علي بن يحي: 20.
- عمار بن علي بن الحسن: 151.
- عمر بن الخطاب –رضي الله عنه-: 24.
- ف -
- فضل بن حبوس: 186.
- ل -
- لويس ممفورد: 46.
- ليوبولد تورس بالباس: 48.
- م -
- مؤنس بن يحي المرداسي: 173، 185.
- مبارك الميلي: 226، 228، 230، 248.
- محمد الزهري: 197.
- محمد العبدري: 197.
- محمد بن أبي عون: 93.
- محمد بن الأشعت: 70.
- محمد بن الخير:121.
- محمد بن خزر الزناتي: 132.
- مسعود مزهودي: 246، 247.
- مصالة بن حبوس: 119، 120.
- معاوية بن أبي سفيان: 58.
- معاوية بن خديج: 58.
- منصور إسماعيل: 14، 152، 153.
- موسى بن محمد الكتامي: 119.
- موسى لقبال: 04، 87، 120، 121، 123، 125، 127، 130.
- ميسور الفتى: 135، 136.
- هـ -
- هشام جعيط: 30.
- ي -

- ياقوت الحموي: 62، 68، 84، 89، 97، 103، 104، 214.
- يحي بن العزيز: 257.
- يحي بن تميم: 21.
- يطوفت: 16.
- يعقوب بن أفلح الرستمي: 124.
- يعلى بن محمد اليفرني: 133، 134، 139.
- يوسف الوراق: 87.
- يوسف بن تاشفين: 238، 239 ،240.
- يوسف بن حماد: 236، 237، 242.

فهرس الجماعات و الشعوب و القبائل

- أ -

- الأثبج: 190، 201، 203، 241، 244.
- الأغلبية: 02، 09، 12.
- الأفارقة: 70.
- الأموية: 15، 130، 139، 140 ،167.
- البربر: 03، 70، 73، 74، 80، 99، 147، 150، 151، 221، 228.
- الهلالية: 20، 21، 229 ،230، 231، 232، 233، 234، 243، 250، 261.
- الحمادية: 22، 91، 92، 169، 205، 206، 207، 208، 215، 218، 225، 230، 231، 232، 234، 235، 236، 238، 242، 244، 245، 247، 248، 249، 258.
- الرستمية: 02، 74، 77، 98، 104، 107، 108، 109، 111، 114، 115، 123، 124، 142.
- الزيرية: 15، 16، 18، 20، 169، 170، 176، 190، 191، 193، 201، 202، 232، 234.
- السليمية: 20، 22، 176.
- العبيديين: 02.
- العجم: 70.
- العجيسيون: 133.
- العرب: 21، 24، 27، 58، 70، 94، 96، 168، 208، 219، 221، 223، 224، 226، 227، 229، 230، 234، 238، 248.
- الفاطمية: 06، 24، 26، 80، 81، 85، 87، 103، 111، 120، 123، 124، 127، 128، 129، 132، 136، 139، 141، 142، 147، 155، 156، 157، 158، 249.
- المرابطين: 235، 239، 240، 241، 243، 255.
- المستشرقون: 45، 223.
- الموحدون: 259 ،260.
- النورمان: 21، 191، 242.

- الهلاليين: 192، 193، 197، 199، 201، 203، 204، 209، 212، 213، 215، 218، 222، 224، 227، 234.

- ب -

- بنو العباس: 03، 26.
- بنو سليم: 23، 223.
- بنو هلال: 22، 23، 173، 176، 188، 211، 223، 228، 234.
- بني توجين: 95، 245، 250.
- بني رستم: 67، 72، 97، 97، 115، 122، 156.
- بني عدي: 94، 243 ،245.
- بني واركلا: 104، 274.
- بني ومانو: 239.
- بني مسقن: 129، 134. -

- ر -

- رياح: 173، 175، 190، 201، 202، 203، 206، 241.

- ز -

- زغب: 178.
- زغبة: 27، 190، 201، 202، 241.
- زناتة: 16، 17، 19، 21، 86، 87، 88، 94، 96، 131، 138، 139، 140، 159، 160، 167، 191، 199، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 245، 247، 248، 249.

- ص -

- صنهاجة: 57، 86، 87، 167، 177، 178، 241، 246، 256، 257.
- عدي: 190.
- عوف: 171.

- ق -

- قبيلة سدراتة: 97.
- قريش: 70.

- ل -

- لماية: 72، 73.
- لواتة: 73، 257.

- م -

- مغراوة: 128، 129، 244.

- ن -

- نفزاوة: 73.

- و -

- وزداجة: 129.

فهرس الأماكن و البلدان

- أ -

- أجدابية: 171.
- أذنة: 68، 69، 135، 136، 137، 138.
- الأربس: 11، 12، 107، 113، 145.
- الإسكندرية: 56، 172.
- أشير: 17، 19، 85، 86، 87، 88، 193، 235، 236، 237، 238، 240، 241، 242، 243.
- إفريقية: 02، 03، 05، 18، 27، 55، 57، 58، 62، 65، 68، 84، 90، 94، 147، 150، 153، 154، 155، 161، 171، 189، 195، 197، 198، 211، 214، 228، 233، 234، 235.
- إفكان: 103، 138، 139، 140، 141.
- الأندلس: 16، 66، 140، 141، 142، 167، 194، 221، 255، 256.
- الأوراس: 126.
- إيكجان: 07، 08، 80، 81، 103.
- البصرة: 39.
- البيت المقدس: 148.
- الحجاز: 23، 91.
- الزاب: 09، 10، 19، 72، 96، 97، 154، 155، 156، 199، 226، 228، 244.
- الشام: 23، 91.
- الطائف: 24.
- القاهرة: 16، 162، 163، 164، 165، 169.
- القيروان: 03، 05، 12، 18، 20، 21، 24، 25، 27، 42، 53، 55، 56، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 69، 70، 71، 72، 94، 99، 171، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 181، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 201، 202، 206.
- المدينة المنورة: 34.
- المسيلة: 19، 68،74، 71، 200، 209، 210، 211، 212، 219، 220، 221، 224، 243.
- المغرب الأدنى: 16، 18، 21، 25، 71، 80، 90، 99، 135، 149، 154، 155، 156، 161، 167، 168، 169، 170، 171، 173، 175، 176، 181، 183، 184، 188، 189، 190، 191، 194، 195، 200، 202، 204، 226، 228، 231،.
- المغرب الأقصى: 15، 16، 87، 120، 194.
- المغرب الأوسط: 07، 16، 17، 20، 21، 22، 27، 99، 101، 102، 103، 107، 128، 139، 141، 156، 157، 158، 160، 161، 169، 170، 199، 200،

206، 209، 210، 212، 215، 216، 218، 219، 221، 222، 224، 226، 228، 230، 231، 233، 235، 238، 242، 250.

- المنصورية: 18، 55، 154، 166، 178، 185.
- المهدية: 13، 21، 22، 53، 81، 82، 83، 154، 155، 156، 181، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 190، 192، 193، 196، 198، 202.
- اليمن: 03، 04.

- ب -

- باجة: 27، 156، 187، 226، 235.
- بجاية: 22، 56، 91، 92، 256، 257، 259، 260.
- باغاية: 10، 68، 158، 159، 160.
- برج الغدير: 90.
- برقة: 27، 171، 172، 173.
- بسكرة: 121، 244.
- بلاد السودان: 122.
- بلزمة: 05، 09، 10، 113، 114.
- بني سكتان: 09.
- بونة: 91، 257.

- ت -

- تازروت: 07.
- تاورغة: 55.
- تبسة: 11، 145.
- تلمسان: 159، 160، 239، 240، 241.
- تونس: 20، 27، 62، 58، 146، 151، 152.
- تيجس: 10، 19.
- تيفاش: 10، 11.
- تيهرت: 16، 17، 19، 143، 121، 73، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 154، 156، 158، 159، 160، 226، 249، 250.

- ج -

- جزائر بني مزغنة: 91، 240.
- حمزة: 87.
- حيدران: 169، 177، 178، 200، 206، 228.

- د -

- درب المقلى: 24.
- رقادة: 07، 08، 10، 12، 13، 65، 66، 81، 105، 106، 107، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 117، 195، 196.

- س -

- سبيبة: 21، 145، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 210، 212.
- سجلماسة: 12، 13، 14، 105، 106، 107، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117.
- سدراتة: 97، 98، 99، 250، 251، 252، 253، 254.
- سطيف: 05، 07، 164، 165.
- سلا: 255.

- سلمية: 03، 12.
- سوسة: 20، 21، 149، 152.

- ص -

- صبرة: 66، 179، 186، 189، 234.
- صفاقس: 20.

- ط -

- طبنة: 09، 19، 73 ،67، 69، 70، 71، 74، 210، 211، 212.
- طرابلس: 22، 27، 28، 186، 187، 188، 197.

- ف -

- فاس: 221.
- فج الأخيار: 08.

- ق -

- قابس: 20، 21، 27، 153، 172.
- قرطبة: 39، 46، 66.
- قسطيلية: 11.
- قسنطينة: 19، 27، 49، 66، 79، 205، 206، 257.
- قصر الإفريقي: 19.
- قفصة: 11، 190.
- قلعة بني حماد: 88، 89، 91، 92، 194، 195، 200.
- قلعة دار ملول: 10.
- قلعة درجين: 245، 246، 247.

- ك -

- كتامة: 02، 04، 05، 06، 70، 158، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166.
- مجانة: 10، 145، 156.
- مسكيانة: 11.
- مصر: 05، 15، 16، 18، 23، 24، 156، 157، 160، 161، 162، 167.
- مقرة: 68.
- مكة: 34.
- ميلة: 05، 07، 08، 09، 66، 67، 162، 163، 164، 165.

- و -

- وادي ميزاب: 253.
- وارجلان: 93، 94، 95. 96، 97، 98، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256.
- وغلان: 249، 250، 252.
- وهران: 92، 93، 129، 130، 131، 132، 133، 134.

فهرس الفرق و المذاهب و الأديان

- الإباضية: 03،95، 99، 104، 142، 154.
- الخوارج: 03.
- الرافضة: 25، 148.
- السنَّة: 25، 143، 144، 148.
- الشيعة: 02، 04، 07، 13، 14، 18، 24، 25، 81، 97، 113، 144، 148، 151، 153، 155.
- الصفرية: 03، 106.
- العلوية: 25.
- القرامطة: 23.
- المالكية: 24، 144، 148.
- النصارى: 59، 60، 190.
- الواصلية: 106.

فهرس الملاحق

الملحق رقم 01: حدود الدولة الفاطمية في المغرب.................................... 270

الملحق رقم 02: التوسع الفاطمي من قاعدة إيكجان في إقليم الزاب 271

الملحق رقم 03: المدن التي افتتحها أبو عبد الله الشِّيعي تمهيدًا لقيام الدولة الفاطمية 272

الملحق رقم 04: توسعات أبي عبد الله الشيعي حتى سقوط رقادة 273

الملحق رقم 05: شجرة نسب بني حماد 274

الملحق رقم 06: إقليم دولة بني حماد حاليا 275

الملحق رقم 07: المغرب الإسلامي في منتصف القرن 05 هـ / 11 م 276

الملحق رقم 08: حواضر المغرب الإسلامي في القرنين 03 - 04هـ/ 09- 10م 277

الملحق رقم 09: موقع مدينة القيروان بالنسبة لمدن المغرب 278

الملحق رقم 10: صورة لجبل إيكجان بمنطقة بني عزيز ولاية سطيف 279

الملحق رقم 11: صورة لبقايا سور مدينة إيكجان في عهد دولة الفاطميين 280

الملحق رقم 12: صورة لجبل المعاضيد الذي بنيت عليه مدينة القلعة 281

الملحق رقم 13: مخطط لمنارة جامع القلعة 282

الملحق رقم 14: صورة لمنارة جامع قلعة بني حماد كما تشاهد اليوم 283

الملحق رقم 15: أهم قبائل فرع البرانس 284

الملحق رقم 16: موضع مسجد الإمام الرستمي يعقوب بن أفلح
بن عبد الوهاب 285
الملحق رقم 17: آثار متبقية من قنوات للمياه في عهد الدولة الرستمية...................... 286
الملحق رقم 18: المناطق التي شملتها أحداث ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد 287
الملحق رقم 19: مطاردة المنصور لأبي يزيد 288
الملحق رقم 20: أعمدة مسجد أبو مهاجر دينار بمدينة ميلة 289
الملحق رقم 21: صورة لأحد الجدران الخارجية لمسجد أبي المهاجر دينار
بمدينة ميلة. 290
الملحق رقم 22: توزيع أهم بطون صنهاجة بالمغرب الأوسط 291
الملحق رقم 23: الانتشار الهلالي السليمي في المغرب الأوسط
على عهد بني حماد 292
الملحق رقم 24: موقع بجاية الحصين 293

فهرس الموضوعات

مقدمة

الفصل التمهيدي: الأوضاع السياسية للمغرب الأوسط و الأدنى من قبيل قيام الدولة الفاطمية إلى سقوط دولة بني حماد

I- الوجود الفاطمي في بلاد المغرب 02

1- بوادر ظهور التشيع في أرض المغرب 02

2- قدوم صاحب الدعوة الشيعية 04

3- مظاهر التطور العسكري للشيعة في المغرب 07

أ- دخول مدينة ميلة 08

ب- دخول مدينة سطيف 08

ج- دخول مدينة طبنة 09

د- دخول مدينة بلزمة 09

هـ- دخول مدينة تيفاش 10

و- وقعة الأربس 11

ز- الحملة على سجلماسة 12

4- قيام الكيان السياسي للشيعة بالمغرب 13

أ- خلافة عبيد الله المهدي (297-322هـ/909-934م) 13

ب- خلافة القائم بأمر الله (322-334هـ/934-945م) 14

ج- خلافة المنصور إسماعيل (334-341هـ/945-952م) 14

د- خلافة المعز لدين الله (341-362هـ/952-972م) 15

II- الحكم الصنهاجي للمغرب الأوسط و الأدنى 15

1- قيام الدولة الزيرية 15

2- الدولة الزيرية في ظلّ النفوذ الفاطمي 16

3- الصراع بين الزيريين و قيام دولة بني حماد 18
4- دولة بني زيري بعد القطيعة مع الفاطميين 19
5- بنو حماد بين العاصمة الأولى و الثانية 21
III-**الهجرة الهلالية السليمية إلى أرض المغرب الأوسط و الأدنى** 22
1- بنوهلال و بنو سليم (مفاهيم و دلالات) 22
أ- بنو هلال 22
ب- بنو سليم 23
2- أسباب الهجرة 24
أ- الرأي الأول 24
ب- الرأي الثاني 26
3- عمليات الانتقال 26
4- مواطن الاستقرار 27

الفصل الأول: المدينة الإسلامية بالمغرب الأوسط و الأدنى (المفاهيم، النشأة، التطور)

I-**المفاهيم الإسلامية للمدينة** 30
1- المفهوم اللغوي للمدينة 30
2- المفهوم التاريخي للمدينة 35
- مفهوم ابن خلدون للمدينة 35
أولا: العمران البدوي 35
ثانيا: العمران الحضري 36
3- مفهوم الجغرافي للمدينة 37
أولا: الفهم الجغرافي 38
ثانيا: رأي الفقهاء في المدينة 38
ثالثا: الرأي المتداول بين الناس 38
رابعا: وجهة نظر اللغويين 39

4- المدينة في نظر الفقهاء 40

II- **المستشرقون والمدينة الإسلامية** 44

III- **شروط اختطاط المدن** 50

أولا: الحماية من المضار 50

ثانيا: جلب المنافع 51

IV- **نشأة المدن وتطورها (نماذج)** 53

1- المدينة الحصن أو المعسكر 55

أ- مدينة القيروان 57

ب- مدينة ميلة 66

ج- أذنة قاعدة الزاب 68

د- مدينة طبنة 69

2- المدينة الحاضرة (تيهرت) 71

3- المدينة الدعوة 79

أ- مدينة إيكجان 79

ب- مدينة المهدية 81

ج – مدينة المسيلة 83

4- المدينة الصنهاجية 85

أ- مدينة أشير 85

ب- مدينة القلعة (قلعة بني حماد) 88

ج- مدينة بجاية 91

5- المدينة الساحلية (وهران) 92

6- المدينة الصحراوية 93

أ-مدينة وارجلان (ورقلة) 93

ب- مدينة سدراتة 97

الفصل الثاني: التخريب الفاطمي و الزيري

I- **التخريب الفاطمي** 102

1- خراب مدينة تيهرت 103

أ- حملة أبي عبد الله الشِّيعي على تيهرت و خراب المدينة 105

ب- حرق مكتبة المعصومة بتيهرت 112

ج- الصراع الشيعي الزناتي و خراب تيهرت 116

2- خراب مدينة وارجلان 123

3- خراب مدينة وهران 128

أ- التخريب الأول 128

ب- التخريب الثاني لمدينة وهران 132

4- خراب مدينة أذنة 133

5- خراب مدينة إمارة إفكان 138

6- ثورة أبي يزيد ضد الفاطميين و خراب المدن 141

أ- أسباب الثورة 142

ب- المدن الَّتي خرَّبها في طريقه إلى القيروان 144

- مدينة باغاية 144
- مدينة تبسة و مجانة 145
- مدينة سبيبة و الأربس 145
- مدينة باجة 145

ج-خراب القيروان 146

د-خراب مدينة سوسة 146

هـ-حصار مدينة المهدية 146

و-خراب مدينة تونس 151

ز-حصار مدينة سوسة 152

ح-نتائج تخريب المدن من طرف أبي يزيد 153
II-**التخريب الزيري**... 152
1- خراب مدينة تيهرت 158
2- خراب مدينة ميلة و منطقة كتامة 160

الفصل الثالث: التخريب الهلالي و الحمادي

I. **التخريب الهلالي**... 169
أولا: مدن المغرب الأدنى 171
1. خراب مدينة القيروان 171
أ- الزحف الهلالي نحو مدينة القيروان و تخريب المدن 171
ب- هزيمة حيدران و تخريب مدينة القيروان 176
ج- العوامل المساعدة على تخريب مدينة القيروان 182
2. حصار مدينة المهدية و خراب أرباضها 186
3. نتائج التخريب.. 187
أ- الجانب العمراني 188
ب- الجانب السياسي 190
ج- الجانب الاقتصادي و الاجتماعي 191
د- الجانب الثقافي 193
ثانيا: مدن المغرب الأوسط 198
1. موقعة سبيبة و خراب مدينة القلعة 200
أ- الأسباب 201
ب- موقعة سبيبة **457هـ/1065**م 202
ج- تخريب القلعة 204
د- التخريب الثاني للقلعة 206

2. خراب مدينتي طبنة و المسيلة 209
أ- الأسباب 210
ب- التخريب 210
3. نتائج التخريب 212
أ- السياسية 212
ب- الاقتصادية و الاجتماعية 213
ج- الثقافية 216
ثالثا: آراء المؤرخين حول التخريب الهلالي للمدن 222
1- رأي ابن خلدون 222
2- الكتابات العربية الحديثة بين الوصف و الدفاع 225
3- آراء المستشرقين 231
II. **التخريب الحمادي**... 235
1. خراب مدينة أشير 235
أ- التخريب الأول للمدينة 235
ب- التخريب الثاني للمدينة 238
2. خراب مدينة وارجلان و قرية وغلان (وعلان) 243
أ- وغلان 244
ب- وارجلان 244
ج- النتائج 249
3. خراب مدينة سدراتة 250
أ- الأسباب 251
ب- تخريب المدينة 251
ج- نتائج التخريب 251
III. **خراب القلعة على يد الموحدين** 254
أ- الظروف 254

ب- تخريب القلعة 254
ج- النتائج 258
الخاتمة 262
الملاحق 269
قائمة المصادر و المراجع 295

الفهارس

1. فهرس الآيات القرآنية 338
2. فهرس الأعلام 339
3. فهرس الجماعات و الشعوب و القبائل 342
4. فهرس الأماكن و البلدان 344
5. فهرس الفرق و المذاهب و الأديان 346
6. فهرس الملاحق 346
7. فهرس الموضوعات 348

